سلسلة الكتب المترجمة 2

طبعة رقمية

أسرار الصحراء الليبية

تأليف

دبليو جيه هاردينج كينج



مؤسسة

Libyan Word Bridge

chicago, Illinois

2025

LIBYAN
WORD
BRIDGE
Translation

سلسلة الكتب المترجمة 2

أسرار الصحراء الليبية

تأليف

دبليو جيه هاردينج كينج

الإشراف العام

توفيق عيّاد الشقروني

مؤسسة

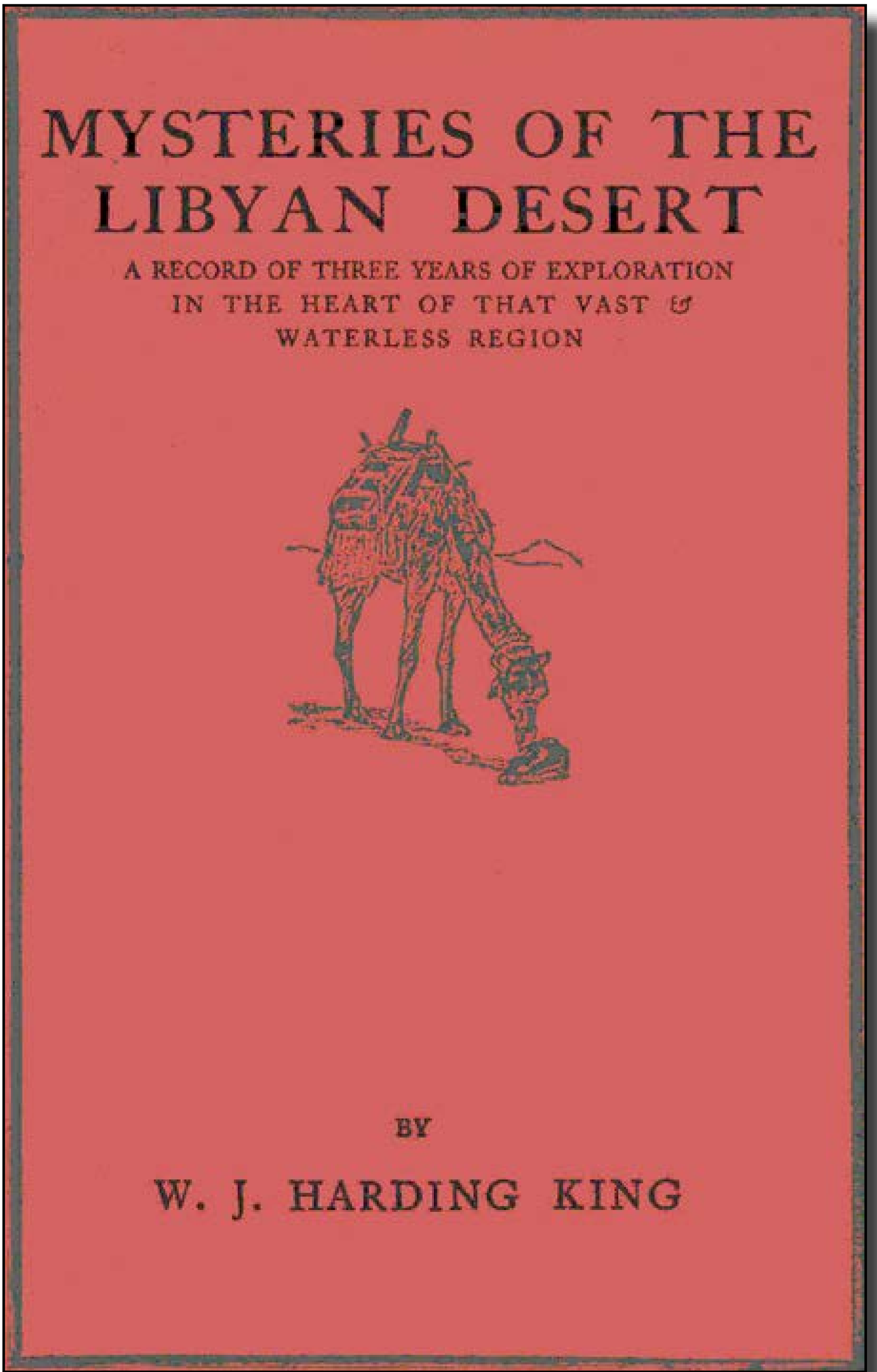
Libyan Word Bridge

chicago, Illinois

2025

سلسلة الكتب المترجمة (2)
العنوان الاصل باللغة الانكليزية:
MYSTERIES OF THE LIBYAN DESERT
المؤلف: W. J. HARDING KING, F.R.G.S.
الترجمة: تمت بواسطة الذكاء الاصطناعي مع التعديلات اللازمة.
الناشر: مؤسسة Libyan Word Bridge، chicago, Illinois،2025W:
مصدر الكتاب:
The Project Gutenberg eBookTitle: Mysteries of the Libyan Desert
a record of three years of exploration in the
heart of that vast & waterless region
Author: W. J. Harding King
[Release date: November 16, 2023 [eBook #72141
Language: English
Original publication: London: Seeley, Service & Co
Credits: Galo Flordelis (This file was produced from imag-
(es generously made available by the HathiTrust Digital Library

غلاف الكتاب مصدر الترجمة



فهرس المحتويات

مقدمة المؤلف..15

الفصل الأول: أسرار الصحراء الليبية.......................................19

الفصل الثاني..27

الفصل الثالث...35

الفصل الرابع 44

الفصل الخامس..60

الفصل السادس 75

الفصل السابع 80

الفصل الثامن 89

الفصل التاسع 99

الفصل العاشر.. 104

الفصل الحادي عشر.. 117

الفصل الثاني عشر... 124

الفصل الثالث عشر... 131

الفصل الرابع عشر.. 136

الفصل الخامس عشر 139

الفصل السادس عشر... 145
الفصل السابع عشر... 150
الفصل الثامن عشر... 158
الفصل التاسع عشر... 168
الفصل العشرون 178
الفصل الحادي والعشرون... 182
الفصل الثاني والعشرون... 193
الفصل الثالث والعشرون 204
الفصل الرابع والعشرون... 215
الفصل الخامس والعشرون 224
الفصل السادس والعشرون... 229
الفصل السابع والعشرون: التاريخ الطبيعي... 261
الملحق الأول: جغرافية ورياح الصحراء الليبية 273
ملحوظة:... 304
الملحق الثاني: الحشرات التي تم جمعها في الصحراء الليبية.............................307
الملحق الثالث: نقوش صخرية من الصحراء الليبية...................................... 313
الصحراء الليبية... 324
الفهرس والمفردات 325
الحواشي:... 345

كلمة الناشر

من قلب شغفنا بالمعرفة، ورغبتنا الصادقة في بناء جسور متينة بين الثقافات، انطلقت مؤسسة "Libyan Word Bridge" لتكون أكثر من مجرد دار نشر، بل لتكون منصة ثقافية حقيقية، تتيح للقارئ الولوج إلى عوالم المعرفة الغربية، وتشاركه رحلة استكشاف الآفاق الفكرية والأدبية المتنوعة. نسعى جاهدين إلى سد الفجوة المعرفية، وإثراء المحتوى العربي بمواد علمية وأدبية ذات قيمة حقيقية، مستفيدين من الإمكانات الهائلة التي يوفرها التطور المتسارع في مجال الترجمة الرقمية، ومن توفر العديد من الكتب التي أصبحت خارج نطاق حقوق الملكية الفكرية، لتصبح متاحة للجميع دون قيود أو حواجز.

نعلم جيدًا أن الاعتماد على الترجمة الإلكترونية، على الرغم من إيجابياته الكثيرة في الوصول إلى كم هائل من النصوص، لا يزال يشكل تحديًا حقيقيًا يواجهنا بمسؤولية كبيرة. فما زالت هذه التقنية في طور التطور، وقد تعجز أحيانًا عن نقل المعنى بدقة متناهية، أو التعبير عن جماليات اللغة الأصلية، أو نقل المشاعر والأحاسيس التي تحملها الكلمات. إلا أننا نرى في وضوح هذه الترجمة وقابليتها للفهم، دافعًا قويًا للاستمرار في هذه التجربة، فهدفنا الأسمى ليس مجرد نقل الكلمات، بل إتاحة المعرفة وتعميم الفائدة منها، وجعلها متاحة لأكبر شريحة ممكنة من القراء.

ونحن على ثقة بأن القارئ، بوعيه وفطنته، سيقدر قيمة هذه الجهود، وسيتجاوز أي قصور لغوي أو أسلوبي قد يظهر في بعض النصوص، وسيتعامل معها بعقل نقدي واعٍ، مدركاً أن الترجمة، مهما بلغت دقتها، تبقى في النهاية وجهة نظر بشرية، تحمل معها جزءاً من شخصية المترجم وخلفيته الثقافية.

إننا إذ نقدم هذه الترجمات، فإننا نضع نصب أعيننا هدفاً آخر لا يقل أهمية، وهو أن تكون ترجماتنا محايدة وموضوعية قدر الإمكان، وأن تكون بمثابة مرآة تعكس بصدق رؤية المؤلف الأصلية، لا أن تكون صدى لأهوائنا أو تحيزاتنا الشخصية. فكم من مرة

رأينا كيف أن التوجه الأيديولوجي للممولين، أو الخلفيات الفكرية للمترجمين، أو حتى المصالح التجارية، قد أثرت على طبيعة الترجمة، وشوهت بعض معانيها، أو حرفتها عن مقاصدها الأصلية. هذه الاعتبارات مجتمعة، تخلق في كثير من الأحيان قيوداً غير مرئية، قد تُنتج ترجمات مُوجّهة أو منقوصة، لا تعكس بالضرورة وجهة نظر المؤلف بشكل كامل وصادق.

لذلك، فإننا في مؤسستنا نتعهد بأن تكون ترجماتنا جسرًا آمنًا للمعرفة، لا يشوبه أي تحيز أو تلاعب، وأن يكون هدفنا الأساسي هو خدمة القارئ وتزويده بالمعلومة الصحيحة، دون توجيه أو فرض رؤى مسبقة. سنحرص على تقديم النصوص المترجمة بأمانة وموضوعية، تاركين للقارئ حرية الفهم والتفسير، وتكوين القناعات الخاصة به، بناءً على وعيه وفهمه الخاص. وسوف يقتصر تدخلنا على إضافة بعض الشروح أو المعلومات التي نرى أنها ضرورية لتقريب القارئ من المعنى المقصود، أو لتوضيح سياق النص، أو لإبراز بعض الجوانب الثقافية التي قد لا تكون مألوفة لديه، مع الحرص على عدم فرض أي رؤية أو رأي شخصي.

وبالمقابل، فإننا نؤكد أن تقديمنا لهذه الكتب لا يعني بالضرورة تبنينا أو موافقتنا على كل ما ورد فيها من آراء واستنتاجات، أو أننا نؤيد المؤلف في كل ما ذهب إليه من أفكار أو تصورات. قد نختلف مع المؤلف في بعض القضايا، أو نرى أن بعض أوصافه غير لائقة أو غير مقبولة، ولكننا نؤمن بحق القارئ في أن يرى النص كما هو، دون تعديل أو تلطيف، حتى يكون رأيه عن الكتّاب والمؤلف مبنياً على فهم كامل ووعي تام، وحتى لا نكون نحن الحكام على قيمة النص أو مصداقيته. وحتى نكون أكثر صراحة معكم.

إننا نعترف أن الترجمة هي عمل بشري، وأن المترجمين بشر معرضون للخطأ والسهو، وأن بعض النصوص قد لا تكون دقيقةً ، ولكننا في الوقت نفسه نؤكد أننا نبذل قصارى جهدنا لتقديم ترجمات عالية الجودة، وأننا نعتبر القارئ شريكًا لنا في هذه المسؤولية، ونرحب بأي ملاحظات أو تصحيحات منه، بل نشجعه على ذلك.

ختامًا، لا يفوتنا أن ننبه القارئ إلى أن بعض المعلومات والاستنتاجات الواردة في هذه الكتب قد لا تعكس الحقائق العلمية أو التاريخية الراهنة، نظرًا للتطور المستمر للمعرفة والبحث العلمي. ونحن على ثقة بأن القارئ الواعي سيأخذ هذه النقطة في الاعتبار، وسيتعامل مع هذه الكتب بمنظور نقدي، وبما يخدم إثراء معارفه وتوسيع

آفاقه. ففي نهاية المطاف، نؤمن بأن الترجمة هي رحلة مستمرة، لا تنتهي عند الوصول إلى الكلمات، بل تتعداها إلى فهم الأفكار، وتحقيق التواصل الحقيقي بين الثقافات، وتكوين رؤية أكثر شمولاً ووعياً للعالم من حولنا. وهي أيضاً مسؤولية عظيمة، نحملها على عاتقنا بكل ما أوتينا من جهد وإخلاص.

الناشر

2025م

ملاحظات:

1. فهرس المحتويات يشير الى صفحات هذه النسخة المترجمة.
2. الارقام بين القوسين المركنين تعبر عن أرقام صفحات الاصل.
3. الأرقام في فهرس الأسماء والأماكن تشير الى صفحات الاصل.
4. لا توجد حواشي سفلية في نص الكتاب. فقط في الملحق توجد عدد30 حاشية.
5. بعض الاسماء الواردة في الكتاب تحتاج مزيد من الضبط.

أسرار الصحراء الليبية

العنوان : أسرار الصحراء الليبية

سجل لثلاث سنوات من الاستكشاف في قلب تلك المنطقة الشاسعة الخالية من المياه

المؤلف : دبليو جيه هاردينج كينج

تاريخ الإصدار : 16 نوفمبر 2023 [الكتاب الإلكتروني رقم 72141]

اللغة : الانكليزية

النشر الأصلي : لندن: سيلي، سيرفيس آند كو

مصدر الصورة : Galo Flordelis (تم إنتاج هذا الملف من الصور التي تم توفيرها بسخاء بواسطة مكتبة HathiTrust الرقمية)

أسرار الصحراء الليبية

سجل لثلاث سنوات من الاستكشاف في قلب تلك المنطقة الشاسعة الخالية من المياه

بقلم دبليو. جيه. هاردينج كينج، زميل الجمعية الجغرافية الملكية، الحائز على جائزة جيل التذكارية في عام 1919 من الجمعية الجغرافية الملكية، ومؤلف كتاب «البحث عن التوارق المقنعين»، وما إلى ذلك.

مع 49 صورة توضيحية و3 خرائط

لندن: سيلي، سيرفيس آند كو المحدودة 196 شارع شافتسبري 1925

«في أرض تغطيها الرمال، تكون الطرق المؤدية إلى أبوابها غير مطروقة.

لقد انتهت أيام جمع من الناس الذين أحسن الله إليهم مصائرهم،

حتى سكروا وأصابهم الجنون وذهبوا إلى سقوطهم،

«ومن هذا حديث مكتوب ولكن الله وحده يعلم»

كيبلينج - مدينة النحاس.

تم طباعته في بريطانيا العظمى في مطبعة ماي فلاور، بليموث. ويليام بريندون آند صن، المحدودة.

أسرار الصحراء الليبية

تآليف

دبليو جيه هاردينج كينج

مقدمة المؤلف

ليس من السهل تلخيص حصيلة ثلاث سنوات من العمل في منطقة غير مستكشفة نهائيا من العالم، مثل قلب الصحراء الليبية، في نطاق محدود. ومع ذلك، فإن معظم النتائج العلمية التي توصلت إليها خلال تلك الفترة قد نُشرت بالفعل [9] في مجلات الجمعية الجغرافية الملكية، أو غيرها من الهيئات العلمية، لذا لم تكن هناك ضرورة لإعادة نشرها هنا. كما أن العديد من الرحلات التي قمت بها في الصحراء كانت إما قد سلكت مسارات سبق تناولها، أو لم تكن ذات أهمية كبيرة تستحق الوصف، لذا لم أرَ ضرورة لذكرها. من ناحية أخرى، فقد أدرجت في الجزء السردي من الكتاب حوادث متفرقة، وعلى الرغم من أنها قد تبدو غير ذات أهمية في حد ذاتها، إلا أنها تلقي الضوء على طبيعة السكان الأصليين، وبالتالي تقدم بيانات ذات طابع إثنوغرافي في أحد أكثر أشكالها عملية.

التقطت الصور التي تشكل الرسوم التوضيحية بنفسي. ومما يؤسف له أن العديد من الصور الأخرى التي التقطتها قد تضررت بشدة بفعل الرمال أو الحرارة، مما جعلها غير صالحة لإعادة إنتاجها. وقد اضطررت إلى استبدال هذه الصور برسومات مستوحاة منها، ولا يسعني إلا أن أعتذر عن ذلك.

الأسماء التي أطلقناها على الأماكن الجديدة التي عثرنا عليها في الجزء الأوسط من الصحراء لن تظهر على أي خريطة. إنها الأسماء التي أطلقها عليها رجالي فحسب. ولكن كان لا بد من استخدامها لتجنب تكرار عبارات مرهقة مثل "التل الذي بدا وكأنه يتراجع ويتقدم بالتناوب كلما اقتربنا منه" [10]، إلخ.

لقد تلقيت قدرًا كبيرًا من اللطف والمساعدة من جهات عديدة في إنجاز عملي، حتى أنه يصعب بعض الشيء تحديد من أين أبدأ في الإعراب عن امتناني. إنني مدين لوزارة الحرب بالأساس الذي بُنيت عليه خريطتي؛ كما أعارني مكتب السودان في القاهرة خزانات وزودني بالعديد من المعلومات الاستخباراتية المفيدة. كذلك، قدم لي الرائد جينينجز براملي، والنقيب جيمس هاي، والنقيب الراحل (العقيد فيما بعد) فيتزجيرالد

معلومات ونصائح قيمة جداً. لقد قام الدكتور ريندل وفريقه في قسم النباتات بمتحف التاريخ الطبيعي في جنوب كنسينغتون بتحديد مجموعة النباتات التي أحضرتها معي، بالإضافة إلى السماح لي باستخدام مكتبتهم أثناء العمل على التوزيع الجغرافي للمجموعة.

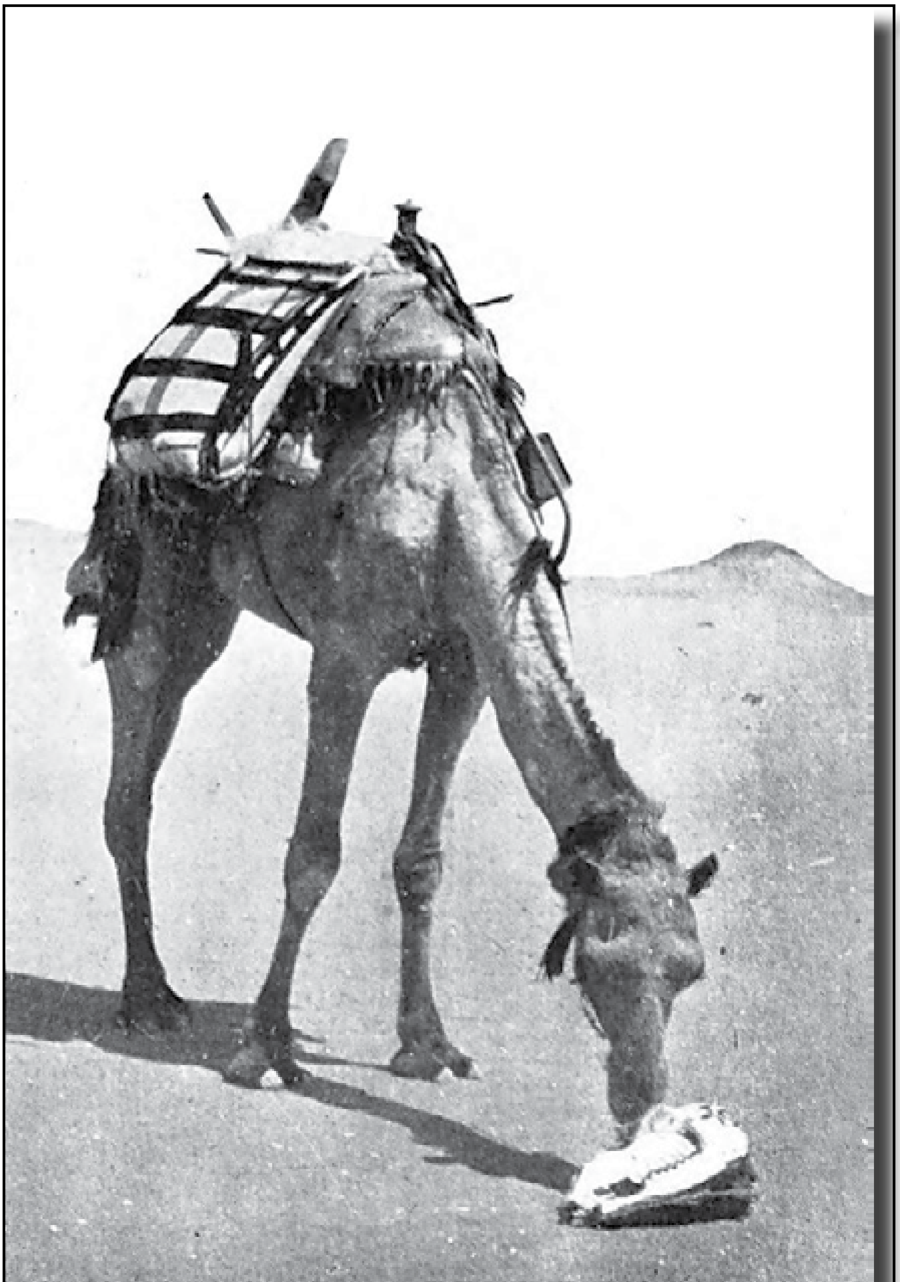
أما بالنسبة لتحديد جزء من مجموعاتي الأخرى، فأنا مدين أيضًا لموظفي متحف التاريخ الطبيعي في ساوث كنسينغتون. وقد قام اللورد روتشيلد بتحديد مجموعة الحشرات التي قمت بجمعها في رحلتي الأخيرة وأرسلتها إلى متحف ترينج.

إنني مدين بالامتنان العميق للجمعية الجغرافية الملكية لإعارتها لي الأدوات بسخاء بالغ. وأخيراً وليس آخراً، يتعين عليّ أن أعرب عن خالص شكري لقسم المساحة في مصر لإعارته لي الخزانات والأجهزة، ولتقديم المشورة والمساعدة القيّمة. وعلى وجه الخصوص، أنا مدين بالامتنان للأعضاء التاليين في هذا القسم: السيد الراحل (الذي أصبح فيما بعد المقدم) بي إف إي كيلينج، والسيد بينيت، لحساب بعض ملاحظاتي الفلكية؛ والسيد جيه كريج على لطفه في حساب نقطة الغليان والارتفاعات اللاسائلية؛ والدكتور جون بول والسيد إتش إي هيرست، اللذين قدما لي الكثير من المساعدة وكشفا جهلي بالموضوع حتى الآن لتمكيني من إجراء بعض الملاحظات الكهربائية على الرمال التي تطايرت من الكثبان الرملية. كما أعارني الأول بكل لطف [11] جهاز قياس الكهرباء الخاص به لغرض الملاحظة. كذلك، قام السيد ألفريد لوكاس من هذا القسم بتحليل بعض عينات الرمال المتقشرة التي جمعتها من أجل اكتشاف مادة الترابط.

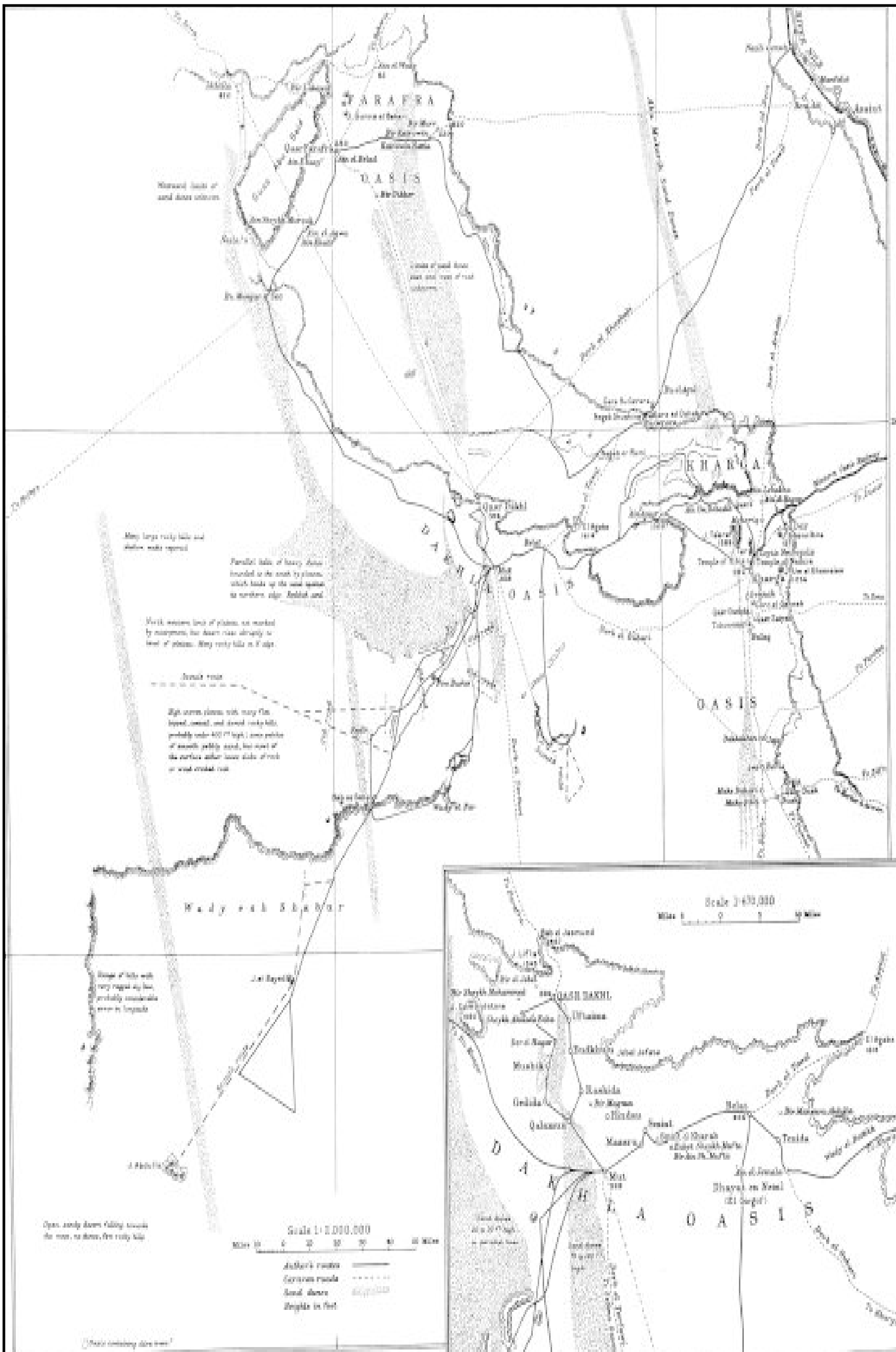
إن الصحراء الليبية، التي تحدت في الماضي إلى حد كبير جهود جميع مستكشفيها، سوف تكشف عن أسرارها قريباً. إن السيارات المصممة بشكل مناسب، والتي ربما تكون مصحوبة بطائرة استطلاع، والتي يكاد يكون أعداؤنا حتى أشد الصحاري شراسة عاجزين عن الدفاع ضدها، على الرغم من أنه لا يسعنا إلا أن نأسف على ضرورة استخدام مثل هذه المساعدات الميكانيكية البسيطة، توفر بلا شك طريقة مثالية لإجراء استكشافات رائدة طويلة في صحراء بلا ماء. ولكن هذه الأدوات لم يتم اختراعها إلا مؤخراً، ولا تزال هناك العديد من المشاكل التي تظل دون حل فيما يتعلق بـ "ما يختبئ وراء التلال" في المنطقة الشاسعة التي نعرفها باسم الصحراء الليبية، والتكهنات مليئة بالسحر، لدرجة أنه يبدو من المؤسف تقريباً أن يتم حل هذه المشاكل على الإطلاق.

الصورة: هاجيني، أو ركوب الجمل.

وتكون حقائب السرج، أو الحُرج، ملونة بألوان زاهية، ويريح الفارس ساقيه على الوسادة الجلدية فوق الكتفين، ويُسيطر على الجمل بواسطة لجام واحد. (ص 33).



خريطة "أسرار الصحراء الليبية"



الفصل الأول: أسرار الصحراء الليبية

إن إنتاج الكتب عن مصر لا ينتهي. وكان أول كتاب عن هذا الموضوع هو سفر التكوين، ومنذ ذلك الحين كان هناك إنتاج مطرد. ولكن الأدب المتعلق بالصحراء الليبية، التي تتصل بمصر من الغرب، نادر بشكل غريب، إذا ما وضعنا في الاعتبار المساحة الهائلة التي تشكلها هذه المنطقة. [17]

يمكن القول إن الصحراء الليبية تمتد من الحافة الجنوبية للحزام الضيق المزروع الذي يمتد في كل مكان تقريبًا على طول ساحل شمال أفريقيا، إلى مرتفعات تيبستي، والحدود الشمالية للنباتات في السودان. وعلى الجانب الشرقي، يتحدد حدود الصحراء جيدًا بوادي النيل؛ ولكن على الجانب الغربي منها، فإن حدود الصحراء غامضة للغاية.

يمتد حزام عريض من الصحراء عبر شمال أفريقيا من الشرق إلى الغرب. والجزء الغربي من هذا الحزام معروف لنا باسم "الصحراء الكبرى". ولكن "الصحراء الكبرى" ليست اسمًا حقيقيًا، بل كلمة عربية تعني الصحراء، أي الأرض القاحلة. ويطلق السكان الأصليون هذا المصطلح على هذا الحزام الصحراوي بالكامل، ويستخدمونه بنفس القدر لوصف الصحراء الليبية، وكذلك الجزء الأكثر غربًا منها. ولم يتم رسم خط الحدود بين ما نعرفه بالصحراء الكبرى والصحراء الليبية قط، ولكن يمكن القول إنه يمتد تقريبًا من الطرف الشمالي لتيبستي إلى قاعدة خليج سرت. وفي ظل هذه الحدود الغامضة، من المستحيل إعطاء تقدير دقيق لمداها، ولكن يمكن القول إن الصحراء الليبية تغطي ما يقرب من مليون ميل مربع. وربما تكون هذه المنطقة الأقل شهرة بهذا الحجم في العالم. ولا تزال هناك مئات الآلاف من الأميال المربعة في الصحراء الغربية، [18] أجزاؤها الجنوبية والوسطى غير معروفة للأوروبيين، وتظهر خريطتها على أنها مجرد ورقة بيضاء، أو تظهر وكأنها مغطاة بكثبان رملية غير سالكة.

لقد كانت لدي بعض الخبرة في السفر عبر الصحراء الغربية، لذلك عندما كتبت في عام 1908 إلى سكرتير الجمعية الجغرافية الملكية، مقترحًا القيام برحلة إلى الصحراء الغربية، وتلقيت رسالة ردًا تقترح أن أقوم بدلاً من ذلك بالتوجه إلى الصحراء الليبية،

لأنها توفر أكبر مساحة متاحة من الأرض غير المعروفة، وأن أقوم بدراسة الكثبان الرملية، التي توفر لها فرصة لا مثيل لها، قفزت على الاقتراح، الذي لم يخطر ببالي من قبل. ولكن بعد قفزة من هذا النوع، عادة ما يعود الإنسان إلى الأرض مرة أخرى مع شيء من الضجة، وعندما، بعد إجراء تحقيق أكثر شمولاً مما قمت به سابقًا في طبيعة العمل الذي قمت به، بدأت أدرك طابعه الحقيقي، شعرت أنه عندما قلت إنني سأتعامل مع هذا الجزء من العالم، فقد فعلت شيئًا أحمقًا إلى حد كبير.

انطلقت العديد من البعثات من مصر لاستكشاف هذا الجزء من العالم، ولكن لم تعبر أي منها حتى ذلك الوقت حدود السنوسيين، باستثناء بعثة رولفس، الذي حاول في عام 1874، قبل أن ترسخ الحركة السنوسية أقدامها في الصحراء، الوصول إلى واحة الكفرة. وحتى هو، الذي ربما أعاقته قافلته الضخمة، لم يتمكن سوى من التقدم لثلاثة أيام غربًا من الداخلة، ثم اضطر، بسبب الطبيعة المستعصية للكثبان الرملية، إلى التخلي عن المحاولة والاتجاه شمالًا نحو واحة سيوة المصرية. إن صعوبة عبور التلال الرملية، والتأثير المعرقل للسنوسيين، الذين حولوا المقاومة السلبية إلى فن راق، وربما نقص الخبرة في السفر عبر الصحراء في بعض الحالات، قد جعلت المحاولات الأخرى غير مثمرة. ومع ذلك، بدا هذا الجانب [أي الجانب المصري] هو الأكثر قابلية للدخول إلى الصحراء. لقد قمت أولاً بمحاولة تمهيدية بالذهاب مرة أخرى إلى الصحراء الجزائرية. كان ذلك بالطبع قبل سنوات من الحرب، والتي تعرض فيها السنوسيون، أو السنوسية كما ينبغي أن نسميهم بدقة أكبر، لضربة مبرحة. ولكن قبل الحرب مباشرة كانوا في حالة من الفوضى، [19] حول ذروة قوتهم، وكانوا قوة حقيقية بالفعل.

لقد كانت لديهم تلك الخاصية غير المرغوبة على الإطلاق، من وجهة نظر المسافر، وهي اعتبار الجزء من الصحراء الليبية الذي كنت أعتزم الذهاب إليه ملكًا خاصًا بهم، والاستياء الشديد، على أقل تقدير، من كل محاولات التوغل في معاقلهم. ولا شك أنهم كانوا في تلك الفترة يفكرون منذ فترة طويلة في غزو مصر، وكانوا ينتظرون فقط الفرصة المناسبة لتنفيذ ذلك. وفي ظل هذه الظروف، لم يكونوا يريدون بطبيعة الحال أن يدخل الأوروبيون بلادهم خوفًا من أن يتعرفوا على الكثير. فضلاً عن ذلك، فقد تزايد تعصبهم ضد الأوروبيين إلى حد كبير بسبب تقدم الفرنسيين إلى بلادهم من الجنوب.

وحتى الآن يبدو أن أغلب الناس لا يدركون حقيقة طبيعة السنوسيين؛ ذلك أننا نسمعهم باستمرار يشيرون إليهم باعتبارهم "قبيلة" أو مجرد مجموعة من المسلمين المتدينين بشكل غير عادي، الذين اختاروا أن يقيموا في أكثر المناطق النائية في أفريقيا، من

أجل تكريس أنفسهم لحياتهم الدينية، دون خوف من مقاطعة من الغرباء. والحقيقة هي أنهم في الواقع من الدراويش، الذين كانت شخصيتهم في ذلك الوقت على الأقل ذات طبيعة صارمة للغاية تجاه كل من هم غير مسلمين، وكانت معادية بشكل خاص للأوروبيين، وخاصة أولئك الذين يحتلون أي أراضي إسلامية. وعلاوة على ذلك، لم يقتصر وجودهم على الصحراء الليبية، بل شكلوا واحدة من أقوى طرق الدراويش، حيث انتشر أتباعهم في جميع أنحاء العالم الإسلامي تقريباً من سومطرة إلى المغرب.

وبما أنني كنت أتوقع أن أتواصل معهم كثيراً في الصحراء الليبية، فقد أمضيت بعد مغادرة الصحراء الجزائرية وقتاً طويلاً في المكتبات العامة في الجزائر وتونس، لجمع المعلومات المتوفرة عن السنوسية وغيرهم من الدراويش في شمال أفريقيا.

ولصالح أولئك الذين لا يعرفون هذا الموضوع، قد يكون من الأفضل أن نشرح طبيعة هذه طرق الدراويش. فهي تشبه إلى حد ما المجتمعات الرهبانية المسيحية، وعادة ما يتم تنظيمها على أساس العديد من المبادئ. [20] وتختلف زواياهم أو أديرتهم في الحجم من مباني بسيطة، لا تختلف كثيراً عن الأكواخ الطينية، إلى مؤسسات ضخمة، تضاهي في حجمها وهندستها أفضل المؤسسات من نوعها في أوروبا.

إن كل طائفة من طوائف الدراويش لها طقوسها الخاصة. وكثير منها غير سياسي على الإطلاق، وذات طابع ديني بحت؛ ولكن هناك طوائف أخرى، مثل الرحمانية والسنوسية، ذات طابع سياسي قوي، وعادة ما تكون معادية للأوروبيين. ولكن في كثير من الأحيان، لا يكون تأثيرها واضحاً، حيث تظل خفية في الخلفية؛ ولكن ثبت مراراً وتكراراً أن طوائف مثل هذه كانت سبباً في العديد من الانتفاضات والصعوبات التي اضطر الأوروبيون إلى مواجهتها في التعامل مع رعاياهم المسلمين.

إن التنظيمات السياسية الأخرى - مثل التيجانية - كانت في الواقع مؤيدة للأوروبيين؛ في حين أن التنظيمات الأخرى تقدم دعمها أيضاً إلى فرع معين من المجتمع، فتعمل على سبيل المثال، كما في حالة الزيانية، كحماة للمسافرين أو، كما تفعل الكرزازية، تدعم سكان الواحات ضد هجمات البدو الذين يحيطون بهم، وهكذا دواليك.

وبما أن طرق الدراويش تعتمد إلى حد كبير على الجزية التي تفرضها على أتباعها، مع استثناءات قليلة، فإن كل طائفة تبذل قصارى جهدها لزيادة عدد أتباعها ومنعهم من الانضمام إلى أي طريقة أخرى. وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى تنافس شديد بينها، وعندما تنتهج اثنتان منها سياسة متعارضة - كما في حالة التيجانية والسنوسية على سبيل المثال - فإن هذا التنافس يتطور إلى عداوة قاتلة. ولعل استحالة حث

الدراويش المتنافسين على الاتحاد، أكثر من أي شيء آخر، هو ما يجعل الحلم الجامح بالوحدة الإسلامية، الذي يفترض أن يتحد بموجبه جميع المسلمين للتخلص من حكامهم الأوروبيين، خطة مستحيلة إلى حد لا يطاق.

ينتمي عدد كبير جداً من مواطني شمال إفريقيا المسلمين إلى واحدة أو أكثر من هذه الطوائف. ولكن من النادر أن نجد مواطناً يناقش بحرية على الإطلاق [21] معتقداته الدينية. إنني أؤمن بأن معرفة هذه الطوائف والخصائص التي يمكن من خلالها التعرف على أتباع كل طائفة هي أمر بالغ الأهمية. ولقد وجدت أن المعلومات التي حصلت عليها عن هذا الموضوع قبل ذهابي إلى ليبيا كانت ذات قيمة كبيرة، لأنها كانت تمكنني في كثير من الأحيان من تقييم الموقف المحتمل تجاهي من قِبل الرجال الذين التقيت بهم، بل وحتى من إثارة الشكوك فيهم، قبل أن يدركوا حتى أنني لدي أي أساس للشك.

بعد مغادرة تونس، توجهت إلى مصر، حيث قضيت بعض الوقت في القاهرة قبل أن أشرع في رحلتي إلى الصحراء. هناك قمت بوضع اللمسات الأخيرة على معداتي وجمع ما أمكنني من معلومات عن الجزء الذي كنت ذاهباً إليه. ومن العجيب أن العديد من المخبرين الذين تحدثت إليهم كانوا يعتبرون الصحراء "أرض الرومانسية". لا شك أن المسافة في كثير من الحالات تضفي سحراً على المنظر، وتغطيه بقدر معين من السحر، ولكن مجرد تجربة بسيطة لهذه الأراضي القاحلة من شأنها أن تحطم السحر. إن الرومانسية ليست سوى نتاج منحط للخيال والجهل. ولا يمكن أن يكون هناك أجزاء قليلة من العالم حيث يواجه المرء الحقائق القاسية الباردة كما هو الحال في الصحراء.

في المجمل، كانت المعلومات التي تمكنت من جمعها غير مرضية على الإطلاق. فلم أتمكن عملياً من معرفة أي شيء محدد عن الصحراء، على الأقل لم أتمكن من معرفة أي شيء يبدو موثوقاً به، باستثناء أن الكثبان الرملية في الجزء الداخلي من الصحراء كانت غير سالكة.

ولكنني سرعان ما اكتشفت أنه على الرغم من أنني لم أكن أتعلم شيئاً، فإن الناس الآخرين كانوا يتعلمون. لقد فرضوا عليّ عدة مرات حقيقة المثل المحلي القائل "لا يمكنك إخفاء أي شيء في مصر" بطرق مذهلة إلى حد ما. ربما تتسرب معظم الأخبار التي يعرفها السكان الأصليون من خلال الطريقة المتهورة التي يتحدث بها بعض الأوروبيين في حضور خدمهم الناطقين باللغة الإنجليزية. ولكن حتى مع الأخذ في الاعتبار المحادثة غير المهذبة من هذا النوع، فمن المدهش مدى سرعة انتشار الأخبار في بعض الأحيان.

هذا النقل السريع للأخبار السرية أمر معروف في شمال إفريقيا، وهو أمر يجب أن يؤخذ في الحسبان دائمًا. في الجزائر يطلقون عليه "التلغراف العربي"، وقد تم تسجيل العديد من الحالات غير العادية لذلك.

[22] ونتيجة لاستفساراتي، تمكنت من وضع برنامج لعملي في الصحراء، وكانت أهدافه الرئيسية على النحو التالي:

(1) عبور ذلك الحقل من الكثبان الرملية غير القابلة للعبور.

(2) إذا نجحت في ذلك، فإنني سأعبر الصحراء من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي.

(3) في حالة فشل الخطة الأخيرة، يتم إجراء مسح لأكبر قدر ممكن من الأجزاء الأخرى غير المعروفة من الصحراء.

(4) جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من السكان الأصليين حول الأجزاء غير المعروفة من الصحراء التي لم أتمكن من زيارتها بنفسي.

قبل أن أغادر القاهرة، وظفت خادمين. كانت معرفتي باللغة العربية في ذلك الوقت ضئيلة، وما كان متاحًا منها كان من النوع الجزائري، وهي لهجة بذيئة تختلف تقريبًا عن اللغة التي يتحدث بها أهل الصحراء، وبالتالي كان وجود مترجم ضرورة شبه ملحة. وقد استعنت بمترجم، "خليل صلاح جابر" بالاسم، من رجل كان يغادر البلاد لتوه. وكان الرجل يمدح "خليل" بصوت عالٍ، ويصفه بأنه مترجم جيد للغاية و"لبق للغاية".

منذ ذلك الحين، كنت دائمًا أشك في الأشخاص المعروفين بلباقتهم، فهناك درجات عديدة من لباقتهم. فاللباقة، والدبلوماسية، والمكر، والخداع، والإجرام، كلها تعبر عن درجات مختلفة من نفس الجودة، وقد تبين أن لباقة "خليل" كانت من أكثر الصفات تميزًا!

كما وظفت رجلاً يُدعى "دهب سليمان جندي" كطاهي. وكان دهب، على عكس "خليل" الذي كان فلاحًا أو أحد الفلاحين المصريين، من البربر، وهي السلالة التي يتحدر منها أفضل الخدم المحليين. وكان رجلاً صغيرًا، مسنًا، ضعيف المظهر إلى حد ما، ذا مظهر صادق وصريح، ولم يكن فقط طباخًا بارعًا، بل كان مفيدًا في بعض الأحيان كمترجم، لأنه كان يعرف قدرًا معينًا من اللغة الإنجليزية.

بعد أن أكملت استعداداتي، بقيت هناك لفترة لأرى بعض المعالم السياحية في القاهرة. لقد جعلها حشدها متعدد الجنسيات مكانًا مثيرًا للاهتمام بما يكفي لإقامة

قصيرة. ولكن بعد قضاء بعض الوقت في القاهرة، [23] وبعد أن زرت كل المعالم السياحية المعتادة، بدأت القاهرة القذرة الصاخبة والمنتجعات السياحية الأخرى في الشعور بالكآبة. ففي النهاية، ما هي إلا نوع من الإصدارات الشعبية للبلاد، التي نشرتها شركة توماس كوك آند صن. وخلفها تقع مصر الحقيقية والصحراء، أرض حيث أصبحت العفاريت والغول والجن وكل المخلوقات الأخرى من الخرافات المحلية أمورًا تحدث يوميًا، حيث تقع الواحات المفقودة والمدن المسحورة في رمال الصحراء، وحيث لا يزال السكان الأصليون غير ملوثين بالاتصال بالأوروبيين، وحيث يستمتع معظم الرجال، ورغم أن المنظر بغيض، إلا أن ذلك لا يمكن أن يدمر الجاذبية التي تكمن في حقيقة أن حوالي مليون ميل مربع منها غير معروفة، وتنتظر الاستكشاف.

قبل أن أمضي فترة طويلة في القاهرة، كنت قد سئمت منها، فقد كانت تشبه إلى حد كبير معرضًا لدار أزياء إيرل كورت. وفي نهاية إقامتي، غادرت إلى الصحراء وأنا أشعر بالارتياح.

غادر القطار المتجه إلى واحة الخارجة القاهرة في الساعة الثامنة مساءً. وبعد رحلة طويلة ومغبرة، وجدت نفسي متوقفًا في محطة في وادي النيل للسكك الحديدية الضيقة الصغيرة التي تعبر الصحراء لحوالي مئات الأميال إلى واحة الخارجة.

يوجد محطة مناسبة عند هذا التقاطع الآن، ولكن في ذلك الوقت، في عام 1909، كان الخط قد افتُتح مؤخرًا، وكان التقاطع يتكون فقط من مسار جانبي، وكوخ خشبي صغير متهالك لرئيس المحطة، ورائحة كريهة حقًا لكلب ميت. وكان السبب الأخير هو حقيقة أنه بسبب تفشي داء الكلب في المنطقة، كانت السلطات تضع لحومًا مسمومة لتدمير الكلاب المنبوذة في الحي، والتي يبدو أنها اختارت جميعًا محيط المحطة كمكان لقضاء لحظاتها الأخيرة.

وبعد أن ألقيت أمتعتي على جانب الطريق الترابي، اختفى القطار في المسافة وتركني مع حوالي نصف طن من المعدات للوصول إلى قارة، قاعدة سكة حديد الواحة، حيث قيل لي أنه يمكنني الإقامة هناك. وبعد تأخير دام قرابة الساعة، وخلال ذلك الوقت، حيث كان الجو شديد البرودة، بدأت أشعر بحقيقة قول السكان الأصليين: «كل سفر هو بمثابة تذوق للجحيم». [24] يعتقد المسلمون أن هناك سبع جحيم، كل منها أسوأ من الأخرى، ويقولون إنها كلها من نصيب النساء!

وبمجرد تحميل العربات، انطلقنا إلى قارة، على بعد حوالي خمسة أميال، حيث أمضيت الأيام القليلة التالية، بينما كنت أجمع الجمال لقافلتي.

ولمساعدتي في شراء الحيوانات، تعاقدت مع عربي محلي، يُعرف باسم «الشيخ سليمان عوض»، وهو رجل عجوز شرس ذو شعر رمادي رأيته كثيرًا في وقت لاحق. كان يتمتع في شبابه بسمعة طيبة باعتباره رجلاً رياضياً، وهو مصطلح يتوافق بشكل وثيق مع «الرجل الرياضي» لدينا، ويحظى باهتمام كبير من قبل البدو الأصغر سناً.

لقد اكتسب هذه السمعة بطريقة مميزة لهؤلاء العرب. ذات مرة، عندما كان شابًا، كان يتشاجر مع اثنين من الفلاحين، الذين أمطروه بألفاظ مسيئة أخرى، وانتهى بهم الأمر في النهاية إلى وصفه بأنه «امرأة». كانت إهانة مثل هذه من اثنين من الفلاحين العاديين، العرق الذي يحتقره العرب كثيرًا، أكثر مما يتحمله «سليمان»، الذي أطلق النار عليهما على الفور. لقد كانت محادثة قصيرة أنيقة، لكن «سليمان» كان عليه أن يقضي عقوبته.

إن البدو في ذلك الجزء من مصر شبه مستقرين، يعيشون في معسكرات في وادي النيل على أطراف المناطق الزراعية. ويعيش أغلبهم في خيام منسوجة من شعر الإبل والماعز السميك، بينما يعيش آخرون في أكواخ من البوص، سيقان الذرة المجففة، إلخ. ويملك بعض العرب الأثرياء منازل مبنية من الطوب اللبن المعتاد، ويملكون مساحات صغيرة من الأرض يزرعونها. وفي مواسم معينة من العام، يهاجرون إلى الواحات، ثم يعودون مرة أخرى إلى أماكن معسكراتهم في وادي النيل في الربيع، لتجنب ذبابة الجمل التي تظهر في الواحات في ذلك الموسم، وهي قادرة على التسبب في وفيات بين الإبل بقدر ما تتسبب فيه ذبابة التسي تسي بين الخيول في أجزاء أخرى من أفريقيا.

وبعد أن أمضيت يومًا أو يومين في محاولة شراء الإبل حول قارة، تمكنت أخيرًا من تأمين خمسة جمال من الدرجة الأولى في السوق في برديس.

لكل قبيلة عربية علامة خاصة بها على الإبل أو وسمها، وقد ضاعت أصول هذه العلامة في غياهب العصور القديمة. ومع ذلك، فإن بعض هذه العلامات متطابقة في الشكل مع العلامة التي تحملها الإبل، [25] وحروف الأبجدية الليبية القديمة في شمال أفريقيا، وقريبتها من حروف التيفيناغ، أو أبجدية التوارق الحديثة، ومن الممكن أن يكون هناك بعض الارتباط بينهما.

كانت الإبل التي اشتريتها من برديس من السودان. وكانت كبيرة الحجم، ذات لون بني فاتح، ومعطف ناعم إلى حد ما، وكانت جميعها تحمل العلامة التجارية نفسها، خط عمودي على الجانب القريب من الرأس عند فتحة الأنف، وخط مماثل في ثنية العنق. وأعتقد أنها كانت تنتمي إلى قبيلة العبابدة.

وفي نهاية المطاف، أحضر الشيخ «سليمان» جملًا حسن المظهر من مكان ما، فاشتريته، وكان هذا الجمل، إلى جانب الجملين الخمسة اللذين اشتريتهما من برديس، يشكلان القافلة بأكملها، وكانوا مجموعة ممتازة من الحيوانات.

لقد وظفت سائقين اثنين لرعايتهما، موسى، وهو شاب في الثامنة عشرة من عمره، ورجل سوداني صغير أسود اللون، يدعى «عبد الرحمان موسى سعيد»، والذي تبين أنه رجل من الدرجة الأولى، وظل معي طوال الوقت الذي قضيته في الصحراء. وكان كلا الرجلين ينتميان إلى قبيلة الشيخ «سليمان».

إن اختيار المرشد مسألة خطيرة، لأن نجاح الحملة أو فشلها يعتمد إلى حد كبير عليه، ولقد وجدت صعوبة كبيرة في العثور على رجل مناسب. وكدت أتعاقد مع مرشد تقدم بطلب، لأنه بدا وكأنه الوحيد من بين المرشحين الذي يعرف أي شيء عن الصحراء وراء الحدود المصرية. ولكن نمر، شقيق الشيخ «سليمان»، أرسل لي رسالة عن طريق «عبد الرحمان»، مفادها أنه لا ينبغي الاعتماد عليه لأنه «يتبع الشيخ»، وهي الطريقة المعتادة بين السكان الأصليين لوصف رجل كان عضواً في السنوسية، ولأنه رفض سيجارة عرضتها عليه، فقد رفضت توظيفه. ومن الجدير بالذكر أن التدخين محرم على أتباع «الشيخ السنوسي»، وبالتالي فإن عرض السيجارة يعد اختبارًا مفيدًا، وإن لم يكن دائمًا معصومًا من الخطأ، للعضوية في هذه الجماعة المتعصبة.

تأكدت شكوكي في صباح اليوم التالي، عندما جاء هذا الرجل لسماع ردي على طلبه. كان الجمل الذي يمتطيه موسومًا بعلامة السنوسية على رقبته، وهو نوع من الختم التقليدي، [26] شكل من أشكال الكلمة العربية «الله» (/WI)، وهو دليل قاطع لا يثبت فقط أنه ينتمي إلى الطائفة، بل إن السنوسية نفسها هي التي زودته بدابته. وربما كان أحد وكلائهم.

بدأت أشعر باليأس من العثور على مرشد، عندما تلقيت برقية من مدير أسيوط، الذي طلبت منه أن يبحث عن رجل موثوق به، قائلاً إنه أحضر لي مرشدًا، وسألني إذا كنت أرغب في رؤيته.

وصل الرجل في اليوم التالي. وأعجبت به على الفور، ولم تدمره حتى زلاته العديدة. كان مظهره في صالحه بشكل واضح. كان رجلاً ضخم البنية، يبلغ طوله ستة أقدام تقريبًا، وهو طويل جدًا بالنسبة لرجل عربي. بدا وكأنه في الستين من عمره تقريبًا، وكان يتصرف بتلك «الهيئة المهيبة» التي يتسم بها العديد من البدو، والتي تتناسب بشكل جيد مع الملابس الفضفاضة في الشرق. وعلى عكس معظم البدو، كان نظيفًا .

قال إن اسمه هو «قوي حسن قوي». من المستحيل نقل فكرة دقيقة عن نطق الأسماء العربية من خلال أنظمة الكتابة الأوروبية البحتة، لكن اسمه الأول كما نطقه بدا وكأنه «جوقة» مع نوع من «ج» المبتلع الذي تم إنشاؤه لـ «تش». أضاف قطعة المعلومات المجانية التي تفيد بأن جده كان باي، وهو نوع من اللقب العسكري الذي يتوافق تقريبًا مع لقب فارس. من الواضح أنه لم يكن من عادته إخفاء ضوءه تحت مكيال. ولكن نظرًا لأنه كان موصى به بشدة من قبل المدير، وأعجبني مظهره، فقد قمت بتوظيفه.

ربما لا يكون «المرشد» المصطلح الصحيح لوصف القدرة التي كان من المتوقع أن يتصرف بها، لأنه لم يزعم حتى أنه لديه أي معرفة بالصحراء خارج الحدود المصرية. ولكن نظرًا لأنه بدا من المستحيل العثور على شخص لديه معرفة، فقد وظفته كرجل يتمتع بخبرة كبيرة في السفر في الصحراء، وكان سيتولى قيادة القافلة ويساعدني بنصيحته في أي صعوبة قد تنشأ.

أخذته في جولة وعرفته على رجالي الآخرين. وبناءً على اقتراحي، اتفق مع الشيخ «سليمان» على استئجار جمل للركوب منه، حيث قال إنه لم يكن لديه أي من ممتلكاته [27] واحدة قوية بما يكفي للقيام برحلة صحراوية صعبة.

وعلى الرغم من سلوكه الجذاب، إلا أنه لسبب غير واضح، كان كل من الشيخ «سليمان» و»عبد الرحمان» يكرهانه بشدة. وقد سررت بهذا إلى حد ما، لأن الاحتكاك البسيط في القافلة يجعل التعامل مع الرجال أسهل. وفي ذلك الوقت، أرجعت السبب إلى انتمائه إلى قبيلة مختلفة؛ ولكن إذا حكمنا من خلال ما حدث بعد ذلك، فإنني أتصور أن السبب كان في واقع الأمر يرجع إلى معرفتهم بشيء ضده، وهو ما لم يروا أنه من المناسب أن يخبروني به، باعتبارهم من أهل المنطقة.

وبعد أن تم إعداد الطريق على هذا النحو، أرسلت قافلتي بالطريق البري إلى واحة الخارجة، وتبعتهم بنفسي بعد يوم أو يومين بالقطار الذي كان يستقله كل أسبوعين.

الفصل الثاني

في الأميال القليلة الأولى، مر الخط فوق قاع وادي النيل. وعلى بعد حوالي ثمانية وعشرين ميلاً من قارة، [28] خرجنا من الوادي الذي مر عبره خط السكة الحديدية إلى الهضبة أعلاه. والجبل، الكلمة المستخدمة عمومًا في مصر للإشارة إلى الصحراء، تعني حرفيًا الجبل؛ فالصحراء القريبة من وادي النيل تتكون من الهضبة التي قطع النيل

مجراه من خلالها.

كان المنظر من فوق الهضبة مثيرًا للإعجاب في قسوتها الشديدة، فلم يكن بالإمكان رؤية أي نبات، ولا حتى العشب الجاف. ورغم أن السطح الفعلي للصحراء كان غير مستوٍ للغاية، فإن المستوى العام كان متجانسًا للغاية. وكانت الهضبة بأكملها تتكون من الحجر الجيري، وفي التجاويف والتفاوتات الطفيفة تجمعت بقع من الرمل والحصى. وفي كل مكان كان بالإمكان رؤية تلال من الحجر الجيري منخفضة للغاية، أو بالأحرى تلال، ربما لم يتجاوز ارتفاع أي منها عشرين قدمًا. وكان تأثير تآكل الرمال واضحًا للغاية في كل مكان على الهضبة. وكانت الأنواع المختلفة من السطح الناتج معروفة لدى السكان الأصليين باسم الرصف، والخرافيش، والخراشيف، والبطيخ، أو صحراء "البطيخ"، والتي يمكن رؤية طبيعتها بشكل أفضل من خلال الصور.

كان النزول من الهضبة إلى المنخفض الذي تقع فيه واحة الخارجة، يشبه الصعود من وادي النيل إلى الهضبة، عبر واد. وكانت واحة الخارجة في ذلك الوقت غير معروفة لدى الأوروبيين. وحتى وصول الشركة التي شيدت السكة الحديدية إلى المنطقة، لم يكن يزور الواحة، كما أعتقد، سوى عدد قليل من العلماء ومسؤولي الحكومة.

كانت الصحراء خلفها قليلة الاستكشاف لدرجة أنني، في غضون يوم واحد تقريبًا من الرحلة من الواحة، وجدت متاهة مثالية، تبلغ مساحتها عدة مئات من الأميال المربعة، من المنخفضات الصغيرة، بعمق مائتين أو ثلاثمائة قدم، مفتوحة على بعضها البعض، والتي تشبه قرص العسل بالضبط. [29] ما كان يعتبر في السابق جزءًا من هضبة الحجر الجيري الصلبة. وللأسف، لم أتمكن قط من استكشاف هذه المنطقة الغريبة بالكامل. ومن المؤكد تقريبًا أنها تحتوي على بئرين على الأقل، أو ربما واحات صغيرة، عين حمور وعين إمباريس.

من الصعب أن ننقل إلى أي شخص لم ير هذه الواحات في الصحراء الليبية فكرة عنها. فالخارجة عبارة عن مساحة مستطيلة من البلاد يبلغ طولها حوالي مائة وأربعين ميلاً من الشمال إلى الجنوب وعشرين ميلاً من الشرق إلى الغرب. وهي محاطة من الشرق والشمال والغرب بمنحدرات أو تلال ضخمة. ولا يُزرع سوى حوالي مائة وخمسين من مساحتها، في جوار القرى والنجوع والمزارع المختلفة المنتشرة على سطحها. وتُروى هذه المساحات المزروعة بواسطة آبار ارتوازية، يعود تاريخ العديد منها إلى فترة بعيدة جدًا. ولكن واحة الخارجة وآثارها قد وصفها بالفعل كاتبان أو ثلاثة، لذا فليس من الضروري أن نتناولها بإسهاب. وتحتوي على عدد من المعابد والآثار الأخرى،

وأهمها معبد هيبس.

يرتبط المعبد بقصة مومياء رائعة. إن أولئك الذين يعملون في التنقيب عن المعابد والمقابر في مصر، وهي المهنة المعروفة محلياً باسم "خطف الجثث"، يدركون تمام الإدراك أنهم في عملهم "يواجهون الموتى دائمًا"، وهناك أماكن قليلة حيث تجسد هذا الأمر بشكل جيد كما هو الحال في معبد هيبس.

في وقت وصولي إلى الخارجة، كان عالم آثار أمريكي يدعى و———[1] يقوم بترميمها. وقبل أن يتم التقاطها، كانت الرمال قد انجرفت بفعل الرياح ضد الجدران، حتى وصلت تقريباً إلى قمتها. ومن أجل معرفة مدى المباني، أمر و——— بحفر خندق موازٍ لأحد الجدران الرئيسية.

قبل أن يتم ذلك، أخبره رجاله أنهم لا يرغبون في الاستمرار في العمل في ذلك الجزء، مشيرين إلى أن شيخا، أي رجلاً صالحاً، دُفن هناك، وبما أنه كان يتمتع بقداسة استثنائية، فقد شوهدت أضواء تحوم فوق قبره في الليل، ومرض رجل كان قد حفر هناك من قبل.

بعد بعض الصعوبات، نجح و——— في إقناع الرجال بمواصلة عملهم. لكن المومياء المقدسة [30] كانت سبباً في أمر غريب للغاية. فبعد أن حفر رجاله لفترة أطول قليلاً، انزلقت بعض التربة إلى الخندق، ومعها جاء نصف المومياء، والنصف الآخر بقي في الأرض بجانب الخندق. "أسقط الرجال أدواتهم" على الفور، ووقفوا مذهولين أمام هذه الكارثة. لا بد أن مشاعر المومياء كانت غاضبة للغاية لأنه لم يضيع الوقت في الذهاب إلى العمل، فقد كان المواطن الذي حفره بالفعل عرضة لنوبات، وأصيب بواحدة ومات في تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي، اختفت المومياء وعاد جميع الرجال إلى العمل مرة أخرى، وكأن شيئاً لم يحدث. وبعد مرور بعض الوقت، بدأ و——— في الاستفسار بحذر عما حدث للمومياء؛ لكنه لم يحصل على أي معلومات على الإطلاق. وقد قوبلت استفساراته بنظرة فارغة من الدهشة - "أمي؟ أي مومياء؟ لم تكن هناك مومياء هناك". عندما لا يعرف أحد السكان الأصليين شيئًا من هذا القبيل، فمن المستحيل نهائيًا محاولة الحصول على أي شيء منه.

استمر رجال و——— في عملهم وكأن شيئًا لم يحدث. لقد كفّر أحدهم عن الحادث الصغير الذي أصاب المومياء، لذا فقد كانوا يعلمون أن بقية الرجال في أمان...

1- الفراغات من الاصل، تعمد المؤلف عدم التصريح بالاسم.

لكنهم بدوا مهتمين بصحة و———، وسرعان ما اكتشف و——— أنه لم ينتهِ من تلك المومياء. وقبل نهاية الموسم، أصيب هو والأوروبي الذي يعمل معه، والذي كان له الفضل الأكبر في التعامل مع المومياء، بحمى خارجة شديدة، وهو شكل خبيث من الملاريا، والتي كاد و——— نفسه أن يموت منها.

وبعد فترة من الوقت، اكتشف أن رجاله نزلوا قبله في الليلة التي تم فيها استخراج المومياء، وجمعوا رفاته ودفنوه على الطريقة الإسلامية اللائقة. واكتشف مكان دفنه وبنى قبرًا رائعًا حقًا فوق قبره. لابد أن طوله يبلغ حوالي عشرة أقدام وعرضه ستة أقدام وارتفاعه قدمين. وقد بُني من أفضل أنواع الطوب الطيني التي يمكن أن تنتجها الواحة، بل إنه طلاه باللون الأبيض. ومنذ ذلك الحين، هدأت المومياء وتركت و——— في سلام.

عندما عرفت مكان دفن المومياء، قمت بوضع "بقشيش" وذلك بإدخال قطعة من فئة خمسة قروش في [31] حفرة الأرض بجوار قبره، وهو الإجراء الذي لاقى استحسانًا كبيرًا من جانب "دهب"، وكانت رحلتي في ذلك العام أكثر نجاحًا من أي عام آخر. ولكن هذا لا يعني الكثير عن ذكاء المومياء، لأن تلك القطعة التي تبلغ قيمتها خمسة قروش كانت رديئة.

ولصالح المتشككين، أود أن أضيف أن هذه القصة حقيقية، حقيقية تمامًا، أي مواطن من الخارجة سيخبرك بذلك، بالإضافة إلى وجود القبر الأبيض لإثبات ذلك؛ لذا فإن قصة المومياء حقيقية جدًا بالفعل.

بعد أن مكثنا بضعة أيام في الخارجة للسماح للقافلة بالمرور من وادي النيل، انطلقنا في رحلتنا إلى واحة الداخلة. كان طريقنا في البداية يمتد من الشرق إلى الغرب تقريبًا. وبعد وقت قصير من انطلاقنا، مر عبر رقعة يبلغ عرضها حوالي ميلين من التلال الطينية الغريبة. ويبدو أن هذه التلال، التي بدا أن ارتفاعها جميعًا أقل من عشرين قدمًا، قد تشكلت من تآكل الأرض بفعل الرمال التي تحملها الرياح، حيث كانت جميعها تمتد من الشمال إلى الجنوب، في اتجاه الرياح السائدة. وقبل الوصول إلى الجانب الغربي من الواحة مباشرة، مر طريقنا عبر فجوة في حزام من الكثبان الرملية، والتي، مثل التلال الطينية، كانت تمتد أيضًا في نفس اتجاه الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب.

تتكون هذه الأحزمة الرملية من مناطق ضيقة طويلة مغطاة بالكثبان الرملية، تمتد عبر الصحراء في خطوط مستقيمة تقريبًا، من الشمال إلى الجنوب. يبلغ طول حزام أبو محرق هذا، الذي مر به طريقنا، ما لا يقل عن أربعمائة ميل؛ ولكن على الرغم من أنه

يختلف إلى حد ما في العرض عند نقاط مختلفة على طول مساره، فإن متوسط عرضه ربما لا يزيد كثيرًا عن خمسة أميال، أي حوالي ثمانين من طوله الإجمالي. تتكون هذه الأحزمة بالكامل تقريبًا من كثبان رملية هلالية الشكل إلى حد ما. في الأماكن التي تتكون منها التلال الرملية متناثرة ومنعزلة عن بعضها البعض، مع وجود مناطق صحراوية خالية من الرمال بينها. في أجزاء أخرى تكون الكثبان الرملية أكثر كثافة، حيث تتجمع العديد من الهلالات معًا لتكوين مجموعات كبيرة، وتكون المساحات بين الكثبان الرملية أحيانًا مغطاة بالرمال أيضًا.

بعد حزام الكثبان الرملية، اتجهنا بشكل حاد نحو الجنوب وسرعان ما وصلنا إلى الطرف الشمالي للمنطقة المزروعة المحيطة بقرية الخارجة. ومن الخارجة، [32] سافرنا جنوبًا إلى قرية بولاق، ومررنا في طريقنا على معابد الحجر الرملي قصر الجهدة، أو الوحدة كما يُنطق غالبًا محليًا، وقصر زيان. كان كلاهما محاطًا بسياج من الطوب اللبن مليء ببقايا متاهة من المباني الصغيرة المهجورة المصنوعة من الطوب وتحتوي على بعض النقوش الهيروغليفية وبعض التيجان الجميلة للأعمدة.

وبعد فترة وجيزة من مغادرة قصر زيان، دخلنا منطقة رملية مغطاة بنباتات تتألف من أشجار نخيل الدوم المتفرعة الرشيقة، وأشجار السنط، وشجيرات النخيل، والأعشاب، حيث كانت بعض ماشية السلالة التي تشتهر بها الواحة ترعى. وبعد رحلة دامت نصف ساعة عبر هذه المنطقة المغطاة بالشجيرات، وصلنا إلى بساتين النخيل وقرية بولاق، التي نصبت مخيمي على الجانب الجنوبي منها. ورغم أن بولاق واحدة من أكبر قرى الواحة، ويبلغ عدد سكانها نحو ألف نسمة، إلا أنها غير مثيرة للاهتمام على الإطلاق. وتقع بساتين النخيل والأراضي المزروعة على جانبها الشرقي؛ ومن الشمال والجنوب والغرب تحدها صحراء رملية مفتوحة. ومن المعروف عنها بشكل رئيسي أنها المركز الرئيسي في الواحة لصناعة الحصير والسلال، المصنوعة بشكل رئيسي من أوراق أشجار نخيل الدوم العديدة التي تنمو في الجوار.

بعد الإفطار في اليوم التالي، أقمنا المخيم وانطلقنا غربًا عبر حزام الكثبان الرملية. استغرق الأمر ساعة وربع فقط لاجتيازه. كانت هناك مساحات شاسعة بين الكثبان الرملية خالية من الرمال، لذا، من خلال الالتزام قدر الإمكان بهذه المساحات والالتفاف حولها، حتى نتمكن من عبور التلال الرملية عند أدنى نقاطها، تمكنا من عبور الحزام والخروج إلى صحراء خالية من الرمال والحصى.

كانت هذه أول تجربة لي مع الكثبان الرملية في الصحراء الليبية، وكانت مشجعة

بشكل واضح. فلم تكن التلال الرملية أصغر حجماً مما كنت أتصور فحسب، بل كانت أسطحها أيضاً صلبة ومغطاة بالقشرة، وقد عبرناها دون صعوبة تذكر، وعندما خرجت من الجانب الأبعد، انطلقت إلى واحة الداخلة، وأنا أشعر بقدر أعظم من الأمل في أن أتمكن من عبور الرمال الثقيلة إلى الغرب من تلك الواحة مقارنة بأي وقت مضى.

بعد عبور حزام الكثبان الرملية، غيرنا مسارنا واتجهنا نحو الشمال تقريبًا لنصل إلى بئر [33] عين أمور. كانت الصحراء التي كنا نسافر عبرها مليئة بالرمال والحصى، مع وجود تلال صخرية أو سلسلة من الحجر الرملي الأسود، ولم تكن بها سوى نقاط قليلة مثيرة للاهتمام. خيمنا في الخامسة، وكانت لدي فرصة جيدة لدراسة خصائص رجالي، والعتاد الذي أحضروه معهم للرحلة.

كانت معدات "قوي" أقرب ما تكون إلى الكمال في الصحراء بقدر ما كان من الممكن الحصول عليها. كان سرج جمله عبارة عن رباط، وفوقه وسادة جلدية حمراء يجلس عليها. ووضع عليها خُرْجًا، أو حقيبتين سرجيتين، مصنوعتين من مادة قوية تشبه السجاد، أحدهما معلق على كل جانب، وفوقه بطانية حمراء مطوية، وفوقها مرة أخرى ينشر فروته، أو جلد الغنم الأسود، وهو جزء لا غنى عنه من معدات راكب الجمل، والذي لا يضعه فوق سرجه فحسب، حيث يشكل مقعدًا ناعمًا ومريحًا، بل يجلس عليه أيضًا عند النزول، ويستلقي عليه أو يغطي نفسه به في الليل ويلقيه على كتفيه في يوم بارد. وكان فوق كاهل الجمل أمام السرج وسادة صغيرة ثانية، من الجلد الأحمر أيضا، ليريح عليها ساقيه عندما يعبرهما أمامه أثناء ركوبه. وكان معلقًا من رباطه على كلا الجانبين كيس من الحبوب لجمله، وكانت جيوب خُرجه مستندة إلى أعلى الأكياس.

كان يحمل على سرجه مجموعة متنوعة من الأغراض. كانت بندقية مارتيني هنري التي أقرضته إياها، والتي نُقش عليها نص من القرآن الكريم بأحرف ذهبية، موضوعة على ظهر الجمل تحت خرجه من جهة، وكانت مظلة حمراء متوازنة من جهة أخرى. كما كان يحمل جلد ماعز لحمل الماء، وجرة صغيرة مليئة بالجبن، وحقيبة أنف الجمل، أو المخلية، والتي كان يحمل فيها عادة بعض البيض المعبأ في القش عندما يغادر واحة، وكان يتمكن من الحصول عليه من إحدى القرى أثناء مرورنا، وعقاله، أو حزام الجمل، وجلد من الدقيق، وكلها مربوطة على جزء أو آخر من سرجه.

كان يحمل في حقيبته مجموعة غير عادية من الأشياء: مرآة دائرية صغيرة ومقص أظافر قابل للطي، كان يستخدمه في نهاية مسيرة يوم ما لقص لحيته وشاربه، كان دائمًا نظيفًا ومرتبًا، وفرشاة ملابس كان يستخدمها دائمًا لتنظيف أفضل [34] ملابسه،

وأفضل أحذيته؛ ومخرز برأس مغروس في الفلين لإجراء العمليات الجراحية على الإبل؛ وإبرة تعبئة وإبرة أو اثنتين للخياطة، برؤوسها محمية بشكل مماثل، وحقيبة صغيرة تحتوي على خيوط وأزرار؛ وقطعة صابون؛ وجزء من مخروط سكر؛ وشاي، وملح، وفلفل أحمر، وحبوب وواحد أو اثنين من الأدوية العربية الغامضة الأخرى، كلها مربوطة بعناية منفصلة في قطع مختلفة من القماش، وبعض الخراطيش التي أعطيتها له لبندقيته، وأي بصل كان قادراً على الحصول عليه في الواحة الأخيرة، وكمية من التمور المجففة، لم تشكل سوى القليل من التشكيلة المتنوعة من الأشياء التي تحتويها حقائب جمله.

كانت معدات سائقي الجمال، الذين كانوا يسيرون على الأقدام بطبيعة الحال، أكثر بساطة. فكانوا يحملون معهم كيساً من الدقيق، ووعاءً من الحديد المطلي بالمينا لتحضير العجين فيه، وصحناً من الحديد المقعر قليلاً (صاج) لخبز الخبز عليه، وعلبتين أو ثلاث علب صغيرة من الصفيح، يحملون فيها السكر والملح والشاي، إذا كان لديهم أي منها، والتي كانوا يرمونها في الكيس العادي الذي يحملون فيه الكمية الصغيرة من الملابس الزائدة التي يمتلكونها.

كان دهب يحمل أمتعته في حقيبة ملفوفة في سجادة ينام عليها، وكانت حقيبته من النوع الذي يشبه العمل اليدوي. أما ملابس "خليل" فكانت في معظمها ذات طابع زخرفي، بما في ذلك بعض الأشياء التافهة مثل الوسادة الوردية الحريرية المرصعة بنجوم ذهبية كثيفة ومغطاة بغطاء وسادة مزين بالدانتيل!

في الاستخدام القاسي الذي لا ينفصل عن رحلة في الصحراء، تتضرر ملابس الجميع إلى حد ما. قام الرجال الآخرون أثناء توقفنا بإصلاح ملابسهم وترقيعها، لكن "خليل" لم يصلح أبدًا الشقوق العديدة التي بدأت تظهر في ملابسه. في النهاية أصبح مثل فزاعة لدرجة أنه عندما جلس على صخرة في يوم شديد الحرارة أثناء توقفنا في الظهيرة، نهض مرة أخرى أسرع بكثير من جلوسه، والسبب هو أن الصخرة كانت شديدة الحرارة، وبعبارة شعرية، لم يكن "مفصولًا عن الصحراء بالخياطة".

حين كان في الوادي، لاقى خليل نجاحاً ملحوظاً، فقد كان مترجماً جيداً إلى حد كبير. ولكن ما إن دخل الصحراء، حتى ظهر فوراً على حقيقته [35] كترجمان نمطيٍّ حتى الصميم تقليدي بكل ما للكلمة من معنى. لقد شكل التعامل معه محنة حقيقية، إلى أن تخلصت منه.

إن الأيام القليلة الأولى في الصحراء مع القافلة الجديدة تكون دائمًا صعبة. فالرجال لم ينخرطوا في عملهم بعد، والجمال، التي لا تعرف بعضها البعض، تقضي معظم وقتها

في القتال. والجمل المتوحش حيوان خطير ولا فائدة من اللعب معه. والمكان المناسب لضربه هو عنقه. فإذا ضربته بقوة بشيءٍ ثقيل، واستمريت في ضربه، فإنه يصاب بالذهول جزئياً ويصبح بعد ذلك قابلاً للتصرف بعقلانية. ومع ذلك، وكما قال المؤلف الموهوب لرواية "إيوثين"، "فإنك سرعان ما تتعلم أن تحب الجمل من أجل تصرفاته الأنثوية اللطيفة".

لدى العرب أسماء مختلفة يطلقونها على الإبل بحسب أعمارها - فالبهيمة التي تبلغ من العمر عامًا واحدًا تُسمى "ابن الشعر"، أو أحيانًا "ابن السنا"؛ والتي تبلغ من العمر عامين، "ابن لبون"؛ والتي تبلغ من العمر ثلاث سنوات، "حِقّ"؛ والتي تبلغ من العمر أربع سنوات، "ثني"؛ والتي تبلغ من العمر خمس سنوات، "جذع"؛ والتي تبلغ من العمر ست سنوات، "رباع"؛ والتي تبلغ من العمر سبع سنوات، "سديس"؛ والتي تبلغ من العمر ثماني سنوات، "فحل". وتُطلق هذه الأسماء على الذكور والإناث على حد سواء. بعد ثماني سنوات، يُطلق على الذكر ببساطة اسم "جمل"، وعلى الأنثى اسم "ناقة"..

في بعض الطرق السيئة للغاية، حيث توجد الكثير من الأسطح الصخرية التي يتعين عبورها، يحمل العديد من مرشدي القوافل مخرزًا وخيطًا وقطعًا من الجلد، لغرض إصلاح قدم الجمل إذا تقشر الجلد بالكامل، كما يحدث أحيانًا. لقد أصلح "قوي" قدم أحد جمالي ذات مرة بعد أن أصيبت بالعرج بسبب هذا السبب.

كانت العملية بسيطة وبدا أنها غير مؤلمة إلى حد كبير. فقد حفر ثقوبًا قطريًا لأعلى عبر الجلد السميك على حافة باطن القدم، وقطع قطعة من الجلد أكبر قليلاً من بصمة قدم الجمل، ثم مرر قطعًا من الخيوط عبر الثقوب التي حفرها، ومن خلال الثقوب المقابلة في قطعة الجلد وربط طرفي الخيط معًا. وقد قطع أحد الخيوط أو اثنين بسبب الصخرة وكان لا بد من استبدالهما. ومع ذلك، تمكن الجمل دون صعوبة كبيرة من العودة إلى الواحة، وبعد بضعة أسابيع من الراحة للسماح للجلد على باطن قدمه بالنمو مرة أخرى، تعافى .

تختلف الإبل بشكل كبير في اللون. ومن بين تلك ً[] التي اشتريتها في موسمي الأول في مصر، كان هناك حيوان ذو لون بني غير عادي إلى حد ما، وحيوانين آخرين بلون بني فاتح، أحدهما كان لون بشرته رماديًا، والآخر كان يميل إلى اللون الأسمر. أطلق رجالي على هذه الحيوانات اسم الجمل الأحمر والأزرق والأخضر على التوالي.

كان الوحش «الأخضر» هو الذي اعتدت ركوبه. لم يكن حصانًا سيئًا، ولكن نظراً لأنه لم يكن أحد يركبه قبل أن أشتريه، ولأن توجيه الجمل باستخدام لجام واحد

يشبه دائمًا محاولة توجيه ثعبان ضخم بخيط، فقد اضطررت في البداية إلى استخدام عصاي كثيرًا.

وفي عصر اليوم الثالث، وبعد أن غادرنا الخارجة، مررنا بكتلة من الطباشير المتآكلة التي تبرز فوق الأرض الرملية، والتي كانت معلمًا معروفًا عرفه أهل المنطقة بسبب شكلها باسم «أبو الهول». ومن هناك اتجهنا إلى بئر عين أمور، حيث وجدت بالقرب منها بضع بقع من الرمال ذات اللون الأزرق الفاتح.

رحلة استغرقت يومًا ونصفًا باتجاه الغرب عبر الهضبة، حيث تقع عين أمور على الجرف الشمالي، أوصلتنا إلى قمة المنحدر من مستوى الهضبة إلى واحة الداخلة.

لقد ثبت أن هذا النقب أو النزول كان صعبًا إلى حد ما. فقد انجرفت الرمال إلى أعلى الجرف الذي كان علينا أن ننزل منه، وبمجرد أن وصلنا إلى ضفة الرمال، تمكنت الإبل، من خلال السير قطريًا على المنحدر، من الوصول إلى القاع دون صعوبة. ولكن في أعلى ضفة الرمال، كانت الصخور التي يتكون منها الجرف بارزة لتشكل نوعًا من الكورنيش، وكان الطريق إلى المنحدر الرملي أسفله يمر عبر شق في الكورنيش، وكان ضيقًا للغاية لدرجة أنه كان لا بد من رفع الأمتعة مؤقتًا من على ظهور الإبل لتمكينها من المرور عبر الممر.

استغرق الأمر منا نصف ساعة للوصول إلى هذا المكان؛ ولكن بعد أن تمكنا في النهاية من الوصول إليه دون وقوع أي كارثة، خيّمنا في خليج في الجرف بعد وقت قصير من الوصول إلى القاع.

وبعد غروب الشمس بقليل، طارت أوزة برية فوق المخيم باتجاه الهضبة، قادمة من الجنوب الغربي. وثارت تكهنات كثيرة حول مصدرها، حيث لم يكن من المعروف وجود مياه في الصحراء التي جاءت منها في أي مكان أقرب من السودان.

الفصل الثالث

في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر من اليوم التالي، وصلنا إلى "عين الجملة"، أول بئر في واحة الداخلة، الواقعة بالقرب من حافة منطقة كبيرة من الشجيرات، والتي قيل إنها كانت ملاذًا مفضلًا للغزلان. توقفنا هنا لسقي الإبل. ثم تابعنا رحلتنا عبر قرية تينيدا، إلى بيلات. [37]

وفي فترة ما بعد الظهر، جاء العمدة (زعيم القرية) ومعه بعض كبار رجال القرية

للترحيب بي في الواحة، ودعوتي لتناول العشاء معه، وحياني بالصيغة الخلابة التي تُستخدم عادةً في الصحراء لأي شخص عائد من رحلة، "الحمد لله على سلامتك".

بعد العشاء، أحضروا لي رجلاً جاء من قرية "موط"، عاصمة الواحة، حاملاً لي مذكرة من المأمور، أو القاضي المحلي، يرحب بي في منطقته، ويقول إنه على الرغم من أنه سمع أنني أتيت، إلا أن أحداً لم يتمكن من نطق اسمي. طلب مني أن أطلب من شخص ما أن يكتبه باللغة العربية. كانت واحة الداخلة، على الرغم من أنها تقع داخل الحدود المصرية، قد زارها عدد قليل جداً من الأوروبيين حتى ذلك الوقت، وبالتالي فإن وصولي إلى هذا المكان البعيد خلق نوعاً من الضجة في مجتمعها الصغير.

لقد عهدت إلى "خليل" بمهمة الرد على الرسالة. إن صوت "ing" في اسمي هو صوت لم يتمكن أي شخص من الناطقين باللغة العربية من إتقانه. وفي النهاية، وبعد الكثير من المناقشات، تمكن "خليل" من كتابة الرسالة؛ وكانت النتيجة أنني بعد ذلك ذهبت إلى الواحة تحت اسم "Harden Keen".

من بيلات واصلنا رحلتنا إلى سمنت الخراب، أو سمنت المهجورة، حيث توجد بعض الآثار المبنية من الطين، وبعضها يحمل رسومات على جدرانها الداخلية، ويبدو أنها من أصل قبطي. ومن سمنت الخراب واصلنا رحلتنا إلى القرية [38] لقد كان من دواعي سروري أن أحظى بهذه الدعوة، حيث بدأنا رحلتنا مبكراً، وكانت القافلة التي قيل لها أن تنتظرني خارج القرية قد استكملت رحلتها بسبب سوء الفهم.

لقد كانت انطباعاتي الأولى عن سكان هذه الواحات، وحفاوة الاستقبال التي أبدوها، إيجابية للغاية. إلا أنني وجدت كرم ضيافتهم في بعض الأحيان مبالغاً فيه إلى حد ما.

أما عن طبيعة هذه الضيافة، فيبدو أن هناك بعض سوء الفهم. ففي كثير من الحالات يكون المضيف فرداً خاصاً، أو إذا كان عمدة، فإنه يستضيفه بصفته الخاصة. ولكن عندما تتم دعوته لتناول وجبة أو الإقامة مع عمدة، فإنه يكون في الواقع ضيفاً للقرية بأكملها، على الرغم من أن هذه الحقيقة قد لا تكون واضحة. ويحق لعمد واحة الداخلة أن يأخذوا نسبة صغيرة من تدفق أي بئر جديد يتم حفره في منطقتهم، لدفع ثمن الضيافة التي يقدمونها للغرباء الذين يأتون إلى قريتهم. وفي الحالات التي لا توجد فيها آبار جديدة، فإنهم يجمعون من رؤساء الأسر المختلفة النفقات التي تكبدوها [39] بهذه الطريقة، بحيث تقع تكاليف الترفيه في الواقع على عاتق القرية بأكملها.

إن أغلب سكان هذه الواحات فقراء للغاية، ومن غير المقبول أن يعيش الأوروبيون



بيت عمدة تيندا

على هذه الحال. ولكن رفض ضيافتهم يعتبر إهانة، إن لم يكن إهانة حقيقية، وينطبق الأمر نفسه على أي محاولة لتقديم أي مبلغ لهم في المقابل.

كانت الوجبات، كقاعدة عامة، مطبوخة بشكل جيد، وعادة ما تكون أفضل من تلك التي كنت أتناولها في المخيم. كان الشاي والسجائر هما المحنة التي واجهتها. إن الرفاهية الوحيدة التي يسمح بها سكان الواحة لأنفسهم هي الشاي؛ حتى أفقرهم يستهلكون كميات هائلة منه. إن جودة الشاي في منازل الطبقة الراقية لا تشوبها شائبة. ويقال إن أفضل أنواعه تأتي من بلاد فارس، وقد قيل لي إن سعر الرطل (الجنيه المصري) يصل إلى جنيه استرليني واحد. وبالإضافة إلى الشاي الأحمر، يتم استخدام الشاي الأخضر، وكذلك الشاي البني والأسود. وقد تذوقت الشاي الأخير مرة واحدة فقط؛ وبدا أنه من نوعية رديئة. وكثيراً ما يقدم السكان الأصليون الأكثر ثراءً نوعين أو حتى ثلاثة أنواع مختلفة على التوالي.

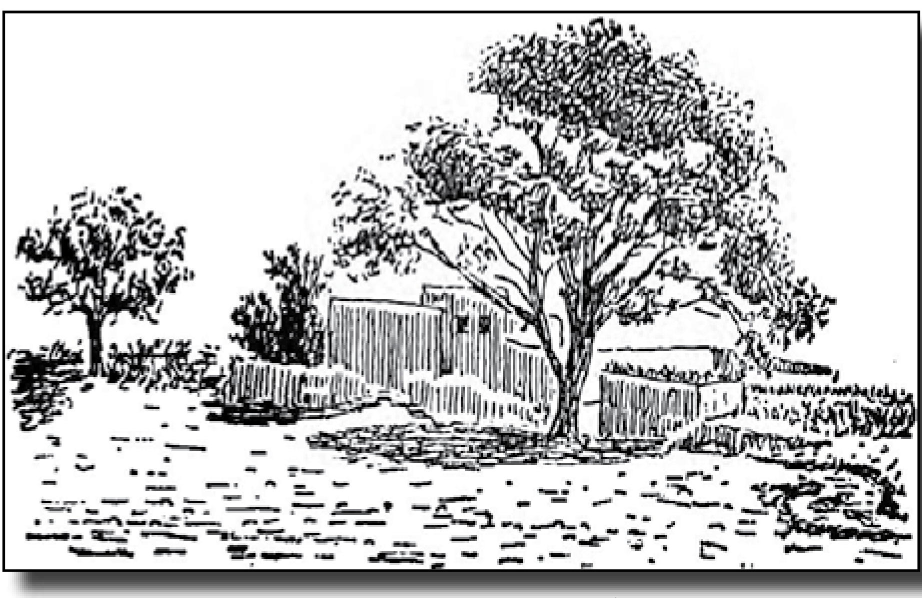
بعد الشرب، من الصحيح أن تجلس صامتاً لبعض الوقت وتلعق شفتيك وتتذوق الشاي، كما يُطلق عليه، كإطراء على جودة الشاي الذي يقدمه لك مضيفك. لدى

السكان الأصليين طريقة أخرى لإظهار تقديرهم للطعام المقدم لهم، ومع ذلك، سيكون من الأفضل عدم وصفها.

لم تكن المحنة الأعظم التي واجهتها هي الشاي بل السجائر. كان مضيفي يستخرج من بين طيات ملابسه الضخمة علبة تبغ كبيرة لامعة من الورق المعجن، مطعمة بالصدف، يخرج منها بعض أوراق التبغ والسجائر، ثم يشرع في لف سيجارة لي، ثم يلعقها.

وفي النهاية وجدت وسيلة لتجنبهم. فإذا عرضت عليّ سيجارة قبل الشاي، كنت أضعها فوق أذني، وهو الوضع الصحيح لحملها في الواحات، وأشرح لهم أنني سوف أدخنها في وقت لاحق، حتى لا أفسد الشاي. وإذا قُدِّمَت لي السيجارة بعد شرب الشاي، كنت أستطيع تأجيل إشعالها لبعض الوقت بالقول إنني لن أدخنها في تلك اللحظة، لأنني ما زلت "أتذوق" [40] الشاي، ثم، بينما كنت لا أزال ألعق شفتي وألعقها، والسجائر لا تزال غير مدخنة فوق أذني، وجدت أنه قد حان وقت المغادرة. بمجرد أن أكون خارج منزل مضيفي بأمان في الصحراء، كانت السيجارة تسقط من أذني ويسرع رجالي إلى انتشالها.

ولكن في سمينت لم يكن هناك أي سجائر. ولم يكن من الصعب معرفة السبب. فقد بنى السنوسيون زاوية بالقرب من القرية، وكان عدد كبير من سكان القرية قد



الزاوية السنوسية في سمينت.

اعتنقوا بالفعل مبادئ الطائفة، أو كما يقول السكان الأصليون "اتبعوا الشيخ". ويُحظر على أعضاء هذه الطائفة التدخين.

وبصحبة العمدة ذهبنا لزيارة شيخ الزاوية، وبعد أن تحدث إلينا لمدة دقيقة أو دقيقتين، دعانا بابتسامة غاضبة إلى الدخول وقدم لنا الشاي المعتاد.

كانت الزاوية عبارة عن مبنى من الطين يبدو متواضعًا جدا، وربما كانت مجرد منزل لقروي ثري. وكان رئيسها، "الشيخ السنوسي" بالاسم، شابًا في أوائل العشرينيات من عمره، وربما حصل على المنصب بسبب حقيقة أنه تزوج من ابنة الشيخ محمد الموهوب، كبير شيوخ السنوسية في الداخلة، والذي كان لديه زاوية في قصر الداخل، أكبر مدينة في الواحة، وتقع في الزاوية الشمالية الغربية منها.

قيل إنه عربي من نواحي طرابلس، وهو قولٌ أكدته ملابسه، [41] التي كانت تتألف من الحِرام الأبيض العادي الذي يرتديه عربي طرابلسي من الطبقة الفقيرة. كان صامتاً جداً طوال زيارتنا، وعندما كان يتنازل ويتحدث، فقد كان ذلك في الغالب ليسخر أو يضحك من ملاحظةٍ أبديناها. وبالتالي، اختُصِرت المقابلة قدر الإمكان.

وبعد أن نجح "قوي" في استخراج بعض الشعير لجماله من العمدة، بدأنا من جديد،



إعادة نعل قدم الجمل / إن الصخور الحادة في الصحراء تؤدي أحيانًا إلى سلخ الجلد بالكامل من باطن قدم الجمل، فيستبدل العرب ذلك بقطعة من الجلد مخيطة على قدم الجمل. (ص 35).

نحو قرية "موط"، التي تقع على بعد حوالي ستة أميال إلى الغرب.

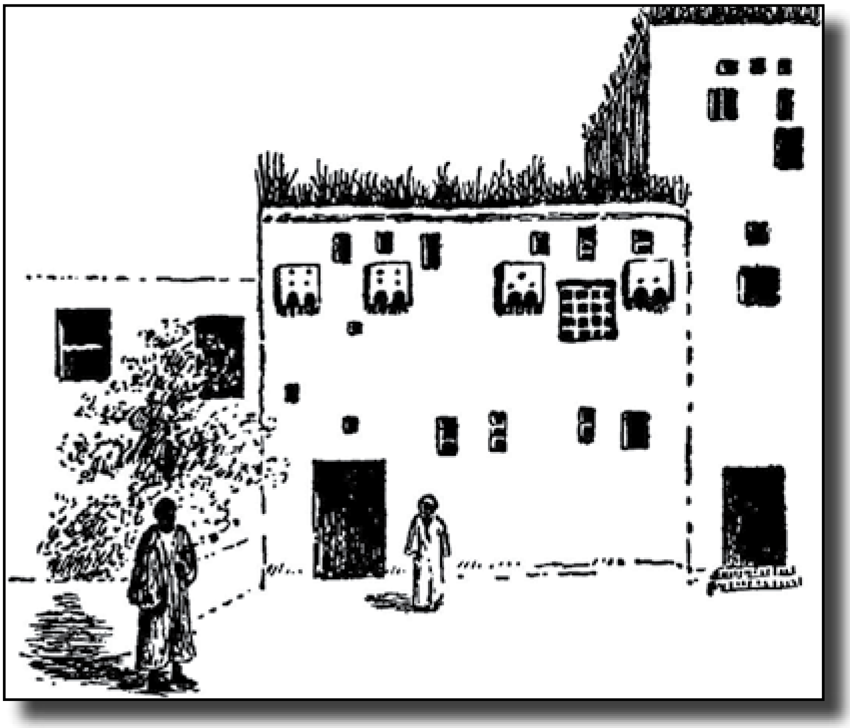
في كثير من أجزاء هذه الواحات، تبدو المناظر الطبيعية غاية في الجمال. كان طريقنا إلى مدينة "موط" يمر عبر حقول مزروعة، تتخللها مناطق من الأراضي المليئة بالملح، وتتناثر فيها مزارع النخيل والتلال المنخفضة. وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال عند سفح الجرف الذي يحد الواحة، تقع بساتين النخيل في قرية هندو. وكانت الحقول، بحبوبها الناضجة ومحاصيلها الخضراء من البرسيم، والتلال الصفراء، وكل أشجار النخيل الجميلة بأوراقها الخضراء الداكنة، على خلفية من الكثبان الرملية ذات اللون الكريمي والمنحدرات الأرجوانية، تشكل صورة جميلة في ضوء غروب الشمس.

ولكن مع اقترابنا من مدينة "موط"، أصبحت البلاد أقل إنتاجية. فقد حلت مساحات شاسعة من الأراضي المليئة بالملح والمساحات القاحلة من الصحراء محل الحقول الخصبة وبساتين النخيل في جوار مسرة وسمنت. وربما يرجع ذلك إلى حفر آبار جديدة على مستوى أدنى في قرية رشيدة، مما أدى إلى انخفاض إمدادات المياه في مدينة "موط" لسنوات عديدة، والآن، على الرغم من أن المكان هو المدينة الرئيسية، فإن المنطقة التي تقع فيها هي واحدة من أفقر المناطق في الواحة بأكملها.

وصلنا إلى مدينة "موط" في الغسق بعد غروب الشمس بقليل. بُني المكان على تلة منخفضة، ويمكن رؤيته في الضوء الخافت، وأعطى انطباعاً إلى حد ما ببلدة محصنة قديمة من العصور الوسطى. تجولنا حول جانبها الجنوبي، متجاوزين عدداً من الحظائر المسورة المستخدمة لإيقاف الماشية ليلاً، ومررنا عبر فجوة في الزاوية الجنوبية الغربية من الجدار المحيط بالمدينة، ووصلنا إلى مبنى ضخم مترامي الأطراف مبني من الطين، يستخدم بشكل أساسي كمخزن، وقد حصلت على إذن بالإقامة فيه. كان مكاناً كئيباً، ومن الواضح أنه بُني بهدف الدفاع. دخلنا من خلال بوابة في الجدار، مؤمنة بقضيب، واستدرنا إلى اليمين بعد بعض المباني الخارجية المنخفضة، ووجدنا أنفسنا [42] في ساحة ضيقة محاطة من ثلاث جهات بمبانٍ عالية مكونة من طابقين، ويبدو أن الجزء العلوي قد استُخدم في وقت ما كحرم لأحد نزلائه السابقين.

كانت الأبواب تفتح من طرفي الرواق الذي يربط بين الجناحين. كان أحد الأبواب يؤدي إلى مركز ثلاث غرف على الجانب الغربي تطل على الصحراء، وكان الآخر يؤدي إلى بعض الغرف الصغيرة التي كان بها موقد للطهي، وقد خصصت هذه الغرف لدهب و"خليل"، مع الاحتفاظ بالغرفبية الثلاث لاستخدامي الشخصي.

لقد ثبت أن هذه الغرف مرتفعة وواسعة وجيدة التهوية، كما أنها تتمتع بإطلالة رائعة



البيوت القديمة في موط

على الصحراء. وكانت النوافذ كبيرة ومجهزة بنوع من التعريشات. وهذا لم يجعل الغرف أكثر خصوصية فحسب، بل قلل بشكل كبير من وهج الصحراء. لذا، وبصرف النظر عن حقيقة أن الأرضيات في العديد من الأماكن بدت غير آمنة، وأن المكان كان يعج بالعقارب، لم أجد أي عيب في مسكني.

خرجت عند الغسق، بمجرد أن استقررنا في [43] مساكننا في المتجر القديم، لأرى ما أستطيع من المدينة. كانت العديد من الشوارع مسقوفة، كما هو الحال في واحة الخارجة، لكن الأنفاق لم تكن طويلة جدًا وكانت أعلى بكثير، لذلك، باستثناء عدم استواء الطريق، لم نواجه أي صعوبة في التنقل. ومع ذلك، اضطررنا إلى حمل فانوس للعثور على طريقنا.

لم يكن هناك الكثير مما يمكن رؤيته؛ لكن صوت النساء الرتيب وهن يطحنن الأرز، وصوت المطاحن الحجرية الصغيرة التي يطحنن بها الحبوب، ورائحة دخان الخشب، وغناء النساء الناعم، وشريط الضوء الأحمر العرضي الذي يعبر الطريق من

بعض الأبواب المفتوحة جزئيًا، أظهر أن معظم السكان كانوا في منازلهم يعدون وجباتهم المسائية.

يدخل الأرز بشكل كبير في قائمة طعام سكان الواحات، وتقوم النساء بضربه بحجر كبير ممسوك بكلتا يديهن، ثم ينزلونه بكل قوتهن في حفرة صغيرة على شكل حوض محفورة من أرضية الحجر الرملي الصخري التي بنيت عليها المدينة.

في صباح اليوم التالي، استقبلني المأمور (القاضي)، "إبراهيم" زكي، والطبيب جورجي مايكل، وهو قبطي من سوريا، والضابط (ضابط الشرطة). كان المأمور والطبيب يتحدثان الإنجليزية بشكل جيد إلى حد ما.

ومثل أغلب المسؤولين المحليين الذين يمكن أن نجدهم في الواحات، كان المأمور تحت سحابة من الغضب، وقد أرسل إلى الداخلة كعقاب على بعض أفعاله السيئة في آخر تعيين له. إن هذه المناصب في الواحات لا يحبها السكان المحليون، لأنهم في هذه المناطق النائية معزولون عن الحياة المرحة في مدن وادي النيل. ومع ذلك، فإن التعيينات لها مزايا معينة. قد يكون البعد عن مدن وادي النيل مملا، ولكنه يحررهم من الإشراف المستمر للمفتشين الإنجليز، وهي حالة لا يتردد المصريون عادة في الاستفادة منها، من خلال ابتزاز البخشيش من الفلاحين البائسين في منطقتهم، في كثير من الأحيان إلى حد فاضح للغاية.

لقد كتب أحد المفتشين الإنجليز بلطف شديد [44] لقد ذهبت إلى المأمور لأخبره بقدومي إلى منطقته، وأطلب منه مساعدتي بأي طريقة يستطيعها. وبما أن فترة ولاية المأمور في الداخلة كانت على وشك الانتهاء، فقد كان حريصًا للغاية على الحصول على كلمتي الطيبة من المفتش حتى يتم تعيينه في منطقة أفضل. وبالتالي، كان شديد التملق ومستمراً في اهتماماته، حتى نقلته الحكومة إلى منطقة أخرى أسوأ.

لم يكن متحمسًا على الإطلاق لحياته في الواحة، ومن خلال روايته للسكان الأصليين، كان من الواضح أنه ينظر إليهم على أنهم بعيدون قليلاً عن الحيوانات. أوضح أنه ترك زوجته في مصر، ولكن لأنه وجد أنه لا يستطيع العيش بدونها، فقد تزوج فتاة صغيرة من مدينة "موط". اشتكى بمرارة من النفقات التي أنفقتها عليه، لأنه كما عبر عن ذلك بإنجليزيته المعيبة إلى حد ما، "كلفته 25 جنيهًا إسترلينيًا لتنظيفها!"

وبعد أن غادر المسؤولون المصريون، جاءت مجموعة من العمد من جميع أنحاء الواحة لتقديم احتراماتهم وطلبوا مني أن أذهب إلى قراهم.

بعد العُمد (كبار القرية)، جاءت شخصياتٌ ثانويةٌ مختلفة. أولهم كان ساعي البريد علي الجمال، وهو عربي ضخم الجثة ذو لحية سوداء يُدعى علي كاشوتا، الذي أطل علينا، وشرب كمية كبيرة جداً من الشاي (ما يعادل جالوناً أو اثنين)، وأخذ حفنة من السجائر من العلبة التي قُدّمت له، وأخبرني مراراً وتكراراً أنه خادمي، وكان من الواضح أنه لا يعني ذلك؛ ثم سأل عما إذا كان لدي أي رسائل للبريد، وانصرف، تاركاً وراءه أجواءً من الاستقلالية والعفوية، مما شكّل تبايناً محبباً مع سلوك التملق لدى بقية السكان المحليين."

ثم جاء كاتب القاضي "الشيخ السنوسي"، وكان من أتباع المذهب السنوسي أيضًا. وكان رجلاً متعلمًا جدًا وشاعرًا في أوقات فراغه. وكان يشرب الشاي، ولكنه لم يكن يدخن، وكان يبتسم ويثني.

ثم جاء مدير مكتب البريد. كان قد ذهب إلى المدرسة في وادي النيل وكان يتحدث الإنجليزية جيدًا. أوضح لي، وهو ما بدأت أدركه، أنني كنت أسبب الكثير من الحيرة لأهل الواحة الطيبين؛ ولم يتمكنوا من التعرف عليّ على الإطلاق. ومع ذلك، قال مدير مكتب البريد: [45] كان أحد أصدقائي، الذي تلقى تعليمه في مصر، يعرف كل شيء عن هذا الموضوع. لقد قرأ عن رجل يُدعى "كريستوفر كولومبوس"، الذي وجد أمريكا، وظن أنني لابد وأن أكون من نفس المجال. أخبرته أنه على حق. أشرق وجهه بالبهجة، وغادر على الفور ليخبر واحة منتظرة أن المشكلة الكبرى قد تم حلها. قبل أن يرحل، تمنى أن يحفظني الله في رحلتي، وتمنى أن أجد أمريكا أخرى في الصحراء الليبية.

وفي فترة ما بعد الظهر، ذهبت لتناول الشاي مع المأمور في المركز، أو المقر الرسمي.

وكان أحد ضيوفه رجلاً طويل القامة ذكي المظهر، وقد قدم لي باعتباره عمدة رشيدة، وأضاف المأمور باللغة الإنجليزية أنه كان من أكثر الرجال كرمًا في الواحة؛ ولكنه كان مغرمًا جدًا بالويسكي.

ولكن للأسف ثبت أن هذا البيان الأخير صحيح. فوفقًا لما ذكره المأمور، كان مدمنًا للخمر ومنحرفًا للغاية. ولكن هذا كان مبالغة.

كان الحب بينه وبين هذا العمدة ضئيلاً للغاية. وقبل وصولي بفترة وجيزة، كانا يتشاجران بشدة. ولم أسمع قط عن سبب الخلاف، ربما كان ذلك بسبب البحث عن المرأة، لأن الداخلة من تلك الأماكن المؤسفة حيث "حب الرجل لزوجته شيء منفصل، إنه إصرار المرأة بالكامل"، كما عبر عن ذلك بايرون. هؤلاء السكان الأصليون ضيقو الأفق سوف يتشاجرون حول أكثر الأمور تافهة ويستمرون في الشجار لسنوات.

وكثيرًا ما يتحول الخلاف من النوع الصبياني إلى مسألة عائلية وينتهي إلى عداوة وراثية منتظمة. وفي وادي النيل غالبًا ما يؤدي هذا إلى إراقة الدماء. في الواحات، على أية حال، يأخذ الشجار عادة شكل إساءة الجانبين وإخبار الأكاذيب عن بعضهما البعض وراء ظهرهما، والمشاجرة كلما أتيحت لهم الفرصة للقاء، والسعي في كل فرصة ممكنة إلى إخضاع خصمهم للإهانة (الاستخفاف، الإهمال)، والتي غالبًا ما تكون من أكثر الأوصاف تفصيلاً.

قبل وصولي بفترة وجيزة، سئم العمدة من المشاجرات، أو وجد أن المأمور يجعل الأمور غير سارة بالنسبة له، فمد له غصن الزيتون بإرسال سلة من التوت المبكر، وهي فاكهة ثمينة للغاية. [46] كان المأمور قد استغل هذه الفرصة لإذلال خصمه، فألقى بالفاكهة من نافذته إلى الساحة أمام المسجد، حيث شاهدها كل السكان. وكان الجميع يعتبرون أن هذه الفاكهة قد حققت له مكاسب كبيرة، وأن هذه كانت واحدة من أفضل الإهانات التي شوهدت منذ سنوات. وكان أهل الواحة يتحدثون عنها.

ولقد شعر أنصار العمدة بالانزعاج الشديد نتيجة لذلك؛ ولكنهم حاولوا التغطية على هزيمتهم من خلال توضيح أن هذه المحاولة لم تكن في الحقيقة محاولة جيدة، فلم يقم المأمور بإلقاء كل التوت، كما ذكر، بل أخرج كل التوت الجيد وألقى فقط الفاسد من نافذته؛ لذا فإنها كمحاولة لم تكن ذات قيمة على الإطلاق.

في نهاية المطاف، تصاعدت المشاعر السيئة بينهما إلى درجة أن بعض الرجال البارزين في الواحة قرروا محاولة إحداث المصالحة بينهما، وتم إجراء حفل يُعرف باسم "صنع السلام".

لقد دُعي الخصمان إلى الاجتماع معًا بحضور بعض أصدقائهما الذين تشاجروا معهما، وفي النهاية تم حل الشجار. ثم عانقا بعضهما البعض واتفقا على تناول الطعام معًا. لقد تناولا وليمة ضخمة حيث لعب الويسكي دورًا بارزًا على ما يبدو، ثم سكرا وبدأا في الشجار بعنف مرة أخرى في أكوابهما. في صباح اليوم التالي، عندما شعر كل منهما على الأرجح بالضيق، بدأ صانعو السلام في العمل مرة أخرى وأوضحوا لهما أنهما لم يلعبا اللعبة، وتم المصالحة مرة أخرى؛ لكن كان لا يزال هناك قدر كبير من المشاعر السيئة الكامنة بينهما والتي تنفيس عن نفسها في الغالب في الغيبة، تحت مظهر الصداقة.

الفصل الرابع

بناءً على نصيحة "قوي"، بدأت في إطعام جمالي البرسيم، استعدادًا لرحلتنا إلى

الكثبان الرملية. هناك نوعان من البرسيم يُزرعان في الواحة: البرسيم البلدي [1] وبيرسيم حجازي [2]. ومع ذلك، لا ينبغي إطعام البرسيم الحجازي للإبل في حالته الخضراء، لأنه في كثير من الأحيان يسبب لها الإسهال.[47]

كان يتم شراء البرسيم من السكان الأصليين بالقنطار، وهو مائة جنيه مصري. في البداية كانت هناك بعض الصعوبة في وزنه. ومع ذلك، أثبت "عبد الرحمان" أنه على قدر المسؤولية. فقد اكتشف صخرة كان من المفترض أن تزن قنطاراً، وهو الوزن القياسي للواحة بأكملها. ثم قام بتجهيز زوج من الميزان، يتكون من سلتين مثبتتين في كل طرف من طرفي عارضة، معلقتين من عارضة ثانية.

في مساء اليوم الأول الذي قضيته في مدينة "موط"، صعدت إلى قمة تلة منخفضة قريبة من البلدة لألقي نظرة على حقل الكثبان الرملية الذي كنت آمل أن أعبره. كان من المستحيل أن أتخيل مشهداً أكثر كآبة من هذا. لم تكن تلال الرمال في محيط البلدة أعلى بكثير من تلك التي صادفناها عند مغادرة واحة الخارجة فحسب، بل كانت تمتد إلى أبعد ما يمكن رؤيته حتى الأفق، ومن الواضح أنها أصبحت أكبر بكثير في المسافة البعيدة، حيث كانت مرتفعة بشكل واضح.

عدت إلى غرفتي وأنا أشعر بحزن شديد، متمنياً لو لم أكن أحمقًا إلى الحد الذي يجعلني أخوض غمار بلاد الشيطان، كما يسميها أهل الصحراء، وأتساءل عما إذا كنت سأجد نفسي بعد بضع ساعات من السفر مضطراً إلى العودة منهكًا وذيلي مشدوداً بإحكام بين ساقي إلى وادي النيل. ونتيجة لهذا فقد ظللت مستيقظًا طوال الليل.

[48] ولكن ضوء النهار كالمعتاد جعل الأمور تبدو أكثر بهجة. وعلى أية حال، كان بوسعي أن أجرب الأمر، وبما أن جمالي لم تكن في حالة جيدة، فقد قررت أن أمنحها قسطاً من الراحة وأطعمها حتى تصل إلى أفضل حالة ممكنة، قبل أن أخضعها لمهمة بدت مستحيلة تقريبًا. وفي الوقت نفسه، فكرت في أنه من الأفضل أن أرى شيئًا من الواحة، وفي الوقت نفسه أجمع ما أستطيع من المعلومات عن الصحراء.

وبعد أيام قليلة من وصولي إلى مدينة "موط"، انطلقت مع المأمور والشرطي والطبيب للإقامة ليلة واحدة مع عمدة رشيدة، تاركين القافلة خلفي.

خلال الساعتين الأوليين بعد مغادرة مدينة "موط"، وحتى وصولنا إلى قرية القلمون، كان طريقنا يقع فوق منطقة قاحلة مغطاة إلى حد كبير بالرمال السائبة، وهو ما ثبت أنه صعب للغاية.

القلمون قرية خلابة إلى حد ما، ويبدو أنها بُنيت بهدف الدفاع. تغطي الرمال الزاحفة مساحة كبيرة من الأراضي في المنطقة المجاورة، ويبدو أنها في بعض الأماكن تزحف على الأراضي الزراعية، وإن كانت لا تسبب أي ضرر جسيم. تزرع نسبة كبيرة بشكل غير معتاد من الأراضي في المنطقة المجاورة بنخيل التمر، وبما أن إمدادات المياه تبدو وفيرة إلى حد ما، فإن المكان يبدو عليه الازدهار والرخاء. في بعض الحالات، يبدو أن الآبار آخذة في النضوب، إذ شوهدت بعض الشواديف لرفع المياه. هذه (الشواديف) وبعض أشجار نخيل الدوم منحت المنطقة المجاورة مظهراً مميزاً إلى حد ما. بالطبع زرنا العمدة. شيوخ هذه القرية – وهم آل الشربجي – يزعمون أنهم حكموا الواحة منذ عهد السلطان سليم "العنيف".

عند مغادرة القلمون، توجهنا مباشرة إلى رشيدة، وكان معظم طريقنا يمر عبر حقول مزروعة بالحبوب. وقبل الوصول إلى القرية، مررنا بشجرة ميتة كبيرة، شجرة سنط أو أكاسيا على ما يبدو، تعرف باسم "شجرة الشيخ آدم"، ويقال إنها تمتلك روحاً. ويقال إن خشب هذه الشجرة غير قابل للاشتعال.

قبل وقت قصير من الوصول إلى رشيدة، استقبلنا العمدة وبعض أفراد عائلته، الذين خرجوا للقائنا، وكانوا جميعاً يمتطون خيولاً سورية رائعة، [49] كانت الخيول مغطاة بسروج مطرزة بشكل غني وأغطية سرج. انضموا إلى مجموعتنا وركبوا معنا عائدين إلى رشيدة.



سلسلة من الأخاديد الرملية.
تتسبب الرمال التي تحملها الرياح في إحداث أخاديد في الصخور، وفي بعض الأحيان تترك خطوطًا كبيرة تقف فوق سطحها. (ص 308).



القرية هي واحدة من أجمل القرى وأكثرها خصوبة في الواحة. وهي مبنية على تلة منخفضة تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من بستان واسع جدًا من أشجار النخيل، حيث زرعت في ظلها أعداد كبيرة من أشجار الفاكهة: التين والتوت والمشمش والبرتقال واليوسفي، المعروف في مصر باسم يوسف أفندي، أي السيد جوزيف، والموز واللوز والرمان والليمون والليمون الحامض والزيتون والليمون الحلو، حيث يحمل الأخير ثمرة كبيرة، عديمة الطعم، لكنها كثيرة العصير، تشبه في مظهرها الليمون.

الشجرة ذات الروح، رشيدة.

تقع القرية بالقرب من الجرف. وكان الجزء الداخلي من القرية من النوع العادي،



في موط القديمة

وهذا يظهر الطابع المحصن للمنازل التي بنيت سابقًا في واحات الصحراء الليبية كوسيلة دفاع ضد الغارات. (ص 41).

وبصرف النظر عن المظهر المزدهر غير المعتاد ووجود جدران بعض منازلها مطلية من الخارج بأنماط هندسية، عادة باللونين الأحمر والأبيض، لم تكن تختلف عن القرى الأخرى في الواحة.

كان منزل العمدة في موقع جميل، حيث كانت أشجار النخيل تنمو حتى الجدران تقريبًا. أخذنا إلى غرفة الضيوف الخاصة به، وهي غرفة طويلة ضيقة مطلية باللون الأبيض ومفروشة بالكامل تقريبًا على الطريقة الأوروبية، مع كراسي استرخاء وأرائك حول الجدران ومصباح معلق كبير مطلي بالذهب وكراسي خشبية منحنية وطاولات ثلاثية الأرجل. كانت النوافذ مغطاة بستائر أوروبية [50] والأرضية مغطاة بالسجاد الشرقي، كما توجد مرآة كبيرة بإطار مذهب وصورة مرسومة بالخط الزيتي للخديوي.

عند دخول الغرفة، يقع بصر المرء على الفور على كلمتي "أهلاً وسهلاً" - وتعني الترحيب - مكتوبتين على الجدار المقابل. وبالفعل، جعلنا ذلك العمدة المضياف نشعر



الشجرة ذات الروح/ رشيدة

بالترحاب الشديد. كانت النوافذ تُبقَى مغلقة بإحكام طوال الصباح لمنع دخول الحر والذباب، ولكنها فُتحت لدى وصولنا. ثم دخل العمدة وشرع في رش الغرفة والحاضرين فيها بالعطر. وبعد فترة وجيزة، قُدِّم الشاي والسجائر كالعادة.

بعد تبادل المجاملات، والاستفسار عن صحة جميع الحاضرين، والانتهاء من المقدمات المهذبة المعتادة - وهي عملية استغرقت بضع دقائق - تحول الحديث إلى الخيل. فقط قلة من أثرياء أهالي الواحات يستطيعون اقتناءها، أما البقية، فعندما لا يمشون، يركبون الحمير. ويبدو أن أهم الصفات التي يقدّرونها في الخيل كانت: الكفل القوي، وعظام القوائم المستديرة، والرأس الصغير، لا سيما المخطم الصغير وفتحتي الأنف الواسعتين.

بعد الغداء، وعندما خفت حدة حر النهار، اصطحبنا العمدة لرؤية بعض معالم القرية. أولاً، قادنا إلى خراب كبير من الطين يُعرف باسم دير أبو ماضي. أخبرنا أنه استخرج عدداً من المومياوات على بعد ميل تقريباً شمال القرية، وقال إنها كانت مدفونة في توابيت فخارية. وأظهرت كِسَرٌ من أحد هذه التوابيت التي أحضرها لنا

أنها لا بد كانت بسماكة ثلاث بوصات تقريباً، وأنه من الواضح أنها خُبزت في فرن. كان العديد من المومياوات ملفوفاً بقماشٍ من نوع ما، وأذرعها ممدودة باستقامة على جانبيها، ثم لُفت بإحكام حولها بحبل. وعُرِضت علينا بقايا إحدى هذه المومياوات. إلا أنها كانت محطمة بالكامل، لأن العمدة وعائلته كانوا قد نصبوها بشكل قائمٍ على الأرض ثم تسلوا بتحويلها إلى هدف للرمي (مثل لعبة "عمة سالي" البريطانية). كما استخرجت عملة معدنية أو اثنتان وجمجمة غزال من إحدى المقابر. ولكن للأسف، كانت العملات متآكلة وتالفة لدرجة أنه لم يكن بالإمكان التعرف عليها. يبدو [51] أن هناك الكثير من العمل لعالم آثار في الداخلة - بل وأكثر من ذلك لمفتش آثار."

ثم انطلقنا لنرى المنظر العظيم في رشيدة، بئر مجنون، أو "البئر الحمقاء". فعندما بدأ حفر هذه البئر منذ أربعين عاماً تقريبًا، توقف العمال عن العمل ليوم واحد، دون أن يدركوا أنهم قد وصلوا تقريبًا إلى الطبقة الحاملة للمياه، وكانت النتيجة أن شقت المياه طريقها عبر المسافة الصغيرة من قاع البئر إلى قمة خزان المياه، وتدفقت بقوة شديدة حتى أجبرت الأنابيب، فوق البئر، على الخروج جزئيًا من الأرض، وغمرت البلاد بأكملها.

عندما وصلت إلى الواحات لأول مرة، استفسرت من أهلها من كل الجهات عن الآبار أو الطرق أو الواحات التي يمكن العثور عليها في الأجزاء المجهولة من الصحراء، خارج حدود السنوسية. لفترة طويلة لم أستطع استخراج أي معلومات من أي منهم، ولم أحصل على أي معلومات على الإطلاق إلا عندما وصلت إلى رشيدة، وسألت العمدة عما إذا كان يعرف أي شيء عن واحة زرزورة. لا شيء يوقف مواطن الداخلة عندما يتحدث عن هذا الموضوع، ويبدأ المرء في إدراك مدى ضآلة التغيير الذي طرأ على الشرق منذ الأيام التي كتبت فيها "ألف ليلة وليلة".

يقضي العديد من الأثرياء من سكان الواحات، وكذلك سكان وادي النيل، جزءًا كبيرًا من وقتهم في البحث عن الكنوز المدفونة. وهذه المهمة شاقة للغاية، حتى أن الأوروبيين أنفسهم يقعون ضحايا لها في بعض الأحيان. ورغم أن الأمر قد يبدو غريبًا للوهلة الأولى، فإن الجهود التي يبذلها السكان الأصليون غالباً ما تتكلل ببعض النجاح.

إن السبب ليس بالبعيد. ففي الأيام الخوالي، عندما كان يحكم البلاد عدد كبير من المسؤولين الأتراك الفاسدين، كان المواطن الذي كان معروفًا بامتلاكه لأي قدر من الثروة، يصبح على الفور موضوعاً لانتباههم المبتز. وبالتالي كان يتخذ كل الاحتياطات لإخفاء ثروته عن هؤلاء المسؤولين الجشعين. وكانت الخطة التي كان يتبناها في كثير من الأحيان هي دفن الأشياء الثمينة في الأرض. وكثيرًا ما كان يموت دون أن يخبر

أقاربه بمكان وجود مخبئه. وربما يبلغ الكنز المدفون بهذه الطريقة في مصر [52] مبلغًا ضخمًا في المجمل، إذا أمكن تحديد مكانه فقط.

كما أن مواقع المستوطنات الرومانية القديمة منتشرة في كل أنحاء مصر. والطريقة غير المبالية التي بعثر بها الرومان أموالهم الصغيرة في شوارع مدنهم مدهشة حقًا. فمن الصعب أن تحفر لمدة ساعة في أي موقع روماني قديم دون أن تصادف عملة نحاسية قديمة أو اثنتين.

إن أي مواطن يعثر على بعض العملات المعدنية بهذه الطريقة، سوف يقضي أسابيع، عندما لا يكون هناك من يراقبه، في التجول في الحي على أمل العثور على المزيد. وإذا حالفه الحظ في العثور على وعاء فخاري يحتوي على حفنة أو اثنتين من العملات المعدنية القديمة المخبأة في الماضي لدى أحد الباشاوات الأتراك، فمن المؤكد أنه سوف يصبح صائد ثروات لبقية حياته. ولا شك أن مبالغ كبيرة جداً، تساوي عدة جنيهات في المرة الواحدة، يتم العثور عليها أحيانًا بهذه الطريقة. إن المواطنين الأصليين كتومون بشكل غير عادي بشأن هذا النوع من الأشياء، ولقد ظلوا لفترة طويلة تحت حكم حكومة فاسدة لدرجة أنهم يستطيعون الدفاع عن أنفسهم بشكل أفضل بكثير من أي رجل أبيض، فحتى الآن في المناطق النائية مثل الواحات، حيث لا يستطيع المفتشون الإنجليز الإشراف بشكل صحيح على المسؤولين الأصليين، فإن الحاكم المبتز يكون في بعض الأحيان دليلاً غير سار للغاية.

في بحثهم عن الثروات المدفونة، يسترشد السكان الأصليون غالبًا بـ "كتب الكنز" القديمة. كل مواطن يحترم نفسه، وهو ثري بما يكفي لشراء نسخة من هذه الكتب، يمتلك نسخة واحدة على الأقل.

قبل أن أغادر الخارجة، كنت محظوظًا بلقاء إي. إيه. جونسون باشا، المعروف بترجمته لكامل رباعيات عمر الخيام إلى الشعر الإنجليزي، ولم يترجم فيتزجيرالد بالطبع سوى جزء منها. وكان هو المالك الفخور للنسخة الكاملة الوحيدة المعروفة من كتاب بهذا الوصف، والتي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر.

من بين مشاكل الصحراء الليبية، الواقعة خارج الحدود الغربية لمصر، مشكلة الواحة المعروفة باسم زرزورة، أو "واحة السود". وأعتقد أن أول من سمع عنها هو رولفس، الذي وجد الكثبان الرملية في محاولته الذهاب غربًا من واحة الداخلة إلى الكفرة. [53] كان الطريق غير سالك لقافلته الكبيرة، لذا كان عليه أن يتجه شمالاً ويتجه إلى واحة سيوة بدلاً من ذلك. وخلال هذه الرحلة واجه ثلاثة سود، قالوا إنهم عبيد

هاربون من واحة زرزورة، وهي مكان وصفوه بأنه يقع على مسافة إلى الغرب من طريقه.

ولما ذكرت هذا المكان لجونسون باشا، أخبرني بهذا الكتاب القديم، وقال إنه يحتوي على وصف الطريق إلى هذه الواحة، وما قد يجده هناك من حالف الحظ في الوصول إليها. كما وصف كتابه الطريق إلى مناجم الملك قمبيز.

لقد أعطاني بكل لطف ترجمة لأجزاء من هذا الكتاب القديم الغريب التي تتعلق بهذين المكانين. كان هناك وصفان للطريق إلى زرزورة في قسم من الكتاب بعنوان "في الواحات" وكانا على النحو التالي:

"اذهب إلى دير البنات، ستجد بالقرب منه مكانًا مجوفًا وثلاثة مصاطب وتلاً مستديرًا وثلاثة أحجار حمراء. أحرق البخور هنا." ثم اتبع سطرين من الكتابة المشفرة والعلامات الصوفية، والتي من المفترض أنها تعطي تعليمات لاتباع الطريق، وينتهي الوصف.

"أما الإشارة الثانية فكانت أكثر دقة، فكانت على النحو التالي: "قصة مدينة والطريق إليها، تقع شرقي قلعة الصوري، حيث ستجد النخيل والكروم والآبار الجارية. اتبع الوادي حتى تقابل واديًا آخر مفتوحًا إلى الغرب بين تلين. ستجد فيه طريقًا. اتبعه. سيقودك إلى مدينة زرزورة. ستجد بوابتها مغلقة. إنها مدينة بيضاء، مثل الحمامة. ستجد عند البوابة طائرًا منحوتًا. مد يدك إلى منقاره وخذ منه مفتاحًا. افتح البوابة به وادخل المدينة. ستجد ثروة كبيرة والملك والملكة في قصرهما نائمين في نوم السحر. لا تقترب منهما. خذ الكنز وهذا كل شيء."

احتوى الكتاب أيضاً على توجيهين منفصلين للعثور على مناجم الملك قمبيز. أحد هذين التوجيهين أرشد القارئ كالتالي: "اذهب إلى دير العين، غرب إسنا، حيث يوجد نبع استشفائي، واتجه شمالاً [54] من الدير والبئر مسافة خمسة فراسخ، والتي تساوي بريداً وربعاً، وصولاً إلى تلة حمراء على قمتها علامة إرشادية. عليك أن تصعد وتنظر باتجاه الشرق. سترى عموداً مقسوماً إلى نصفين. احفر هناك." ثم ذلك الكتاب المثير للغضب — تماماً عندما يصل إلى مرحلة إعطاء التوجيهات النهائية المحددة للعثور على المناجم، ينقطع ليقدم سطراً تلو الآخر من الرموز الطلسمية، كما فعل في حالة زرزورة."

أما التعليمات الثانية للعثور على الألغام فهي أكثر وضوحاً، وتدخل في تفاصيل دقيقة للطريق الذي يجب اتباعه، لدرجة أنه يبدو من المستحيل على أي شخص أن يفوتها.

"يقول النص التالي: "بجانب مدينة إسنا، شمال إدفو. إذا ذهبت إلى هناك فابحث عن مناجم الملك قمبيز. اسأل عن الدير المقدس، الذي يدعى "———" ولكن إعطاء توجيهات للعثور على مثل هذه الثروة من الكنوز سيكون حماقة. كان الملك قمبيز ابنًا لكورش الكبير، فاتح بابل، وحكم الميديين والفرس عندما كانت الإمبراطورية الفارسية في أوجها تقريبًا. كان ملكًا عظيمًا حقًا، وربما تكون مناجم الملك "سليمان"، مجرد سلطان تافه بالمقارنة، التي يتفاخر بها كثيرًا تحمل نفس العلاقة بمناجم الملك قمبيز كما تحمل عملة صغيرة ذات ثلاثة بنسات الدين الوطني الحالي. مجرد وصفها في كتاب جونسون باشا عن الكنوز يجعل فم المرء يسيل لعابًا."

أولاً، تقودك الإرشادات، بأوضح طريقة ممكنة، إلى وادٍ يُدعى وادي الملوك. وهنا تجد الأواني الفخارية وكل الأجهزة والأدوات اللازمة للصهر، في انتظار الاستخدام. ثم تتقدم قليلاً إلى الأمام وتجد «منجمًا رفيع المستوى»، وهو في الحقيقة منجم رفيع المستوى. فما عليك إلا أن تحفر نصف ذراع عميقًا فيه، فتجد على الفور معدنًا «مثل التربة الصفراء في الأرض الحجرية». أولاً تجده في كتل بحجم حبات الفول، «أرسله الله»، ويأمرك بأن تأخذ «حظه السعيد». ثم إذا حفرت إلى عمق أكبر، فستجده في كتل بحجم البطيخ. ويقال لك صراحةً «إنه ذهب مصر. لا يوجد أفضل منه»، وهو تصريح من غير المعقول أن تتناقض معه.

[55] وبعد أن انتهى المنجم العربي القديم من الحديث عن هذه المعادن، أمر ابنه الذي يوجه إليه الكتاب أن يذهب إلى حيث توجد صخرتان عظيمتان، وأمامهما حفرة، وقال له إن هذه الحفرة سوف تجد فيها «تربة سوداء ذات عروق خضراء مثل الصدأ الفضي»، وأمره أن يأخذها. إنها «مرسلة من الله». ومن المؤسف أنه أغفل ذكر طبيعة هذا المعدن الغامض.

ثم يأمر ابنه بالذهاب على بركة الله إلى مكان آخر، فيقول له: ستجد يا بني أمامك تلة عالية كانوا يستخرجون منها الزبرجد. ثم يخبره كيف يمضي إلى «حفر الزمرد التي عددها ثلاثة»، وبعد ذلك يوجهه إلى «منجم النحاس الذي في كهف مغلق بباب»، ويضيف أن خام النحاس «أرض خضراء كالزنجبيل الأخضر، وفيها عروق كالدم».

مع احتمالية مذهلة للحصول على مثل هذه الثروة الهائلة مثل تلك التي يمكن الحصول عليها في «المناجم الراقية» الموصوفة في كتب الكنوز مثل هذا الكتاب، فهل من المستغرب أن يقضي أهل مصر الكثير من الوقت في البحث عنها؟

لا شك أن البحث عن الكنوز من الأنشطة الممتعة للغاية. ولكنها نادرًا ما تكون

مربحة. ومع ذلك، فمن الغريب أن الزبرجد كان يُعرف سابقًا في التجارة باسم «زبرجد إسنا»، وهو ما يشير إلى حقيقة مفادها أنه كان يتم جلبه للتسويق في تلك المدينة، ربما عن طريق الطريق المشار إليه في هذا الكتاب.

وعندما طرحت موضوع زرزورة على عمدة رشيدة، قال إنه لا يعرف أي مكان يسمى دير البنات، ولكن الاسم القديم لدير أبو ماضي كان، كما قال، «دير السبع بنات»، وأن من المفترض أن يكون هناك كتاب ومرآة مدفونان في مكان ما بالقرب من هناك. وقال إنه باتباع التعليمات الواردة في الكتاب، ثم النظر في المرآة، سيظهر الطريق إلى زرزورة.

أخبرني، ولا أضمن صدقه، أنه قبل ثلاث سنوات، أثناء إقامته في أحد الفنادق في مصر، جاءه نادل وسأله عما إذا كنت لست عمدة رشيدة. وعندما سمع أنه كذلك، قال: [56] أخبره أنه يريد الذهاب إلى «دير السبع بنات»، حيث قرأ في كتاب الكنز أنه على بعد سبعمائة ذراع إلى الشمال من الدير، كانت هناك ثلاث مصاطب حول تل مستدير، وأن تحت كل منها دُفن وعاء من العملات الذهبية الكبيرة تسمى قربان. ثم أظهر له عينة قال العمدة إنها قديمة جدًا، وأكبر من قطعة الخمسة قروش وسميكة وثقيلة جدًا. أخبره النادل أنه وجد العملة في وادي النيل باتباع التوجيهات الواردة في كتاب الكنز الخاص به، وعرض عليه، إذا دخل في شراكة معه، أن يعطيه نصف أي شيء يجدونه.

يبدو أن العمدة رفض هذا العرض، وبدأ الحفر على حسابه الخاص؛ ولكن بعد فشله في العثور على الكنز، كان حريصًا جدًا على أن أتعاون معه، وقال إنه من خلال الجمع بين تعليماتنا، يجب أن نكون قادرين على العثور على شيء ما. ومع ذلك، لم أكن متفائلًا بدرجة كافية بشأن النتيجة لأشعر بأنني مبرر في قبول عرضه، لا يزال هناك ثلاثة أواني مليئة بالقرنبيط...!

بعد قضاء ليلة في رشيدة، انطلقنا إلى قصر دخل، وتوقفنا في طريقنا لزيارة بودخولو، وهي منطقة فقيرة صغيرة لا يتوفر فيها سوى القليل من المياه. ومثل رشيدة، تقع بودخولو بالقرب من الجرف الذي يحد الواحة؛ ولكن نظرًا لوقوعها على مستوى أعلى بكثير من قصر دخل أو رشيدة، فإن عدد الآبار الحديثة المحفورة في هاتين المنطقتين يقول السكان إنها قللت بشكل كبير من إمدادات المياه لديهم. ولم يكن عمدة بودخولو معروفًا إلا بعاداته في الشرب.

عند مغادرة بودخولو، مررنا بقرية أوفطيمة الصغيرة، وسرعان ما دخلنا بعد ذلك



صورة بوابة القلمون.

تتجمع جميع المنازل لتشكل جدارًا مستمراً كدفاع ضد الغارات، مع وجود سياج من أوراق النخيل حول بعض أسطح المنازل. (ص 48).



عمدة رشيدة وعائلته.

يقضي السكان الأصليون قدرًا كبيرًا من وقتهم على أسطح المنازل المسطحة. لاحظ الزخارف المرسومة على الجدران في الخلفية والقمة المفتوحة للجدران. (ص 50).

مساحة من الأرض الرملية الناعمة، يبلغ عرضها ميلاً أو اثنين، وخلفها يمكننا أن نرى قصر دخل بأشجار النخيل والحقول. هذه هي أكبر مدينة في الواحة، ويقال إن سكانها ينتجون أغنى أنواع التمور في مصر.

عند الاقتراب من قصر الداخل من الجنوب الشرقي، يبدو المكان خلابًا وخصباً بشكل فريد. كان المنظر من هذا الجانب، عبر بركة مزروعة بالقصب، تعكس مزرعة النخيل مع القرية والمنحدر الأزرق في الخلفية، أحد أجمل المناظر التي يمكن رؤيتها في الواحة.

[57] قبل دخول البلدة مباشرة، مررنا على بئر الحميا، أحد الآبار الرئيسية في المنطقة، والذي يُستخرج منه معظم مياه الشرب في قصر الداخل. كانت مياه البئر تتدفق بقوة من تحت منصة حجرية تم بناؤها فوق فمها إلى بركة كبيرة صافية، كان عدد من السكان يستحمون فيها أثناء مرورنا، وكانت مياه هذه البئر ساخنة، ويُعتقد أن لها خصائص طبية. ويقال إنها كانت في السابق أكثر سخونة مما هي عليه الآن؛ حتى أنه يُقال إنه كان من الممكن سلق البيض فيها.

لقد دعا العمدة المجموعة كلها لتناول الغداء معه، وقد كان غداءً ممتازًا بالفعل. يزعم شيوخ هذه القرية أنهم ينحدرون من قبيلة قريش في شبه الجزيرة العربية، التي ينتمي إليها النبي محمد، ويصرحون بأنهم استقروا في الواحة حوالي عام 1500 بعد الميلاد. ونتيجة لذلك، فإنهم لا يعطون أنفسهم أي قدر من الفخر.

بعد الغداء، والذي اعتذر عنه «قوي» بشكل عجيب بحجة أنه يرغب في الذهاب لزيارة صديق، تم إحضار الشاي الذي لا مفر منه، ووصل معه العديد من الرجال البارزين في المكان، الذين جلسوا جميعًا على الأرض في صف واحد على طول أحد جدران غرفة الضيوف.

على أمل الحصول على بعض المعلومات، سألت إن كان أحد قد سمع عن واحة زرزورة. أليس كذلك؟ بدأ نصف دزينة منهم في إخباري بكل شيء عنها دفعة واحدة. قيل لي إن الأبقار كانت تأتي إلى الواحة عدة مرات من الصحراء. كانت برية للغاية، لكنها بخلاف ذلك كانت مثل أبقار الواحة. لقد أتت من زرزورة. كانت طيور الكيمري سيفي (حمام النخيل) والغربان تأتي إلى الواحة في الربيع. لقد أتت أيضًا من زرزورة. جاءت الكيمري والأبقار من الجنوب الغربي؛ لكن الصحراء بأكملها كانت مغطاة بالرمال ولم يتمكن أحد من الذهاب إلى هناك. كانت آخر الأبقار قد أتت قبل سبعة عشر عامًا فقط.

أخبرني رجل آخر أن امرأة تقود صبياً قد تعثرت ذات مرة إلى الواحة من الجنوب، وكانت على وشك الموت من العطش، وأن أحفاد الصبي ما زالوا يعيشون في مدينة "موط". جاءت المرأة والصبي من زرزورة أيضًا. ومع ذلك، قيل لي في مدينة "موط" عملياً [58] القصة نفسها، ولكن كان هناك معلومات مؤكدة بأن أحفاد الصبي لم يكونوا يعيشون في مدينة "موط"، بل في قصر دخل، لذلك وجدت صعوبة بعض الشيء في معرفة ما أصدق.

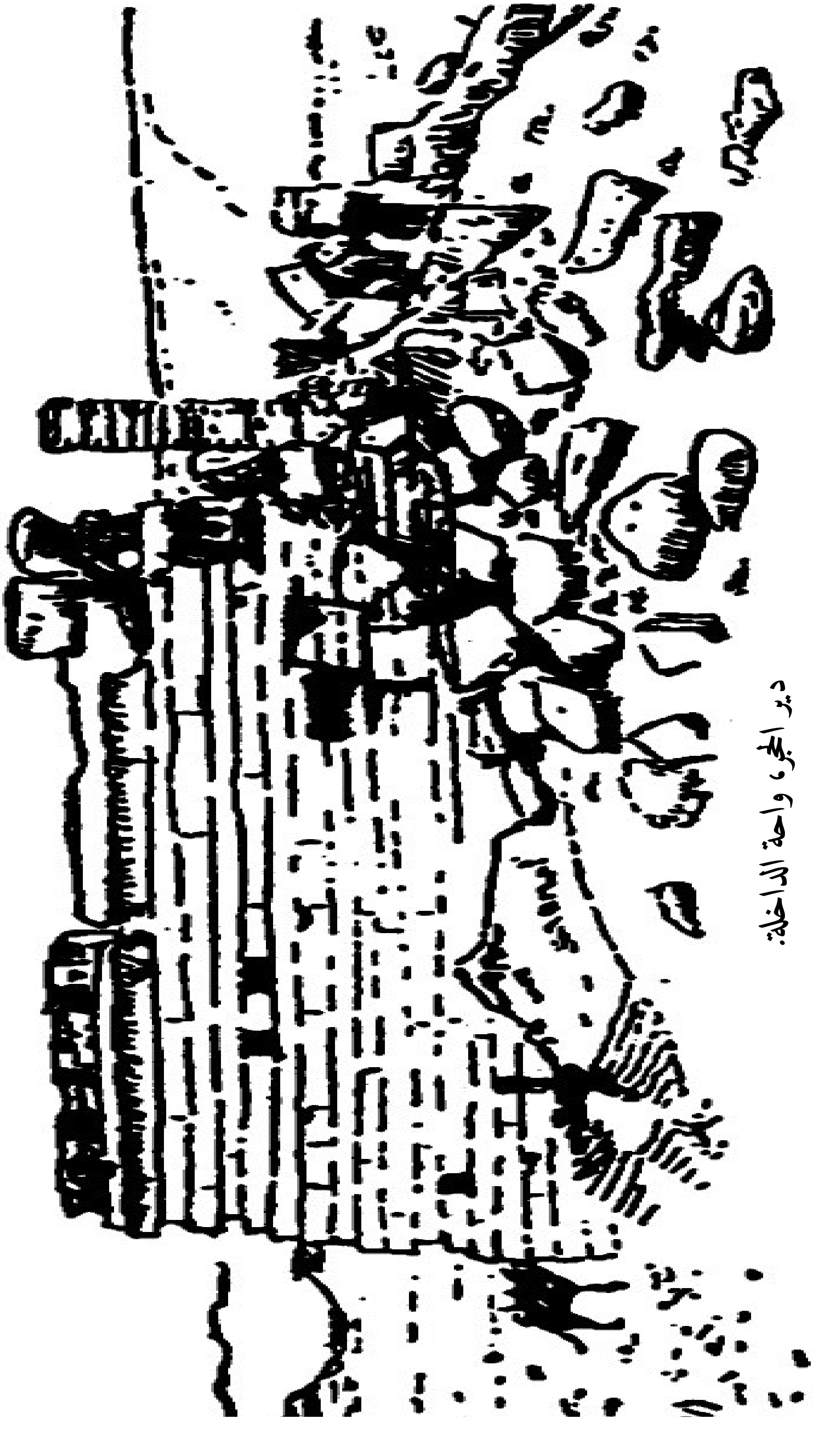
وبعد أن استنفدنا الحديث عن زرزورة، وصلنا إلى الحديث عن روهلفس، الذي زار الواحة في عام 1874. وقد ذكر أحد كبار السن أنه رأى روهلفس، أو «رو-هول-فوس» كما كان يناديه، وأنه يتذكره جيداً. وكان يعرف كل شيء عنه. فقد حصل على «كتاب كنز»، وخرج إلى الداخلة ليحفر بحثاً عن ثروات مدفونة في دير الحجر، معبد حجري بالقرب من قصر الداخل، واستخدم عدداً كبيراً من الرجال في الحفر. ولكن الكنز كان يحرسه عفريت (روح)، ولفترة طويلة لم يتمكن من العثور عليه، فغضب بشدة وخاب أمله. وأخيراً، في أحد الأيام، طرد الجميع من المعبد، باستثناء رجل أسود احتفظ به معه. وذهب بقية الرجال وجلسوا على الأرض على مسافة قصيرة في انتظار التطورات، حيث كانوا على يقين من أنه سيكتب تعويذة أو يفعل شيئاً لاسترضاء العفريت.

لم يحدث شيء لفترة طويلة. ثم سمعت صرخات عالية طلباً للمساعدة، تليها صرخات حادة ومرعبة قادمة من المعبد، وعرفوا أن التعويذة لابد وأن تعمل، وخمنوا أن العفريت كان يعاني من أسوأ آثارها.

لم يحدث شيء آخر لبعض الوقت. ثم سمعوا صوت طقطقة، تلاه سحب كثيفة من الدخان الأسود ترتفع من المعبد. استمر صوت الطقطقة والدخان لبعض الوقت، ثم خرج رولفس من المعبد، وكان يبدو سعيداً للغاية [59] وأعلن مبتسماً أنه وجد الكنز أخيراً، ودعاهم جميعاً إلى الحضور ورؤيته.

ودخل الجميع ووجدوا أنه اكتشف فتحة غرفة الكنز، التي كانت باباً سرياً يغطي مجموعة من الدرجات التي تؤدي إلى قبو مليء بالذهب والفضة والماس والكنوز من جميع الأنواع، وكان رولفس سعيداً جداً.

ثم بحثوا عن الرجل الأسود، لكنهم لم يتمكنوا من رؤيته. وأخيراً، في جزء آخر من المعبد، اكتشف أحدهم الجمر المتوهج لنار هائلة، وفي داخله الجمجمة المتفحمة وبعض العظام، كان الرجل الأسود قد ضحى به رولفس لإرضاء العفريت!



دير الحجر واحة الداخلة

وقد اتفق العديد من الرجال الحاضرين على هذه القصة. ولم يكن أي منهم، رغم أنهم كانوا يعيشون في قصر الداخل، حاضرًا في تلك المناسبة، ولكنهم سمعوا عنها، وكان الجميع في الواحة على علم بها.

لم يكونوا يعرفون ما حدث للكنز، لكن روهلفس كان معه قافلة كبيرة جدًا، وكانت جميع الإبل محملة عندما غادر، لذلك افترضوا أنه أخذ كل شيء معه.

لقد روى كل هذا بأقصى قدر من الجدية، وبقدر كبير من التفصيل، وكانوا جميعًا يصدقون القصة بلا أدنى شك. ومع ذلك، كان من المفترض أن كل هذا حدث بالقرب من قريتهم، وكان العديد منهم لا يعيشون في ذلك الوقت فحسب، بل لا بد أنهم كانوا من الشباب وليسوا أطفالًا. لم يعتقد أي منهم أن روهلفس كان أسوأ حالًا بسبب هذه التضحية، في الواقع، بدا أنهم كانوا يعتقدون أنه كان أفضل حالًا لأنه تغلب على العفريت.

الفصل الخامس

بعد الغداء والشاي الذي تلاه، انطلقنا لزيارة الشيخ محمد الموهوب، ممثل السنوسية في الواحة، في زاويته القريبة من المدينة. [60]

إن تاريخه مثير للاهتمام، إذ يلقي بعض الضوء على أساليب الطائفة السنوسية. وُلد في جالو بطرابلس في الفترة ما بين عامي 1840 و1850، وانضم في وقت مبكر من حياته إلى الطائفة السنوسية. وبينما كان لا يزال شابًا، ربما لم يتجاوز الثلاثين من عمره، أرسله كبير شيوخ السنوسية لمحاولة تحويل سكان واحة الداخلة إلى ديانتهم.

وصل إلى هناك وهو لا يملك أي ممتلكات تقريبًا سوى الملابس التي كان يرتديها، وبدأ في شرح مبادئ طائفته للسكان. وسرعان ما نجح في جمع أتباع، عاش على أساسهم، على غرار أمثاله.

كانت خطوته التالية هي التقدم بطلب إلى السلطات في الواحة للحصول على تصريح لحفر بئر، وبعد أن حصل عليه، طلب من أتباعه مساعدته في العمل. تقع أول بئر حفرها، بئر الشيخ محمد، على بعد حوالي أربعة أميال إلى الغرب من قرية قصر الداخل، وعندما حفرها، تبين أنها بئر جيدة للغاية. بعد ذلك بوقت قصير، حفر بئرًا ثانيًا، بئر الجبل، أقرب إلى القرية، والتي أثبتت أنها أفضل من بئر الشيخ محمد. تم حفر هذه البئر أيضًا بشكل أساسي من خلال العمل التطوعي. كانت البئران معًا تروي مساحة كبيرة.

بالقرب منهما تم بناء عزبات (مزارع) سكنها أبناء الشيخ محمد. إن هذه المزارع التي تقع على الطريق من الداخلة إلى الكفرة، مقر السنوسيين، وبعيدة عن القرية، ولا يوجد بها أي من الفلاحين العاديين في الواحة القريبة منهم، مكنت الموهبين من الذهاب والإياب إلى الكفرة، وهي الرحلة التي كانوا يقومون بها دائمًا بحذر شديد [61] وكمية كبيرة من الغموض، دون خوف من أن يلاحظها سكان الواحة الآخرون.

وبينما كان يجري تطوير الممتلكات المحيطة بهذه الآبار، كان يجري أيضًا بناء زاويته. وقد تم ذلك أيضًا إلى حد كبير من قبل عمال متطوعين، ليس فقط من أعضاء طائفته، بل وأيضًا من قرى أخرى، والذين، دون أن ينتموا فعليًا إلى الطائفة، كانوا متعاطفين معها واعتبروا المساعدة في بناء صرح ديني مكرس لخدمة الله عملاً تقيًا. وفي وقت لاحق تم حفر آبار أخرى.

كانت الزاوية تتكون من فناء محاط بسور مرتفع للغاية من الطوب اللبن الذي لم يكن مطليًا حتى بالجص. ولم يكن المبنى بأكمله يتظاهر بأي جمال معماري. نظرت إلى الفناء من خلال الباب عندما مررنا به. كان رجل جالس على أرضية غرفة صغيرة مفتوحة بالقرب من المدخل، وثلاثة أولاد صغار كان يعلمهم، هم السكان الوحيدون الذين يمكن رؤيتهم.

كان منزل الشيخ موهوب من نفس الطابع البسيط لبقية زاويته. تم اصطحابنا إلى غرفة الضيوف من النوع المعتاد، مع أرائك حول الجدران، وتركنا لبعض الوقت لأجهزتنا الخاصة. بعد حوالي عشر دقائق من الانتظار، دخل الشيخ "إبراهيم"، الذي تعرفت عليه على أنه مدير المدرسة الذي رأيته في فناء الزاوية، وأعلن أن الشاي سيأتي قريبًا، وأن الشيخ موهوب نفسه سيتبعه، من الواضح أنه اعتبر هذا علامة على التنازل الكبير من جانب الشيخ.

وفي الوقت المناسب ظهر الشاي، وبعد أن رأى الشيخ "إبراهيم" أننا قد حصلنا على ما يكفي من الشاي، غادر، وحدث تأخير آخر لا نهاية له.

وفي النهاية، سمعنا أصوات خطوات بطيئة متقطعة، تخللتها توقفات وأسئلة وأجوبة بصوت خافت من بعيد، وهمس لي المأمور أنه يعتقد أن الشيخ موهوب هو الذي سيأتي. وبدا وكأنه يقف في رهبة منه.

وأخيرًا ظهر الشيخ نفسه عند الباب، باحترام، ولن يكون من المبالغة أن نقول ذلك باحترام، بدعم من الشيخ "إبراهيم". وبدا وكأنه في [62] لقد كانت تلك هي المرحلة الأخيرة من التوتر. لقد لمسنا يديه بطريقة شبه خالية من الحياة، ثم جلس، وهو لا

يزال مدعومًا بالشيخ "إبراهيم"، متكئًا على أريكة في الزاوية البعيدة من الغرفة، وقد وضع الشيخ المرافق له مكانه برفق. وما إن استقر في زاويته حتى دخل "قوي"، مما أثار دهشتي، وتحدث إليه ببساطة ثم ذهب وجلس بالقرب من الشاي قدر الإمكان. كان من الواضح أن الشيخ موهوب هو الصديق الذي طلب "قوي" الإذن بزيارته، وأنه قد رآه بالفعل، حيث تم حذف التحية المعتادة عند دخوله.

فتبعه شاب وسيم للغاية، فتقدم وقبل يد الشيخ موهوب، ثم خرج على الفور مرة أخرى ووقف أمام الباب مباشرة وظهره إلى جدار الممر، وظل يراقب الضيوف المجتمعين. وتبين أن هذا هو الشيخ أحمد، الابن الأكبر للشيخ موهوب.

كان من الملاحظ أن مسؤولي الحكومة المحلية، الذين كانوا يتصرفون أثناء وجودهم في رشيدة وأثناء الرحلة عبر الواحة، بالطريقة الصاخبة المعتادة من نوعهم، يضحكون ويضايقون بعضهم البعض ويصرخون باستمرار بالأوامر، على ما يبدو ليس لأجل أي هدف آخر سوى سماع أصواتهم وتأكيد سلطتهم، كانوا جميعًا خاضعين وخجولين تقريبًا في حضور الشيخ موهوب.

كان أسلوبه في إدارة المسرح ممتازًا، وكان بلا شك شخصًا مثيرًا للإعجاب. منذ وصوله إلى الرخاء، ووصول أبنائه إلى مرحلة الرجولة، عاش حياة منعزلة للغاية وأصبح منعزلاً عمليًا، ونادرًا ما يخرج من زاويته أو يرى أي شخص باستثناء أتباعه، تاركًا إدارة ممتلكاته إلى حد كبير لأبنائه والرجال، مثل الشيخ "إبراهيم"، الذين كانوا مرتبطين بزاويته. كان من المفترض عمومًا أنه كرس حياته كلها للدراسة وشؤون الطائفة التي ينتمي إليها وشعائره الدينية. ربما كانت هذه الطريقة في الحياة، جنبًا إلى جنب مع تدفق العديد من الغرباء، هي السبب في توتره الواضح.

الشيخ العجوز منذ دخوله كان كاملاً [63] كان يهيمن على الاجتماع. وكان أسلوبه هادئًا وخافتًا إلى حد التكلف. كان يتحدث في البداية بصوت منخفض للغاية لدرجة أنه بالكاد يمكن سماعه، وكان يرد على ملاحظات المسؤولين بإيجاز قدر الإمكان.

أخذ المأمور على عاتقه أن يشرح للشيخ أنني ذاهب لرسم خريطة للصحراء، وأنني كنت أستفسر عن زرزورة؛ لذا، كما قدم الموضوع، سألت الشيخ موهوب عما إذا كان قد سمع عن المكان من قبل. فكر للحظة، ثم قال إنه سمع. كانت واحة مسحورة، وقد تحول جميع السكان والماشية إلى حجر، ولن تعود إلى الحياة إلا عندما يتم التضحية بشخص هناك.

ثم نظر إلى السماء من النافذة لبضع لحظات، وكان تعبير وجه القديس الملون خافتًا،

وأضاف بنبرة من الذكريات الحالمة أن أحد اليونانيين حاول ذات مرة البحث عن زرزورة، لكنه لم يتمكن من العثور عليها، ومات مسمومًا في طريق عودته إلى أوروبا. ثم نزل إلى الأرض مرة أخرى ونظر إليّ بنظرة شارد الذهن، لكنني اعتقدت أنني لاحظت شيئًا مثل وميض في عينيه المظلمتين.

وبعد ذلك دخلنا في موضوع التاريخ الطبيعي، فاستيقظ الشيخ وأصبح مثيرًا للاهتمام. دار بيني وبينه حديث طويل حول مجموعة متنوعة من المواضيع. وفي النهاية تغلب على تحفظه إلى حد ما وبدا وكأنه يحاول إرضائي، فعندما عبرت عن أسفي لعدم كفاية معرفتي بلغته لتمكيني من التحدث معه، إلا من خلال مترجم، تطوع لتعليمي اللغة العربية، إذا أتيت إلى زاويته.

أعترف أنني شعرت بالإغراء. كانت فرصة إكمال تعليمي في دير سنوسي فريدة من نوعها، لكنها كانت ستكون وظيفة "مملة"، وكان لدي عمل آخر لأقوم به، إلى جانب أنني كنت أشك في دوافعه، لذلك رفضت. بدا أنه محبطًا حقًا. كان يأمل، على ما أعتقد، أن يستمر في تعليمي اللغة العربية في زاويته، بدلاً من الذهاب لاستكشاف الصحراء الليبية التي اعتبرها السنوسيون ملكًا خاصًا لهم.

وبعد مزيد من المحادثة، دعا الشيخ [64] لقد دعانا جميعًا لنكون ضيوفه ليلًا في العزبة التابعة لابنه الشيخ أحمد.

كانت عزبة الشيخ أحمد تقع على بعد خمسة أميال إلى الغرب من الزاوية. وكان الجزء الأول من الطريق يمر عبر أرض غير مزروعة. وبمجرد إبعاده عن التأثير المقيد لوجود والده، تخلص الشيخ أحمد من رائحة القداسة التي كانت تنبعث منه، وظهر بشخصيته الحقيقية كشاب مرح ونحيف. ولم يكن هو وأخويه الشيخان محمد وعبد الواحد، اللذان انضما إلينا قبل الوصول إلى العزبة، يتمتعون بأي حال من الأحوال بسمعة القداسة التي اكتسبها والدهم في الواحة. فقد قيل إن الشيخ أحمد كان رجلاً نحيفًا للغاية يصعب التعامل معه، وحتى بين السكان الأصليين، كان يتمتع بشخصية "أكبر كذاب في الواحة". وكان عبد الواحد، الأخ الأصغر، لا يزال في سن المراهقة، ولم يكن قد اجتذب آنذاك ثرثرة الواحة. ولكن الشيخ محمد كان يعتبر أكثر دهاءً من أخيه الأكبر.

كانت هذه القصة قديمة جدًا، فالتدريس المتدين المفرط للشباب من المرجح أن يؤدي إلى رد فعل في وقت لاحق. على سبيل المثال، قد يصادف المرء أبناء رجال الدين الذين اشتهروا بأشياء كثيرة، لكن التدين المفرط نادرًا ما يكون أحدها. ولأن

التاريخ يعتمد على الطبيعة البشرية، فمن المرجح أن يتكرر نفسه، وأعتقد أن أولئك الذين هم في محل الوالدين سيفعلون دائمًا ما هو جيد أن يتذكروا أن روبرت الشيطان كان ابن ريتشارد الصالح، وهو كذلك في كثير من الأحيان!

كانت ديانة الشيخ موهوب العجوز واضحة وحقيقية، ولكن ديانة أبنائه كانت، من كل ما سمعته ورأيته، مسألة تتعلق إلى حد كبير بالامتثال للشكليات الخارجية لطائفتهم. ولكن هيبة الطائفة التي ينتمون إليها كانت عظيمة إلى الحد الذي جعل سكان الواحة البسطاء يتغاضون عن ارتداداتهم، وينظرون إليها تقريباً باعتبارها إحدى امتيازات شخصيتهم المقدسة. في شمال أفريقيا، كل ما عليك فعله هو أن تصنف نفسك كرجل مقدس، وأن تصلي وتصوم من حين لآخر، ويمكنك أن تفعل ما تريد في غضون ذلك.

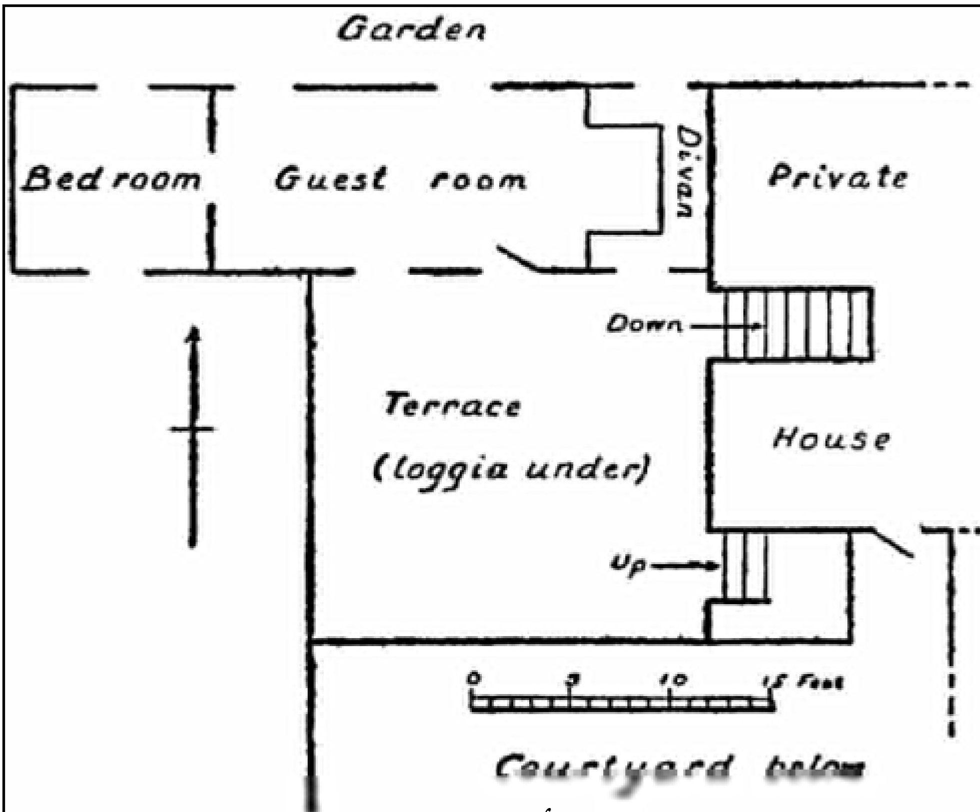
لقد استغرقت رحلتنا بالسيارة أكثر من ساعة، وعند غروب الشمس، وصلنا إلى عزبة الشيخ أحمد. وقد بُني بيت الضيافة الخاص به، مثل بيت عمدة رشيدة، على الطراز المعماري القديم. [65] كان منزله الخاص، حيث كانت زوجاته وعائلته يعيشون، وكان المنزل وبيت الضيافة الخاص به محاطين بسلسلة من الساحات المفتوحة التي تشكل مباني المزرعة، وكانت تستخدم كمكان لإيواء الماشية ليلاً، وكأرضيات للبيدر وما إلى ذلك.

كانت غرفة الضيوف عبارة عن غرفة ضيقة طويلة يبلغ طولها حوالي خمسة وعشرين قدمًا من الشرق إلى الغرب واثني عشر قدمًا من الشمال إلى الجنوب. كانت هناك نافذتان وباب مفتوحان على نوع من الشرفة، بينما كانت هناك ثلاث نوافذ على الجانب المقابل تطل، إلى الشمال، على حديقة، حيث كانت البئر التي تسقي العزبة، وحيث تم زرع عدد من أشجار النخيل وأشجار الفاكهة الأخرى، ويمكن رؤية الجرف الذي يحد الواحة في المسافة الزرقاء فوق قممها.

كانت النوافذ مغطاة بستائر حمراء، وكان المدخل المؤدي إلى غرفة نوم صغيرة في الطرف الغربي من الغرفة مغطى بزوج من الستائر الثقيلة والخفيفة. [66] كانت الستائر المخملية المتربة من نفس اللون. وكانت الأرضية مغطاة بالسجاد، حيث توضع بعض الحصائر هنا وهناك فوق السجاد. وكان السقف، الذي بدا وكأنه مبني بالطريقة المعتادة مع عوارض من جذوع النخيل تدعم الجريد (سيقان أوراق النخيل)، مغطى بطبقة رقيقة من الجص، مطلية باللون الأبيض مثل الجدران ومطلية بخطوط حمراء عريضة، وهو شكل من أشكال الزخرفة، على الرغم من تنفيذه بشكل خشن، إلا أنه كان فعالاً



حفل شاي في واحة الداخلة.
يشرب السكان الأصليون كميات هائلة من الشاي القوي للغاية، ويُعد تحضيره احتفالاً منتظماً. لاحظ الجرة النحاسية الكبيرة على اليسار. (ص 39).



دار ضيافة الشيخ أحمد.

وذوقًا، وإذا أخذنا في الاعتبار الألوان الخافتة للسجاد على الأرض، فقد شكل مخططًا لونيًا لا ينبغي للفنان الأوروبي أن يخجل منه.

وبما أنني أعلم السمعة التي يتمتع بها السنوسيون في عيش الحياة البسيطة، ونفورهم المفترض من تبني أي ابتكارات أوروبية، فقد ملأني محتوى الغرفة بالدهشة الكاملة.

على طبق بجانب نافذة مفتوحة، وفي مجرى الهواء تمامًا، كانت توجد القُلّة التي لا يخلو منها بيت مصري – وهي عبارة عن إناء فخاري مسامي لتبريد الماء. وعلى الحائط كانت مسمّرة مراوح ورقية دائرية يابانية الصنع، ومروحتان أو ثلاث ذات شكل غريب يشبه الفأس، مزينة بقطع صغيرة من القماش القطني الأحمر، كتلك التي تصنع في الواحات. وكانت هناك لوحة مطبوعة فاقعة باللونين الأحمر والأسود لمكة المكرمة مسمّرة على الحائط المقابل للباب، ولوحة أخرى طويلة مطبوعة بالفضة على الحرير، تمتد بعرض الحائط الشرقي تقريبًا، تعرض منظرًا آخر لنفس الموضوع (مكة) ولكن بمنظور رديء للغاية، بالإضافة إلى مشاهد أخرى لمدن شرقية لم أتمكن من تحديد هويتها،

وكانت المساحات الفاصلة بين هذه المشاهد مملوءة بنصوص وزخارف أرابيسك.

كان باقي الأثاث أوروبيًا خالصًا، رف، أسفله مرآة مثبتة على الحائط، ربما تم شراؤه من شارع توتنهام كورت؛ وكرسي أرجوحة وبعض الخشب المنحني مع مقاعد من القصب من النوع المعتاد، وطاولتان صغيرتان، على إحداهما مصباح بارافين مطلي بالنيكل وزجاجة شرارة، وعلى الأخرى بضعة كتب، وصينية يابانية عادية سوداء، مع زجاجة ماء زجاجية وأكواب، وغرامافون. على أحد جانبي الطباعة البراقة للكعبة المشرفة في مكة، كانت هناك صورة ملونة للخديوي، وعلى الجانب الآخر صورة للملك إدوارد السابع!

[67] وبعد أن رآنا الشيخ أحمد مستقرين في أماكننا بشكل مريح، اعتذر عن خدمتنا أكثر من ذلك، موضحًا أن وقت صلاة المغرب قد حان، وغادر الطابق السفلي، حيث سمعناه بعد فترة وجيزة يقود الصلاة بحرارة في الغرفة التي تقع تحتنا.

وبعد قليل، عاد ومعه خادم يحمل الشاي الذي لا مفر منه. وبعد أن رأى الشيخ أحمد أننا قد قُدِّمنا جميعًا، غادر مرة أخرى لتغيير ملابسه، وعاد في ثوب أكثر بهاءً من ذي قبل.

وبينما كان الشيخ أحمد ينتظر قدوم العشاء، دخل شقيقاه الشيخ محمد والشيخ عبد الواحد، وقاما وقبلا يده ثم بقيا واقفين حتى أشار لهما بالجلوس.

إن السنوسيين، أو الطبقة الأفضل منهم على الأقل، يحافظون على العادات الاحتفالية للنظام الأبوي القديم عند العرب. فالشيخ أحمد، على سبيل المثال، لم يكن ليبقى حتى في الغرفة التي كان يقيم فيها والده في الزاوية، ناهيك عن الجلوس فيها دون إذنه. وكان إخوته الأصغر سنًا، في بيته، يقبلون يده عندما يدخلون الغرفة وينتظرون إذنه بالجلوس. وكانوا يقفون كلما فعل ذلك، ويبقون واقفين حتى يخرج من الغرفة، أو حتى يشير إليهم بالجلوس. وعندما دخل الشيخ محمد، الأخ الثاني، وقف على الفور أصغرهم، الشيخ عبد الواحد.

عندما وصل العشاء، انصرف الشقيقان الأصغر سنًا، ليذهبا، كما فهمت، إلى عزبة الشيخ محمد، التي لم تكن بعيدة عن عزبة الشيخ أحمد. وساعد الشيخ أحمد بنفسه في بسط المفرش. جلبت طاولة حديدية قابلة للطي وضعت قرب مكان جلوسنا، ووضعت عليها صينية دائرية ضخمة مطلية بالمينا الأحمر، تحيط بها لوحات عليها مناظر لسويسرا. فُرش فوقها مفرش، وعليه وُضع العشاء. في معظم بيوت العُمَد التي أقمنا فيها، كنا نأكل بأيدينا على الطريقة المحلية؛ ولكن في عزبة الشيخ أحمد، كانت لدينا ملاعق وشوك

مطلية بالنيكل، وأطباق، وأكواب، وسكاكين ذات مقابض مطلية.

الشيخ أحمد نفسه، وفقًا للآداب العربية الصارمة، مع أكمامه مشدودة بعناية إلى [68] كان رجلاً لطيفًا، وكان يحرص على عدم تلويث الأطباق عند ملامستها للأطباق، وكان يخدم ضيوفه في البداية، وكان ماهرًا في "تقديم الكعكات"، ولم يكن يجلس على الطاولة ويشارك في الحديث إلا بعد أن دعوته للانضمام إلينا. ولسوء الحظ لم أتمكن من فهم الكثير مما قاله، لأن لغتي العربية في ذلك الوقت لم تكن الأفضل، ولكن من الضحك الذي استقبل به العديد من ملاحظاته، كان من الواضح أنه متحدث مرح وذكي. وكان يشارك بحرية في أحاديث المسؤولين المصريين، وكان من الواضح أنه يتمتع بموهبة الرد السريع.

كانت عائلة موهوب تفتخر بامتلاكها أفضل طاولة في الواحة، وكان العشاء الذي قدمه لنا، دون أي استثناء، أفضل وجبة حظيت بفرصة المشاركة فيها على الإطلاق، وقد شاركت فيها بشكل كبير.

كان المأمور من بين الذين كان السنوسيون يأملون في تحويلهم إلى مذهبهم، إن لم يكونوا قد فعلوا ذلك بالفعل. وقد اكتسبوا قدرًا كبيرًا من نفوذهم في مصر من خلال هذا الشكل من "التغلغل السلمي". ولم يكن الشيخ أحمد أحمقًا، ولعله أدرك أن أسهل طريق إلى قلب المصريين يمر عبر معدته. وعلى هذا فقد استعار طباخ والده من الزاوية في قصر الداخل لتكريم هذه المناسبة. وقيل في الواحة، وربما كان هذا صحيحًا، إن هذا الرجل كان في وقت من الأوقات طاهيًا لسلطان تركيا، والواقع أن الطبخ التركي ربما يكون الأفضل في العالم.

لا أدري ما إذا كنا في أوروبا قد استعرنا نظامنا الرهباني من العرب، أو ما إذا كانوا قد أخذوه منا، أو ما إذا كنا قد أخذناه من مصدر مشترك، ولكن من المؤكد أن هناك العديد من نقاط التشابه بين نظامنا ونظامهم. إن السمعة الطيبة التي كانت تتمتع بها أديرة العصور الوسطى في أوروبا، عندما كانت تعيش حياة كريمة، كانت سببًا في نشوء مجتمعات رعوية في أوروبا.

"لم يعش أي بارون أو فارس أو فارسة من المقاطعة نصف حياة الراهب المقدس."

إن هذا الطبق له نظيره الدقيق في أغلب الأديرة الإسلامية في الوقت الحاضر. وكان ذلك الطاهي من زاوية الطائفة السنوسية، المشهورة بحياتها البسيطة المتقشفة! في قصر الداخل، ماهرًا في فنه، ولابد أن هذا العشاء كان من أفضل أعماله.

[69] أولاً، وصل حوض كبير ممتلئ بمرق به دجاجتان أو ثلاث دجاجات صغيرة تم سلقها فيه. كان المرق بنكهة الليمون القوية، وهي نكهة مكتسبة.

ثم جاءت القطعة الأخيرة، ديك رومي. قال ضابط الشرطة الذي كان يجلس بجواري، والذي كان طباخًا ماهرًا، ويعرف جيدًا ما يتحدث عنه، إنه تم غليه في الحليب ثم دهنه بالزبدة، ثم تغطيته بنوع من المعجون ووضعه في الفرن لبضع دقائق. وكان محشوًا باللوز والأرز والزبيب والفريك، وهي نوع من الذرة، مصنوع على ما أعتقد، من الذرة الخضراء المقلية بالزبدة. وكان الحشو يحتوي أيضًا على نوع من التوابل لم أتمكن من تحديده.

بدا أن اللحم قد فقد كل أليافه وذاب تقريبًا في الفم، كان الجلد مقرمشًا وله طعم المعجنات، أما الحشوة - لكن إعطاء فكرة عن ماهية تلك الحشوة أمر لا أستطيع وصفه - فلا أحد سوى الشاعر يستطيع وصفها.

بعد الديك الرومي، جاءت الدجاجات المشوية والمحشوة أيضًا. ثم جاءت الفطائر المنكهة ببعض الأعشاب اللذيذة.

بحلول الوقت الذي انتهيت فيه من إعداد الفطائر، شعرت بالفعل بأنني قد قدمت أكثر من حقي في حسن ضيافة الشيخ أحمد، وأن محاولة تقديم المزيد من المجاملات له في هذا الاتجاه قد تؤدي إلى عواقب وخيمة. كنت آمل أن تكون نهاية الوجبة في الأفق. ولكن لم يكن ذلك ممكنًا.

لقد وصفت المصاعب التي يواجهها الرجل الأبيض الوحيد في أفريقيا في كثير من الأحيان، ولكن لم يتم وصفها بشكل عادل حقًا، فهي مخيفة! بعد الكرات جاءت سلسلة لا نهاية لها من الحلويات، المصنوعة كما يستطيع الطهاة الأتراك فقط صنعها. نوع من الفطائر الإسفنجية التي تؤكل مع المربى. فطائر المربى، يبدو أن المربى مصنوع من التمر. رقائق رقيقة مقرمشة من المعجنات، مغطاة بالكريمة المخفوقة، ملونة باللون الوردي وتؤكل مع العسل. نوع من النوجا الحلوة جدًا، تؤكل أيضًا مع الكريمة، تليها حلوى تركية مميزة، مغطاة بطبقة سميكة من السكر الأبيض المطحون، والتي كانت متفوقة بشكل لا نهائي على أفضل "راحة حلقوم" التي يمكن شراؤها حتى في القاهرة، بالمناسبة، كان "راحة حلقوم" اسمًا لم يسمع به أحد على ما يبدو.

[70] بعد العشاء جاء الشاي بالطبع، وبعد ذلك جاء الكركديه، أو شاي السودان، وهو مشروب مصنوع من الزهور المجففة لنبات ينمو في مكان ما في السودان.

لقد سمعت عن هذا الأخير في مصر، ولكن لم أره قط، لذلك عندما سمعت أن الشيخ أحمد لديه بعضًا منه، طلبته. ليس من الصحيح فقط عند المسلمين أن يطلبوا من مضيفهم إنتاج أي شيء بهذه الطريقة، بل يعتبرونه أيضًا مجاملة.

كان يتم تحضير الكركديه باردًا في البداية، حيث يتم وضع بعض الأزهار في كوب وتقليبها لعدة دقائق حتى يتم الحصول على شراب وردي باهت، ثم يتم إضافة السكر لتحليته.

عندما يتم صنعه بهذه الطريقة فإنه ينتج مشروبًا بنكهة حمضية غريبة قليلاً، والتي كانت لتكون ممتعة ومنعشة للغاية في يوم حار. يمكن أيضًا شربه ساخنًا، وفي هذه الحالة يتم صنعه بنفس الطريقة مثل الشاي العادي. لكنه ليس جيدًا على الإطلاق عندما يتم صنعه بهذه الطريقة، وعندما يُترك لبعض الوقت فإنه يكتسب نكهة لاذعة قوية، والتي من غير المرجح أن تروق للأذواق الأوروبية. ولكن كمشروب بارد فمن المدهش أنه قليل الشهرة.

أخبرني الشرطي بصوت هامس أن الشاي الذي سبق تناول الكركديه كان من نوعية ممتازة للغاية، وأضاف أن الشيخ أحمد لابد وأن يكون قد دفع جنيهًا واحدًا للرطل الواحد مقابل ذلك الشاي. ومن المرجح أنه كان محقًا، لأن هذا ليس سعرًا غير عادي على الإطلاق بالنسبة لأحد أثرياء الواحة مقابل الشاي الفارسي المفضل لديه.

وبعد أن انتهينا من العشاء والشاي، وأشعلنا سجائرنا، استولى الطبيب القبطي على الغرامافون، وتلذذنا بالأغاني والألحان العربية. وتتابعت الأغاني، وقطع الفرق الموسيقية، والتلاوة العرضية الواحدة تلو الأخرى لمدة نصف ساعة تقريبًا. وأخيرًا، تم تشغيل لحن كئيب للغاية، وبما أن الجميع اعتبروه مملاً، فقد ذهب الشيخ أحمد إلى كومة الأسطوانات وبدأ في فرزها، قائلاً إنه سيجد شيئًا أفضل.

وقد ثبت أن التسجيل الذي وضعه على الآلة عبارة عن حوار بين رجل وزوجته، اللذين بعد بضع جمل بدأا في الشجار بعنف، وإساءة معاملة بعضهما البعض، وإطلاق كلٍ منهما على الآخر كل الألقاب القذرة والمقززة. [71] لقد كان هذا التسجيل مثيرًا للإعجاب حتى بالنسبة للغة العربية. ومن الواضح أن الجمهور قد نال إعجابهم، حيث انفجروا في الضحك على بعض الملاحظات. وبمجرد الانتهاء من التسجيل وإعادة عزفه، عزف الشيخ أحمد أغنية لم أستطع متابعتها، ولكن من ملاحظات الجمهور، لا بد أنها كانت ذات طابع جريء للغاية.

كان ذلك الغرامافون مؤسسة عظيمة، ولكنها في سنتي الثانية في الصحراء كادت

أن تؤدي إلى مضاعفات غير سارة. وعند عودتي إلى القاهرة، بعد موسمي الأول في الصحراء، طلبت ستة أسطوانات لأرسلها إلى الشيخ أحمد على هيئة بقشيش، تاركًا الاختيار لبائع المتجر، لأنه من الأرجح أن يعرف ما قد يروق للأذواق المحلية.

لقد زرت الشيخ أحمد مرة أخرى خلال موسمي الثاني، وأخرجوا الغرامافون مرة أخرى ومعه أسطواناتي. كان الشيخ أحمد يحتفظ بها في مكان منفصل عن بقية مقتنياته، وأظن أنه لم يضعها على الغرامافون الخاص به من قبل. لكنه وضعها واحدة تلو الأخرى على آلته وجلس أمامها، يعزف على أنغام الموسيقى، متظاهراً بأدب بأنه يستمتع بها . ومن هذا استنتجت أنه لم يكن على دراية كاملة بطبيعة الموسيقى التي كان الغرامافون ينتجها، فمن المؤكد أنني لم أكن لأختار هذه الأسطوانات لأرسلها إلى شيخ سنوسي.

وبعد سنوات قليلة، ونظراً لاختلاف بسيط في الرأي مع السلطات الحكومية، وجد الشيخ أحمد أنه من المناسب أن يغادر فجأة مع عائلته وممتلكاته إلى الكفرة.

وإذا سمع أحد زوار هذه الواحة في المستقبل صوتًا باريتونيًا جميلاً ينبعث من أحد المنازل الأصلية، يعلن أنه "سيغني له أغاني عربية وحكايات عن كشمير الجميلة"، أو جوقة من الأصوات، مصحوبة بفرقة نحاسية، تحثه على بذل المزيد من الجهود من خلال الألحان الملهمة "إلى الأمام، أيها الجنود المسيحيون! يسيرون كما لو كانوا في طريقهم إلى الحرب"، فسوف يكون قادرا على تحديد موقع منزل الشيخ أحمد، وسوف يعرف من أين جاءت هذه السجلات.

لقد قمت بزيارة المتجر عندما كنت في القاهرة في المرة التالية، لأستفسر عن سبب كون هذه الأسطوانات غير مناسبة على الإطلاق كهدية [72] لقد أرسل إليه أحد الشيوخ السنوسيين. وخلال حديثنا الودي حول هذا الموضوع، أوضح لي البائع أنه اختار تلك السجلات "كمزحة" لأنه لم يكن يتوقع مني أن أخرج مرة أخرى إلى الواحة. لا شك أن الأمر كان يحمل جانبًا فكاهيًا، فقد كان مشهد ذلك "الشيخ السنوسي" وهو يدق الساعة بأدب «إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون!» يستحق المشاهدة حقًا!

ولكن لنعد إلى زيارتي الأولى لعزبة الشيخ أحمد. فحين انتهى برنامج الغرامافون، دار نقاش طويل وجاد حول ما إذا كان هضمنا للعشاء قد تقدم إلى الحد الذي يسمح لنا بالذهاب إلى الفراش. ورغم أن الوقت كان قد تجاوز الثانية صباحًا آنذاك، فقد توصل الجميع إلى استنتاج مفاده أنه يتعين علينا أن نمنح هضمنا مزيدًا من الوقت لمواصلة عمله قبل أن نخلد إلى النوم. ومن الواضح أن الفرقة كانت قد قررت أن تمضي ليلتها هناك.

قُرِّر أولاً أن نستمتع بالمزيد من الموسيقى. كان الشرطي قد صنع خلال الصباح ما يشبه المزمار البسيط من قطعة قصب. أما المأمور فقد أحضر صينية حديدية، وشرع في استخدامها كطبلة (طمطم). والطبيب القبطي، الذي تميز بتلقي تعليمه على أيدي معلمين أوروبيين في مستشفى القصر العيني بالقاهرة، كان أكثر تحضراً في اختياره لآلته — فقد تمكن من العثور على مشط من مكان ما، وبإضافة قطعة من الورق، أثبت أنه عازف بارع. وهكذا، بعد أن شكلوا فرقة جاز مرتجلة، شرعوا يفسدون هدوء الليل بإعادة غناء بعض الأغاني التي سمعوها على الغراموفون.

أخيرًا، وبعد أن ملّوا من تلك التسلية، شرعوا في لعب لعبة طفولية، يفكر فيها أحدهم



صناعة الأنابيب الخشبية.

وتروي هذه الواحات آبار ارتوازية لا يعرف تاريخها، وكلها مبطنة بأنابيب خشبية. وما زالت آبار مماثلة تُحفر حتى يومنا هذا. (ص 312).

بشيء ما، ويحاول الآخرون، عبر استجوابه بالتناوب، معرفة ما هو هذا الشيء. أثار هذا قدراً كبيراً من المرح، وازداد الصخب والحماس. كانت اللعبة شائعة على ما يبدو. لكن



شارع في الرشيدية. / في بعض الأحيان يتم بناء الطوابق العليا من المنازل فوق الشوارع للحفاظ على الطرق باردة في الطقس الحار. (ص 49).

الأشياء التي فكر فيها ذلك الشيخ السنوسي المتظاهر بالتقوى — يا للهول! — كانت شرقية! شرقية لدرجة أنني ذهبت إلى الفراش في النهاية، وتركتهم لا يزالون يلعبون — هكذا كان تقشف السنوسيين!

[73] بعد ليلة من الراحة المضطربة، أيقظتني فرقة الجاز من جديد. وحين خرجت من غرفتي، وجدت المجموعة كلها في مراحل مختلفة من خلع ملابسها، جالسين على الفرش التي قضوا عليها الليل، يدخنون السجائر، ويغنون، ويضربون الصواني، وينتظرون وصول الحلاق ليحلق لهم ذقونهم. ولم يكن الشيخ أحمد نفسه حاضرًا، فقد اعتزل في منزله الخاص ليلته، ولم يظهر بعد ذلك.

لقد أنهى وصول الحلاق وخادمين يحملان أدوات الغسيل هذه الفوضى. فقد قام الحلاق بجولة حول كل من الضيوف المحليين بدوره، فقام بحلاقة ذقونهم وقص شعرهم، بينما قام الباقون بغسل أيديهم بينما كان الخدم يسكبون عليهم الماء. وبعد الانتهاء من هذه التمهيدات، شرعوا في ارتداء ملابسهم.

سرعان ما عاد الشيخ أحمد من منزله، مرتديًا ملابس فخمة كعادته، وبدأ بمساعدة الخدم في إعداد المائدة للإفطار.

وبعد انتهاء الوجبة، وظهور الشاي، وبعد تناوله، اصطحبنا مضيفنا لرؤية بئره وحديقته. وفي إحدى الحظائر الصغيرة المحاطة بجدران والتي بُنيت حول منزله، أرانا فرنه، الذي كان حوله عدد من الأطباق والأواني والأحواض الفخارية الخشنة. وكان الفرن نفسه عبارة عن مبنى صغير على شكل خلية نحل، مزين بشكل طفيف على القبة بأنماط مرتفعة، ومن بينها جهاز يشبه حرف Y المقلوب. وربما كان هذا هو وسمه (الوسم)، علامة الماشية القبلية.

إن الطائفة السنوسية نفسها لها وسم خاص بها، يتألف من كلمة «الله»، للإشارة إلى أن الحيوانات والعبيد الموسومين بها مكرسون لخدمته. لم أر قط أي عبيد موسومين بهذه العلامة، لكنني رأيت غالبًا جمالهم، التي وسِمت بهذه الطريقة. ومع ذلك، في كل حالة، اتخذت الكلمة الشكل(IWI) ربما كان هذا راجعًا فقط إلى الكتابة السيئة من جانب الرجل الذي وسم الحيوان، ولكن قد يكون أيضًا نوعًا من الشكل التقليدي للكلمة المكتوبة بشكل صحيح.

وصل شقيقا الشيخ أحمد قبل وصوله مباشرة [74] لقد انتهى الحفل في المنزل. لذا عندما عدنا إلى غرفة الضيوف لحزم أمتعتنا، اغتنمت الفرصة لالتقاط صور لهم معًا. حاولت بعد ذلك إقناع الشيخ أحمد بالتقاط صورة له وهو يرتدي ملابس الصلاة

البيضاء، لكنني ارتكبت خطأً فادحًا هناك. بدا غاضبًا للغاية للحظة، ثم رد بصرامة أن هذا مستحيل لأنه محرم، محظور في دينه. لكنه سرعان ما استعاد أعصابه وكان مبتسمًا بحلول الوقت الذي غادرنا فيه.

الفصل السادس

كان المأمور الذي كان يقود مجموعتنا بنفسه قد رتب لنا زيارة جديدة. وفي الطريق إلى هناك، مررنا بقرية موشية الواقعة في منطقة من الرمال المتطايرة، [75] والتي بدت في بعض الأماكن وكأنها تتعدى على الزراعة. وكانت أغلب الأراضي مزروعة بأشجار النخيل، التي قيل إن عددها بلغ نحو ستة وعشرين ألف شجرة. وكانت القرية نفسها غير مثيرة للاهتمام، وكان أبرز ما يميزها هو الرسم بأنماط هندسية تزين الجدران الخارجية لبعض المنازل. وقد أظهر السكان هنا علامات تقدم أكثر من معظم قرى الواحة، حيث أقيمت عدد من السواقي لري الأراضي المزروعة، حيث أدى الفشل الجزئي للآبار إلى ضرورة إقامة مثل هذه السواقي.

ولكن في الجديدة بدوا أكثر تحفظًا. فقد كان إمداد المياه يضعف، وذلك وفقًا لسكان المنطقة، بسبب الكميات الكبيرة من المياه التي تنتجها الآبار الحديثة الكبيرة في رشيدة، وكانت العديد من أشجار النخيل تموت بسبب نقص الري. وقد تم إدخال عدد قليل من الشادوف لرفع المياه، ولكن السكان اشتكوا بشدة من العمل الشاق المطلوب لتشغيلها. وعندما سئلوا عن سبب عدم استخدامهم للساقية، أجابوا بلا مبالاة بأن لا أحد يعرف كيفية صنعها، ويبدو أنهم يعتقدون أن استيرادها من وادي النيل سيكون أمرًا شاقًا للغاية.

في الجديدة سمعت قصة أخرى عن زرزورة. يبدو أنه منذ سنوات عديدة، لم يتم تحديد العدد الدقيق، عندما كان أسلاف السكان الحاليين يعيشون جميعًا متفرقين في المنطقة في قرى صغيرة وعزب، خرج بعض الرجال السود طويلي القامة، ذوي الشعر الطويل والأظافر الطويلة، من الصحراء وسرقوا خبزهم في الليل. في الصباح، تتبع السكان الأصليون آثارهم إلى [76] ثم عثروا على الآبار التي شربوا منها عند وصولهم إلى الواحة، فملأوها بالملح حتى لا يستخدموها مرة أخرى. ثم عادوا إلى واحة الداخلة، واتحدوا معًا لبناء قرية الجديدة (المدينة الجديدة) للحماية المتبادلة.

وصلنا إلى مدينة "موط" عند غروب الشمس مباشرة، حيث مررنا على عدد من السكان الأصليين الذين يقودون مواشيهم إلى أماكن إيوائها في الحظائر المسورة الصغيرة

التي تحيط بالمدينة.

وجدت "عبد الرحمان" ينتظر ليخبرني عن حالة الإبل. كان كل ما قاله على ما يرام، باستثناء أن الجمل الأخضر عض الجمل الأزرق، وأن الجمل الأحمر أصيب بالجرب. لكن "عبد الرحمان" قال إنه دهنه بالزبدة جيداً، وهو ما أثار غضبه بشدة، وأضاف أنه يأمل الآن أن يكون قد شُفي.

لقد مر بي عمدة رشيدة في فترة ما بعد الظهر. وعند مغادرته، أعرب عن رغبته الحارة في أن أعثر على زرزورة، وأن أجد هناك الكثير من الكنوز. وسرعان ما اكتشفت أنه من غير المجدي محاولة إقناع أي مواطن بأنني كنت أنوي فقط رسم الخرائط وجمع المعلومات العلمية. وحتى الأكثر ذكاءً منهم، مثل المسؤولين المحليين، وعائلة موهوب، وعمدة رشيدة، لم يدركوا أن أي شخص يمكن أن يكون أحمقًا إلى هذا الحد إذا قام بعمل من هذا النوع ما لم يكن مدفوع الأجر للقيام بذلك، وكانوا هم أنفسهم من الباحثين عن الكنوز، وكانوا سريين للغاية في أساليبهم في البحث عن الثروات المدفونة، لدرجة أنهم اعتبروا جميعاً أن السبب الذي قدمته لرحلتي لم يكن سوى غطاء لإخفاء حقيقة أنني كنت أبحث حقًا عن كنز.

عندما كنت أخطط للانطلاق إلى الجزء المجهول من الصحراء الليبية بعد الداخلة، وجدت نفسي في مواجهة صعوبة خطيرة ذات طبيعة غير عادية على الإطلاق. فعادةً ما يكون لدى المسافر عندما يبدأ رحلته هدف محدد في ذهنه، كأن يتسلق جبلاً معيناً، أو يتبع نهراً معيناً حتى منبعه، أو يستكمل مسح بحيرة تم العثور عليها، أو يبحث عن مكان قيل إنه موجود بناءً على معلومات محلية، ولكن في هذا الجزء لم يكن هناك هدف من هذا القبيل متاحاً.

[77] باستثناء مجموعة واحات الكفرة، على أقصى الجانب الغربي منها، فإن الصحراء الليبية بأكملها تقريباً إلى الجنوب والغرب من الداخلة كانت غير معروفة، لذا كان الربع الجنوبي الغربي هو الذي جذبني أكثر، حيث أن أي رحلة تتم في هذا الاتجاه ستؤدي مباشرة إلى قلب أكبر منطقة من الأرض غير المعروفة في أفريقيا، أو في ما يتعلق بتلك الموجودة خارجها، وفي هذا الربع أيضاً، أظهرت الخرائط حقل الكثبان الرملية الكبير، والذي كان عبوره أحد الأهداف الرئيسية لرحلتي، لذلك كان هذا هو الجزء الذي قررت معالجته أولاً.

في تلك اللحظة وجدت نفسي أمام مشكلة. ما هو هدفي؟ بين الغرب والجنوب توجد اتجاهات عديدة يمكن للمرء أن يسير عليها. في أي اتجاه ينبغي لي أن أسلك؟

إن احتمالات العثور على بئر، ربما بئر بعمق قدمين فقط في الأرض، من المحتمل جدًا أن تكون مليئة بالرمال، عن طريق التجول بشكل عشوائي في مئات الآلاف من الأميال المربعة من الصحراء، احتمالات ضئيلة.

ولم تقدم الخرائط سوى القليل من المساعدة في حل المشكلة. فقد تركت العديد منها هذه المساحة فارغة . أما أولئك الذين وضعوا أي شيء هناك، فقد وصفوها بأنها مغطاة بالكامل بكثبان رملية ضخمة، أو كما وصفها البعض بأنها «كثبان رملية لا يمكن عبورها».

كانت أقرب نقطة إلى الداخلة في هذا الربع الجنوبي الغربي، والتي تم تحديدها في الخرائط، واحة تبلغ المسافة إليها ثمانية عشر يومًا في الجنوب الغربي، وفقًا للمعلومات المحلية. ثمانية عشر يومًا، أي عبر الصحراء العادية، وهو ما قد يعني ثلاثين يومًا على الأقل إذا كان لابد من عبور الكثبان الرملية الكبيرة، ومن ما رأيته من تلك الكثبان الرملية كان من المشكوك فيه أن تكون قابلة للتجاوز على الإطلاق. قيل إنها مأهولة بالسكان، ولكن حتى اسمها لم يكن معروفًا. كما قيل إنها بها طريق قديم يؤدي منها إلى مصر. بدا هذا واعدًا إلى حد ما، ولكن المكان كان بعيدًا جدًا بحيث لا يمكن استخدامه كهدف أول، لأنه إلى أن أعرف موقعها بدقة، حتى أتمكن من التأكد من العثور عليها في محاولتي الأولى، كان من الضروري أن أرتب للعودة مرة أخرى في حالة عدم تمكني من الوصول إليها، وهذا كان سيتطلب رحلة لمدة ستة وثلاثين يومًا بعيدًا عن الماء، عبر صحراء سهلة، أو شهرين أو ثلاثة أشهر عبر الكثبان الرملية الكبيرة.

[78] عندما نأخذ في الاعتبار أن الجمل المحمل بالحبوب فقط سوف يستهلك حمولته في حوالي شهر، وأن كمية المياه التي يجب أن تؤخذ بالإضافة إلى ذلك في رحلة من هذا النوع ستكون أثقل بكثير من الحبوب المطلوبة، فسوف ندرك بسهولة أن مثل هذه الرحلة ستكون مستحيلة دون تبني نظام من المستودعات أو التتابعات، والتي، نظرًا لخطر العبث بها، شعرت بعدم الرغبة في القيام بها حتى أعرف المزيد عن المنطقة. قبل أن أتمكن من الأمل في الوصول إلى هذا المكان، كان من الضروري بالنسبة لي العثور على واحة أو بئر أقرب، يمكنني أن أبدأ منها من جديد؛ لذلك كان من الواضح أن هذه الواحة أو البئر الوسيطة يجب أن تكون هدفي الأول. ولكن أين يمكن العثور على هذا المكان؟

وفي غياب معلومات أكثر موثوقية، خطر ببالي أنه ربما كان من الممكن استخلاص بعض الدلائل على مكان وجودها من أساطير زرزورة. وقد أظهرت قصة حفريات

رولفس في دير الحجر، التي رواها لي رجال كانوا يعيشون في المنطقة في الوقت الذي قيل إن الحفريات جرت فيه، مدى تحريف السكان الأصليين حتى للأحداث الحديثة نسبيا.

ولكن اسم زرزورة في حد ذاته كان يوحي بشيء ما. فكلمة زرزور تعني حرفيًا زرزور، ولكن هذا المصطلح كثيرًا ما يُطلق على أي طائر صغير. وإذا افترضنا أن الاسم مشتق من هذا المصدر، فإن معناه قد يكون «مكان الطيور الصغيرة»، وهو اسم يبدو لي من قبيل الخيال إلى الحد الذي يجعلني أشعر بأنه من غير المرجح أن يُطلق على أي مكان محدد، وإذا ما وضعنا في الحسبان الطابع الغامض إلى حد ما للقصص التي ارتبطت بها الواحة، فقد استنتجت إما أن أي مكان بهذا الاسم لم يكن موجودًا قط، أو أن زرزورة، وهو ما يبدو أكثر ترجيحًا، كان اسمًا عامًا يُطلق على أي واحة مجهولة أو مفقودة، وأن الأساطير المختلفة التي سمعتها عنها كانت في بعض الحالات نسخًا مشوهة لأحداث وقعت بالفعل في الماضي، وإذا حكمنا من السرعة التي تم بها تحريف قصة حفريات رولفس، فإن الماضي لم يكن بالضرورة بعيدًا جدًا.

ويقال أن زرزورة تقع إلى الجنوب الغربي من الداخلة، [79] ولقد كانت الدلائل الأخرى، على صغرها، تشير جميعها إلى أن هذا هو الاتجاه الأكثر وعدًا للذهاب إليه. فلم تكن الواحة المجهولة، التي يمتد الطريق منها عائدًا إلى مصر، مشارًا إليها على الخريطة بأنها تقع في هذا الاتجاه تقريبًا فحسب، بل إن أفضل الدلائل على الإطلاق كانت الهجرة الكبيرة للطيور التي كانت تأتي سنويًا من هذا الجزء من الصحراء. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك الكثير مما يمكن الاعتماد عليه في اتخاذ قرار تبني هذا الطريق، ولكن في غياب معلومات أكثر موثوقية، اضطررت إلى اتباع مثل هذه الدلائل كما كانت موجودة. وفي وقت لاحق، في موسمي الأخير في الصحراء، تمكنت من جمع قدر كبير من البيانات من مختلف السكان الأصليين فيما يتعلق بالأجزاء المجهولة، والتي تمكنت من بناء خريطة كاملة إلى حد ما. ولكن المعلومات جاءت متأخرة جدًا بالنسبة لي للاستفادة منها. وربما تكون مفيدة في توفير هدف للمسافرين في المستقبل. ولو كنت قد حصلت على هذه المعلومات لأعتمد عليها عندما خرجت لأول مرة إلى الصحراء، لكنت قد تعاملت مع المهمة بطريقة مختلفة .

وبعد أن تعافى الجمل الأحمر من عملية دهنه بالزبدة، وأعلن "قوي" شفاءه من الجرب، قررت أن أبدأ على الفور.

كان هناك فضول كبير في الواحة فيما يتعلق بالاتجاه الذي كنت أعتزم الذهاب

إليه. كان أغلب السكان الأصليين، ربما متأثرين باستفساراتي عن زرزورة، مقتنعين بأنني عازم على البحث عن الكنز المخفي هناك، وأي تصريح أدليت به على العكس من ذلك لم يكن له سوى تأثير في تعزيز رأيهم بقوة أكبر. لا يكشف أي مواطن، عندما يبدأ في البحث عن الكنز، عن المكان الذي يتجه إليه، ويحاول تضليل جيرانه بشأن نواياه الحقيقية، وكان أي تصريحات أدلي بها بشأن هدف رحلتي يُنظر إليها دائمًا من هذا المنطلق.

جاء المأمور ليودعني، وقبل أن أبدأ سألني عن الاتجاه الذي أعتزم الذهاب إليه. فأخبرته أنني أعتزم الذهاب إلى الجنوب الغربي. كان المأمور مهذبًا للغاية ولم يعارضني، لكن تعبير وجهه أظهر عدم تصديقه بوضوح تام، عدم تصديق وبعض الإعجاب. كانت أفكاره في كلمات: « كذاب، يا له من كذاب. أتمنى لو كان بإمكاني الكذب مثله». [80]

وعند عودتي، كان من أوائل الذين جاءوا «ليحمدوا الله على سلامتي». وبعد أن استكمل الإجراءات الرسمية المهذبة المعتادة، سألني عن المكان الذي كنت فيه بالفعل. وعندما قلت له إنني ذهبت إلى الجنوب الغربي كما أخبرته، بدا عليه الاندهاش الشديد وألقى نظرة على "قوي" الذي كان يشرب الشاي على حصيرة بالقرب من الباب، ليتأكد من الأمر. فضحك "قوي" وقال: «نعم، لقد ذهب إلى الجنوب الغربي».

«ولكن - ولكن - ولكن -» تلعثم المدير، «هذا هو المكان الذي قلت أنك ذاهب إليه.»

حتى في ذلك الوقت لم أكن أعتقد أنه كان يصدق ما قلته. فحينما كنت أطرح أسئلة من هذا النوع، كنت أقول الحقيقة دائمًا ولا أخفي أبدًا خططي. كنت أعلم جيدًا أنهم لن يصدقوني، وفي البداية لم يصدقوني أبدًا. وبعد ذلك، عندما بدأوا يدركون أن تصريحاتي صحيحة، نظروا إليّ، كما أعتقد، باعتباري أحمقًا. ولم يكن بوسعهم أن يفهموا من يقول الحقيقة، في حين أنه كان عليه أن يكذب فقط من أجل الخداع.

وهذا يثير سؤالًا معقدًا إلى حد ما في الأخلاق. فعندما تعلم أنه إذا قلت الحقيقة فلن يصدقك أحد، وبالتالي سوف يخدعك الآخرون بشأن نواياك الحقيقية، ألا يكون الكذب أكثر أخلاقية؟

لقد قمت ببعض الاستعدادات المعقدة لعبور الكثبان الرملية. لقد أحضرت معي عدة أكياس فارغة لأفرشها على الرمال حتى تطأها الإبل، وكان لدي زوج من أحذية الثلج الكندية لاستخدامي الشخصي، والتي وجدت من خلالها سهولة تامة في عبور

حتى أكثر الرمال نعومة.

خرجت لألقي نظرة عن قرب على الكثبان الرملية. بدت لي الكثبان الرملية عند الاقتراب منها أكثر رعباً مما كانت عليه عند النظر إليها من مسافة بعيدة. لم تكن الكثبان الرملية ضخمة فحسب، بل والأسوأ من ذلك أن الرمال التي تتكون منها كانت رخوة وناعمة للغاية لدرجة أن الجمال كانت لتغرق فيها حتى ركبتيها تقريباً. كان من الواضح أنه إذا كان حقل الكثبان الرملية بأكمله بهذا الشكل، فإن نقل قافلة على مسافة أيام عديدة من هذه الرمال الناعمة كان مهمة يائسة تقريباً.

ومع ذلك، صممتُ على خوض التجربة. لذا، عشية الانطلاق إلى الصحراء، أرسلتُ قواي [81] علي هجينه ليبحث لنا عن أفضل مكان لدخول حزام الكثبان، وكانت النتيجة أنه بدلاً من الانطلاق نحو الجنوب الغربي، قاد القافلة نحو الشمال الغربي، حيث وجد نقطة منخفضة في التلال الرملية. لكن بقدر كبير من الرهبة وضعتُ قدمي على أول كثيب وصلنا إليه، وأدركتُ أنني قد شرعتُ في محاولة يائسة لحل لغز رمال «بلاد الشيطان» — لقد كان ذلك احتمالاً مروعاً.

الفصل السابع

كان الكثيب الأول الذي كان علينا اجتيازه يبلغ ارتفاعه حوالي ثمانية أقدام فقط، وبما أن الرمال في هذه النقطة كانت صلبة للغاية، ففي دقيقة أو دقيقتين، ودون أدنى صعوبة، كنا قد عبرنا أول تل رملي في ذلك الحقل من "الكثبان الرملية غير القابلة للعبور" - والأخير!

وجدنا أنفسنا على الفور على رقعة خالية من الرمال تقع بين الكثبان الرملية. باتباع مسار متعرج عبر الحزام، تمكنا من الوصول إلى جانبه الأبعد في حوالي ساعة ونصف، دون الحاجة إلى المرور عبر أي رمال أخرى. لم تكن تلال الرمال متلاصقة كما بدت من مسافة بعيدة.

لقد خرجنا إلى ممر طويل بين الكثبان الرملية خالٍ من الرمال المنجرفة، ويمتد بالتوازي مع حزام الرمال ويمتد بعيداً إلى الجنوب، حتى ينتهي في المسافة عند تل في الأفق. وعلى الجانب البعيد من هذا الممر كان هناك حزام آخر من التلال الرملية، والتي كانت لتتسبب في بعض الصعوبة في عبورها، نظراً لتقاربها وارتفاعها الكبير. لذا، بدلاً من الحفاظ على اتجاه الجنوب الغربي، والذي كان من شأنه أن يستلزم عبور هذه الكثبان الرملية الصعبة، اتبعت الممر الخالي من الرمال إلى الجنوب وسرت على طوله،

على أمل العثور على مكان أسهل حيث أصبحت الكثبان الرملية أقل ارتفاعًا أو أكثر تناثرًا. كان هناك طريق قديم مهجور يمتد غربًا من مدينة "موط" إلى الكثبان الرملية، ويفترض أنه يؤدي مباشرة إلى الكفرة. وجدنا استمرارًا لهذا الطريق حيث عبر الممر ومر مرة أخرى تحت الكثبان الرملية إلى الغرب منه. عند هذه النقطة، كان يحمل اتجاه 265 درجة.

سرعان ما انضممنا إلى آثار خمسة جمال تسير في نفس الاتجاه الذي نسير فيه، ويبدو أن عمرها لم يتجاوز ثلاثة أو أربعة أيام. تبعنا هذه الآثار، التي كانت تمتد على طول الطريق بين الكثبان الرملية، وسرعان ما صادفنا، وسط دهشة الجميع، أثرًا واضحًا لعربة ذات عجلتين. وفي النهاية قادونا إلى تلة منخفضة جدًا من الحجر الرملي.

وبما أن وسائل النقل ذات العجلات غير معروفة على الإطلاق في الواحة، فقد كان وجود آثارها لغزًا محيرًا. ولم أتعرف على تاريخها إلا بعد عودتي إلى الواحة. فقبل أربعين عامًا على الأقل، استورد والد عمدة رشيدة عربة إلى الواحة من وادي النيل، من أجل جلب حجري الرحى اللذين رأيناهما في طاحونة في قريته من التلة الرملية.

إن بقاء آثار الأقدام في أنواع معينة من الصحراء أمر معروف جيدًا لأي شخص لديه أي خبرة في الحياة الصحراوية. وفي هذه الحالة، كانت العلامات تمر فوق سطح رملي مستو مغطى بطبقة رقيقة من الحصى الداكنة. ولا بد أن العربة سحقت الحصى بعمق في الرمال الناعمة التي كانت ترقد عليها، وسرعان ما امتلأت الأخاديد التي تشكلت بهذه الطريقة بالرمال المنجرفة أثناء العاصفة الرملية الأولى، فظهرت على شكل خطين أبيضين واضحين، بسبب غياب الحصى الداكنة على طول الآثار، وشكلت علامات قد تستمر بسهولة لمدة قرن من الزمان، ما لم تكن موجودة في جزء من الصحراء حيث كان تآكل الرمال يؤدي تدريجيًا إلى تآكل سطح الأرض.

وعلى مقربة من التل الذي استخرجت منه أحجار الرحى، انحرفت آثار الجمال الخمسة التي رأيناها نحو الغرب. ونظرًا لأن الطريق الذي كنا نتبعه كان يمتد شمالًا في اتجاه قصر الداخلة، وكانت الجمال الوحيدة في الواحة هي تلك التي يمتلكها السنوسيون الذين يعيشون هناك، فلم يكن هناك شك يذكر في أن الآثار التي رأيناها كانت آثار مجموعة من السنوسيين من الزاوية في طريقهم، ربما حاملين رسائل، إلى الكفرة.

كان السنوسيون يحرصون على إجراء زياراتهم من وإلى مقرهم بسرية تامة، خوفًا من أن يتم تعقبهم عند توجههم إلى هناك، وبالتالي قد يتم الكشف عن الطريق الذي سلكوه. كان الطريق الذي سلكه هذا الفريق مناسبًا للحفاظ على سرهم، حيث كان

من المؤكد أنهم كانوا مخفيين عن سكان الواحة أثناء اتباعهم للطريق بسبب خط الكثبان الرملية الذي عبرناه. لذا فقد عثرنا على ما يبدو على أحد طرقهم السرية المؤدية إلى الكفرة.

حوالي الساعة الرابعة وصلنا إلى التل الذي رأيناه في الأفق في نهاية الممر بين الكثبان الرملية، ولما كان أعلى جبل في المنطقة، صعدت إلى قمته مع قوي وعبد الرحمن، وأرسلنا القافلة حول قاعدته لتنتظرني على جانبه الجنوبي.

من القمة، كان بوسعنا أن نرى مجموعة واسعة من البلاد. ففي أقصى الشمال كانت تقع واحة الداخلة مع المنحدر خلفها. وكان من الممكن رؤية استمرار هذا المنحدر بعد قصر الداخلة ممتدًا بعيدًا إلى الغرب كخط أزرق خافت بدا وكأنه يخفض نحو الغرب.

كانت الصحراء الواقعة إلى الغرب من الداخلة مغطاة بالكامل تقريبًا بالكثبان الرملية، والتي بدت أعلى كلما اتجهنا نحو الشمال وفي أقصى الغرب، حيث كانت أكثر احمرارًا بشكل ملحوظ من التلال الرملية ذات اللون الكريمي في محيط الواحة.

في كل مكان إلى الجنوب الغربي، في الاتجاه الذي كنا نسير فيه، كانت الصحراء مستوية للغاية، ولدهشتي الكبيرة كانت خالية من الرمال المنجرفة، باستثناء كثبان رملية معزولة واحدة أو اثنتين يمكن رؤيتها من بعيد. وبدلًا من الصحراء المغطاة بالرمال إلى الجنوب الغربي من الداخلة كما هو موضح على الخرائط، كان السطح بالكامل يتكون من الحجر الرملي النوبي العاري - ولم يكن هناك أي علامة على الحجر الجيري الذي يتوج الهضبة بالقرب من وادي النيل. كان التل الذي وقفنا عليه أعلى بكثير من الداخلة، ومن موقعنا المرتفع كان بإمكاننا أن نرى مسافة كبيرة؛ ولكن لم يكن هناك أي أثر يمكن رؤيته لـ "بحر الرمال العظيم الذي لا يمكن عبوره" الذي ظهر على خرائط الجنوب الغربي من الواحة. لم يسبق لمسافر غير مدرك أن يضلله جغرافي مبدع إلى هذا الحد. المنطقة العظيمة المغطاة بالكثبان الرملية الضخمة التي كان من المفترض أن توجد هنا، والتي تمتد إلى آلاف وآلاف الأميال المربعة، لم تكن موجودة على الإطلاق. لقد كانت أسطورة مطلقة!

إن أحزمة الرمال في هذه الصحراء تزحف نحو الجنوب تحت تأثير الرياح الشمالية السائدة - ليس كما رأيت ذات مرة في إحدى الروايات بمعدل أميال عديدة في غضون ليلة واحدة - بل بتقدم ثابت، لنقل عشرين ياردة في العام. ومن المعروف أن الأحزمة الطويلة، مثل تلك التي ذكرها أبو محرق، تمتد لمئات الأميال، وبالتالي فقد افترضنا أن الكثبان الرملية التي وجدها رولفس تمتد لمسافة مماثلة.

من حيث وقفنا السبب وراء هذه الأحزمة كان من الواضح أن مستوى الأرض ارتفع بسرعة كبيرة على طول الطريق من الداخلة، وكانت المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من موقعنا تشكل هضبة مرتفعة، على طول الحافة الشمالية لها تمتد سلسلة من التلال ذات الارتفاع الكبير. كانت أحزمة الرمال التي وجدها رولفس جميعها متجمعة بالقرب من هذه التلال، باستثناء مكان أو مكانين حيث تسلل خط من الكثبان الرملية الهلالية المعزولة عبر فجوة في النطاق وظهرت على الهضبة.

إن التباين بين هذا الجزء من الصحراء، كما هو موضح على الخريطة، والمغطى بالكامل بهذه الكثبان الرملية "التي لا يمكن عبورها"، والتي كانت مشكلة كنت أحاول حلها طوال الأشهر القليلة الماضية، والصحراء كما كانت موجودة في الواقع - مع وجود سلسلة صغيرة من الرمال يبلغ ارتفاعها حوالي ثمانية أقدام وعرضها ربما أربعين ياردة يجب عبورها، والتي لم تشكل أي صعوبة على الإطلاق، لا يمكن أن يكون أكبر من ذلك. لقد شعرت بالانزعاج الشديد من واضعي هذه الخرائط لأنهم تسببوا في إهدار الكثير من الوقت. ومع ذلك، كان اكتشاف طبيعة الصحراء الخالية من الرمال ذا أهمية كبيرة لغرض رحلتي، لأنه بطبيعة الحال جعل طريقنا أسهل بكثير للعبور.

وبما أن "بحر الرمال الذي لا يمكن عبوره" أثبت أنه أسطورة، ولم يكن السنوسي يبدو متعصباً إلى حد ما كما توقعت، فقد بدأت آمل أن تختفي الصعوبات الأخرى التي لا يمكن التغلب عليها بنفس الطريقة، وألا أواجه أي عقبات أخرى سوى نقص المياه والمشاكل الأخرى التي يتعين علي دائمًا مواجهتها في كل رحلة صحراوية.

كان عبد الرحمن يفحص الصحراء كلها بدقة من أعلى التل باتجاه الجنوب الغربي. وفجأة لمس ذراعي ولفت انتباهي إلى معلمين بارزين على مسافة بعيدة.

نظرت من خلال منظاري في الاتجاه الذي أشار إليه، ولكن لم أتمكن من رؤية أي شيء على الإطلاق. ومع ذلك، وبما أنه أصر على وجودهما هناك، فقد نزلنا إلى أسفل التل للبحث عنهما.

على مسافة طويلة من سفح التل، كان سطح الصحراء بالكامل مغطى بألواح فضفاضة من الحجر الرملي. قادنا عبد الرحمن عبرها حتى وصلنا إلى كومة صغيرة من ثلاثة أحجار يبلغ ارتفاعها حوالي قدم واحدة، وقد رصدها من مسافة مائتي ياردة بفضل بصر البدوي الحاد، على الرغم من أنها كانت ملقاة على الأرض مغطاة بألواح حجرية مفكوكة لدرجة أنني لم أتمكن من رؤيتها بنفسي، حتى عندما أشار إليها عبد الرحمن، حتى وصلت إلى مسافة بضعة أمتار منها.

تُوضع هذه الأكوام الصغيرة من الحجارة، التي لا يزيد ارتفاعها أحيانًا عن بضع بوصات، على فترات على طول الطرق الصحراوية لتكون بمثابة معالم لمن يستخدمونها. وفي بعض الأحيان، بدلًا من وضعها على الطريق نفسه، تُقام على تلة أو أرض مرتفعة بالقرب منها. وغالبًا ما يسافر البدوي، حتى لو لم يكن على دراية بالمنطقة، مسافات طويلة، معتمدًا في توجيهه على "العلامات" التي أقامها مسافرون سابقون على طول الطرق.

وبعد مائة ياردة أخرى وجدنا المعلم الثاني الذي رآه عبد الرحمن. وكان يتألف من كومة مماثلة من الحجارة. فأخذت اتجاهًا على طول الخطين ثم تابعنا السير على طوله. ولكن تبين أن الطريق كان سيئًا للغاية، فقد انزلقت الإبل وتعثرت فوق ألواح الحجارة المتساقطة، حتى ظننت مرة أو مرتين أن أحدها قد سقط. ولكن بعد فترة من الوقت وصلنا إلى أرض أسهل، وبدأنا نحرز تقدمًا أفضل.

أعتقد أنه من المعتاد عند القيام بجولة باستخدام البوصلة أن يتم تقدير السرعة التي تسير بها القافلة في كل قسم من الطريق. شخصيًا، وجدت هذه الطريقة غير مرضية إلى الحد الذي جعلني بعد محاولات عديدة أضطر إلى التخلي عنها في النهاية والاحتفاظ بدليل الطريق الخاص بي على طريقة خاصة بي، والتي وجدت أنها تعطي نتائج أفضل كثيرا.

لقد افترضت سرعة ثابتة تبلغ ميلين ونصف الميل في الساعة، وهو ما يعادل تقريبًا سرعة قافلة من الجمال المحملة على أرض عادية. ثم بعد أن عبرنا قسمًا صعبًا بشكل غير عادي من الطريق، حيث كنت أعلم أننا لم نكن نسير بسرعتنا القياسية، قمت بتقدير مقدار الوقت الذي فقدناه، وقمت بتسجيله في دفتر الطريق باعتباره "توقفًا"، ليتم خصمه من مقدار الوقت الذي استغرقته فعليًا في عبوره. لقد وجدت أن عبور البوصلة، المحجوز بهذه الطريقة، لم يكن أقرب إلى المواضع الفلكية التي وجدتها فحسب، بل وأيضًا إلى الموقع الفعلي. تم تبسيط رسم المسار نفسه إلى حد كبير - وتم تقليل خطر الأخطاء في النتيجة بشكل كبير - من خلال وجود سرعة موحدة للعمل عليها.

قبل وقت قصير من تخييمنا ليلًا، عبرنا طريقًا قديمًا باهتًا للغاية يمتد تقريبًا من الشرق إلى الغرب. تظل هذه الطرق القديمة -التي وجدنا عددًا كبيرًا منها- مرئية لفترة طويلة بشكل غير عادي، حيث تمر عبر أنواع معينة من الصحارى.

لقد وجدنا أن عبور الهضبة كان أمرًا سيئًا بشكل غير عادي. فلم يكن علينا أن نعبر مساحات كبيرة من الصخور الحادة المتآكلة بفعل الرمال فحسب، بل صادفنا مرارا

وتكرارًا شكلاً مزعجًا من أشكالها يُعرف، على حد اعتقادي، باسم "السوفوت" - وهو نوع من التآكل يتألف من شفرات حادة من الحجر الرملي ترتفع على ارتفاع بوصتين أو ثلاث بوصات فوق سطح الأرض، وقد ثبت أن هذا يشكل محنة شديدة للإبل ذات الأقدام الناعمة، التي كانت تتعثر وتترنح على طول الطريق، وهي تنطق بأشد الآهات حزنًا.

كان هناك نوع آخر من الأسطح التي كان علينا أن نعبرها أحيانًا وهو ما يُعرف باسم "نوزر". للوهلة الأولى، بدا هذا وكأنه مساحة مستوية من الرمال الصلبة المتقشرة. لكن المظاهر كانت خادعة. لم يكن سمك الرمال سوى بضع بوصات وغطت طبقة من الطين الصلب الذي تشقق تحت تأثير حرارة الصيف الشديدة إلى شقوق غالبًا ما يبلغ عرضها قدمًا أو أكثر وتمتد لعدة أقدام أسفل الأرض. لم تظهر الأسطح الرملية الملساء أي أثر لهذه الهوة. ولكن إذا حدث أن وضعت الإبل الثقيلة، أثناء سيرها على الأرض، إحدى أقدامها فوق شق، فإنها تخترق على الفور الرمال المتقشرة الضعيفة، وتتعثر إلى الأمام في الحفرة أدناه، وفي أكثر من مناسبة تنزل مباشرة وتلقي بأحمالها. لحسن الحظ لم نتعرض لإصابات أسوأ؛ لكن إجهاد الأوتار، وحتى كسر الأرجل، ليس بالأمر غير الشائع بسبب هذا السبب.

واصلنا السير على طول الاتجاه الذي اتخذته بين "المعلمين"، بقدر ما تسمح لنا به التفاوتات في الصحراء، فبالرغم من أن المستوى العام للهضبة ظل ثابتًا على مساحة كبيرة، إلا أنها كانت بها العديد من التموجات الطفيفة. ولكن بالنظر إلى الأمام في اتجاه الاتجاه، كنا قادرين بشكل عام على تحديد مكان سير الطريق.

هنا وهناك صادفنا علامات تشير إلى أننا ما زلنا على الطريق الصحيح؛ ولكن لم نتمكن من رؤية أي جزء من الطريق مرة أخرى إلا بعد أن تابعناها لمدة يومين تقريبًا.

ثم وجدنا جزءًا منه ملقى في مكان محمي، وتمكنا من تتبعه لأكثر من ميلين. وفي أحد الأماكن حيث كان مرئيًا بوضوح أكثر من المعتاد، نظرًا لكونه محميًا، أحصيت ما لا يقل عن ثلاثة وأربعين مسارًا متوازيًا. في وقت ما، لا بد أنه كان بوضوح أحد طرق القوافل الرئيسية في الصحراء. لكننا لم نر المزيد من "العالم"، ولم نصادف أي امتدادات أخرى للطريق في تلك الرحلة.

كلما ابتعدنا عن الهضبة، ازداد عدد التلال التي رأيناها. كانت كلها من نفس الحجر الرملي النوبي الذي تتكون منه الهضبة نفسها - لم أر أي أثر في أي مكان في هذا الجزء من الصحراء للحجر الجيري الذي يتوج الهضبة إلى الشمال والشرق من الداخلة

والخارجة. كانت التلال من النوع الصحراوي المعتاد، إما مسطحة القمة أو مقببة أو هرمية. في بعض الأحيان صادفنا بعض التلال ذات الخطوط العريضة الأكثر خشونة، لكنها كانت نادرة. في بعض الأجزاء كانت هذه التلال كثيرة بشكل غير عادي، من نقطة واحدة أحصيت أكثر من مائتين وخمسين منها، على الرغم من حقيقة أن حوالي ستين درجة من الأفق كانت مقطوعة بقرب سلسلة طويلة. أكبرها التي رأيتها لم يكن ارتفاعها يزيد كثيرًا على ثلاثمائة قدم. كان المستوى العام للهضبة تقريبًا مثل مستوى هضبة قمة الجرف إلى الشمال من الداخلة.

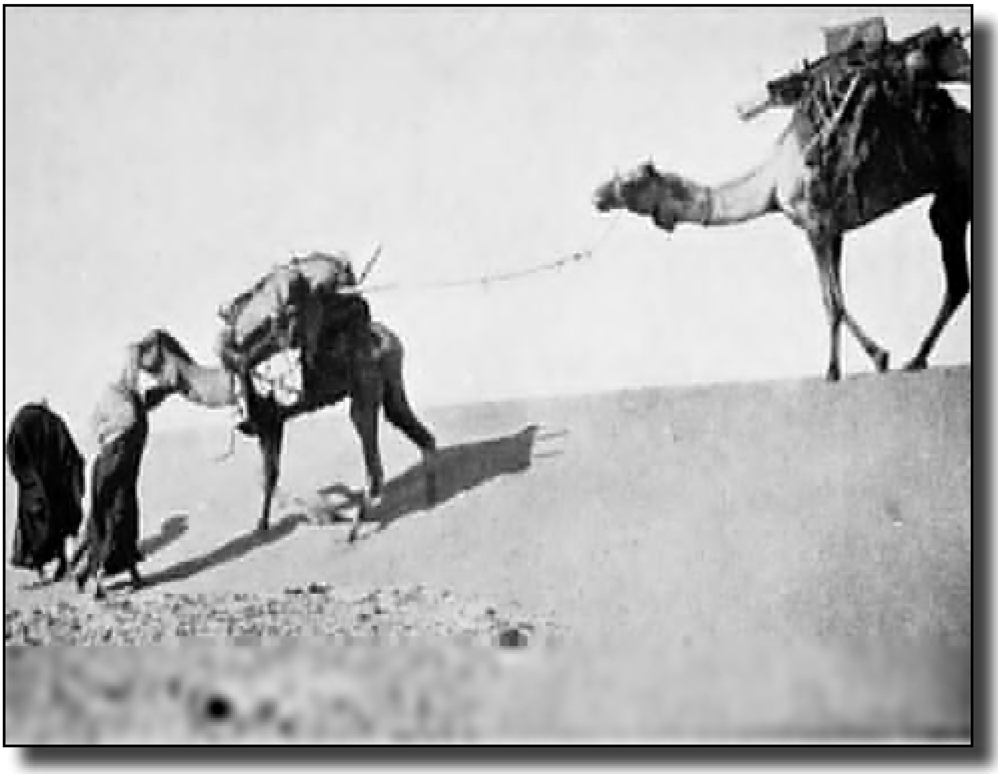
في اليوم الرابع من خروجنا من مدينة "موط"، دخلنا إلى منطقة كبيرة من الأرض الوعرة للغاية، تتكون إلى حد كبيرٍ من الصخور الحادة، ونتيجة لذلك، بحلول المساء، كان اثنان من الإبل يعرجان قليلاً، بسبب الإصابات في أقدامهما من الصخور الحادة، وبما أنني تمكنت من رؤية أرض منخفضة للغاية إلى الجنوب، فقد انحرفت للانطلاق في صباح اليوم الخامس في ذلك الاتجاه.

بعد ساعتين من المسير وصلنا إلى قاع وادٍ صغير، أظهر لي جهاز التصوير اللاهوائي أنه يبلغ عمقه 110 أقدام. ولأننا رأينا قبل وصولنا إليه بفترة وجيزة أثر جرذ، أطلق رجالي عليه اسم «وادي الفأر». كان الوقت لا يزال مبكرًا جدًا، ولكن كما قال أحد الحراس، كان من الواضح أن الوادي كان عميقًا جدًا، وبما أن الإبل كانت لا تزال تعرج، قررت التخييم، وأرسلت "قوي" على مركبته نحو الجنوب الغربي للاستطلاع.

كان من المفترض أن يتكون الجزء الأوسط من الصحراء الليبية بالكامل من «بحر غير سالك» من الكثبان الرملية، ولكن في رحلة إلى منتصف الصحراء تقريبًا، كان الكثيب الرملي الوحيد الذي يجب عبوره بالفعل هو الكثيب الصغير الموضح أعلاه (ص 82).

عند عودته إلى المخيم سألته عما شاهده أثناء ركوبه، فقال إنه ركب لمدة ساعتين باتجاه الجنوب الغربي، ثم وصل إلى حافة سهل على الجانب البعيد منه جبل أسود مرتفع. وقال إنه كان خلفه واد عميق للغاية، لم يتمكن من الرؤية من خلاله، لكنه كان مغطى بالضباب. وبما أن الجبل يقع على بعد حوالي أربع ساعات بالسيارة، والوادي يقع بعده بحوالي ساعتين، فقد عاد إلى المخيم لإبلاغه بما شاهده.

لقد بدا هذا الخبر واعدًا للغاية، وكنت حريصًا على المغادرة على الفور وإلقاء نظرة على «وادي الضباب»، كما أسماه خليل شعريًا، لذلك أخذت قواي بعيدًا لإلقاء نظرة على خزانات المياه الخاصة بنا.



الكثبان الرملية الأكثر وعورة.

كان من المفترض أن يتكون الجزء الأوسط من الصحراء الليبية بأكمله من بحرٍ وعرة من الكثبان الرملية، ولكن في رحلة إلى منتصف الصحراء تقريبًا، كان الكثيب الرملي الوحيد الذي يجب عبوره هو الكثيب الصغير الموضح أعلاه. (ص82).

ولكن التفتيش لم يكن مشجعًا للغاية. فقد كنا نعاني من نقص واضح في المياه. وظن "قوي" أن لدينا ما يكفي فقط لأخذنا إلى «وادي الضباب»، ثم العودة مرة أخرى إلى الداخلة، إذا سارت الأمور على ما يرام، لكنه أشار إلى أن لدينا جملاً أعرج وآخر يعرج قليلاً، وأنه في ذلك الموسم من المحتمل أن نحظى ببعض الأيام الحارة مع هبوب الرياح العاتية، وبالتالي فقد اعتقد أنه سيكون من الأفضل بكثير أن نكون على الجانب الآمن ونعود مباشرة إلى الداخلة، ونريح الجمال، ثم نخرج ونواصل الرحلة إلى الوادي.

وبما أن هذه كانت نصيحة سليمة على ما يبدو، فقد أقمنا المخيم، وحزمنا أمتعتنا واستعددنا للانطلاق على الفور نحو الداخلة، تاركين وراءنا عدة أكياس من الحبوب، مما خفف إلى حد كبير من عبء الجمال وسمح لنا بترك الحيوانين العرج غير قادرين على الحركة.

كان الوادي الذي أقيم فيه المخيم يقع على الحافة الجنوبية للهضبة، وكان ينفتح من جانبه الشرقي على منحدر رملي إلى الأرض المنخفضة خلفه. كنت أعلم أن الهضبة لم تمتد إلى الشرق كثيرا، لذا، ومع وجود جملين تالفين في القافلة، فقد اعتقدت أنه من الأفضل تجنب العودة عبر الطريق الوعر للغاية الذي سلكناه في رحلتنا الخارجية، والتوجه بدلاً من ذلك في اتجاه الشرق، حول الزاوية الجنوبية الشرقية من الهضبة، فوق الصحراء الرملية الناعمة الواقعة عند سفح منحدر الهضبة.

لقد أثبت هذا الطريق، على الرغم من أنه أطول قليلاً من الطريق الذي سلكناه في رحلتنا الخارجية، أنه طريق ممتاز، حيث كان يمتد بالكامل تقريبا فوق رمال صلبة ناعمة. واصلنا السير في اتجاه الشرق حتى منتصف صباح اليوم التالي، عندما وصلنا إلى حافة حزام الكثبان الرملية الذي يمتد على طول الحدود الغربية لداخلة، انعطفنا شمالاً نحو مدينة "موط"، وواصلنا السير على طوله.

كان الطريق خاليًا من المعالم تقريبًا. شوهدت بعض التلال الصخرية المنخفضة على الأرض المنخفضة لفترة من الوقت بعد مغادرة «وادي الفأر»، ولكن حتى هذه التلال سرعان ما توقفت. من هذه النقطة فصاعدًا لم نر شيئًا مثيرا للاهتمام، باستثناء بعض قطع الخشب المتحجرة، ملقاة على طين أخضر، حتى وصلنا إلى وجهتنا في مدينة "موط"، في واحة الداخلة. في الصحراء المحيطة بالخارجة والداخلة، صادفنا عدة مرات بقايا متحجرة لأشجار، على الرغم من أنها لم تكن موجودة أبدًا في بقع كبيرة.

لقد ثبت أن "قوي" كان محقًا في توقعاته بشأن الطقس الحار، ولقد واجهنا يومين من الرياح الدافئة. ومع ذلك، تمكنا من الوصول إلى هناك دون أن نعاني من العطش الشديد - ولكنني شعرت بالارتياح لأننا لم نحاول الوصول إلى ذلك الوادي.

إن حالة القافلة كانت تحتم علي أن أمنحهم بضعة أيام من الراحة، حتى يتمكنوا من استعادة حالتهم، واستعادة أقدامهم بعد الاستخدام القاسي الذي تلقوه على الصخور الحادة في الهضبة، قبل الانطلاق مرة أخرى إلى الصحراء.

وفي الوقت نفسه، أجريت تجربة لمحاولة تحديد موقع المكان الذي قيل إن حمائم النخيل - كيمري سيفي - أتت منه. وكانت هجرتها في أوجها، وفي عدة مرات أثناء وجودها على الهضبة، قمنا برفعها من فوق الصخور التي حطت عليها للراحة أثناء رحلتها.

كانت سفن الكيمري تصل دائمًا إلى الواحة قبل غروب الشمس مباشرة، وبما أنها كانت تتجه عادةً إلى بئر معينة إلى الجنوب الغربي من مدينة "موط"، فقد ذهبت إلى هناك ذات مساء ومعي بوصلة وبندقية لأنتظرهم. وقد حددت الاتجاه باستخدام

بوصلتي إلى الاتجاه الذي جاء منه عدد منهم. وكانت هذه الاتجاهات متقاربة جدًا، وكان متوسطها 217 درجة.

ثم قمت بإطلاق النار على عدد قليل منهم أثناء هبوطهم، ولقد قطعت كل هذه البذور، وكانت كلها تتغذى على البذور - بذور العشب على ما يبدو - والزيتون. كانت البذور في حالة شبه مثالية، ولكن الزيتون كان في حالة متقدمة من الهضم بحيث أصبح من الصعب التعرف عليه.

ثم اشتريت بعض الحمام من النوع العادي الذي يربى في الواحة من أهل القرية، وحبسته في قفص. وعند شروق الشمس في صباح اليوم التالي، أطعمته الزيتون، ثم في منتصف النهار، أخرجته واحدا تلو الآخر، على فترات كل ساعة، فقتلته، ثم قطعت بطنه لأرى حالة الزيتون. وبدت ثمار الزيتون التي قتلتها في الساعة الثالثة في حالة أشبه بتلك التي أخذتها من كيمري سيفي التي أطلقت عليها النار، مما يدل على أن الأمر استغرق تسع ساعات من الهضم لتحويلها إلى تلك الحالة.

إن طائر الكيمري سيفي طائر ضعيف الطيران، وبناءً على الأعداد التي رصدناها في الصحراء من الأماكن التي استقر فيها للراحة، فإنه يقضي جزءًا كبيرًا من اليوم أثناء رحلته إلى مدينة "موط" من الواحة حيث تنمو أشجار الزيتون، مستريحًا على الصخور في الصحراء. وبالتالي استنتجت أن متوسط سرعته، بما في ذلك فترات الراحة، أثناء رحلته من واحة الزيتون، يبلغ حوالي خمسة وعشرين ميلاً في الساعة.

وبتطبيق مبادئ شيرلوك هولمز على القضية استنتجت - وأعتقد أن هذه هي الكلمة الصحيحة - أن الواحة التي جاء منها الكيمري تقع في اتجاه متوسط الاتجاهات التي أخذتها، أي 217 درجة، على مسافة تسعة أمثال خمسة وعشرين ميلاً، أو مائتين وخمسة وعشرين ميلاً، وأنها تحتوي على أشجار زيتون. وبعد بضع سنوات أخبرني أحد العرب أن هناك واحة هناك تحتوي على كميات كبيرة من أشجار الزيتون. وأنا أثق في أن الكشافة سوف يقلدونه!

الفصل الثامن

وبعد أن منحت قافلتي الوقت الكافي للتعافي من رحلتها السابقة، انطلقتُ بها مجددًا إلى الصحراء. وفي هذه المرة، كانت الإبل مُحمَّلة بأكثر مما اعتدنا عليه، فقد عزمتُ على قطع أكبر مسافة ممكنة.

ولكن، ما إن مرّت أربع ساعات على انطلاقنا من مدينة "موط"، حتى تعرّج أحد الجمال وسقط أرضًا. أدركتُ أنه من المستحيل أن نصطحبه معنا، ونظرًا لأننا لم نقطع مسافة كبيرة، قررتُ العودة والبدء من جديد.

وعندما عدنا إلى "مدينة "موط"، أطلقنا النار على الجمل لإنهاء معاناته، ثم تركنا الحيوان المسكين. ظلّ يتلوّى في ألم لبضع دقائق، ثم جثا على الأرض وهو يئنّ. جلس موسى على ركبتيه أمامه، ربما في محاولة لتخفيف آلامه، وبدأ يعزف له على الناي.

كانت هذه حيلة يلجأ إليها كثيرًا لتهدئة الحيوانات التي تحت رعايته. غالبًا ما كان يجلس القرفصاء بين الإبل بعد يوم شاق في الصحراء، وبعد إطعامها، يحدثها بموسيقى صاخبة من نايته حتى وقت متأخر من الليل. ولأن ذلك كان عادةً ما يُبقيني مستيقظًا، كنت أعترض على هذا الأمر.

في هذه المرة، بدا أن جهوده الموسيقية قد أثمرت بشكل ملحوظ. ظلّ الجمل يتخبط على الأرض لبعض الوقت، وهو يعاني على الأرجح من ألم شديد. ولكن بعد فترة، أصبح أكثر هدوءًا، وما لبث أن مدّ عنقه الطويل على الأرض ونام على ما يبدو.

في اليوم التالي لعملية إنهاء حياة الجمل، انطلقنا مرة أخرى نحو "وادي الضباب" وجبل "قوي" الأسود المرتفع.

كان الطقس في بداية شهر أبريل متقلبًا دائمًا، حيث تهب رياح شمالية قوية نحو المساء. وفي اليوم الثالث، كان الطقس مزعجًا إلى حد ما. كانت السماء عند الغسق ذات مظهر فضي غريب، كنت ألاحظه في كثير من الأحيان قبل وبعد العواصف الرملية، ويرجع ذلك على الأرجح إلى وجود جزيئات رملية دقيقة في الطبقات العليا من الغلاف الجوي. هدأت الرياح بعد حلول الظلام، كما يحدث غالبًا في الصحراء، لكنها عادت في الصباح بقوة متزايدة. خلال الليل، تحركت من الشمال نحو الشرق، وبحلول الصباح كانت تهب من الجنوب، مباشرة في وجوهنا.

بعد فترة وجيزة من انطلاقنا، واجهنا صعوبة كبيرة في التقدّم بسبب الرياح العاتية، وسرعان ما كنا نسير في عاصفة قوية. أوقفت العاصفة العنيفة أحد الحيوانات، الذي ربما كان مُحمَّلاً بأكثر مما يستطيع تحمله، عدة مرات. ضربته عاصفة قوية بشكل غير عادي وأسقطته على ركبتيه. أعدناه على قدميه مرة أخرى، ولكن بعد مسافة قصيرة فقط، حذا جمل آخر حذوه. ثم سقط الجمل الأول مرة أخرى وألقى بحمولته هذه المرة.

كان من الواضح أن محاولة المضي قدمًا كانت عديمة الجدوى، لذا بعد إعادة تحميل

الجمل، عدنا على خطانا إلى تلة كنا قد خيمنا عند سفحها. كان من غير الوارد بالطبع نصب الخيمة، لذا تركناها مربوطة في رزمة، مع الأمتعة الأخرى، بينما صعدنا إلى حافة تمتد حول التل، على ارتفاع حوالي ستة أمتار فوق قاعدته. هنا كنا فوق أكثف سحب الرمال التي اجتاحت سطح الأرض بكثافة لدرجة أنه كان من الصعب رؤية أكثر من بضعة أمتار في أي اتجاه.

بحلول فترة ما بعد الظهر، اشتدت الرياح، وسُمع صوت ارتطام الحجارة الصغيرة بين الصخور على التل. ثم انحرفت الرياح مرة أخرى حتى هبت من الشمال مجدداً. وهدأت العاصفة بشكل ملحوظ عند غروب الشمس. بناءً على ذلك، قررت، للأسف الشديد، قضاء الليل في أسفل التل.

عندما أخرجت فراشي، التقطت قطعة من الصوف وهززتها للتخلص من الرمال. اشتعلت النيران في كل مكان. وضعت طرف إصبعي بالقرب من البطانيات، وخرجت منها شرارة قوية لدرجة أنني شعرت بها بشكل خافت. وعندما خلعت القبعة التي كنت أرتديها، وجدت شعري منتصباً، وأسرعت إلى القول إن هذا كان بسبب الكهرباء الساكنة فقط.

هدأت الرياح مع حلول الصباح. ولكن كان عليّ أن أستيقظ عدة مرات قبل منتصف الليل للتخلص من الرمال التي تراكمت على بطانيتي، حتى لا أُدفن حياً، فقد كانت الرمال تنجرف بشكل غير عادي حول جوانب التل.

لقد بدأنا رحلتنا في الصباح التالي قبل أن تخطر ببالي فكرة مفادها أن هناك خطأً ما في الأمتعة، ووجدت أن الخيمة قد تركت خلفنا. لقد وجدناها عند سفح التل مدفونة بالكامل تحت الرمال التي لابد أنها تراكمت خلال تلك العاصفة حتى بلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة أقدام مقابل التل.

لقد تم المبالغة في تقدير أهوال العواصف الرملية. فالعاصفة الرملية العادية لا تسبب أي إزعاج، إذا غطينا أفواهنا وأنوفنا بالطريقة الطبيعية وابتعدنا عن الرمال. فكمية معينة من الرمال تدخل إلى عيوننا، وهو أمر مزعج، ولكن بخلاف ذلك لا يوجد ما يدعو إلى الشكوى. ومن ناحية أخرى، هناك شعور منعش بشكل غير عادي في الهواء أثناء هبوب العاصفة الرملية، ربما بسبب الحالة الكهربائية لحبيبات الرمل، والتي تحمل، وفقًا لبعض التجارب التي أجريتها ذات مرة على الرمال التي تطايرت من الكثبان الرملية، شحنة عالية إلى حد ما من الكهرباء الإيجابية.

كانت العاصفة التي وصفتها غير سارة بالتأكيد، ولكن كان لها تعويض واحد، ترك

موسى نايه القصب ملقى على الرمال، وأكله صاحبي على الفور! بدا أن هذا الجمل آكل للحوم والنباتات. كان الريش وأوتاد الخيام وأعقاب البنادق كلها مدرجة في أوقات مختلفة في قائمة طعامه. لكن العظام كانت شهيته المفضلة، كان هيكل الجمل أو جمجمته على جانب الطريق يجذبه دائمًا بعيدًا عن المسار للتحقيق، ونادرًا ما عاد إلى مكانه دون أن يتناول لقمة. نتيجة لذلك، من بين الأسماء العديدة التي كان معروفًا بها في القافلة، كانت كلها مسيئة، لأن عاداته كانت حقيرة، كان اسم الغول، أو آكل لحوم البشر.

نزلنا في الخامسة صباحًا في اليوم التالي للعاصفة الرملية، وبعد مسيرة ست ساعات وصلنا إلى الأكياس [95] من الحبوب في «وادي الجرذان». وبما أن اليوم كان دافئًا إلى حد ما، فقد أرحنا الإبل هنا لمدة أربع ساعات ثم انطلقنا إلى «الجبل الأسود المرتفع» في "قوي" و»وادي الضباب».

لقد كنت أتمنى أشياء عظيمة من وصف "قوي" لهم، ولكن لسوء الحظ لم أضع في الحسبان عدم تناسب العرب البدو. كان «الجبل الأسود المرتفع» أسود اللون بالتأكيد، ولكن ارتفاعه لم يتجاوز السبعين قدمًا!

من قمة هذا «الجبل» تمكنا من النظر إلى أسفل نحو «وادي الضباب». وهنا أيضًا، واجهتني خيبة أمل كبيرة. كان الوادي موجودًا، كان منخفضًا هائلاً، حوالي مائتين وخمسين قدمًا أقل من الهضبة. لكن الغطاء النباتي والواحة الضخمة، التي كنت أتوقعها من رواية "قوي" عن «الضباب»، لم تكن ملحوظة إلا بغيابها. كان الوادي عاريًا مثل الهضبة، وبالنظر إلى الطبيعة المسامية للرمال التي تغطي أرضيته، والارتفاع عن مستوى سطح البحر مقارنة بالواحات الأخرى، فمن الصعب أن يكون الأمر على خلاف ذلك. ومع ذلك، كان من الواضح أنه ضخم الحجم، لأنه يمتد إلى أقصى ما يمكننا رؤيته جنوبًا من خط شرقي وغربي، كامتداد شاسع من الرمال الناعمة، مرصع باتجاه الجنوب والشرق ببضعة تلال صخرية منخفضة، لكنه بلا ملامح على الإطلاق في الجنوب الغربي والغرب.

ولقد وجدت أن «الضباب» الذي شدد عليه "قوي" لم يكن راجعًا إلى الرطوبة على الإطلاق، بل إلى الانكسار، أو بالأحرى إلى غيابه. فالشمس الحارقة التي تشرق على صحراء مسطحة حجرية، مثل الهضبة التي كنا نسافر فوقها، تسبب مظهرًا ضبابيًا يشبه السراب في الأفق البعيد. ولكن عندما ننظر من أعلى هضبة فوق منخفض عميق على مسافة ما، فإن هذا المظهر الضبابي يختفي، حيث يقع خط رؤية المتفرج على ارتفاع الجرف فوق أرضية المنخفض، بدلاً من أن يكون على بعد بضعة أقدام فقط فوقه.

ورغم أن «وادي الضباب» كان غير مرئي من النقطة التي رأى منها "قوي" «جبله الأسود المرتفع» لأول مرة، فقد رأت عينه الخبيرة أن منخفضًا يقع خلفه، بسبب غياب هذا الضباب، الذي لا يمكن رؤيته إلا في ظل ظروف معينة.

[96] وبصعوبة بالغة تمكنا من إنزال القافلة من الهضبة إلى الأرض المنخفضة، ثم سلكنا الطريق المؤدي إلى الغرب، تحت الجرف، من أجل مسحه. وكان هذا الجرف يمتد عمليًا شرقًا وغربًا، دون انقطاع أو انخفاض حتى وصلنا إلى حزام من الكثبان الرملية التي تدفقت فوقه، لتشكل صعودًا سهلاً إلى الهضبة، حيث واصلنا الصعود.

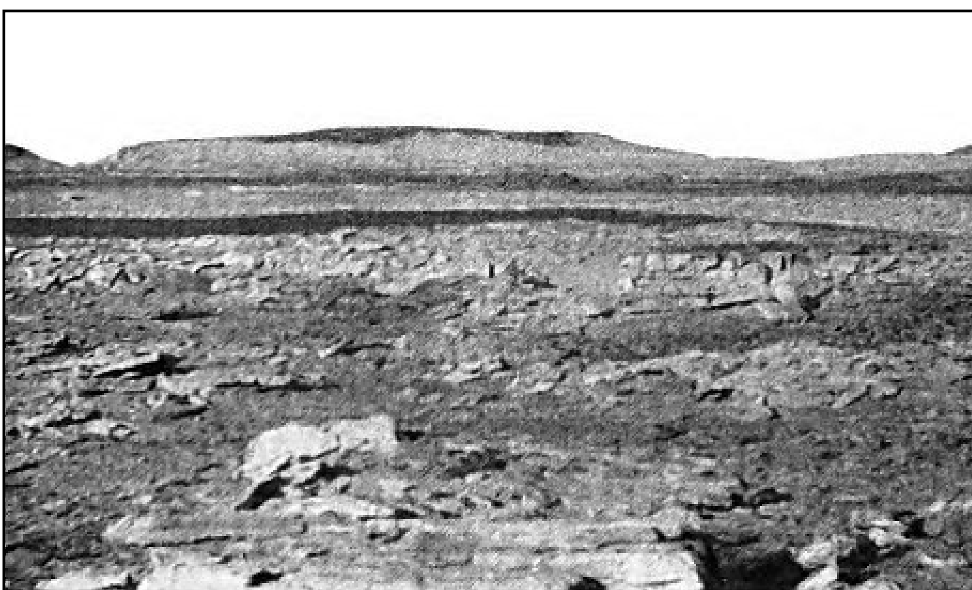
في الأعلى، كان حزام الرمال يمر بين تلين من الحجر الرملي الأسود، وكان من الممكن من قمة إحداهما أن نتمتع بإطلالة واسعة للغاية على المنخفض. وكان من الواضح على الفور أنه لا توجد أي فرصة للعثور على الماء، ناهيك عن واحة، لمدة يومين على الأقل من الرحلة إلى الجنوب، لأنه لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يكسر رتابة السهل المغطى بالرمال أسفلنا. ولأن إمدادات المياه لم تكن كافية لتبرير أي تقدم آخر من مدينة "موط"، فقد اضطررنا إلى العودة، وهو أداء محبط دائمًا.

ولكننا وجدنا علامة تبعث على الأمل. فالممر الذي يؤدي عبر حزام الكثبان الرملية إلى الهضبة، أو «باب الصباح» كما أطلق عليه الشاعر "خليل"، لأننا رأيناه لأول مرة بعد الفجر مباشرة، كان عند سفحه «عالم». وعندما رسمت مسارنا على الخريطة، وجدت أن هذا العالم يقع على خط واحد تقريبًا مع الطريق القديم الذي سلكناه في رحلتنا الأولى خارج مدينة "موط"، مما يدل على أن الممر كان هو النقطة التي كان يسلكها. ومن المؤكد أن المكان الذي يؤدي إليه هذا الطريق يقع بالقرب من أو على استمرار الاتجاه من الممر إلى المكان الذي رأينا فيه أول "عالمين". وكانت هذه نقطة ذات أهمية كبيرة، حيث بدا أن هناك فرصة ضئيلة للعثور على أي بقايا من الطريق نفسه على التربة الرملية للمنخفض، ما لم نصادف أن نهبط على "عالم" آخر. كان الاتجاه الذي كنا نسير عليه من قبل قصيرًا جدًا لدرجة أنه كان هناك دائمًا خطر أنه بسبب إعاقة الطريق المباشر لبعض المعالم الطبيعية، فإن الجزء القصير منه، الذي كنا نسير على طوله، لم يكن يسير مباشرة نحو وجهته النهائية.

أثناء البحث حول المخيم، وجدت قطعتين من العشب الجاف مدفونتين في الرمال، مهترئة للغاية ومتضررة.[97]لذا، عند مغادرة المخيم في اليوم التالي، اتبعنا خط حزام الرمال إلى الشمال، كما يظهر اتجاه الرياح السائدة، على أمل العثور على المكان الذي جاء منه العشب الجاف المنغرس في الكثبان الرملية.



منظر بالقرب من رشيدة.
لاحظ ارتفاع الأشجار في الخلفية والجداول المبطنة بالشجيرات في المقدمة من البئر تحت الشجرة الكبيرة على اليمين. (ص 49).



طريق واضح – إلى العربي.
يمكن بصعوبة رؤية كومتين صغيرتين من الحجارة، أو "عَلَمَيْن" . يستطيع العرب السير مئات الأميال عبر صحراء قاحلة، معتمدين على معالم كهذه. (ص 86).



بطيخ.
نوع من تآكل الرمال، يُعرف باسم صحراء البطيخ أو "البطيخ". (ص 308).

غادرنا المخيم في حوالي الساعة السابعة والنصف صباحًا. وبعد الرابعة بقليل، دخلنا منطقة تعرف باسم "غدِير" - وهي منخفض تتجمع فيه المياه بعد هطول الأمطار الصحراوية النادرة. كانَ هذا المكان عبارة عن حفرة ضحلة تشبه الصحن، يبلغ عمقها بضعة أقدام، وتتكون أرضيتها من الطين. وكان الجانب الأبعد من هذه الحفرة مغطى بالرمال، وهناك وجدنا العشب الذي كنا نبحث عنه.

كانت هذه النبتة متناثرة بشكل خفيف جدًا على مساحة قطرها بضع مئات من الأمتار. بدت ذابلة وميتة على ما يبدو. لكنها كانت أول نبتة نراها على الهضبة الواقعة إلى الجنوب الغربي من الداخلة. وقد ظهرت في هذه المنطقة آثار ملحوظة لجرذان الصحراء، مما يشير إلى أنها كانت من مناطق تغذيتها المفضلة.

بعد أن حللنا لغز العشب، ومع انخفاض إمدادات المياه لدينا، اتجهنا شمالًا شرقًا صوب الداخلة. تغير سطح الهضبة إلى الأسوأ، واضطررنا إلى عبور مساحة كبيرة من

الرمال الناعمة (السُّفوت)؛ ولكن لحسن الحظ صمدت الجمال. مررنا بطريقين قديمين يمتدان نحو الشمال، ويبدو أنهما كانا يؤديان إلى بو منقار وإديلا. وعلى امتداد هذه الطرق القديمة المهجورة، شاهدنا دوائر قطرها أربعة أو خمسة أقدام، مُغطاة بأحجار متناثرة بحجم بيضة الدجاج، موضوعة على السطح الرملي، ومن الواضح أن البشر وضعوها هناك. وأوضح "قوي" أن هذه الأماكن كانت مخصصة لوضع قرب المياه من قِبل تجار الرقيق القدامى الذين استخدموا هذه الطرق. فالقربة، المرفوعة قليلاً عن الأرض بهذه الطريقة، تسمح للهواء بالدوران حولها، مما يحافظ على برودة الماء أفضل من وضعها على الأرض مباشرة.

كان هناك دليل آخر على استخدام هذه الطرق القديمة، يتمثل في العثور على حجر بيضاوي مقعر قليلاً يبلغ طوله حوالي قدمين، يُعرف باسم "مِرْكَكَة"، كانوا يستخدمونه لطحن أو سحق الحبوب [98] بمساعدة حجر يد أصغر. وكذلك، في كميات من قشور بيض النعام المكسورة التي شوهدت بكثرة. يمكن العثور على هذه القشور في مناطق عديدة من الصحراء، ويقال إنها بقايا بيض طازج أحضره المسافرون القدامى من السودان ليكون طعامًا لهم أثناء الرحلة. وقد استنتج البعض من وجودها أن النعام كان يعيش بريًا في هذه الصحاري. لكن من الصعب معرفة نوع الطعام الذي كان يمكن أن يعيش عليه مثل هذا الطائر الضخم.

في اليوم التالي لمغادرة الغدير، وصلنا إلى طريق قديم آخر، وواصلنا اتباعه طوال اليوم. قادنا هذا الطريق في النهاية إلى مجموعة من أربع أو خمس شجيرات طَرْفَاء خضراء، وسرعان ما وصلنا إلى مجموعة ثانية بنفس الحجم تقريبًا. أثبتت هذه المجموعات الصغيرة من الشجيرات أنها ذات فائدة كبيرة لنا، حيث لم توفر للإبل لقمة من العلف الأخضر فحسب، بل كانت أيضًا مصدرًا لمعظم الحطب الذي استخدمناه في الصحراء. ومن الواضح أن آخرين وجدوها مفيدة في الماضي، حيث تلتقي عندها أربعة طرق قديمة على الأقل، مما يدل على قيمة الطعام الأخضر والحطب في الصحراء. كما عثرنا على بعض الفخار الأحمر المكسور بين هذه الشجيرات.

وبعد وقت قصير من مغادرتنا لها، وجدنا أثر جمل واحد يتجه غربًا، نحو الكفرة على الأرجح. ولكن بخلاف هذا الأثر الوحيد، وآثار الإبل الخمسة التي رأيناها في رحلتنا الأولى من موط، لم نصادف أي آثار حديثة لبشر على الهضبة.

لحسن الحظ، تحول الطقس، الذي كان شديد الحرارة، إلى البرودة فجأة، وهطلت بضع قطرات من المطر مرة أو مرتين. كان هذا التغيير في درجة الحرارة موضع ترحيب

كبير، حيث بدت الإبل مرهقة من رحلتها الطويلة بعيدًا عن الماء، وظهرت عليها علامات واضحة على الضيق. ومع ذلك، فإن التغيير إلى الطقس البارد أنعشها بشكل ملحوظ.

ولكن لسوء الحظ، أصبح الطريق أسوأ بكثير، ووصلنا إلى جزء من الهضبة مغطى بكثافة بألواح فضفاضة من الحجر الرملي الأسود المائل إلى الأرجواني، وكثير منها كان يصدر صوت جرس عند ركله.

في اليوم السابق لوصولنا إلى الداخلة، هطلت زخات مطر خفيفة في الصباح بعد انطلاقنا مباشرة، [99] وظل الطقس باردًا، مع هبوب رياح شمالية باردة وسماء ملبدة بالغيوم طوال اليوم. ونتيجة لذلك، تمكنا من إحراز تقدم جيد، وبحلول المساء وصلنا إلى الزاوية الشمالية الشرقية للهضبة وكنا على مسافة يوم واحد من موط.

وقبل التخييم مباشرة، هطلت زخات مطر قوية مصحوبة بالرعد والبرق، وكانت كمية المطر التي هطلت خلال الدقائق القليلة التي استمرت كافية لجعل ملابسي تشعر بالرطوبة .

أُقيمت الخيمة على رقعة رملية، ولم تكد تُنصب حتى بدأ المطر يهطل بغزارة لمدة ربع ساعة تقريبًا، مع ومضات متكررة من البرق الساطع، مما كان له تأثير عظيم على الصحراء المظلمة.

كنت على وشك النوم بعد ساعة تقريبًا عندما لفت انتباهي صوت طنين غريب يحدث على فترات. في البداية لم أعر الأمر اهتمامًا كبيرًا، وعزوته إلى الرياح التي تهب في حبال الخيمة، التي تقلصت بفعل الأمطار الغزيرة حتى أصبحت مشدودة مثل أوتار القيثارة. ثم تلاشى الصوت، ولم أسمعه لبضع دقائق.

ثم تضخم الصوت مرة أخرى بصوت أعلى بكثير من ذي قبل وبنغمة مختلفة. في البداية بدا الأمر وكأنه صوت الريح التي تهب في سلك التلغراف، ولكن هذه المرة كان الصوت أعمق بكثير، يشبه إلى حد كبير صدى جرس كبير.

خرجت من الخيمة محاولًا اكتشاف السبب. كان من الواضح على الفور أن السبب لا يمكن أن يكون الرياح التي تهب على حبال الخيمة، فقد كانت ليلة هادئة . كان الرعد لا يزال يزمجر أحيانًا في المسافة وكان البرق يلمع في السماء من جهة الشمال. وبعد الطقس الحار الشديد الذي شهدناه، كان الهواء رطبًا وباردًا بما يكفي لجعل المرء يرتجف.

لم يكن الصوت مسموعًا بوضوح خارج الخيمة كما كان داخلها، وربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن المطر كان قد أحكم شد الحبال والقماش حتى أصبحت الخيمة بمثابة لوحة صوتية. وفي بعض الأحيان كان الصوت يتلاشى، ثم يتضخم مرة أخرى ليتحول إلى نغمة موسيقية غريبة.

اعتقدت أنه ربما كان ذلك بسبب طنين في [100] أذني، فناديت على رجالي لأسألهم إذا كانوا يسمعون أي شيء.

كان "عبد الرحمان"، الذي لم يكن سمعه حادًا مثل بصره، يؤكد أنه لا يسمع شيئًا على الإطلاق. لكن "خليل" و"قوي" أكدا أنهما يستطيعان سماع الصوت، وأضاف "قوي" أن الصوت ليس سوى صوت الريح في الجبل. ثم خطرت لي فجأة فكرة مفادها أنني أستمع إلى "أغنية الرمال"، التي رغم أنني قرأت عنها كثيرًا، إلا أنني لم أسمعها من قبل.

كان من الصعب للغاية تحديد موقع "أغنية الرمال" هذه. فقد بدا أنها تأتي من مسافة نصف ميل تقريبًا إلى الغرب، حيث يطل الرمل على جرف. لقد كانت تجربة غريبة ومثيرة للرهبة.

الرمال الموسيقية ليست نادرة الحدوث. ويعزو السكان الأصليون الصوت الذي تصدره هذه الرمال إلى قرع الطبول من جانب فئة من الأرواح الجوفية التي تسكن الكثبان الرملية. وبالإضافة إلى الرمال التي تصدر صوتًا من تلقاء نفسها، هناك نوع آخر من الرمال يصدر صوتًا يشبه صوت الجرس عند ضربه. ويقال إن رقعة من الرمال من هذا النوع توجد على الهضبة الواقعة شمال واحة الداخلة. ولم أصادف شخصيًا أي رمال من هذا النوع، ولكن الكثير من الحجر الرملي النوبي الذي عثرنا عليه على الهضبة الواقعة إلى الجنوب الغربي من واحة الداخلة كان يصدر صوتًا موسيقيًا واضحًا عند ضربه. وفي الوادي الذي يؤدي إلى الهضبة عند نهاية الداخلة من طريق عين آمور، مررت بكتف صخري يصدر صوتًا خفيفًا عندما تهب عليه رياح جنوبية قوية.

وفي اليوم التالي وصلنا إلى موط دون وقوع أي حادث آخر. ولكننا لم نصل إلا في الوقت المناسب، حيث كانت خزانات المياه لدينا فارغة بعد رحلتنا التي استمرت أحد عشر يومًا في الصحراء.

وبما أنني كنت أعلم أن العديد من أهالي الداخلة يشتبهون في أنني منشغل بالبحث عن الكنوز، وأنني أبحث عن واحة زرزورة الأسطورية، فقد تبنيت هذه الفكرة عمدًا من خلال الاستفسار المتكرر عن المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع. وعند عودتنا من

هذه الرحلة الطويلة في الصحراء، جاء العديد من أهالي الداخلة، الذين افترضوا أننا ربما عثرنا على شيء ما، ليسألوني عما إذا كنت قد اكتشفت الواحة بالفعل.

[101]وقد لفت "خليل" انتباهي، بعد أن سمع الرواية الواردة في "كتاب الكنز"، إلى حقيقة أن الطريق الذي سلكاه في رحلة العودة، حتى اختفى في الكثبان الرملية على مشارف الداخلة، كان في ذلك الوقت يقودنا مباشرة إلى دير السبع بنات. وأشار إلى أنه لو استمرينا في سلوك الطريق نفسه في الاتجاه المعاكس، فإنه سيقودنا حتماً إلى زرزورة. ولصالح أي باحث عن الكنوز يرغب في البحث عن تلك الواحة، والشروع في مغامرة البحث عن الكنز، سأذكر حقيقة أخرى أكثر أهمية، وهي أن هذا الطريق يتبع بدقة مسار هجرة الطيور الكبرى في الربيع، مما يدل على أنه يؤدي إلى منطقة خصبة، والأهم من ذلك أن العديد من هذه الطيور هي أوز بري!

الفصل التاسع

في الرحلة التي عدنا منها للتو، كنا بعيدين عن مصادر المياه لفترة طويلة نسبياً في ذلك الوقت من العام، وكانت الإبل في حالة إرهاق شديد بسبب السفر الشاق في الحرارة العالية مع قلة المياه. كان ذلك في شهر مايو، وعادة ما يُعتبر شهر مارس في مصر الشهر الأخير للعمل الميداني، لذا قررت أن أمنح الإبل قسطاً من الراحة لاستعادة لياقتها، ثم أعود إلى واحة الخارجة ووادي النيل. [102]

كان الرجال، باستثناء "خليل"، قد اعتادوا روتين السفر في الصحراء، وكانوا يعملون بجد. وكان "قوي" هو الدعامة الأساسية للقافلة، فقد كان رجلاً استثنائياً في الصحراء، ونادراً ما كان يخطئ.

وبعد أن وجدت أن القافلة كانت محملة بأكثر من اللازم في بداية رحلتنا الثالثة، تركت في اليوم الثاني خزاناً من الماء وكيسين من الحبوب في الصحراء، لنلتقطها في طريق العودة إلى موط. ومن تلك النقطة، كنا قد سرنا ثلاثة أيام نحو الجنوب، ثم يومين إلى الجنوب الغربي، ثم يومين إلى الغرب، ويوماً آخر نحو الشمال الغربي، ثم ثلاثة أيام إلى الشمال الشرقي. وكانت جميع أيام هذه الرحلة، باستثناء الأيام الأربعة الأولى، فوق أرض لم يكن "قوي" قد زارها من قبل. ولكن عندما طلبت منه في نهاية هذا المسار الملتوي أن يشير إلى المكان الذي تركنا فيه الخزان والأكياس، كان قادراً على تحديد موقعها دون أدنى تردد.

للوهلة الأولى، تبدو قدرة المرشد الصحراوي الماهر على إيجاد طريقه في صحراء

لا أثر فيها أشبه بالمعجزة. لكنه في الواقع لم يطور إلا بدرجة غير عادية القدرات التي يمتلكها حتى أكثر الأفراد تحضرا بشكل فطري.

على سبيل المثال، يمكن لأي شخص أن يدخل غرفة يعرفها في الظلام، وأن يمشي مباشرة من الباب إلى الطاولة، [103] ومن هناك إلى رف الموقد، ثم العودة مرة أخرى إلى الباب دون أي صعوبة على الإطلاق، وبذلك يظهر نفس الإحساس بالزوايا والمسافات الذي مكّن "قوي"، بعد رحلة متعرجة طولها مائة وستين ميلاً، من العثور على طريقه مباشرة إلى نقطة البداية. ومع ذلك، فقد طور العرب هذه القدرة إلى حد جعلهم قادرين على استخدامها على نطاق أوسع بكثير.

إن البدو، الذين اعتادوا السفر عبر السهول الصحراوية الشاسعة، من معلم إلى آخر، يركزون أعينهم بشكل كبير على الأفق. ويمكنك دائمًا تمييز رجل الصحراء عندما تراه في مدينة، فهو ينظر نحو نهاية الشارع، ويبدو وكأنه غافل عن محيطه المباشر. وهذا يمنحه تلك النظرة "البعيدة" التي تحظى بإعجاب الروائيين.

ولكن من غير الحكمة أن نفترض أن المرشد الصحراوي لا يلاحظ ما يجري حوله، فالقليل جدا هو ما يفوته. فربما ينظر إلى الأفق ليجد معلمه التالي خلال جزء كبير من وقته، ولكنه يفحص أيضًا عن كثب الأرض التي يسافر فوقها، ولن يتجاوز أدنى علامة أو أثر قدم دون أن يلاحظها ويستخلص استنتاجاته الخاصة بشأن من مر من هذا الطريق وإلى أين كان متوجهًا. وقد لا يقول شيئًا عن ذلك في حينه، ولكنه لا ينسى أبدًا.

ولن ينسى المرشد الماهر معالمه، أو يفشل في تحديدها عندما يراها للمرة الثانية، فالمرشد الجيد يتذكر معالمه جيدًا بما يكفي ليكون قادرًا على متابعة طريق سلكه لسنوات عديدة من قبل، ولم يره في تلك الفترة، دون تردد.

في كثير من الأحيان، بعد اجتياز تلة بارزة، كنت أرى "قوي" يلقي نظرة خاطفة من فوق كتفه لمدة ثانية أو ثانيتين، ليرى كيف ستبدو عندما يقترب منها مرة أخرى في رحلة العودة، وليلاحظ أي خصائص غريبة صغيرة تميزها.

بالإضافة إلى هذا الإحساس بالزوايا والمسافات، يتمتع هؤلاء الرجال في الصحراء في كثير من الحالات بمعرفة دقيقة بشكل رائع بالاتجاهات الأصلية للبوصلة. ويبدو هذا للوهلة الأولى وكأنه غريزة، إلا أنه من المرجح أن يكون ناتجًا عن تذكر تغييرات الاتجاه خلال مسيرة يوم واحد، والتي، من خلال [104] الممارسة الطويلة، أصبحت عادة شبه لا واعية.

لا يقتصر اعتماد المرشد الماهر على النجوم والشمس لتحديد وجهته، بل إنه قادر أيضًا على السير بدونها تقريبًا. ففي أشد الليالي ظلمة وغيومًا، لم يساور "قوي" أدنى شك بشأن الاتجاه الذي يقع فيه طريقنا، وذلك أيضًا في جزء من الصحراء لم يسبق له زيارته من قبل.

كنت كثيرًا ما أختبر حس الاتجاه الذي يتمتع به رجالي عندما كنا نقترب من المخيم، وذلك بوضع بندقية على أعلى كيس من الحبوب وطلب منهم أن يوجهوها نحو الشمال، ثم أختبر قدرتهم على تقدير الاتجاه عن طريق البوصلة الخاصة بي.

كان "قوي" و"عبد الرحمان" متقاربين بشكل ملحوظ في دقة تقديراتهما للاتجاهات، ولم يكن هناك فرق كبير بينهما في هذا الصدد، مما أدى إلى منافسة ودية بينهما. ونادرًا ما كان أي منهما يخطئ بأكثر من درجتين على أي من جانبي الشمال الحقيقي.

كان "قوي" من بين البدو العرب الذين يتمتعون بذكاء غير عادي، فهم عرق لا يتسم بالغباء كما يصوره البعض أحيانًا. كان يتمتع بمعرفة واسعة بالصحراء ودروبها، وكان سريع البديهة بشكل لافت في فهم أي حيل أوروبية صغيرة، مثل رسم الخرائط وفقًا لمقياس معين، كنت أطلعه عليها. أما فيما يتعلق بالمسائل المتعلقة بالري والزراعة والبناء، أو أي شيء له علاقة بحياة الفلاحين، فكان، أو يدعي أنه، جاهل جدا. كان ينظر إليهم باعتبارهم عرقًا أدنى، وكان من الواضح أنه يعتبر الاهتمام بهم أو بطرق حياتهم أمرًا لا يليق بكرامته. ونادرًا ما كان يشير إليهم دون أن يتبع ذلك ببعض الملاحظات المحتقرة. لم يكن يشعر قط بأنه في وطنه وسط الحياة المزدحمة في وادي النيل، وكان يصر على أنه كان يتوه كلما دخل أي مدينة، وأعتقد أن هذا هو حال معظم البدو. كان يرى أن المدن قذرة، وسكانها جميعًا لصوص وكذابون و"نساء"، وما هو أسوأ من ذلك. وأن مياه الشرب كانت ملوثة، وحتى الهواء كان رطبًا وغير نقي، ولا يمكن مقارنته بجو الصحراء الذي يعشقه.

أما رأي المصريين في وادي النيل [105] في العرب، فلم يكن يحظى بنفس القدر من الاحترام. فهم يرونهم مجموعة من الأشرار المتغطرسين والخارجين عن القانون والجهلة، الذين يتظاهرون بالاحتقار لهم، ولكنهم في الوقت نفسه يكنون لهم رهبة شديدة. وفي نهاية المطاف، فإن وجهات نظرهم تجاه بعضهم البعض طبيعية؛ إذ لا يوجد أي قاسم مشترك تقريبًا بين شخصياتهم، وعادة ما يتخذ الانتقاد شكل "هذا الرجل مختلف عني، لذا فهو مخطئ".

كان "قوي" يحظى باحترام كبير دائمًا في القافلة. وكانوا يخاطبونه عادة باسم "خال

"قوي"، ولم يكن الرجل الذي يسمح بأي انحراف عن هذا الموقف، الذي كان يعتبره حقًا له كعربي وزعيم للقافلة. وأي تراجع في هذا الصدد كان يتبعه على الفور بعض الإشارات الساخرة من جانبه إلى دونية العبيد، أو "الرجال السود"، أو الفلاحين، حسب الموقف.

لقد قام "عبد الرحمان" ورجال الإبل بعملهم على أكمل وجه. أما الصعوبات التي حذرني منها البعض بشأن الرمال وموقف السكان الأصليين، فقد بدت كلها مبالغًا فيها إلى حد كبير. وبمساعدة "قوي" كمرشد لي، كنت آمل أن أحاول في العام التالي، مع وجود احتمال معقول للنجاح، عبور الصحراء، أو على الأقل التوغل فيها أكثر مما فعلت بالفعل، والوصول إلى جزء مأهول بالسكان.

ولكن بينما كنت أستعد للعودة إلى مصر، حدث أمر غيّر الأمور، وأفسد خططي بأكملها.

أثناء غيابنا في الصحراء، وصل إلى واحة الداخلة مأمور جديد، وجاء لزيارتي. كان رجلًا أنيق المظهر، يرتدي بدلة ضيقة جدًا عليه، ذات لون أحمر داكن غريب، ومتأثرًا جدًا بالمصريين المتأوربين. كان يتمتع بأسلوب صاخب ومبالغ فيه شائع في طبقته، لكنه كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة وكان من الواضح أنه مستعد للاستمتاع بوقته.

وقبل أن يغادر، أبلغني أن ساعي البريد قد وصل للتو، وأن الأخبار وصلت بالبريد عن اندلاع الثورة في تركيا. كانت هذه الثورة تختمر منذ فترة طويلة، وكانت النتيجة المعتادة أن وصل الأوغاد - في هيئة طلعت وأنور، المتحولين إلى ألمانيا - إلى السلطة. [106] لقد تم عزل السلطان، وكان من المرجح أن يتم استبداله بنظام جمهوري. ونتيجة لذلك، كان المجتمع الإسلامي بأكمله في حالة من الاضطراب الشديد.

وبعد يوم أو يومين، جاءني الطبيب القبطي وأخبرني أنه التقى للتو بالشيخ أحمد من زاوية قصر الداخل، والذي كنت ضيفًا عليه في عزبته، وأخبره أنه إذا نجحت الثورة في تركيا وعزل السلطان حقًا، فإن المهدي السنوسي سيعود للظهور ويغزو مصر. ولعلنا نتذكر أن المهدي هو النبي المسلم العظيم الذي سيظهر قبل نهاية العالم بفترة وجيزة وفقًا للتنبؤات الإسلامية، ليحول البشرية كلها إلى عقيدة الإسلام.

إن هذا الخبر، إذا كان صحيحًا، كان بالغ الأهمية، وكان الموقف محفوفًا باحتمالات كبيرة. ولفهم الموقف، قد يكون من المفيد تقديم بعض التوضيحات لأولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن السياسة الإسلامية.

كانت مصر في ذلك الوقت جزءًا من الإمبراطورية التركية، وكان وضعنا في البلاد، من الناحية النظرية على الأقل، مجرد احتلال مدعوم بقوة عسكرية صغيرة. وبالتالي، كان سلطان تركيا، من الناحية الاسمية، هو حاكم البلاد.

ولكن بالإضافة إلى كونه سلطان تركيا، كان عبد الحميد أيضًا خليفة المسلمين، وهو المنصب الذي جعله أشبه بإمبراطور وبابا لجميع المسلمين. وكان ادعاؤه بحمل هذا اللقب ذا طابع واهٍ إلى حد ما؛ ولكن بصرف النظر عن حقوقه في هذا اللقب وفقًا للتفسير الحرفي للشريعة الإسلامية، فقد كان يُنظر إليه في كل مكان تقريبًا من قبل المسلمين السنة باعتباره خليفتهم، أي الخلف المباشر، أو رئيس الإسلام، للنبي محمد نفسه، بنفس الطريقة التي يُنظر بها إلى البابا باعتباره الخليفة المباشر للقديس بطرس.

ولكن كان هناك شعور عام يسود الصحراء بأن أثره الأخير لم يظهر بعد، وهو الانطباع الذي سعى السنوسيون إلى إبقائه حياً من خلال التصريح الغامض بأنه «يقيم مع الله»، والتلميحات إلى أنه قد يظهر مرة أخرى في أي لحظة.

لم تكن هناك أبدًا علاقة ود بين السنوسيين والأتراك. فقبل عام تقريبًا من زيارتي للصحراء، أُرسِل مسؤول تركي إلى واحة الكفرة، حاملاً أوامر بتأكيد سلطة السلطان رسميًا على المنطقة، ورفع العلم التركي. ولكن السكان المتعصبين أنزلوا العلم، ومزقوه إلى أشرطة، وداسوه بأقدامهم، وضربوا الضابط التركي ضربًا مبرحًا وطردوه من الواحة. وبالتالي، فإن ضم أي جزء من الإمبراطورية التركية كان سيمثل خطة محكمة لجذب السنوسيين.

لقد وردت أنباء عن وفاة أحمد البسكري، شبيه المهدي، ولكن لم يكن أسهل على كبار شيوخ السنوسية من إيجاد شخص يتقمص شخصية نبيهم المحجب لدى عودته من «الإقامة مع الله»، وأن يستغلوا المكانة الهائلة التي سيحظى بها هذا الدمية بين أتباعهم السذج لزيادة نفوذ الطائفة، واجتذاب أتباع جدد، وتعزيز تعصبهم. ولا يزال «ظهور» المهدي السنوسي بهذه الطريقة يشكل احتمالًا جديرًا بالتذكر.

كان من الصعب للغاية الحصول على أخبار عن تحركات القادة السنوسيين الذين يعيشون في براري الصحراء الليبية، ولكن في ذلك الوقت، ورد أنهم كانوا في الداخلة في مكان ما بالقرب من تيبستي، التي تقع إلى الجنوب الغربي من واحة الداخلة، في [110] اتجاه الطريق الذي كنا نتبعه. وبدا من المرجح، إذا كانوا يفكرون حقًا في التوجه إلى مصر، أنهم قد يحاولون، إذا كانت المياه متاحة على هذا الطريق، شق طريقهم على طوله إلى الداخلة، ومنها إلى وادي النيل.

مع وضع هذه الاعتبارات في الحسبان، قررت القيام برحلة أخرى إلى الصحراء قبل العودة إلى مصر، لمعرفة ما إذا كان بإمكاننا الوصول إلى البئر أو الواحة التي يمتد إليها الطريق، وللتأكد من أن الطريق الذي وجدناه مناسب لمجموعة كبيرة من الرجال.

لقد أرسلت مذكرة إلى أحد المسؤولين البريطانيين الذين التقيتهم في القاهرة لإبلاغ السلطات بأخبار الغزو المزعوم، إن كان الأمر يستحق ذلك، وبدأت الاستعدادات للرحلة.

لم أكن أتوقع البقاء في الصحراء في هذا الوقت المتأخر من الموسم، لذا فقد نفدت مؤونتي تقريباً. وكانت علب اللحوم المحفوظة القليلة المتبقية قد تأثرت بشدة بالحرارة ولم تعد صالحة للاستهلاك. ومع ذلك، كان لدي بضع علب من السردين، التي كانت لا تزال صالحة للأكل على الرغم من علبتها الصفيح، وعدد من حصص الطوارئ، التي لم تتأثر إطلاقًا بالحرارة. كانت هذه، مع كمية كبيرة من الدقيق العربي وبضعة أرطال من مربى التوت، التي صنعتها دهب من بعض الفاكهة التي أرسلها لي أهالي رشيدة الطيبون، بمثابة طعام كافٍ لرحلة أخرى.

بعد بضعة أيام أخرى قضيناها في إطعام الإبل وإعادتها إلى حالة مناسبة لرحلة صحراوية طويلة خلال الطقس الحار، فحص "قوي" الحيوانات بدقة، وغرز إبهامه في أضلاعها لاختبار قوام لحومها، وأعرب عن رضاه عن الحالة الممتلئة لبطونها. ودهن الجمل الأحمر بالزبدة مرة أخرى لعلاجه من الجرب. ثم عندما أعلن أن الحيوانات في حالة ممتازة، استعددنا للانطلاق.

الفصل العاشر

إن اكتشاف الشجيرات الخمس الخضراء التي وجدناها في رحلتنا الأخيرة، على الرغم من أنها قد تبدو غير مهمة، إلا أنها كانت ذات قيمة كبيرة بالنسبة لنا. [111]

لقد حسبت أنه بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الشجيرات، سيكون لدينا ما يقرب من حمل جمل من الماء والحبوب، لذا، من خلال أخذ ما يكفي من الحطب حتى نصل إليها، ثم تحميل الجمل غير المحمّل بالوقود من الشجيرات، سيكون بإمكاننا تخصيص جمل آخر للمياه والحبوب، لذلك في هذه الرحلة كان لدينا ثلاثة حيوانات إضافية، بالإضافة إلى حقيبتي، محملة بهذه السلع التي لا غنى عنها. وكنا نأمل نتيجة لذلك أن نتمكن من تغطية مساحة أكبر بكثير من محاولاتنا السابقة.

كنت قد قمت بمسح الطريق بالفعل، وبما أنه لم يكن من الضروري رسم خريطة ثانية للطريق، فقد تمكنا من السفر لجزء كبير من الوقت ليلاً، عندما كانت درجة الحرارة في أدنى مستوياتها. وبفضل المسيرات السريعة، تمكنا من الوصول إلى الممر المؤدي إلى «وادي الضباب» الذي أطلق عليه "خليل" في اليوم الخامس.

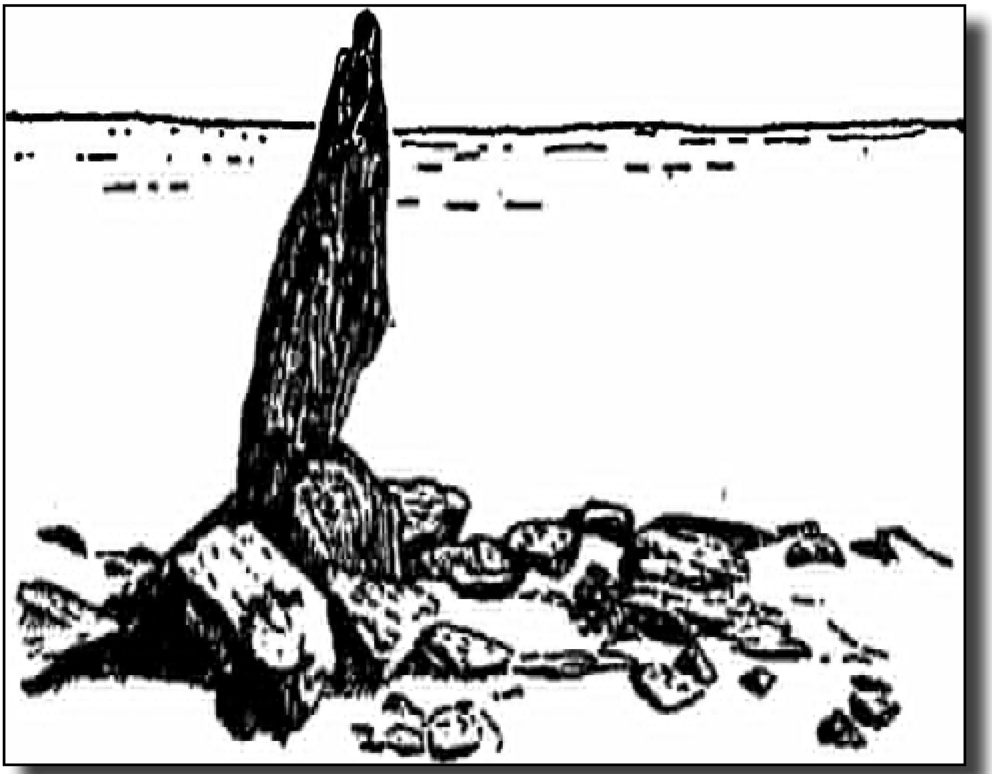
كانت التلال الصخرية العديدة التي كانت ترتفع فوق الهضبة، باستثناءات قليلة، ذات شكل حاد بحيث كان من المستحيل العثور على أي ظل تحتها أثناء منتصف النهار، لذا فقد اضطررنا إلى تجهيز المأوى قدر الإمكان عن طريق مد البطانيات أو الأكياس الفارغة من خزان مياه إلى آخر، أو عن طريق دعمها بأي إطار يمكن تجهيزه في أي لحظة. كان "قوي" عادة ما يربط أحد طرفي بطانيته بمقابض سرجه ثم يمد الطرف الآخر فوق خزان أو خزانين يضعهما على أحد الطرفين، أو يثبته على بندقيته، التي يثبتها كنوع من عمود الخيمة.

عند النزول من الهضبة إلى «وادي الضباب»، واصلنا السير على نفس خط السير. [112] كانت أرضية المنخفض ممتازة، حيث كانت تتكون من رمل ناعم صلب، يحتوي على حصى صغيرة مستديرة، ولم يكن هناك حتى تموج واحد لكسر استواء سطحها. ظهرت هنا وهناك بعض الحجارة فوق الرمال التي تغطي بقية السطح، ومن الواضح من هذه الحجارة أننا ما زلنا على نفس تكوين الحجر الرملي النوبي مثل الهضبة. في أحد الأماكن وجدنا لوحًا ضخمًا من الحجر مدعمًا لتكوين "عالم"، وفي كل مكان صادفنا عظامًا بيضاء مسحوقة، والتي من حجمها لابد أنها كانت تنتمي إلى بعض الإبل التي ماتت في الماضي البعيد في ذلك الجزء من الصحراء، وكل هذا يدل على أننا ما زلنا على خط الطريق الذي كنا نتبعه.

وبعد النزول إلى المنخفض بقليل، رأينا تلة ذات قمتين تقريبًا تقع أمامنا مباشرة، وكانت تقف بمفردها في وسط السهل الرملي المستوي، مما وعدنا بإتاحة رؤية واسعة من قمتها. وعندما رأيت التل، اقترحت على "قوي"، الذي كان يركب بجانبي، أنه قد يكون من الجيد إرسال "عبد الرحمان" للصعود إلى القمة، ليرى ما إذا كان يمكن رؤية أي شيء.

نظر "قوي" إلى التل بشك للحظة ثم قال: «أعتقد أن هذا التل بعيد جدًا، ولن نصل إليه قبل الظهر.

ولكن المسافات على هذه السهول المستوية، حيث لا توجد سمات طبيعية يمكن مقارنة حجم الجسم بها، غالبًا ما تكون خادعة بشكل غير عادي، حتى أن "قوي"، بكل



"وادي الضباب" القديم.

خبرته، كان غالبًا ما يتخدع بها. [113] لم نصل إلى ذلك التل بحلول الظهر، ورغم أننا واصلنا مسيرتنا لمدة ساعتين بعد الظهر، إلا أنه في نهاية اليوم لم يكن يبدو أقرب، بل بدا أبعد مما كان عليه في الصباح. ولأنه لم يكن هناك أي شيء يمكن مسحه، انطلقنا مرة أخرى في الساعة الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة، واستمررنا في رحلتنا نحو التل حتى الرابعة من صباح اليوم التالي.

إن الرحلات الطويلة في الطقس الحار على إمدادات المياه المحدودة مرهقة للغاية للجمال، ولم يعتبر سائقو الجمال هذا الجمل في حالة سيئة للغاية. (ص 181).

ولكن عند الفجر لم يكن التل يبدو أقرب، ومع استمرار مسيرتنا بدا وكأنه يتراجع بالفعل وأصبح أصغر بشكل ملحوظ.

لقد حير هذا الأمر "قوي"، وأعلن أنه لابد أن يكون عفريتًا. ومع ذلك، بينما واصلنا التقدم، بدا فجأة وكأنه يقترب، ثم بعد فترة تراجع مرة أخرى.



نحيف نوعًا ما.
الرحلات الطويلة في الطقس الحار مع ندرة المياه مُرهقة جدًا للجمال؛ ولم يعتبر سائقو الجمال هذا الجمل في حالة سيئة للغاية. (ص 181).

بدا الأمر وكأن "قوي" يتخيل جديًا أن هناك شيئًا خارقًا للطبيعة في الأمر. ومن الواضح أن الرجال أيضًا بدأوا يعتقدون أنهم دخلوا إلى جزء مسكون من الصحراء، حيث توقفوا عن الضحك والغناء المعتادين عليهما وواصلوا السير في صمت تام. كان الأمر غريبًا إلى حد ما.

كانت قطعة من الصحراء سيئة بشكل غير عادي. تسببت شمس الظهيرة الحارقة في رقص الأفق بأكمله بالسراب، وكان من المستحيل معرفة أين ينتهي الأفق وأين تبدأ السماء، بدا الأمر كما لو كانا يندمجان تدريجيًا في بعضهما البعض، شرائح من الصحراء معلقة بدرجات قليلة فوق الأفق في السماء، بينما تم إحضار بقع كبيرة من السماء أسفل الأفق، مما أدى إلى ظهور طبقات من الماء، بحر الشيطان، أو «بحيرة الشيطان»، حسب السكان الأصليين.

ولكن هذا التل لم يكن سرابًا. فقد وصلنا إليه عند الظهيرة في اليوم الثالث بعد أن رأيناه، وتبين أنه يبلغ ارتفاعه نحو مائة وثمانية وعشرين مترًا فوق السهل، وأنه ليس

وهمًا بصريًا. وبسبب الطريقة الغريبة التي بدا بها في البداية وكأنه يتراجع عندما اقتربنا منه، ثم يقفز فجأة نحونا، فقط ليتراجع مرة أخرى، أطلق عليه الرجال اسم «جبل تملي بايد»، «التل البعيد دائمًا»، والذي اختصروه فيما بعد إلى جبل البايد. لقد حيرني لفترة طويلة الطريقة التي بدا بها أنه يغير موقعه عندما اقتربنا منه، لكنني توصلت إلى استنتاج مفاده أن هذا الجبل كان يتراجع فجأة عندما اقتربنا منه، [114] وأن هذا التأثير كان ناتجًا عن حقيقة أن الطريق الذي كنا نسافر به عبر الصحراء، على الرغم من أنه كان على مستوى ميت على ما يبدو، إلا أنه كان في الواقع متموجًا قليلاً، في حين كان التل نفسه على شكل يندمج تدريجيًا في الصحراء المحيطة.

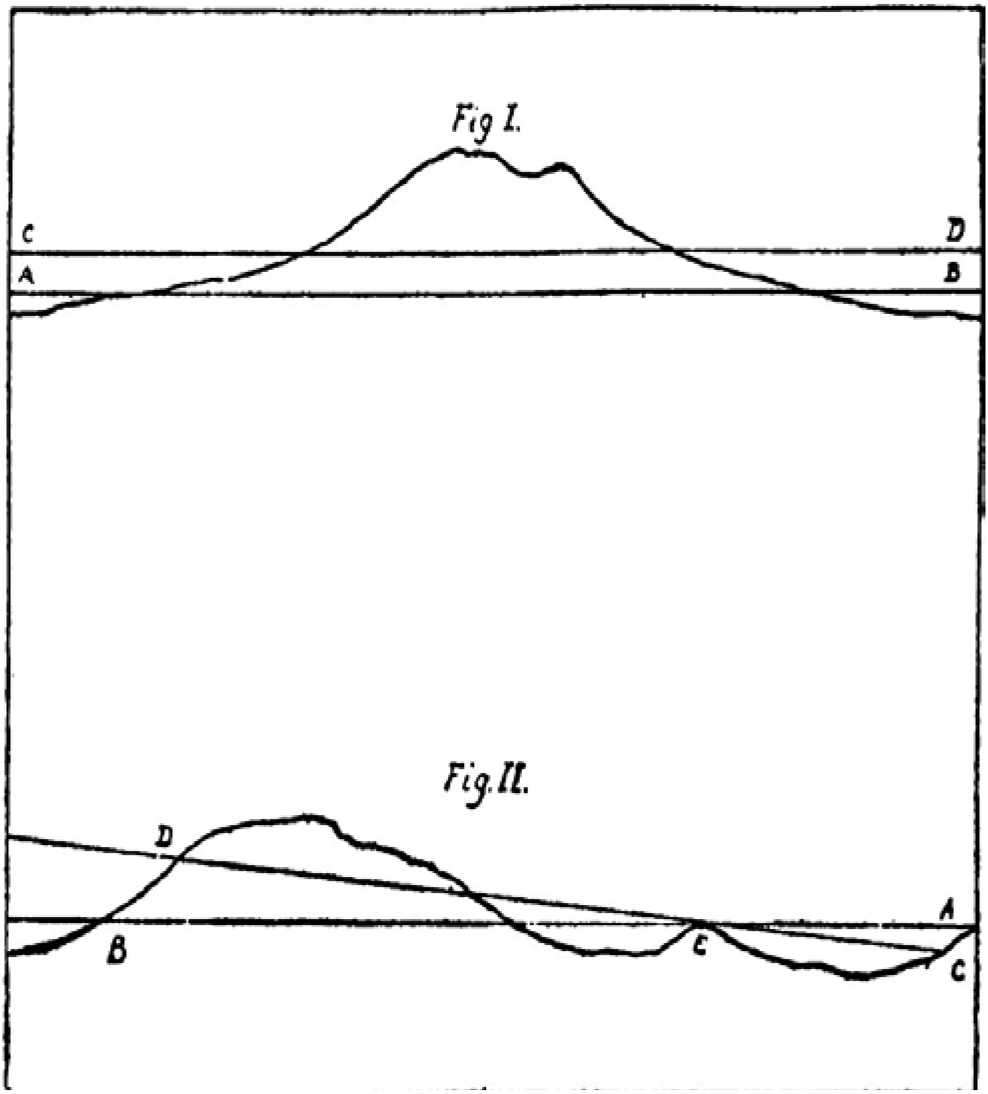
وبالتالي، بينما كنا واقفين في وضع مثل أ (الشكل 2)، على قمة أحد التموجات، تمكنا من الرؤية فوق التلال التالية، هـ، نزولًا إلى الخطين أ، ب (الشكلين 1 و2) تقريبًا حتى سفح التل. ومع ذلك، عندما دخلنا في واد بين اثنين من التموجات، كما في ج، لم نتمكن إلا من رؤية جزء التل الظاهر فوق الخطين ج، د (الشكلين 1 و2)، وبالتالي بدا أصغر كثيرًا، وبالتالي أكثر بعدًا، مما كان عليه عند رؤيته من أ. ولكن عند الوصول إلى قمة التلال هـ، ظهر التل بأكمله حتى قاعدته في الأفق، وازداد حجمه بسرعة، وبالتالي بدا وكأنه يقفز إلى الأمام، بينما صعدنا المنحدر من ج إلى هـ.

[115] شرحت وجهة النظر هذه لقواي، الذي قبلها فورًا على أنها صحيحة، وكان من الواضح أنه ارتاح كثيرًا، فكما اعترف وهو شبه ضاحك، حيث يعتقد أن التل كان مسحورًا، ولم يكن يرغب في أن يكون له أي شأن به.

من قمة التل، أمكن رؤية منظر شاسع جدًا. باتجاه الشمال، كان الممر الذي نزلنا منه من الهضبة غير مرئي، بسبب ارتفاع في الأرض الواقعة بيننا وبينه؛ ولكن إلى الغرب أكثر، كان الجرف الجنوبي للهضبة مرئيًا، وكان بالإمكان رؤية سطح الهضبة نفسها في هذا الاتجاه أيضًا، مما يبين أنها تنحدر بحدة لا بأس بها نحو الجنوب؛ غير أن هذا الجزء منها بدا أقل كثافة بالتلال بكثير من الأجزاء التي قطعناها.

باتجاه الشمال الغربي، رأيت خطًا من الكثبان الرملية يمتد فوق الهضبة المستوية، وكان يمكن رؤية نقطة مرورها فوق الجرف وامتدادها على قاع المنخفض أيضًا من خلال منظاري. ويبدو أنها مرت على مسافة قصيرة إلى الغرب منا.

أصبح جرف الهضبة أكثر انخفاضًا نحو الغرب، وبدا وكأنه على وشك أن يموت، وأن الهضبة سوف تندمج تدريجيًا في أرضية المنخفض، لكن المنظر في هذا الاتجاه كان مقطوعًا بسلسلة طويلة من التلال، ذات الخطوط العريضة الخشنة للغاية، والتي



مخطط جبل البايض.

تمتد من الشمال إلى الجنوب من جوار المنحدر، وتخفي معظم منظر الأفق بين الشمال الغربي والجنوب الغربي.

إلى الجنوب من هذه السلسلة من التلال كانت هناك سهل واسع من الصحراء الرملية المفتوحة، يمتد نحو الغرب، وبقدر ما نستطيع أن نرى لم يكن يحتوي على كثبان رملية، ولكن هنا وهناك تلة صخرية منخفضة واحدة.

كان هناك أمامنا مباشرة إلى الجنوب الغربي، في هذه السهل الرملي، على بعد رحلة تستغرق يومين تقريباً، تلة بارزة جداً، أو مجموعة من التلال، ذات أفق متعرج. ربما يشير هذا الشكل المتقطع، وشكل سلسلة التلال إلى الغرب، إلى حدوث تغيير في التكوين الجيولوجي. كانت تلال الحجر الرملي النوبي التي يمكن رؤيتها على الهضبة وفي الصحراء المحيطة، باستثناءات قليلة، كلها من أنواع معينة محددة، مسطحة القمة، أو مقببة أو مخروطية، وكان الأفق غير المنتظم نادراً ما يُرى في تكوين الحجر الرملي النوبي.

[116] ظلت الصحراء على نفس المستوى الرتيب، وطبيعتها الرملية في كل مكان من الجنوب إلى الشرق إلى الشمال تقريباً، على الرغم من أن التلال الصخرية المعزولة على هذا الجانب من موقعنا بدت أكثر وفرة. كانت المناظر الطبيعية خالية من الملامح بشكل غير عادي. من موقعنا المرتفع، لا بد أننا كنا قادرين على الرؤية دون صعوبة لأكثر من خمسين ميلاً في جميع الاتجاهات تقريباً، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكن تسجيله على الخريطة. أخذت بعض الاتجاهات، ودونتها، وفحصت بقية المناظر الطبيعية بدقة من خلال نظارتي لأرى ما إذا كان هناك أي شيء يمكن ملاحظته. في حوالي خمس دقائق، جمعت كل المواد المتاحة لرسم خريطة لحوالي عشرة آلاف ميل مربع من الصحراء، وتركت الجزء الأكبر منها فارغاً، لم يكن هناك عملياً أي شيء لتسجيله.

عندما انتهيت، استعار "قوي" كأسي وحدق فيه لبعض الوقت، وأعلن أنه من غير المجدي البحث عن الماء في أي مكان قريب في ذلك الجزء من الصحراء حيث يقع كل شيء على مستوى مرتفع للغاية، وأضاف أننا نقترب من بلاد البدايات، ومن الأفضل أن نعود إلى مدينة "موط".

كان من الواضح أن ما قاله كان صحيحاً. لم تكن هناك فرصة للعثور على الماء لمدة ثلاثة أيام أخرى، ولم يكن لدينا إمدادات كافية معنا للذهاب إلى هذا الحد، لذلك، على مضض، نزلت من التل واستعددت لرحلة العودة.

قبل أن أبدأ، ألقيت نظرة حول معسكرنا. بالقرب من سفح التل وجدت "عالماً" وواحداً من الجدران المنخفضة نصف الدائرية المصنوعة من الحجارة السائبة التي يبنيها

البدو في أماكن توقفهم كملاجئ للرياح؛ لذا إذا كان هناك أي دليل آخر ضروري، على أننا ما زلنا على خط الطريق الذي كنا نتبعه، فقد بدت هذه الآثار من حركة مرور سابقة وكأنها تحسم الأمر بشكل قاطع.

تتطلب الحيوانات التي نربيها أثناء الرحلة في الطقس الحار في الصحراء إدارة دقيقة إلى حد ما. غادرنا مدينة "موط" في الثالث من مايو. وفي اليوم الثامن، أعطينا الجمال شرابًا، وبعد ذلك أرسلت "عبد الرحمان" إلى مدينة "موط" مع جميع الخزانات الفارغة، وطلبت منه أن يملأها ويعود مرة أخرى على طول مساراتنا لمقابلتنا في رحلة العودة إلى الوطن. وفي حالة عدم مقابلته لنا، كان عليه أن يترك الخزانات خلفه ويعود على الفور إلى مدينة "موط" لتلقي العلاج. [117] كان ينتظر وصولنا، ويأخذ معه ما يكفيه من الماء لرحلة العودة. وكانت التعليمات الأخيرة مصممة لتوفير الظروف المناسبة للعثور على الماء في الصحراء ومواصلة رحلتنا.

لقد وصلنا إلى جبل البيض في الثاني عشر من مايو، وبما أن شراب الإبل في اليوم الثامن لم يكن كافيًا لإشباعها، فقد بدأت الحيوانات المسكينة تظهر عليها علامات واضحة على نقص المياه. وحتى في اليوم التاسع، تركت اثنتان منها جزءًا من طعامهما



ملجأ الرياح القديم، «وادي الضباب".

دون أن تأكله، وفي اليوم العاشر، فعلت ذلك جميعها، ورفضت اثنتان منها طعامهما، وهي علامة سيئة للغاية. أرادني قوي حينها أن أعود، ولكن على الرغم من عطشها الواضح، بدا أن الإبل تسير بقوة، وقد قررت أن أرى ما يمكن رؤيته من أعلى ذلك التل، قبل العودة، حتى لو اضطررنا إلى الركض بعد ذلك، لذلك، على عكس نصيحته بشدة، وفي تحد لتصريحه بأنني سأفقد اثنين أو ثلاثة من الحيوانات ولن أتمكن من العودة إذا واصلت، فقد خاطرت.

ولكن كان من الواضح أن الجمال كانت على وشك الاختناق بسبب نقص المياه، وكان الجملان الأضعف بالكاد قادرين على الوقوف. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لإعادة تلك الحيوانات إلى الداخلة، وهي الاحتفاظ بالقدر الكافي من الماء في الخزانات لإعادة الرجال إلى موعدنا مع "عبد الرحمان"، وإعطاء الجمال الباقية. وكان لهذا ميزة مزدوجة، ليس فقط لإرواء عطشهم، ولكن أيضًا لتخفيف الأحمال التي كان يتعين على البهائم المسكينة أن تحملها، ولكن إذا فشل "عبد الرحمان" في الظهور، فإن ذلك يعني كارثة.

[118] في أثناء السفر في الصحراء أثناء الطقس الحار، عندما كانت القافلة بأكملها تعتمد على حصة محدودة من المياه، كنت أستغل عادة فرصة سقي الحيوانات للاستحمام. كنت أسكب الماء في ترتيب قماشي قابل للطي، حيث كنت أتوضأ دون استخدام أي صابون، وكان يُسمح للإبل بالشرب منه بعد ذلك. ولأن الإبل ليست من الحيوانات التي تتطلب الكثير من الطعام، فقد نجح الترتيب بشكل جيد للغاية. ولكن في هذه المناسبة حُرمت من الاغتسال، حيث اضطررت بسبب ضرورة تقليل وزن الأمتعة إلى ترك الحمام في مدينة "موط".

ولعل صعوبة الحفاظ على النظافة الشخصية على الرغم من قلة المياه كانت تشكل أعظم محنة في رحلة صحراوية. وكانت الحمامات التي كنت أحصل عليها عندما تشرب الإبل ترفًا عظيمًا، ولكن غسلي بين مشروباتها كان من أضعف أنواع الغسيل. وكانت الطريقة التي وجدتها تجعل المياه تتدفق إلى أبعد مدى هي أن أفرك نفسي بطرف منشفة مبلل ثم أفرك نفسي بقوة بالجزء الأكثر جفافًا منها بعد ذلك. وفي بعض الأحيان كان الإمداد غير كاف حتى لهذه الطريقة الاقتصادية. ثم اعتكف عادة خلف صخرة، وأخلع ملابسي وأتدحرج في الرمال مثل الجمل. ورغم أن هذه الطريقة لم تكن منظفة مثل طريقة المنشفة المبللة، إلا أنها كانت منعشة بشكل واضح.

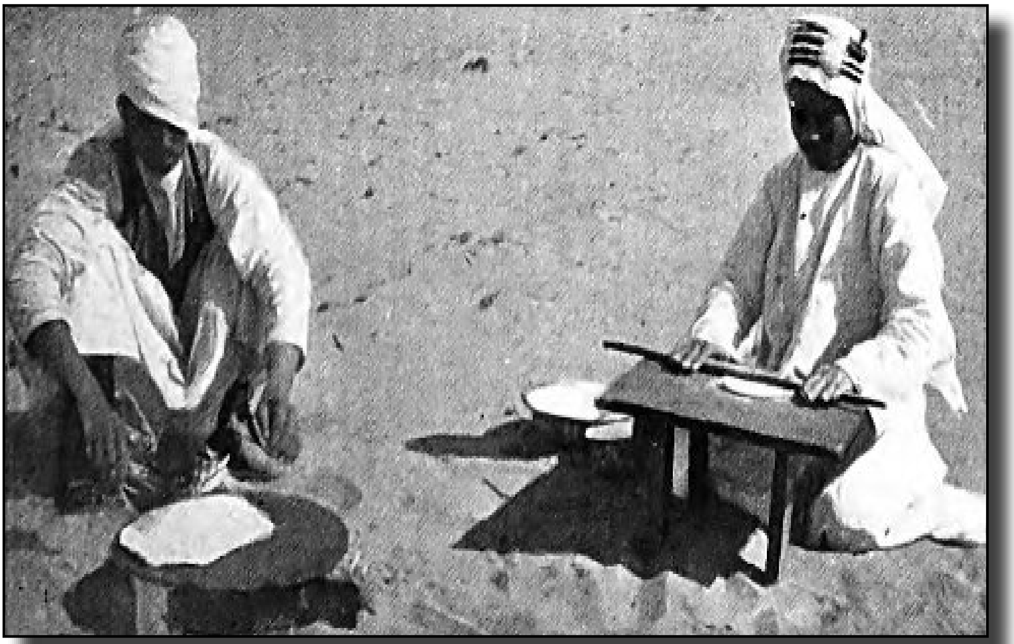
لقد حصلنا على ما أمكننا من الراحة خلال الجزء الأول من المساء، ونزلنا حوالي

الساعة الثانية صباحًا، وواصلنا السير طوال الليل حتى توقفنا للراحة في منتصف النهار. ثم انطلقنا مرة أخرى في الساعة الخامسة مساءً وواصلنا السير، مع توقف واحد فقط قرب منتصف الليل لتناول وجبة، حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، حيث وصلنا بحلول ذلك الوقت إلى قمة باب الصباح. ثم سئمنا من ذلك وخيمنا حتى غروب الشمس، ثم استأنفنا رحلتنا وواصلنا السير طوال الليل حتى الفجر.

تتألق النجوم في أجواء الصحراء الصافية ببريق غير معروف على الإطلاق في خطوط العرض الشمالية لدينا. تظهر مجرة درب التبانة كسحابة رقيقة، وهي واضحة للغاية لدرجة أنني عندما رأيتها لأول مرة في الصحراء، اعتقدت أنها كذلك. كنا عمليًا على خط مدار السرطان، وفي خط العرض الجنوبي هذا، ظهرت العديد من النجوم التي لا تظهر أبدًا فوق الأفق في إنجلترا، [119] ومن بين أبرز هذه الكواكب كوكبة الصليب الجنوبي المبالغ في تقديرها.



وسم أو علامة للسنوسية
كل قبيلة عربية لها علامة خاصة بها على الإبل، ووسم الدراويش السنوسيين هو وسم كلمة «الله» على الرقبة. (ص 24).



صناعة الخبز في الصحراء
يقوم البدو بلف العجين على شكل كعكة رقيقة ثم يقومون بتحميصها على صفيحة من الحديد. (ص 207).

إن العرب البدو، نظراً لاستخدامهم الكبير للنجوم كمرشدين أثناء رحلاتهم الليلية، يعرفونها جميعاً، ولديهم أسماء، وكثيراً ما يروون عنها قصصاً. إن نجم القطب، وهو النجم الذي يستخدمونه أكثر من غيره كمرشد، يُعرف باسم الجيدي، أو الماعز، الذي تحاول نجوم الدب الأكبر، بنات ناش، سرقته، لكن الغفاريين (الحارسين)، المعروفين لنا أيضاً، ربما من نفس الأسطورة العربية التي نُسيت، يمنعانهم من ذلك، باعتبارهما «حارسي» نجم القطب. وفي بعض الأجزاء يُعرف الدب الأكبر والدب الأصغر باسم الناقة ومهرها. وتُسمى الثريا «بنات الليل». أما أوريون فهو صياد بحزامه وسيفه، يتبعه كلبه (الكلب الأكبر)، ويطارد بقر الوحش (ثور بري)، أي كوكبة الثور. أعتقد أن الكثير من علم الفلك لدينا جاء في الأصل من العرب، ولا يزال العديد من النجوم تسمى بأسمائها العربية، على سبيل المثال الطائر، وهو الاسم الذي لا يزال معروفاً به لدى البدو.



غربلة الطفل.

هذا الطفل يهتز في منخل يحتوي على حبوب وما إلى ذلك، بينما تضربه امرأة بمدقة على هاون، للتأكد من أنه لن يموت جوعاً عندما يكبر أو يخاف من الضوضاء، وسيصبح عداءًا سريعًا. (ص 249).

يعتقد المسلمون أن النجوم المتساقطة، التي غالبًا ما تتألق في الصحراء بلمعان يصعب على السكان إدراكها في مناخ ضبابي مثل إنجلترا، هي سهام يطلقها الملائكة على الأرواح الشريرة لطردها عندما تتسلل للتجسس على بوابة الجنة.

هناك دائمًا أحداث معينة في الرحلة تترك انطباعاً لا يمحى في الذاكرة أكثر من الأحداث التي قد تكون ذات أهمية أكبر، وكانت العودة السريعة إلى الهضبة واحدة منها.

كان "قوي"، كعادته، يركب وحيدًا على بعد خمسين ياردة أمام القافلة. وركبت أنا خلفهم مع بقية الرجال، وكنت أغفو أحيانًا في سرجي، وفي أثناء ذلك كنت أفكر في بعض المسائل المعقدة إلى حد ما، ما إذا كان السنوسيون قادمين حقًا، وما إذا كان

من المحتمل أن نلتقي بهم قبل الوصول إلى مدينة "موط"، وما إذا كان من الممكن رؤية واحة من أعلى ذلك التل الأبعد، والأهم من ذلك كله، ما إذا كان من الممكن أن نلتقي بعبد الرحمان.

في بعض الأحيان كانت القشعريرة الباردة تلاحقني من أعلى إلى أسفل ظهري عندما تخطر ببالي فكرة أن [120] ربما تصاب الإبل التي أرسلتها معه بالعرج، أو يحدث أمر آخر يمنعه من الخروج بالماء الذي كنا في أمس الحاجة إليه.

في الحقيقة، كنت أشك بشكل واضح في ما إذا كانت القافلة ستصمد حتى نصل إليه، فبإرسالنا هذه المسافة البعيدة مع كمية محدودة من المياه في أسوأ موسم من السنة، وإرساله بمفردي لإحضار إمدادات جديدة، كنت أعلم أنني قد خالفت القواعد الأولى في السفر في الصحراء، من خلال المخاطرة الجسيمة بدون إمدادات المياه.

إن الرحلة في ليلة جميلة في الصحراء تجربة لا تنسى أبدًا، والصمت شبه التام الذي سرنا فيه جعل الرحلة أكثر إثارة للإعجاب من المعتاد. بالكاد كان هناك صوت يُسمع بخلاف خطوات الجمال الهادئة على الرمال الناعمة، ورنين سلاسلها، وصرير الحبل بين الحين والآخر على الأمتعة، وتناثر الماء ذهابًا وإيابًا في الخزانات شبه الفارغة. بين الحين والآخر، عندما تبطئ الجمال خطواتها، كان موسى ينادي عليها، ويكسر صوته الصمت فجأة، أو يبدأ في غناء إحدى الأغاني الصاخبة التي يغنيها سائقو الجمال أحيانًا لرعيتهم، فتسرع الجمال من خطواتها على الفور.

يبدو أن مسيرة الليل الطويلة لا تنتهي. فالخطوات البطيئة الرتيبة التي تخطوها الإبل، المنتظمة كدقات البندول، تنتج تأثيرًا ساحرًا تقريبًا بينما يمشي المرء ببطء، ميلًا تلو الآخر، وساعة تلو الأخرى، بجوارها فوق الصحراء القاحلة المضاءة بالنجوم.

إن أصعب جزء من مسيرة الليل هو الفترة التي تسبق الفجر مباشرة. ففي تلك الفترة تكون حيوية الإنسان في أدنى مستوياتها، ويشعر الإنسان بإرهاق رحلة الليل الطويلة. ويخيم الصمت على القافلة في هذه الأوقات. وتبدو الصحراء كلها ميتة وكئيبة وموحشة إلى حد لا يوصف، ولا يبدو أي شيء يستحق العناء على الإطلاق. ومع اقتراب الفجر، تبدو الصحراء وكأنها تتحرك في نومها. وينتشر في الهواء نضارة طفيفة. وتهب نسمة رقيقة، ريح الفجر، من الأرض القاحلة التي لا حدود لها، فتتسلل بهدوء وتهمس فوق الرمال وتمر مسرعة في المسافة. ويتسلل الفجر الكاذب إلى السماء، ثم

فجأة وبصورة تكاد تكون مذهلة، يختفي الفجر الكاذب [121] تشرق الشمس فوق الأفق، وتظهر الظلال الطويلة لخط الجمال الطويل كـ «بقع أرجوانية» على رمال الصحراء المستوية، مثل تلك الكتابات الغامضة التي يجب النظر إليها من الحافة قبل أن تتمكن من قراءتها، ويدرك المرء فجأة أن يومًا حارقًا آخر قد بزغ أخيرًا.

الفصل الحادي عشر

وبعد يومين من مغادرة الممر إلى الهضبة، وصلنا إلى موعدنا مع "عبد الرحمان"، حيث وجدناه في انتظارنا، لشعورنا بالارتياح الشديد. [122]

أعتقد أننا كنا جميعًا نخشى أن يحدث شيء يمنعه من إحضار إمدادات المياه الضرورية لنا. وعلى أي حال، كانت احتمالية فشله في توفير المياه لنا بمثابة كابوس بالنسبة لي، فعندما يشعر المرء بالإرهاق بسبب الطقس الحار والطعام غير المناسب، فإن المشاكل من هذا النوع من المرجح أن تتخذ أبعادًا مثيرة للقلق، وخاصة في المسيرات الليلية الطويلة في الساعة أو الساعتين قبل الفجر.

ولكي نتأكد من إمدادات المياه، أرسلت "عبد الرحمان" مرة أخرى إلى مدينة "موط" مع جميع الخزانات الفارغة، وطلبت منه أن يخرج مرة أخرى لمقابلتنا في أقرب وقت ممكن.

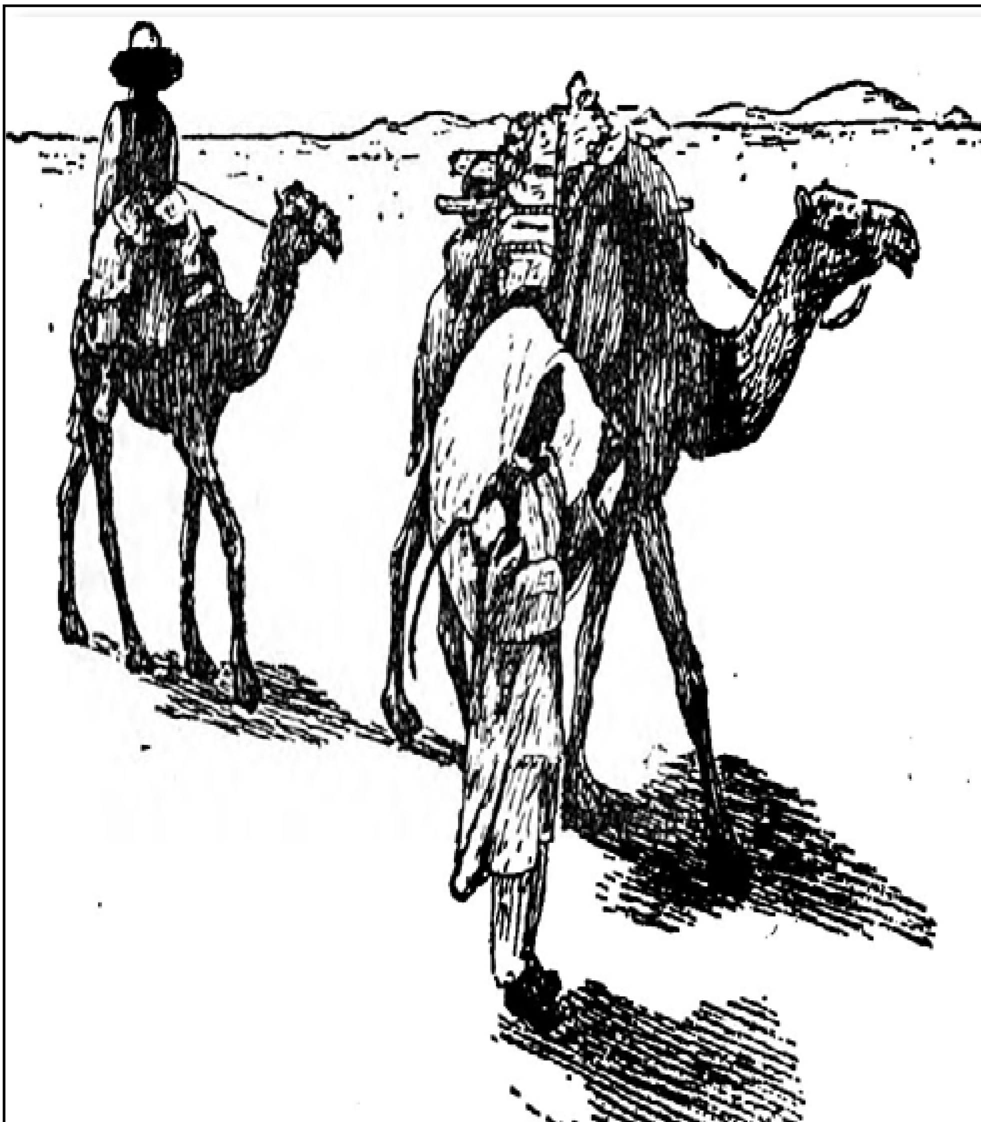
كانت إمداداتنا من جميع الأنواع تنفد. لقد استهلك حطبنا بالكامل تقريبًا، وأُشعل آخر عود ثقاب لدينا، ولأن الصوان والفولاذ قد ضاعا، فقد كان الحصول على ضوء أمرًا صعبًا للغاية. لم تكن النار ضرورية للرجال لطهي خبزهم فحسب، بل كان القافلة بأكملها، باستثناء "قوي"، مدخنين مؤكدين، وإذا حرم أحد السكان الأصليين من التبغ فإنه يشعر بالاستياء على الفور.

كان موسى قد حل مشكلة الحصول على ضوء في الليلة السابقة بانتزاع قطعة من القماش من ملابسه القطنية، وفركها بالبارود، ثم أطلقها من بندقيته. اندفع "قوي" إلى الأمام، والتقطها وهي لا تزال مشتعلة، ووضعها في حفنة من العشب الجاف الذي أحضره معه، وأشعلها، وبهذه الوسيلة نجح في إشعال النار من آخر وقود لدينا.

كان الطقس حارًا جدًا في منتصف النهار، وقد أسعدني كثيرًا الحيل التي استخدمها الرجال للتخفيف من انزعاجهم. في الصباح [123] وفي فترة ما بعد الظهر، خلال ساعات الحر، حاولوا جميعًا السير بالقرب من الجمال قدر الإمكان، حتى يكونوا في

ظلالها. ولكن عندما اقتربت الساعة من الظهر، وكانت الشمس عمودية تقريبًا فوق رؤوسهم، ألقوا ذيول قمصانهم الطويلة فوق رؤوسهم، والتي لم تعمل إلى حد ما كحماية لأعناقهم وعمودهم الفقري فحسب، بل تسببت أيضًا في هبوب تيار هوائي على ظهورهم عن طريق انحراف الريح.

سار الرجال، الجائعون والمتجهمون، في صمت لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. ثم



مغرفة الرياح لعبد الرحمن.

فجأة، أجبر "قوي"، الذي كان يركب أمام القافلة كعادته، جمله على الركوع، وقفز على الأرض وغنى للآخرين للانضمام إليه. صرخت لأعرف ما الأمر.

" تعال، تعال. يا فرح. الله أكبر. الله كريم. الحمد لله. بر."

(تعال، تعال. يا فرح! الله أكبر. الله رحيم. الحمد لله.)

Tahl," he shouted, "Tahl ya farah. Allah akbar. Allah ker-" im. El hamdl'illah. Barr." ("Come, come. Oh, joy! Allah is ("!most great. Allah is merciful. Praise be to Allah. Manure

لقد وصلنا إلى أرض تخييم قديمة لنا في إحدى رحلاتنا السابقة، وكانت الأرض مليئة بروث الإبل، التي جفت في الحرارة الشديدة، مما جعلها وقودًا ممتازًا.

على الرغم من أنه كان لا يزال في وقت مبكر من اليوم، قمنا بتفريغ [124] وبدأ "خليل" في تحضير كمية وفيرة من العجين. وبمساعدة آخر حفنة من العشب المجفف، تمكن موسى وبندقيته من إشعال النار اللازمة، وفي غضون نصف ساعة كان الخبز يُخبز على نار ساخنة من البر. وفي المساء وصلنا إلى الشجيرات، وتم حل مشكلة الوقود.

كان مستوى المياه لدينا قد انخفض مرة أخرى إلى أدنى مستوياته. وكان أمامنا يوم طويل من السفر قبل أن نلتقي ب"عبد الرحمان" مرة أخرى، ولم يكن لدينا ما يكفي من المياه لهذا الغرض. لقد سقينا الإبل ثلاث مرات منذ مغادرة مدينة "موط"، قبل ستة عشر يومًا، لكن الكمية الإجمالية التي تمكنا من إعطائها لهم كانت أقل بكثير من احتياجاتهم.

ولكن "عبد الرحمان" جاء أثناء المساء، وكان منزعجًا للغاية لرؤية الحالة التي تدهورت إليها الحيوانات التي بقيت معنا. عقدنا مشاورات مع "قوي"، وتوصلنا إلى أن الطريقة الوحيدة الممكنة لضمان قدرتنا على إعادتها مرة أخرى إلى الواحة هي إعطائها كل ما يمكننا توفيره من الماء، مع الاحتفاظ بما يكفي لأنفسنا فقط، ثم العودة مرة أخرى في أقرب وقت ممكن، وتحميل معظم الأمتعة على الجمال التي أحضرها "عبد الرحمان" معه من مدينة "موط"، والتي بعد أن شربت حتى ارتوت في الواحة كانت في حالة جيدة إلى حد ما.

في الصباح الباكر، عندما كانت محتويات الخزانات قد أخذت وقتها لتبرد، قمنا بسقي الحيوانات المسكينة، وبعد أن سمحنا لها بساعة لتستقر مشروباتها، قمنا بحزم أمتعتنا وانطلقنا نحو الواحة.

لم يمض وقت طويل حتى تعطلت بعض الأمتعة، واضطررنا إلى التوقف لتعديلها. انتهز "خليل" الفرصة للجلوس والإعلان عن تعبه وظهور «قشور» في قدميه، وأنه لن يتمكن من المضي قدمًا ما لم يُسمح له بالركوب، مضيفًا أنه «ليس مثل هؤلاء العرب» وأنه «تم تربيته بشكل سيئ!"

وبما أنه لم يمض على مغادرتنا للمخيم أكثر من ساعة، فقد كان من المستحيل أن يكون متعبًا، أما بالنسبة لبثوره، فعندما تم فحصها ثبت أنها تتكون من «بثرة» صغيرة واحدة على مشط قدمه، والتي، بما أننا كنا نسافر على الرمال الناعمة، وكان هو، مثل بقيتنا، يمشي حافي القدمين، فلا يمكن أن تسبب له أدنى إزعاج.

[125] فأشرت له إلى ذلك وقلت له أنه إذا بقي وترك القافلة فإنه سيموت عطشًا بالتأكيد.

«لا بأس»، أجابهم ببسالة. «لا بأس. سأبقى هنا وأموت. لن أتمكن من المشي بعد الآن. أنا متعب. استمروا يا سيدي، وأنقذوا أنفسكم. سأبقى هنا وأموت في الصحراء».

لقد كانت لنا مشاهد كثيرة من هذا النوع مع "خليل"، ولم يفشل البدوي قط في الاستمتاع بها بالكامل.

«ماذا يقول؟» سأل "قوي".

لقد ترجمت بقدر استطاعتي.

«مليش» («ليس لهذا أي أهمية»)، رد "قوي" بهدوء. «دعه يبقى ويموت إذا أراد ذلك. اضرب الإبل يا "عبد الرحمان"، ولنذهب. لا نستطيع الانتظار. نحن في الصحراء، ونفتقر إلى الماء».

«سأموت» قال "خليل" وهو يبكي.

«ماليش،» كرر "قوي"، حتى دون أن يكلف نفسه عناء النظر إليه.

لقد شعرت برغبة شديدة في دغدغة الوحش المزعج باستخدام كرباج، لكن ضرب مواطن كان ضد مبادئي، لذلك واصلنا وتركناه جالسًا بمفرده في الصحراء.

«ستصبح زوجتي أرملة»، صرخ "خليل" خلفنا، على الرغم من أنه لم يكن من الواضح كيف كان يتوقع أن تثير هذه الاحتمالية تعاطفنا. صاح موسى ردًا على بعض التعليقات البذيئة عن السيدة المعنية، واستمرت القافلة في طريقها بمرح، إن لم نقل بصخب.

وبعد أن قطعنا مسافة ما، انحدر طريقنا إلى مستوى أدنى، وفقدنا رؤية "خليل"

لفترة. نظرت إلى الوراء قبل أن نختفي عن الأنظار، فرأيته جالسًا بالضبط حيث تركناه. قطعنا مسافة كبيرة قبل أن نتمكن من رؤيته مرة أخرى من خلال ارتفاع في الأرض كان يمر فوقها طريقنا. وعندما نظرت إلى الوراء من خلال نظارتي، تمكنت من تمييزه جالسًا في مكانه حيث تركناه. كنت أتوقع أنه بحلول الوقت الذي قطعنا فيه بضع مئات من الأمتار، أو على الأقل بمجرد أن اختفينا عن الأنظار، سيكون "خليل" قد نهض وتبعنا. لكن فلاحي مصر هم من ذوي الطباع الغريبة، وعندما لا يتمكنون من الحصول على ما يريدونه بالضبط، فإنهم يقعون أحيانًا في نوبة من الغضب الانتحاري. [126] إن التعامل مع هذا الأمر صعب للغاية. وعندما بدا أن "خليل" دخل في هذه الحالة المزاجية المتقلبة، بدأت أخشى أن يكون ينوي حقًا تنفيذ تهديده والبقاء حيث هو حتى يموت من العطش، أو يتخلف عن القافلة إلى حد يجعله غير قادر على العودة إلينا، وهو ما كان ليؤدي إلى نفس النتيجة.

وعندما سألته عن المدة التي قد تستغرقها الرحلة للوصول إلى الواحة، أجابني "قوي" بتفاؤل شديد بأننا لن نستطيع أن نعبر الكثبان الرملية قبل غروب الشمس في اليوم التالي. ورغم أن حزام الرمال كان سهلاً بما يكفي لاجتيازه في وضح النهار، حين كنا نستطيع أن نرى إلى أين نتجه، فإنه كان ليشكل عقبة خطيرة للغاية في الظلام. ومع احتمال مواجهة يوم آخر من الطقس الحار أو ما هو أسوأ من ذلك، عاصفة رملية عنيفة قبل أن نصل إلى الداخلة، فإن التأخير الذي قد يدفعنا إلى التخييم في الليلة التالية على الجانب الخطأ من الكثبان الرملية، وبالتالي قضاء اثنتي عشرة ساعة أخرى في الصحراء قبل الوصول إلى المياه، ربما كان ليخلف عواقب وخيمة للغاية.

«إذا لم نعبر الرمال غدًا»، قال "قوي" بشكل مثير للإعجاب، «قد لا نصل إلى مدينة "موط" على الإطلاق. انظر إلى الجمال. انظر إلى خزاناتنا. إنها فارغة تقريبًا. يجب أن نواصل. لا يمكننا الانتظار».

ولم أستطع أن أجازف بالتضحية بالقافلة كلها من أجل متقاعس واحد، لذلك طلبت من "عبد الرحمان" أن يضرب الإبل، وتركنا "خليل" «الذي رضع بلا طعام» ليموت في الصحراء.

وبعد فترة وجيزة اختفى "خليل" من على ناظرنا . بدأنا رحلتنا في الصباح الباكر وواصلنا الرحلة طوال اليوم، دون توقف تقريبًا، حتى الساعة الثامنة مساءً، عندما اضطررنا إلى التوقف لإراحة الجمال. لم نر أي شيء آخر من "خليل"، فتركناه في عداد المفقودين. ولإعطائه فرصة أخيرة، أشعلنا نارًا كبيرة ثم هدأنا من روعنا للنوم قدر

استطاعتنا، على قدر غير كافٍ من الماء.

وفي الصباح، دخل "خليل" إلى المخيم متعثرًا وسط سخرية الرجال ولعناتهم، وطلب الماء بصوت أجش، وبعد أن شرب، نام، وكان منهكًا للغاية حتى أنه لم يستطع تناول الطعام.

لقد شفى هذا الحادث الصغير "خليل" من التظاهر بالمرض، ولم يسبب أي مشاكل أخرى في رحلتنا إلى مدينة "موط". [127] يُظهِر هذا كيف يمكن للقليل من اللباقة أن يساعد في التعامل مع مواطن أصلي. كان العديد من الرجال القساة ليضربوا الرجل المسكين!

لحسن الحظ، كان اليوم التالي باردًا إلى حد ما، وحققنا تقدمًا أفضل مما توقعنا. ونتيجة لذلك، وصلنا إلى حزام الكثبان الرملية بعد الظهر مباشرة، وبما أننا بدا أننا وجدنا جزءًا منخفضًا منه، فقد قررت بناءً على نصيحة "قوي" أن أبدأ في التعامل معه عند هذه النقطة.

ولكنني في اتخاذي لهذا القرار تجاهلت عاملاً بالغ الأهمية في الموقف، الضوء. ومهما بدا الأمر غريبًا، فإن عبور الكثبان الرملية في ضوء الشمس الحارقة في الظهيرة يكون أحيانًا صعبًا تقريبًا كما هو الحال في الظلام. فالوهج الشديد في هذا الوقت من اليوم يجعل الرمال البيضاء التي تتكون منها الكثبان الرملية مؤلمة للغاية عند النظر إليها، كما أن غياب الظل يحول دون رؤية شكلها ويجعل حتى تموجاتها غير مرئية عمليًا.

ونتيجة لهذا الوضع، كان "قوي" يركب أمام القافلة ليدلهم على الطريق، لكنه أخطأ دون أن يرى إلى أين كان يتجه، فسقط من أعلى الكثبان الرملية المسطحة إلى المنحدر شديد الانحدار أدناه، ونجا هو وعربته بالكاد من السقوط إلى القاع، حيث سقطا من ارتفاع تسعة أمتار تقريبًا. وبعد ذلك، وحتى وصلنا إلى الجانب الأبعد من الحزام، ظل على قدميه، يجر عربته خلفه. وبمجرد عبور الكثبان الرملية، كانت بقية الرحلة سهلة بما فيه الكفاية.

كانت الأخبار التي سمعناها عن الأوضاع في أوروبا في الداخلة عند عودتنا مفجعة بكل بساطة. فقد تلاشى الثورة في تركيا التي كانت واعدة بأن تكون حدثًا عظيمًا. صحيح أن السلطان عبد الحميد، «عبد الملعون»، قد خُلع، ولكن أخاه محمد الخامس تولى الحكم بدلاً منه، وجلس على العرش التركي المتهالك بثبات. وهدأت الاضطرابات في تركيا، ولم يعد هناك أي أمل في قيام جمهورية، وبالتالي فإن التهديد بغزو مصر من جانب السنوسيين لم يعد من المرجح أن ينجح على الإطلاق.

ومع ذلك، شعرنا بالرضا عن أنفسنا، لأننا كنا لمدة ثمانية عشر يومًا في الصحراء بعيدًا عن الماء، ومعنا سبعة جمال فقط، في أصعب وقت من العام، وقد عدنا مرة أخرى دون أن نفقد أيًا منها. [128] ولكن من يشعر بالميل لتكرار هذه النزهة ينصحه بأخذ كمية كافية من الماء والطعام المناسب.

كان طريق جوباري الذي سلكناه إلى خارجة يمر بسفح الجرف الذي يشكل الحد الجنوبي للهضبة التي تقع عليها عين أمور. وكان الطريق خاليًا من المعالم والملامح المثيرة للاهتمام. ولكن على الرغم من أنه لا يحتوي على أي معالم طبيعية ذات أهمية، فإن البدو لديهم عدد من المعالم على طوله أطلقوا عليها أسماء، والتي يقسمون بها الطريق إلى مراحل مختلفة. ومن الغريب أن نرى كيف تنشأ الحاجة إلى تسمية الأماكن بمجرد أن يصبح الحي مأهولاً بالسكان.

إن هذه المعالم الصغيرة تظهر في الخرائط عادة بطريقة مضللة للغاية. ومن بين هذه المعالم على طريق جوباري تلك المعروفة باسم بو العجول. وهناك بو العجول الآخر، أو أبو العجول، كما يطلق عليه أحيانًا، على درب الطويل، أو «الطريق الطويل»، الذي يمتد من وادي النيل، بالقرب من أسيوط، عبر الصحراء إلى واحة الداخلة. وكثيرًا ما رأيت هذا المكان محددًا على الخرائط في الأطلس، حيث كان الاسم مطبوعًا بنفس النوع المستخدم في تسمية الجبال الكبيرة، أو القرى في وادي النيل، ولم يكن هناك أي شيء على الإطلاق في الطريقة التي تم بها عرضه على هذه الخرائط يشير إلى عدم أهميته.

والآن، لم يعد بو العجول سوى قبر، بل إنه ليس قبرًا حقيقيًا، بل هو قبر مزيف. وأكثر أشكال اللقب الشعبي شيوعًا هو أن يطلق الناس على الرجل لقب «أب الشيء الذي اشتهر به بين الناس». لقد كنت أنا نفسي في وقت من الأوقات معروفًا باسم «أبو زرزورة»، أو «أب زرزورة»، لأنني كنت من المفترض أن أبحث عن تلك الواحة، ثم عرفت فيما بعد باسم «أبو رمل»، أو «أب الرمال»، لأنني قضيت وقتًا طويلاً بين الكثبان الرملية.

«بو العجول» تعني «أبو العقال». ومن أعظم المخاطر التي يخوضها العربي عديم الخبرة عندما يسافر بمفرده في الصحراء، أن يسمح لجمله بالانفلات والهروب أثناء الليل. وعندئذ، ما لم يكن بالقرب من بئر، وليس لديه حيوان يحمل قربة الماء، فمن المحتمل أن يكون مصيره محتومًا. وقد فقدت العديد من الأرواح بهذه الطريقة".

مع وجود مآسي من هذا النوع أمام أذهانهم باستمرار، يرشد المرشدون الصحراويون، كتذكير لأقلهم [129] لقد قام الإخوة المتمرسون في تأمين مواشيهم بشكل صحيح في

الليل، بعمل قبر وهمي على بعد نصف الطريق على طول كل من الطرق الصحراوية. من المفترض أن يمثل هذا القبر آخر مكان للراحة لـ «والد العجول»، الذي فقد حياته بسبب عدم ربطه لجماله بشكل آمن في الليل. ومن عادة كل مسافر يستخدم الطريق أن يلقي على «القبر» أثناء مروره به، عقالًا مهترئة أو قربة ماء، أو جزءًا من إناء ماء مكسور، مما يؤدي إلى تراكم كومة كبيرة بمرور الوقت.

كان ذلك في نهاية شهر يونيو/حزيران عندما وصلنا إلى الخارجة مرة أخرى. وأي شخص يحاول العمل في الصحراء على أي مسافة بعيدة عن الماء بعد شهر مارس/آذار يعاني بشدة من ارتفاع درجات الحرارة. وقد عشت بالفعل ما يقرب من ثلاثة أشهر من هذه الظروف، وكانت احتمالات القيام بأي عمل جيد في الصحراء خلال ما تبقى من الطقس الحار ضئيلة للغاية، لذا عدت إلى إنجلترا لبقية الصيف.

الفصل الثاني عشر

كان موسم عملي الأول في الصحراء ناجحًا بما يكفي لتبرير محاولة ثانية، حيث قمت بتنفيذ أحد الأهداف المدرجة في برنامجي من خلال تمكني من عبور حقل الكثبان الرملية؛ لذلك قررت متابعة ذلك برحلة أخرى. كان الجزء الرئيسي من العمل الذي خططت له في سنتي الثانية هو الدفع إلى أقصى حد ممكن على طول الطريق القديم إلى الجنوب الغربي من الداخلة، والذي اتبعناه بالفعل لمدة مائة وخمسين ميلاً تقريبًا. قبل أن أبدأ، سمعت شائعات عن مكان لم يتم الإبلاغ عنه من قبل يسمى العوينات، يقع على هذا الطريق وكان على ما يبدو أول نقطة يذهب إليها. لكنني تمكنت من جمع القليلِ من المعلومات حول هذا الموضوع. لم أستطع حتى سماع ما إذا كان مأهولًا أم مهجورًا. لم أكن متأكدًا حتى من وجود الماء هناك. [130]

بدا من المرجح أن الرحلة إلى هذا المكان ستكون طويلة جدًا قبل أن نتمكن من الوصول إلى الماء أو نصل إلى واحة، ولم يكن هناك أي شيء معروف عن الجزء الذي يؤدي إليه، فقد كان لابد من النظر في إمكانية الدخول إلى منطقة معادية نشطة، واتخاذ الترتيبات اللازمة للتأكد من تراجعنا إلى مصر، في حالة أخذ جمالنا منا ووجدنا أنه من الضروري القيام برحلة العودة سيرًا على الأقدام.

لقد تصورت أن المسافة التي كان علينا أن نقطعها من واحة الداخلة على الطريق قبل أن نجد الماء أو نصل إلى واحة لن تزيد على خمسة عشر يومًا على الأكثر. وكنت آمل، إذا تمكنا من قطع هذه المسافة دون أن نواجه أي صعوبات أخرى، أن نتمكن

من المضي قدمًا إلى أبعد من ذلك، وأن نعبر الصحراء في النهاية إلى السودان الفرنسي، حيث تم تحذير السلطات من ضرورة البحث عني وتقديم أي مساعدة ممكنة لي.

[131] من الواضح أن هذا الطريق القديم كان في وقت ما أحد الطرق الرئيسية للقوافل عبر الصحراء، وذلك بسبب حجمه. وكان من المعروف أن السنوسيين اهتموا بشكل كبير بتحسين الطرق الصحراوية، ومن ما أخبرني به السكان الأصليون، أصبحت واحة الكفرة، تحت إدارتهم القادرة، مركزًا تلتقي فيه معظم طرق القوافل في هذا الجزء من الصحراء.

لا بد أن هذا الطريق كان دائمًا صعبًا، وذلك بسبب المسافة الطويلة الخالية من المياه التي كان لابد من عبورها قبل الوصول إلى الواحة الأولى. لذا فقد بدا من المرجح أنه تم التخلي عنه نتيجة لتسهيل طريق آخر إلى الكفرة بسبب حفر آبار جديدة.

كان هدفي الرئيسي في هذه الرحلة هو معرفة ما إذا كان هذا الطريق لا يزال صالحًا للاستخدام للقوافل، أو إذا لم يكن كذلك، ما إذا كان من الممكن جعله كذلك من خلال حفر آبار جديدة، أو تحسين الطريق في النقاط الصعبة.

إن الطريق الذي يمتد من وانجونجا إلى واحة الداخلة كان ليقطع كل طرق القوافل المؤدية إلى الكفرة من بلاد البدايات وشرق السودان، وبالتالي كان ليحول إلى مصر قدرًا كبيرًا من حركة المرور المتجهة آنذاك إلى الكفرة وطرابلس. بالإضافة إلى ذلك، كان من الممكن أيضًا أن يتم نقل بعض التجارة التي يحملها الطريق الكبير بين الشمال والجنوب، من وسط السودان عبر تيكيرو إلى الكفرة، إلى الداخلة من خلال إعادة فتح هذا الطريق القديم. وبما أن خط السكة الحديدية من وادي النيل إلى الخارجة كان من الممكن أن يمتد بسهولة إلى الداخلة، فقد تحل هذه الواحة محل الكفرة كمركز رئيسي للقوافل في الصحراء الليبية، وربما تطورت هناك تجارة مستودعات كبيرة نسبيًا، حيث يتم توزيع البضائع عن طريق السكك الحديدية إلى مصر.

إن القيمة الإجمالية للبضائع التي تنقلها القوافل عبر هذه المنطقة ليست كبيرة، ولكن لا تزال التجارة ذات أهمية كافية لجعل الأمر يستحق العناء لمحاولة تأمينها، خاصة أنه إذا تم ذلك، فسيعطي سيطرة كبيرة على القبائل التي يصعب الوصول إليها في الداخل، وفي الوقت نفسه سيكون ضربة قاسية للسنوسيين، الذين هددوا لبعض الوقت بأن يصبحوا مصدر إزعاج إلى حد ما.

لتلبية متطلبات الرحلة الطويلة التي تستغرق خمسة عشر يومًا إلى العوينات من الداخلة، أو بالأحرى عودتنا في حالة اضطرارنا إلى التراجع على عجل، [132] كان

لدي ثلاثون خزانًا صغيرًا مصنوعة من الحديد المجلفن. تم وضعها في صناديق خشبية، وكان في كل صندوق زوجان، وتم تعبئتها بالقش للحفاظ على الماء باردًا ومنعها من الاهتزاز داخل صناديقها.

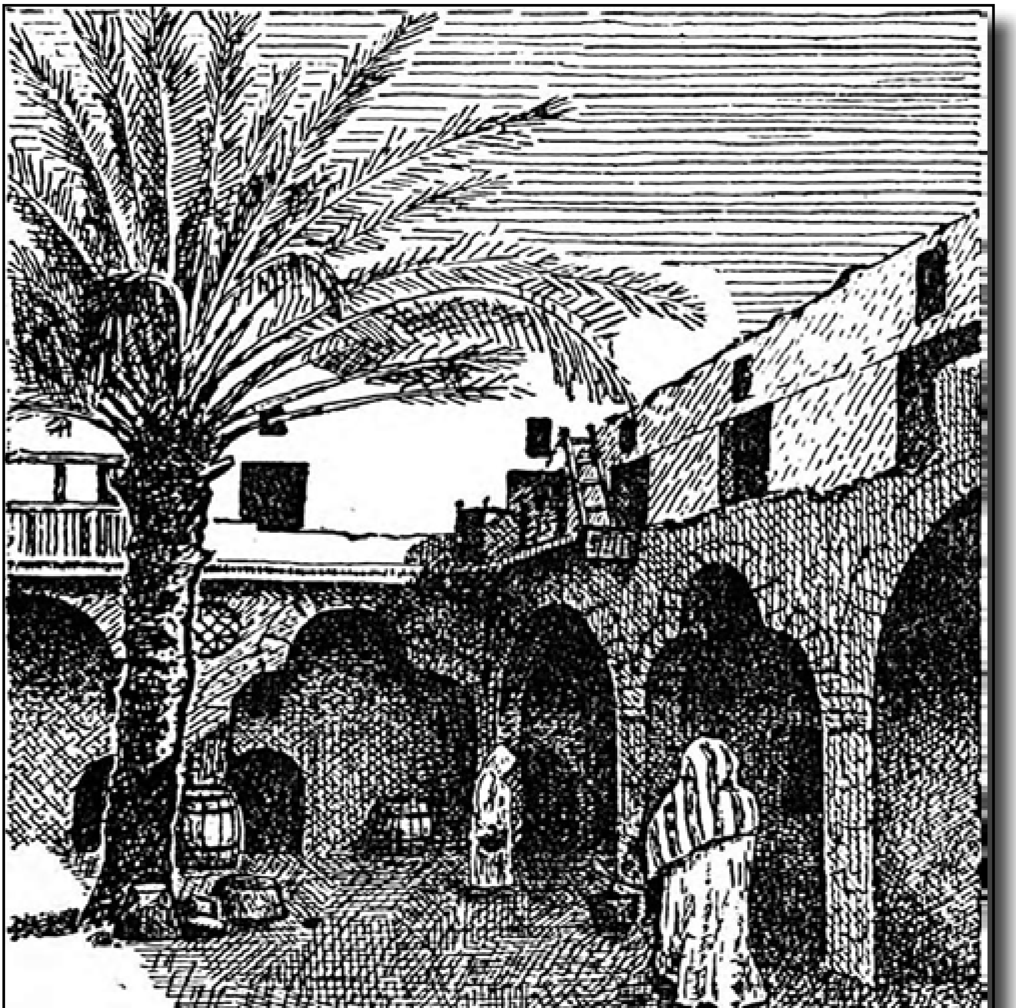
كان كل زوج من الخزانات يحتوي على ما يكفي من الماء للرجال وأنا ليوم واحد، مع هامش بسيط يسمح بالطوارئ. وخلال الرحلة، كان من الممكن ترك أحد هذه الصناديق في نهاية مسيرة كل يوم، مع ما يكفي من الطعام لنقلنا إلى المستودع التالي، في حالة ما إذا وجدنا أنه من الضروري العودة على خطانا. ومع وجود زوج من الخزانات في كل صندوق، شعرت بقدر كبير من اليقين بأنه حتى لو تسرب أحدها وفقد كل محتوياته، فسيظل هناك ما يكفي من الماء في الخزان الثاني ليدوم حتى نصل إلى المستودع التالي. وحتى لو فقدنا جميع الزمزميات والجوربا، فإن هذه الخزانات، حتى عندما تكون ممتلئة، كانت ذات وزن يمكن أن يحمله رجل بسهولة أثناء مسيرة اليوم. وعندما تكون فارغة، يمكن التخلص منها.

ذهبت إلى أسيوط لتجميع قافلة للرحلة، وتعاقدت مع شقيق ل"عبد الرحمان"، يدعى "إبراهيم"، كما حصلت على دهب للرحلة. انضم إلي قوي و"عبد الرحمان" في أسيوط، وأقمنا في خان قديم خلاب في المدينة الأصلية، وهكذا اكتملت مجموعتنا. لقد أثبتت المحاولات التي بذلتها للعثور على مرشد يعرف أجزاء الصحراء وراء الحدود السنوسية مرة أخرى أنها بلا جدوى.

ترددت في البداية في اصطحاب "إبراهيم" إلى الصحراء، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنني، مثل العديد من الشباب السودانيين، وجدته صعب المراس إلى حد ما، ويحتاج إلى قدر كبير من التدريب والتمرن، ولكن السبب الرئيسي وراء ترددي هو أنه لم تكن لديه خبرة كبيرة في التعامل مع الإبل، نظرًا لعمله لبعض الوقت كخادم منزلي في واحة الخارجة. وفي النهاية، كان ما دفعني إلى اصطحابه هو إحدى تلك القشات الصغيرة التي كثيرًا ما تخبرنا عن اتجاه الريح عند التعامل مع السكان الأصليين.

ذات مرة، أثناء تحميل جمل استعدادًا للانتقال إلى المخيم، بدأت الأمتعة تنزلق من على ظهره، فقام "إبراهيم"، كما هي العادة مع البدوي في مثل هذه الظروف، باستدعاء مساعدة شفيعه على الفور من خلال الغناء، «يا سيدي عبد السلام».

القديس الذي يلجأ إليه المواطن في هذه الحالات هو [133] هو في الغالب الشخص الذي أسس طريقة الدراويش التي ينتمي إليها، وهذا عبد السلام بن مشيش، لإعطائه اسمه الكامل، كان مؤسس الدراويش المشيشية وربما لا يزال معروفًا لدى المسلمين



الخان القديم في أسيوط.

بشكل أفضل باعتباره المعلم الديني للشيخ الشاذلي، أحد أشهر علماء الدين المسلمين.

إن المبدأ الأساسي للمشيشية هو الامتناع عن السياسة، وهي صفة مفيدة للغاية يجب أن يتحلى بها الخادم عند الذهاب إلى بلاد السنوسيين. وقد تبنت الطريقة الشاذلية وكل فروعها العديدة تقريباً نفس المبدأ، كما تبنته مجموعة من الدراويش الذين انفصلوا عن المشيشية، والمعروفين باسم المدنية، المدنية القديمة، وليس المدنية الجديدة، التي تختلف عن المدنية الجديدة.

[134] وكان شقيق "إبراهيم"، "عبد الرحمان"، يستحضر عبد القادر الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية الكبرى من الدراويش، التي يعتبر أتباعها، كقاعدة عامة، أقل المسلمين تعصباً.

ولكنني سرعان ما اكتشفت أن "قوي"، رغم احتجاجاته الشديدة على حماسه، كان يعرقل استعداداتي، وظهرت عليه علامات الخيانة التي لم ألحظها عليه من قبل. والأسوأ من ذلك أنني وجدته يتواصل سراً مع أحد أعضاء الزاوية السنوسية في قصر الداخلة، والذي جاء إلى أسيوط لسبب غير مفهوم، ويبدو أنه كان على اتصال دائم به. وكل هذا يشير إلى بعض التعاملات غير المشروعة مع السنوسيين، الذين كانوا يعارضون دائمًا أي محاولة لدخول بلادهم، عادة عن طريق العبث بمرشدي المسافر.

توصلت إلى أنه من الأفضل أن أراقب سلوك مرشدي عن كثب أكثر مما فعلت من قبل.

وبعد أن أنهيت جميع الترتيبات في أسيوط وأرسلت القافلة بالطريق البري إلى الخارجة، انطلقت بنفسي بالقطار.

وفي محطة قارة على خط الواحات الغربية، وجدت نمر شقيق الشيخ "سليمان". فأحضر لي رجلاً سودانياً أسود اللون، طوله مائة وتسعون سنتيمترًا تقريباً، وكان نحيل البنية إلى الحد الذي جعل وزنه لا يتجاوز إحدى وخمسين كيلوجرامًا. وكان اسمه «عبد الله أبو ريشة»، وهو اللقب الذي أطلق عليه بسبب نحافته الشديدة. ومع ذلك فقد كان يتمتع بسمعة طيبة باعتباره أحد أفضل المرشدين في الصحراء، وكان يطلبه الناس دائمًا كلما نزلت قافلة لجمع النطرون من بئر النطرون، حيث كانت هناك دائمًا فرصة كبيرة للاصطدام بالبدو. واقترح علي نمر أن أتخذه مرشداً، وبدا عليه خيبة الأمل الشديدة عندما أخبرته أنني قد استعنت بالفعل بقوي. ومع ذلك فقد وعدته بأن أضعه في اعتباري، وإذا أردت مرشدًا آخر في أي وقت، فسوف أكتب إلى الشيخ "سليمان" وأطلب منه أن يرسله إليّ.

أخبرني نمر بالأخبار غير السارة إلى حد ما وهي أن البدو الذين كانوا يرعون جمالهم في واحة الداخلة، كانوا جميعًا يعودون مرة أخرى بحيواناتهم إلى [135] لقد كان الأمر بمثابة تهديد لسلامة وادي النيل، حيث وردت أنباء عن قدوم أحد تجار الحشيش واللصوص المعروفين باسم عبد العاطي لشن غارة على الواحة. وبما أنني كنت أتوقع أن أتمكن من استئجار بعض الإبل من هؤلاء العرب في الواحة، لتكملة قافلتي الخاصة عندما بدأت رحلتنا التي استغرقت خمسة عشر يومًا، فقد كانت هذه الغارة المهددة مصدر إزعاج إلى حد ما، وبدا من المرجح أن تفسد خططي إلى حد ما.

كان عبد العاطي هذا شخصية معروفة في الصحراء، وإذا كانت نصف التقارير عنه صحيحة، فلا بد أنه كان شخصية مخيفة للغاية. كان مطلوبًا بشدة من قبل حرس الحدود (فيلق الهجانة)، حيث كانت إحدى مهنه الرئيسية تهريب الحشيش (القنب الهندي)، والتي أثبت فيها أنه الأكثر نجاحًا. عندما كانت الأعمال من هذا النوع راكدة، كان ينغمس أحيانًا في بعض أعمال السرقة، ربما لمجرد الحفاظ على يده.

كان "إبراهيم" يكن الإعجاب المعتاد لرجل خارج عن القانون، وهو الإعجاب الذي يبديه الشباب في مثل سنه في مختلف أنحاء العالم، وكان عبد العاطي قدوته، وكان يعبد الأبطال بالفطرة. وكان يعلن أنه بطل خارق، وأنه يمتلك بندقية قادرة على حمل قافلة في رحلة تستغرق ساعتين، أي ثمانية كيلومترات تقريبًا، وأنه لا يخاف أحدا، حتى من فيلق الهجانة.

وعندما سمعت عن عبد العاطي في المرة التالية، وجدته مشغولاً للغاية في طرابلس بالقتال ضد الإيطاليين، ويبدو أنه حقق نجاحًا كبيرًا بالفعل. وفي النهاية أطلق عليه فيلق الهجانة النار.

وصلت قافلتي إلى الخارجة بعد يوم أو يومين من وصولي، بعد أن عبرت الصحراء قادمة من أسيوط عبر طريق يدخل إلى الواحة في نهايتها الشمالية.

وفي الخارجة، التقيت بالشيخ "سليمان"، وبما أنني كنت أقيم بالقرب من خيمته، فقد ركبت حصاني وقضيت معه أمسية. وبالطبع رافقني قوي على أمل الحصول على وجبة مجانية، ولكن الشيخ استقبلني ببرود شديد، وعامله باحتقار شديد. تناولنا العشاء، الذي كان يتكون من الخبز والعسل الأسود والبيض المسلوق، ثم تناولنا القهوة والسجائر. وبعد ذلك جلسنا لبعض الوقت وتحدثنا.

«من الأفضل أن تتخذني دليلاً بدلاً من "قوي" اقترح الشيخ "سليمان" فجأة.

[136] رفع "قوي" نظره بسرعة إلى الأعلى، وكان من الواضح أنه منزعج للغاية، وأصبحت الأجواء الاجتماعية مشحونة بالكهرباء بشكل واضح.

أوضحت أنني لا أستطيع القيام بذلك لأنني وجدت أن "قوي" مرشد ممتاز في العام السابق، وقد وقعت بالفعل اتفاقية لتعيينه مرة أخرى للموسم. أضاف "قوي" بعض الاعتراضات التي لم أستطع فهمها، لكن جوهرها على ما يبدو كان أن الشيخ "سليمان" لم يكن يلعب اللعبة .

ضحك الشيخ وقال: يا مليش، إذا كنت تريد مرشدًا آخر، فاكتب لي رسالة، وسأرسل لك "عبد الله" أبو ريشة. إنه رجل طيب، أفضل من قوي.

بدأ "قوي" في الرد بغضب، فضحك منه الشيخ "سليمان". وبما أن المقابلة كانت على وشك أن تتحول إلى عاصفة، فقد اغتنمت الفرصة الأولى للعودة إلى المخيم.

أصر الشيخ على تقديم وجبة الإفطار لي في الصباح التالي. وللمرة الأولى، تلاشى صوت قوي أثناء تحضير الإفطار والشاي. بدا وكأنه رأى الشيخ "سليمان" بقدر ما أراد في تلك اللحظة.

نزلنا في حوالي الساعة العاشرة صباحًا، وبعد مسيرة قصيرة نصبنا مخيمنا في وقت مبكر من اليوم عند قصر لبخة، وهو عبارة عن حصن صغير مربع الشكل مبني من الطين على أساس حجري، وله أبراج دائرية في الزوايا الأربع، وكلها في حالة جيدة إلى حد ما من الحفظ. كانت الجدران في أعلى البرج مزدوجة، مع نوع من ممر الحاجز حول القمة، والذي ربما كان في الأصل ممرًا جداريًا سقط سقفه.

ومن قصر لبخة واصلنا المسير حتى عين أم الدباديب. وكان طريقنا يقع في الغرب تقريبًا، موازيًا لجرف الهضبة على يميننا، وتبين أنه ليس طريقًا جيدًا على الإطلاق، حيث كان مليئًا بالتلال وكان الطريق صعبًا للغاية بسبب الرمال المتناثرة. كما تسببت الإبل أيضًا في الكثير من المتاعب.

لقد تبين أن القافلة ككل كانت أسوأ ما امتلكته على الإطلاق. ولكن كان هناك استثناء واحد. فقد كان وحشًا شديد القوة من السودان، وكان يبدو من المستحيل تقريبًا أن أثقل كاهله. وأعتقد أن «القشة الأخيرة» التي كانت لتقصم ظهر البعير لم تكن لتنمو. ولكن مثله كمثل أي شيء آخر، كان من الممكن أن ينهار هذا البعير. [137] كان يتمتع بمهارات قتالية عالية، وكان دائمًا يحاول عض الوحوش الأخرى وكان «آكلًا للبشر» بالتأكيد.

إن عين أم الدباديب مكان أكبر كثيرًا من قصر لبخة. وفي وقت زيارتي، كان يسكنه رجلان وأسرتاهما من أهل قرية خارجة، وكانوا يعودون إليها أحيانًا، تاركين هذه الواحة الصغيرة لتعتني بنفسها. ومثل قصر لبخة، كان المكان في الأصل محميًا بقلعة، ويبدو أيضًا أنها تعود إلى العصر الروماني. ويمتد طريق قديم من الشمال الغربي من عين أم الدباديب، ويؤدي إلى الجرف إلى الشمال من الواحة عبر ما يبدو من الأسفل أنه ممر صعب. وكنت أنوي في وقت لاحق أن أعود وأحاول العثور على هذا المكان، ولكن للأسف لم تسنح لي الفرصة. يقول الإسبان إن الجحيم ليس مرصوفًا بالنوايا الحسنة فحسب، بل إنه مسقوف أيضًا بالفرص الضائعة، وربما، في إهمالي اكتشاف ما يكمن وراء ذلك الجرف، أضفت حجرًا صخريًا إلى المناطق الجهنمية، لأنني أعتقد أنه من المحتمل جدًا أن يكون هناك منخفض على الجانب الآخر منه يحتوي على بئر عين حمور، لا ينبغي الخلط بينه وبين عين أمور، أو ربما مكان يسمى عين إمباريس.

الفصل الثالث عشر

وصلنا إلى واحة الداخلة في الثالث والعشرين من يناير، وبقينا لمدة يوم في المنطقة المغطاة بالشجيرات، والتي يمر بها الطريق قبل الدخول إلى الجزء المأهول من الواحة، على أمل الحصول على فرصة لإطلاق النار على غزال. وبينما كنا نخيم هنا، أرسل عمدة تينيدا، وهي أقرب قرية، والذي كان سيئ السمعة في جميع أنحاء الواحة بسبب شراسته، حارسًا ليليًا ليلاً بعد حلول الظلام، ليتجسس علينا، وبعد التأكد من هويتنا، ابتعد بعناية عن الطريق، لتجنب الاضطرار إلى دعوتنا لتناول وجبة، وفقًا للعادات المضيافة في الواحة! [138]

وبما أن صيد الغزلان، بسبب بعض البدو المرتبكين، الذين كانوا يخيمون في الجوار ويتجولون في كل مكان، بدا لي بمثابة إهدار للطاقة، فقد انتقلت في اليوم التالي إلى قرية بيلات.

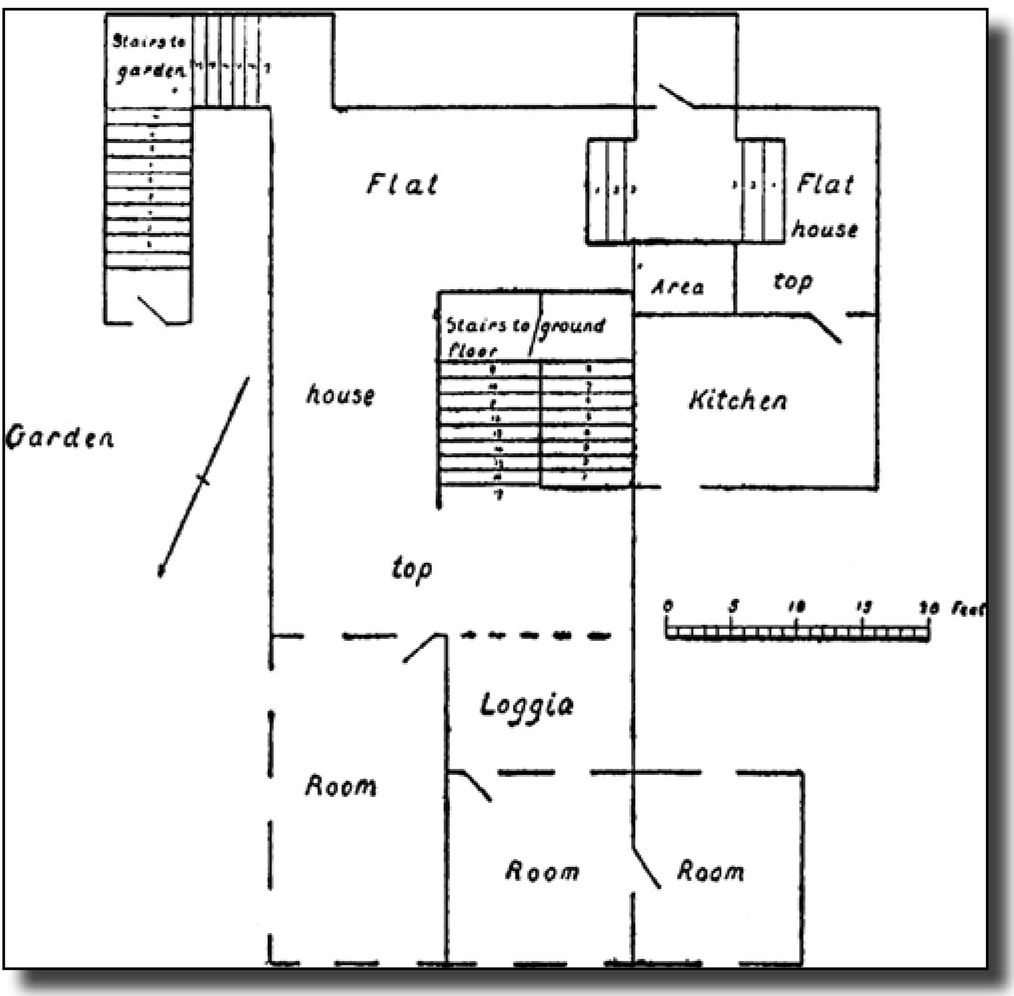
لا يُزرع في الواحة إلا القليل جدًا من الشعير بما يتجاوز ما يحتاجه السكان، ولكن عندما سمعت أن العمدة لديه مخزون كبير منه وأنه كان يحاول بيعه دون جدوى، حاولت شراء بعضه منه.

ولكن لسوء الحظ، فقد "اتبع [العمدة] الشيخ"، وتمكن "قواي"، مواصلاً أساليبه المعرقلة التي اتبعها في أسيوط، من استمالته سرًا، وكانت النتيجة أنه عندما فاتحته في الأمر، أعلن العمدة أنه لم تبقَ في القرية حبة قمح واحدة – "ولا حبة".

تلا ذلك مشهد عاصف بحق، انتهى برضوخ العمدة وإخراجه حوالي ربع طن من القمح الغائب، والذي اشتريته منه بسعر باهظ.

بعد ذلك، وبخته توبيخًا شديدًا، ثم عفوت عنه بلطف، وأذبنا ما بيننا من عداوة باحتساء الشاي كالمعتاد. لم أكن مستاءً تمامًا[139] من هذه الصفقة، فقد شعرت بأنني لقنت العمدة درسًا لن ينساه لبعض الوقت. ولكن في هذا، وكما تبين من مجريات الأحداث لاحقًا، كان مقدرًا لي أن أصاب بخيبة أمل مريرة – فمتاعبي بشأن علف الجمال كانت قد بدأت للتو.

وفور وصولنا إلى "موط"، توجهت على الفور إلى مكتب البريد بحثًا عن رسائل، وحين وجدت أن الطابق العلوي للمبنى شاغر، رتبت لاستئجاره طوال فترة إقامتي في



الطابق العلوي من مكتب البريد

الواحة. وتبين أنه مسكن أفضل بكثير من المخزن القديم الكئيب المسكون بالعقارب، ولم أجد أي سبب للندم على هذا التغيير.

كان الرجل الذي كان يعتني بحديقة مكتب البريد من المشاهير المحليين. لم يكن سوى عازف الطبول الأعمى الذي كان يرأس الفرقة الموسيقية عندما كان هناك حفل زفاف في المنطقة. وكان أيضا مناديًا للبلدة، [140] التقيت به كثيرًا في الشوارع، حيث كان ينادي بالخبر الذي كلف بنشره بعد أن يضرب طبلته لجذب الانتباه.

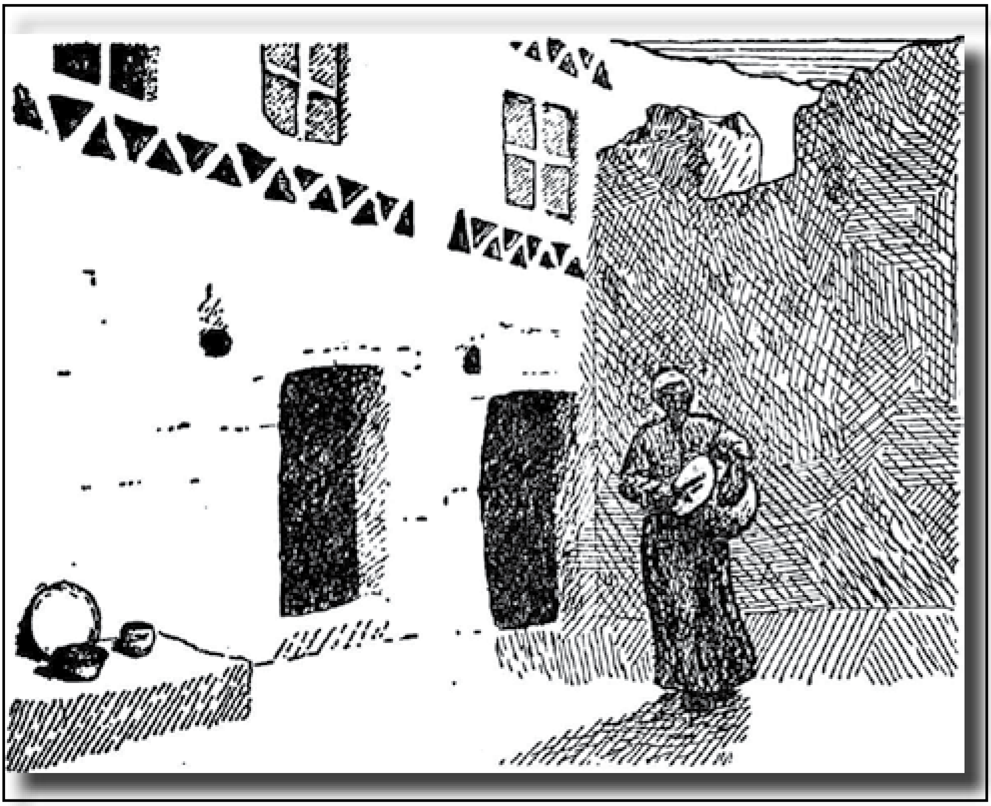
ومن الغريب أنه كان يتمتع بسمعة طيبة باعتباره أفضل مزارع للخضروات في الحي، وكان طلبه على خدماته كبستاني كبير نتيجة لذلك. كان مغرمًا بالزهور، وكان يُرى دائمًا وهو يحمل وردة أو غصنًا من أزهار الفاكهة في يده، وكان يشتم رائحتها باستمرار أثناء سيره في الشوارع. ذات مرة، عندما التقيت به بالصدفة، لا بد أن مخزون الزهور قد نفد، لأنه كان يستنشق بشغف واضح رائحة البصل اللذيذة!

لا بد أن إحساسه بالمكان كان رائعًا، فقد كان يتنقل في الشوارع بسهولة تقريبًا كما لو كان يتمتع ببصر كامل. بدا أن النباتات من جميع الأنواع كانت هاجسًا بالنسبة له. كان يجلس القرفصاء بجانب فراش من الخضروات الصغيرة التي زرعها، ويتحسس النباتات بتمرير يديه بسرعة فوق التربة، وعندما يجد نباتًا، كان يلمسه برفق ليرى كيف ينمو. بهذه الطريقة كان يفحص بسرعة كل نبات على حدة في الفراش، ويعلق أحيانًا على نمو نبات معين منذ آخر مرة لمسه. من الواضح أن فقدان بصره قد سرع بشكل كبير من قدراته الأخرى، لأنه كان بإمكانه العثور على أي نبات يريده دون صعوبة، ويبدو أنه لديه ذاكرة مثالية للحالة التي تركها عليها آخر مرة، ولم يخطئ أبدًا في هويتها، كما قيل لي. كانت الابتسامة الممتعة التي أضاءت وجه الأعمى الصبور، عندما كانت حراسه في حالة جيدة، مثيرة للشفقة .

أثناء إقامتي في مكتب البريد، كانت جمالي تسكن على بعد تسعين مترًا تقريبًا، في مساحة مفتوحة تحت مظلة الجدار الطيني المرتفع الذي يحيط بالمدينة، بالقرب من المكان الذي تم فيه عمل فجوة للسماح بمرور حر إلى الزراعة خلفه. تبين أن اختيار هذا الموقع كمكان لتخييم الجمال كان مؤسفًا، لأن المنطقة كانت مسكونة. قيل إن رجلاً قُتل بالقرب من هناك أثناء قطع شجرة، وكان شبحه، أو كما قال البعض غول، يظهر هناك كثيرا.

[141] وبعد ليلة أو ليلتين من وصولنا، جاء "إبراهيم"، الذي كان ينام هناك وحده مع الجمال، إلى غرفتي، بينما كنت أخلد إلى النوم، وأعلن أنه لم يكن خائفًا على

الإطلاق، ولم يبدو مضطربًا على الإطلاق، ولكن عفريتًا ظل يرمي كتّلًا من التراب على الجمال، مما منعها من النوم، لذلك اعتقد أنه من الأفضل أن يأتي ويخبرني بذلك.
جاءت الكتّل من فوق الجدار، وفي عدة مرات اندفع حول الزاوية، من خلال



منادي المدينة الأعمى، مدينة "موط".

الفجوة، لمحاولة رؤية العفريت الذي كان يرميها، لكنه لم يتمكن من القيام بذلك، لذلك أراد مني أن أنزل وأعتني به.
نادرًا ما تتاح الفرصة لأحد لمقابلة شبح حقيقي، لذا أخذت شمعة ومسدسي وذهبت إلى حظيرة الجمال. أراني "إبراهيم" كومة من الكتّل التي ألقيت في النهر والتي جمعها بنفسه، لا بد وأن عددها كان عشرة كتّل على الأقل، وأراني الاتجاه الذي جاءت منه الكتّل.

لقد كان الأمر غريبًا إلى حد ما. على الجانب الآخر من [142] كان الجدار عبارة عن مساحة مفتوحة مسطحة، ولم يكن هناك مكان على مرمى حجر حيث يمكن لأي إنسان أن يختبئ. انتظرت لبعض الوقت لأرى ما إذا كان سيتم إلقاء المزيد من الكتل، ولكن نظرًا لعدم وجود أي منها، طلبت من "إبراهيم" بصوت عالٍ أن يطلق النار على أي شخص يراه وأعطيته مسدسي، ثم أخبرته بنبرة منخفضة أنه لا ينبغي له إطلاق النار على الإطلاق، ولكن إذا جاء أي شخص فقد يهدد بذلك.

كان "إبراهيم" راضيًا . لم يكن امتلاك المسدس هو ما طمأنه بقدر ما كان حقيقة أنه مصنوع من الحديد، والأفريت، كما هو معروف بالطبع، يخافون من الحديد!

لم يُلق أحد المزيد من التراب في تلك الليلة، ولكنهم بدأوا مرة أخرى في المساء التالي، وما زال "إبراهيم" غير قادر على رؤية الجاني. لقد أصبح الأمر مزعجًا وكان لابد من وقفه. لم يكن من المجدي الذهاب إلى المسؤولين المحليين؛ كانوا على استعداد للتصديق على قصة العفريت أو الغول مثل أي من سكان الواحة الأصليين، لذلك قررت أن أتعامل مع المسألة بنفسي.

في فترة ما بعد الظهر، توجهت أنا ودهب، حاملًا إناءً من الجير الأبيض وفرشاة، ومعي أداة قياس الزوايا والتقويم البحري، إلى مكان الحادث المسكون. كتبت على الحائط «سليمان» و«الحديد» باللغة العربية، ورسمت عينين بشريتين تغمضان عينيهما بنظرة شيطانية، وشيطانًا صغيرًا، ورسمًا تخطيطيًا لتكوين أقمار المشتري، مأخوذًا من التقويم البحري، وهو تصميم يشبه إلى حد كبير القبالة. ثم حركت أداة القياس في كل اتجاه، وأخيرًا لمست كل العلامات التي رسمتها على الحائط به بدوره.

بحلول ذلك الوقت، تجمع حشد صغير يتابع الإجراءات باهتمام كبير. كانت أداة قياس الزوايا، التي يبلغ طولها ست بوصات والمجهزة بأفق ريفي اصطناعي، أداة مذهلة لا يمكن لأي ساحر أن يضاهيها.

طلبت من دهب أن يشرح للحشد أنني وضعت للتو تعويذة على الحائط، وإذا كان عفريتًا هو الذي يرمي الكتل، فإن الكلمات «سليمان» و«الحديد»، بالإضافة إلى تأثير أقمار المشتري، ستكون كافية لردعه. [143] أما إذا كان إنسانًا هو من يلقي هذه الكتل، فإن الشيطان الصغير ذو العينين المتوهجتين سيتعامل معه على الفور.

الشيطان الذي وصفته كان عفريتًا إنجليزيًا صغيرًا خبيثًا بشكل خاص، وكنت أسيطر عليه. إذا ألقى أي شخص المزيد من التراب على جداري، فسوف أرتب الأمور بحيث يتسلل هذا الشيطان، في هيئة عفريت أسود صغير، إلى أنفه أثناء نومه، ويغرس

الطرف المتشعب من ذيله في دماغه ويهزه باستمرار، مما يسبب له عذابًا شديدًا حتى يصاب بالجنون بعد بضع سنوات. ثم يضرب بقدميه المحمرتين مؤخرة عينيه حتى تخرجا، وبعد ذلك يموت الجاني في عذاب رهيب.

في طريق العودة، قال دهب إنه يعتقد أن التعويذة (الطلسم) الخاصة بي تبدو جيدة جدًا، لكنه لا يؤمن بنظرية العفاريت على الإطلاق.

«عفريت؟» قال بلهجته الإنجليزية المضحكة. «أبدًا. «إبراهيم» رجل طيب جدًا، لكن هناك امرأة في الداخلة سيئة للغاية، مثل القار. إنها تريد التحدث مع «إبراهيم». من المحتمل جدًا أن هذا هو السبب.

لكنني أوقفت الشبح على أية حال. ولم يعد أحد يلقي بالتراب على جداري.

الفصل الرابع عشر

حدث تغيير كامل في المسؤولين في الواحة منذ آخر مرة زرناها. جاء الطبيب الجديد، ويدعى "عيسى"، لزيارتي في اليوم التالي لوصولي. كان قبطيًا. [144]

كان ينتمي إلى عائلة ثرية تمتلك أراضٍ واسعة في ضواحي أسيوط.

كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة تقريبًا، ومثله كمثل العديد من المصريين كان لغويًا بالفطرة. أعتقد أنه كان مرتاحًا بنفس القدر للتحدث بالفرنسية والألمانية. ولأن عائلته كانت ميسورة الحال، فقد حصل على تعليم ممتاز، وتلقى جزءًا منه في إنجلترا ودول أوروبية أخرى.

كان، مثل كل المصريين الذين تلقوا تعليمًا في أوروبا، مزيجًا مثيرًا للاهتمام من الشرق والغرب، وكان مزيجًا غريبًا للغاية. كان يتحدث بعلم شديد عن الطب، ويبدو أنه درس بشكل خاص بعض الأمراض المحلية مثل «حمى الضنك» و»البلهارسيا». وكلما أتيحت له الفرصة، كان يروي لي قصصًا مفعمة بالحيوية عن حياته كطالب طب في أوروبا.

لكنه كان أيضًا باحثًا متحمسًا عن الكنوز، وكان موضوع حديثه المفضل هو علوم الغيب والسحر، وكان يؤمن بهما إيمانًا عميقًا كإيمان المصري الأصيل. لقد شكل هو و»الشيخ السنوسي» أحمد الموهوب وعمدة رشيدة نوعًا من الشراكة للبحث عن الكنوز، واتفقوا على تقسيم أي شيء يجدونه بالتساوي بينهم.

أخبرني كثيرًا عن عائلة موهوب من الزاوية السنوسية في قصر الداخلة. وقال

إنهم أهملوا عملهم الديني من أجل كسب المال، ولم يتبق لهم سوى خمسة تلاميذ في الزاوية في قصر الداخلة، بعد أن كان لديهم أعداد كبيرة في السابق. الشيخ محمد الموهوب، الذي تجاوز عمره 85 عامًا، لم يكن لديه سوى 100 طالب. [145] قال إنه بدأ رحلته إلى الكفرة قبل سبعين عامًا، ومعه خادم وثلاثة رجال أرسلوا من تلك الواحة لإحضاره.

زعم عيسى أنه جمع معلومات من مصدر مجهول عن كنز مخبأ في أماكن عديدة داخل الواحة أو بالقرب منها. أحد الأماكن التي قال إنه وجد فيها الكنز كان معبدًا حجريًا يقع على بعد ثماني عشرة ساعة بالسيارة إلى الغرب من قرية الجديدة. التقيت لاحقًا بأحد السكان الأصليين الذي قال إنه ركب جواده ووجد هذا المكان، لذا من المحتمل أن يكون المعبد موجودًا بالفعل، وليس الكنز. من الواضح أنه كان مصابًا بهوس البحث عن الكنوز.

كان، بطبيعة الحال، يمتلك «كتاب الكنز». ووفقًا للكتاب، في المثلث بين موط ومسرة وعزبة الشيخ مفتاح، يوجد مبنى قديم من الطوب على أساسٍ من الحجر الأبيض ومغطى بقبة، يُعرف باسم دير العرائس. لقد رأيت هذا المكان لاحقًا. يذكر الكتاب أنه تحت القبة يوجد سلم من سبع مجموعات من الدرجات، وفي أسفله ممر طوله سبعة أذرع. في نهاية الممر يوجد رسم لراهب على الحائط، كما اعتقد ويصا. يقول الكتاب أن هناك حلقة حديدية مغروسة في الأرض بالقرب من قدميه، وبسحب الحلقة سيظهر باب، وهو ما استنتج عيسى أنه باب سري. أسفل هذا الباب توجد مجموعة من الدرجات التي يجب النزول منها دون خوف، بحسب الكتاب. في أسفل الدرج توجد غرفة صغيرة دفن فيها ملك.

يرتدي الملك خاتمًا ذهبيًا في إصبعه، وهو خاتم سحري، وإذا غُمر في الماء وأُعطي لشخص مريض، فإنه يشفى على الفور، بغض النظر عن طبيعة مرضه. وفي الغرفة أيضًا ساعة تعمل إلى الأبد، بالإضافة إلى عجلة لرفع المياه تحتوي على سر زرزورة.

بعد أن تعرفت عليه بشكلٍ أفضل، اقترح ذات يوم أنه «بينما كنت أبحث عن زرزورة»، يجب أن ننضم معًا للبحث عن دير العرائس. وعرض عليّ الاحتفاظ بالساعة الرائعة والساقية وأي كنز آخر قد نجده، إذا سمحت له بالحصول على الخاتم. كان واثقًا من أنه بمساعدة ذلك الخاتم السحري سيصبح [146] أعظم طبيب في العالم! ومع ذلك، كان هذا الرجل حاصلاً على دبلوم من مستشفى قصر العيني، وقضى عاما في مستشفى سانت توماس، وستة أشهر في الروتوندا، وستة أشهر أخرى في دراسة

الطب بين باريس وجنيف، وكان يريد علاج مرضاه بخاتم سحري!

عندما غادر الداخلة، ونظراً لأنه كان طبيباً محلياً موهوبًا بشكل غير عادي، تم تعيينه في الأقصر. وهناك وقع في مشكلة. أصيبت أخته بالطاعون، فأخذها عيسى إلى منزله دون إخطار السلطات، كما كان ينبغي له أن يفعل، ويبدو أنه أهمل أبسط الاحتياطات الصحية. وآخر ما سمعته عنه كان، ربما بطبيعة الحال، في حالة من العار مرة أخرى، وكان في طريقه للحصول على تعيين في السلوم، حيث يتم إرسال المخالفون من أمثاله عندما لا يكون هناك مكان لهم في الواحات.

كل هذا يوضح فقط الفوائد التي لا تقدر بثمن التي يمكن أن يجنيها مواطن ذكي بشكل غير عادي من التعليم الأوروبي الباهظ الثمن!

لقد لاحظت عدة مرات في موط رجلاً يرتدي زيًا يشبه زي العرب من طرابلس، ويرتدي بطانية صوفية طويلة، لكنني لم أتمكن أبدًا من إلقاء نظرة جيدة عليه لأنه كان يتجنبني دائمًا. في إحدى المرات، عندما رآني أقترب، استدار وتسلل حول الزاوية ليبتعد عن طريقي.

في أحد الأيام، التقيت بعيسى وسألته عما إذا كان يعرف هذا العربي المغربي، فأجاب بأنه ليس عربيًا على الإطلاق، بل هو من أهل سمنت في الداخلة، وأنه ساحر محلي تحدث معي عنه كثيرا، وأنه يرتدي الزي الطرابلسي فقط للتأثير، لأن العرب الغربيين مشهورون بأنهم أفضل السحرة.

كان هذا الرجل عضواً في حركة السنوسيين، أو كما كان يُقال عادة: «كان يتبع الشيخ». اكتشفت أنه كان يقيم مع «الشيخ السنوسي»، كاتب موط، ومن قبيل المصادفة الغريبة أن «قوي» كان يعيش أيضا في نفس المنزل.

استنتجت أن قوي كان في وضع الضيف المكرم، فكلما رأيته تقريبًا كان يسهب في الحديث عن لطف «الشيخ السنوسي» معه. في بعض الأحيان كان يكاد يكون عاطفيًا بشأن هذا الموضوع، معلناً أنه كان بمثابة أخ له. كان سبب هذه العاطفة [147] واضحًا، وهو أن الجمل الذي كان يفتخر به كان يتغذى على دهون الأرض، وكان يحصل على كميات غير محدودة من الشاي. هذا التقارب بين قوي والسنوسيين، بالإضافة إلى الطريقة السرية التي كان يتم بها ذلك، جعلني أشك في أن هذه الضيافة الباذخة كان لها هدف خفي، على الرغم من أنه كان من الصعب معرفة ما كانوا يخططون له.

كانت هناك أيضًا علامات تشير إلى أن السنوسيين كانوا يحاولون التقرب من رجالي

الآخرين. عندما ذهبت ذات صباح لإلقاء نظرة على الإبل، رأيت عربيًا قبيح المظهر، مليئًا بالجدري، يتسلل في الفناء الذي نقله إليه «عبد الرحمن» لحمايته من الرياح، أو العفاريت. ظل يتجول خلف الوحوش ويتجه نحو مدخل الفناء، محاولًا على ما يبدو تجنب رؤيتي. عندما ناديته وتحدثت معه، أخبرني أنه جاء من «الشمال»، وحاول إعطاء الانطباع بأنه غادر أسيوط مؤخرًا.

لكن بعد أن سألت «عبد الرحمن» عنه لاحقًا، اكتشفت أنه كان أحد رجال الشيخ أحمد، وأنه نزل من عزبته مسؤولاً عن جملين في مهمة غامضة لم تتضح طبيعتها . وعندما أشرت إلى أن «عبد الرحمن» يبدو وكأنه وغد سيئ السمعة، بدأ في مدحه بصوت عال.

تمكنت من استخلاص معلومة مفيدة منه، وهي أنه نظرًا لأن معظم الإبل التي كانت بحوزة السنوسي قد ذهبت مع موهوب العجوز في رحلته إلى الكفرة، فلم يتبق لهم في الواحة سوى ثلاثة إبل فقط. كان هذا خبرًا سارًا إلى حد ما، حيث كنت أخشى أن يخرجوا ويعبثوا بالمستودعات التي كنت أعتزم إقامتها في الصحراء.

الفصل الخامس عشر

بمجرد أن أصبحت الإبل في حالة جيدة، أرسلت قوي و"عبد الرحمن" و"إبراهيم" مع القافلة المحملة بالحبوب، والتي كان من المقرر أن يودعها السودانيان في جبل البايض، التل الذي وصلنا إليه في نهاية رحلتنا الأخيرة في الموسم السابق.

لم يكن "إبراهيم" معي على الإطلاق في الموسم السابق، وبما أن "عبد الرحمن" لم يكن حتى في مرمى بصره من التل (إذ أرسلته إلى موط لجلب المزيد من الماء في الرحلة التي وصلتها)، فقد رتبت أن يركب معهم قوي حتى حافة الهضبة، حيث كان عليه أن يعطي "عبد الرحمن" توجيهات ليأخذه إلى جبل البايض. ومع ذلك، كان عليه هنا أن يترك القافلة ويركب غربًا على طول الهضبة ويعود ليخبرنا بما رآه.

بعد أن اتبع "عبد الرحمن" التوجيهات التي أعطاها له قوي، وجد بسهولة جبل البايض، وترك الحبوب لتشكيل مستودع في الجوار. وعاد قوي نفسه إلى القافلة في طريق العودة قبل أن يصل إلى موط، فعادوا جميعًا معًا.

بالطبع، لم يفعل "قوي" أي شيء عمليًا. كان من الصعب أن أرى أفضل طريقة للتعامل معه. كان بإمكاني بالطبع أن أفصله، لكن الحلول الجذرية نادرًا ما تكون

الأفضل، وكان القيام بذلك سيصب مباشرة في مصلحة السنوسيين، لأنه كان مرشدًا رائعًا وكانوا سيكسبونه على الفور كمجند مخلص. نظرًا لأنه كان يعرف خططي بالكامل للأسف، فقد بدا أن الخطة الأفضل هي الاحتفاظ به معي وتقييده بطريقة لا يمكن أن يسبب بها أي ضرر. في ظل هذه الظروف، اعتقدت أنه من الأفضل إرسال رسالة إلى الشيخ "سليمان"، أطلب منه أن يسمح لي بـ "عبد الله" وأفضل مأوى يمكنه العثور عليه. على أي حال، سيضمن هذا وجود مرشد لي إذا أخطأ "قوي"، وأملت من خلال إثارة القليل من الاحتكاك بيني وبينه أن أتمكن [149] من جعل "عبد الله" يراقب تصرفاته.

بعد فترة وجيزة من عودة القافلة، غادر المأمور، فذهبت لتوديعه. وفي الطريق نظرت إلى الحظيرة التي كانت تؤوي الجمال، ورأيت مرة أخرى راعي الجمال الذي كان يحمل آثار الجدري على جسده يختلط برجالي، ورأيته يضع جماليه في الحظيرة المجاورة.

عندما وصلت إلى منزل المأمور، وجدته في حالة من الإثارة الشديدة. فقد نسي أو أغفل موظف البريد الذي كان سيسافر معه إحضار أي جمال لأمتعته. كان المأمور في حالة يرثى لها بسبب هذا، وقال إنه قد يضطر إلى إرسال مواشيه إلى وادي النيل قبل أن يتمكن من المغادرة، وأنه من المقرر أن يصل إلى هناك بنفسه في غضون ستة أيام.

كانت هذه فرصة ثمينة لا يمكن إضاعتها. أخبرته [المأمور] بوجود جملين رائعين بشكل غير عادي في الساحة المجاورة لقافلتي، واقترحت عليه، بصفته مسؤولًا حكوميًا عائدًا إلى النيل في مهمة رسمية، أن لديه السلطة لمصادرة الجملين وسائقيهما، وأن يفعل ذلك. فما من موظف محلي صغير يستطيع مقاومة إغراء مصادرة أي شيء يحق له [مصادرته] في منطقته - فهذا من بقايا الحكم العثماني الفاسد القديم. تحمس المأمور للفكرة وغادر بعد فترة وجيزة مصطحبًا معه جمّالًا متجهمًا للغاية واثنين من أجود الجمال التي يملكها السنوسيون. وشعرت بارتياح كبير وأنا أرى نهاية ذلك الوغد المجدر ودوابه، فرحيلهم ترك السنوسيين بجمل واحد فقط حتى غضون شهر تقريبًا، وهو الموعد المقرر لعودة موهوب العجوز من الكفرة. عدت إلى غرفي وأنا أشعر بأنني أنجزت عملًا جيدًا هذا الصباح، ومنعت بفعالية السنوسيين من الوصول إلى المستودع الذي كنت أقيمه بالقرب من جبل البيض.

عبد الله، الذي كنت قد طلبت من الشيخ سليمان إرساله، لم يحضر في اليوم الذي توقعته؛ ولكن بعد يوم أو يومين، وصل نمر، شقيق الشيخ سليمان، إلى موط لإنجاز بعض الأعمال وجاء لزيارتي. كان متأنقًا بملابس فخمة، ومعه مسدس وسيف مرصع

بالفضة، وبدا بدويًا نموذجيًا—وقد تصرف كذلك بالتأكيد. شرب حوالي جالون من الشاي، وأكل نصف رطل[150] من الحلقوم والجزء الأكبر من كعكة أعدها دهب، واختتم ذلك، عندما قدمت له علبة سجائر ليأخذ واحدة، بأخذ حفنة منها. ثم غادر، معلنًا أنه كان مسرورًا جدًا (مبسوط) مني ووعد بإرسال عبد الله في أقرب وقت ممكن، وأن يحرص على أن يكون لديه هجين جيد. وبينما كان ينزل الدرج استدار، وبدا عليه الاستمتاع، وسأل كيف تسير أموري مع قواي!

في أحد الأيام، بينما كنت أرتدي ملابسي، سمعت "قوي" في الأسفل يحيي صديقًا قديمًا له بأسلوب ودود ومحبب للغاية، ثم سمعته يصحبه إلى الطابق العلوي. نظرت من خلال النافذة، فرأيت أن "عبد الله" قد وصل أخيرًا. طرق "قوي" الباب، ولم ينتظر مني أن أجيب، ودخل، وقد بدت عليه علامات الرضا والسعادة على ما يبدو بقدوم الوافد الجديد، لقد كان ممثلاً جديرًا بالإعجاب.

بدا "عبد الله" أطول وأكثر نحافة من أي وقت مضى. مع قبعة من القش محلية الصنع على مؤخرة رأسه وخصره النحيل مشدودًا بإحكام بحزام جلدي، بدا وكأنه فتاة في نحافته. لكن لم يكن هناك أي شيء أنثوي في "عبد الله"، كان نحيفًا إلى أقصى درجة.

كان يحمل مطرقة ذات ماسورتين ممتازتين، وبندقية قاذفة مكسورة في الجزء الصغير من المقبض، ولكن مع تثبيت الكسر بشكل دائري بألواح من الصفيح وربطه بإحكام بالأسلاك. كانت سروجه لا تشوبها شائبة، وكانت معلقة بالجرار الفخارية المعتادة والحقائب الجلدية لإمداداته الغذائية.

كان "عبد الله" رجلاً عجوزًا قويًا لا يخشى أي قدر من العمل الشاق. طلبت منه أن يصعد على ظهر جمله وأن يريني مهاراته. أرجح "عبد الله" إحدى ساقيه، التي بدت بطول أربعة أقدام، فوق ظهر سرجه وجلس على الفور منتصبًا في المقعد. ركل جمله في أضلاعه وجعله يركض على الفور. كانت السرعة التي تحرك بها ذلك المخلوق البدائي بمثابة اكتشاف مذهل وينبئ بقدرته على الكشافة. كان بلا شك فارسًا ممتازًا للغاية.

لكن عندما طلبت منه أن يخلع السرج، وجدت، كما هي الحال غالبًا مع الإبل البدوية، أن ظهر الجمل كان مؤلمًا. كان هناك موضع خام متقيح أسفل السرج على جانبي العمود الفقري.

[151]ونظرًا لأن مهمة صعبة كانت أمام عبد الله، توجب عليّ الاطمئنان على علاج جمله قبل انطلاقه، فذهبنا إلى طبيب جديد، كان قد جاء ليحل محل "ويصا"، لشراء

بعض اليودوفورم والقطن، وشرعنا في مداواة الهجين. ولكن كان من الواضح أن الأمر سيستغرق بضعة أيام حتى يلتئم [الجرح].

ومع ذلك، لم يُحدث هذا فرقًا في نهاية المطاف. فالقافلة لم تتمكن من الانطلاق لأن أربعة أرادب[3] من الشعير كنت قد طلبتها من "بلاط"، لم تصل أبدًا. أصبحت مسألة الشعير خطيرة؛ ولكن بمشقة إرسال الرجال ليجوبوا "موط" من بيت إلى بيت، تمكنت من شراء كميات صغيرة، بضعة أرطال في كل مرة، حتى جمعت ما يقارب ثلاثة أرادب، وهو ما كان عليّ أن أكتفي به في الوقت الراهن.

بعد أن التئمت قروح هجين عبد الله بما فيه الكفاية، أرسلتُ القافلة بأكملها مجددًا إلى الصحراء. كان على عبد الرحمن وإبراهيم، كما في السابق، نقل المؤن إلى المستودع في جبل البيض. أما مهمة عبد الله فكانت التقدم أمام القافلة، متبعًا التوجيهات التي سيعطيها له عبد الرحمن، إذ خشيت أن يضلله قواي، حتى يصل إلى جبل البيض. هناك، كان عليه أن يتسلق قمة التل، ومن هناك يمكنه رؤية التل الذي لمحته عن بعد في الموسم السابق. وكان هذا التل يقع عمليًا على نفس الامتداد من "موط" كجبل البيض نفسه. بعد تحديد اتجاهه بهذه الطريقة، كان عليه المضي قدمًا إلى التل الأبعد، وتسلقه أيضًا، وتدوين ملاحظة بأي شيء يمكن رؤيته من القمة. ثم كان عليه – شريطة ألا تكون المنطقة أمامه مأهولة – أن يواصل السير مجددًا لأبعد مسافة يستطيعها على نفس الاتجاه قبل العودة إلى الداخلة.

سألت "عبد الله" عن المسافة التي يظن أنه سيتمكن من الوصول إليها. فقال بنبرة واقعية إنه يعتقد أنه يستطيع أن يقطع مسافة أربعة أيام أو ربما أربعة أيام ونصف اليوم بعد جبل البايض قبل أن يعود أدراجه. ولأنه سيكون وحيدًا في صحراء غريبة، فقد شككت إلى حد ما في قدرته على الوصول إلى جبل البايض، لكنني لم أكن أعرف "عبد الله" آنذاك.

لم يكن هناك الكثير ليفعله "قوي" حقًا، ولكن، بما أنني اعتقدت أنه من الأفضل إرساله إلى الصحراء لإبعاده عن الأذى، أخبرته أن يركب غربًا مرة أخرى على طول الهضبة.

[152] كان "قوي" هادئًا إلى حد ما. فقد أزعجه وصول "عبد الله" إلى حد كبير، على الرغم من جهوده لإخفاء الحقيقة. اعترض بشدة على ذهابه أمام القافلة للاستطلاع، لكنني رفضت تغيير الترتيب. لذا، للحفاظ على "عبد الله" في مكانه، قام "قوي"، بالطريقة المتعجرفة المعتادة للعرب عند التعامل مع السودانيين، بحجز علبة ماء

خاصة به لاستخدامه الخاص. وعندما سمعت بهذا، ذهبت إلى حظيرة الإبل وأعدت "عبد الله" علبته، وركبت إلى "قوي" أمام جميع الرجال. وبعد أن زرعت القليل من الخلاف في القافلة، أخبرتهم أنه يتعين عليهم البدء في الصباح.

عدت مرة أخرى في وقت لاحق من اليوم، فوجدت جميع السودانيين يحلقون رؤوسهم على يد حلاق القرية، ويوضعون على مؤخرة أعناقهم كؤوس، استعداداً لرحلتهم. وقد زعموا أن هذه الكؤوس تمنع الدم من رؤوسهم وتقويهم!

كان الحلاق يقوم بهذه العملية، حيث كان يقوم بعمل ثلاث أو أربع شقوق في قاعدة الجمجمة على جانبي العمود الفقري، ثم يضع الطرف العريض من قرن البقرة المجوف في اللحم، ثم يضغط عليه بقوة من خلال فتحة صغيرة في رأس القرن، ثم يبصق الدم الذي استخرجه بهذه الطريقة. بدا الأمر وكأنه طريقة غير صحية.

كان السودانيون جميعهم داكني البشرة للغاية. حتى أن "عبد الرحمن" و"إبراهيم" كانا يعانيان من بقع سوداء أو بنية داكنة على اللثة. أما ألسنتهم وأكف أيديهم فكانت وردية اللون. وكان "عبد الله" أكثر سمرة. جاء إلى غرفتي في المساء بعد الحجامة وأعلن أنه مريض. لم يكن هناك ما يعيبه، باستثناء أنه يريد حبوباً وقطرات للعين لأنها كانت



سوفوت.

تآكل الرمال يؤدي إلى ظهور شفرات حادة من الصخور مما يسبب ضرراً بالغاً للأقدام الناعمة للجمل. (ص 87).



النزول إلى واحة الداخلة.

كان ارتفاعٍ هذا الجرف مئات الأقدام، لكن الرمال كانت تتجمع عليه مما جعل النزول سهلاً. (ص 36).



طريق مصنوع.

الطرق المُشَيَّدة غير معروفة عمليًا في الصحراء. حُفِرَ هذا الطريق على جانب المنحدر، وكان يؤدي إلى موقع واحة مجهولة، يُقال إن كنزًا كان مخفيًا فيها (ص 205).

متوفرة مجانًا. لكنني تظاهرت بفحصه، وقياس درجة حرارته، وجس نبضه، ثم طلبت منه أن يريني لسانه.

كانت نتيجة طلبي المتواضع مذهلة إلى حد ما. فقد أخرج نحو ست بوصات من الجلد الأسود، ورأيت أن لسانه كان أسودًا تقريبًا، بل ولثته وراحتي يديه أيضًا. لقد كان هذا أوضح دليل على وجود سواد في جلد إنسان رأيته على الإطلاق.

الفصل السادس عشر

عادت القافلة، وعلى متنها "عبد الرحمن" و"إبراهيم"، منهكة ولكنها آمنة. فقد تسربت المياه من أربعة خزانات على الأقل من الخزانات التي أخرجوها، وكان لزامًا عليهم إعادتها. وكان عليهم أن يركضوا عائدين إلى منازلهم في مسيرات نهارية وليلية طوال الطريق، لكنهم تمكنوا من الوصول إلى هناك بسلام. لقد حالفنا الحظ بشكل غير عادي في هذه الرحلة. [153]

وبما أن "عبد الله" لم يأتِ إلا بعد يومين، فقد بدأت أخشى أن يكون قد حدث له شيء. فقد وصل بجمله في حالة مروعة. فقد ظهرت القروح على ظهره، والتي بدت وكأنها قد شُفيت عندما بدأ، مرة أخرى وكانت أسوأ بكثير مما كانت عليه عندما وصل إلى موط لأول مرة.

قال إن جمله كان في حالة سيئة للغاية، لدرجة أنه لم يتمكن من القيام بنصف ما كان ليفعله لو كان جواده في حالة جيدة، وكان منزعجًا جدًا بشأن ذلك بالفعل. لقد اتبع تعليمات "عبد الرحمن" ووجد جبل البايض دون صعوبة. لقد صعد إلى القمة وشاهد التل الثاني وراءه. ثم ذهب نحوه، وكان جمله في حالة سيئة للغاية بالفعل، لمدة يوم ونصف عبر صحراء سهلة، وبعد ذلك عبر حزامًا من الكثبان الرملية استغرق عبوره حوالي ساعة. ثم بعد نصف يوم آخر تمكن من الوصول إلى التل الثاني وصعد إلى قمته. إلى الجنوب والجنوب الغربي كانت هناك صحراء مفتوحة بدون كثبان رملية، تنحدر نحو الغرب، مرصعة بالتلال وتمتد بعيدًا بقدر ما يستطيع رؤيته. إلى الشمال، كان قادرًا على رؤية الجرف الواقع جنوب الهضبة. الممر الذي نزلنا منه إلى «وادي الضباب» كان مرئيًا بوضوح، على الرغم من أنه كان على بعد مائة وعشرين ميلاً. بعد ذلك، قال إنه لم يعد بإمكانه تحمل جمل بهذا البؤس، لذلك قرر أن يركب جملاً آخر [154] واضطر إلى العودة. لقد كان آسفًا جدًا لأنه لم يفعل سوى القليل.

لم يخطر ببال هذا السوداني البسيط قط أنه قام برحلة رائعة للغاية. فقد تصرف فقط

بناءً على التوجيهات التي أعطاها له "عبد الرحمن"، وانطلق بمفرده، إلى صحراء قاحلة خالية من الماء، لم يعرفها على الإطلاق، ومعه جمل مصاب بألم شديد في الظهر، وكان يركب على سرج أمتعة فقط (فقد انكسر سرج ركوبه قبل البداية)، لكنه قطع في ثلاثة عشر يوماً مسافة، كما يطير الغراب، تبلغ حوالي أربعمائة ميل، والأمر الأكثر إثارة للدهشة أنه اعتذر عن عدم تمكنه من فعل المزيد! لقد حصل على بعض البخشيش الذي فاجأه، وأثار اشمئزاز قوي الذي لم يحصل على أي شيء.

إن حقيقة أن "عبد الله" رأى الممر المؤدي إلى «وادي الضباب» من أعلى التل الذي وصل إليه (جبل "عبد الله" كما أطلق عليه الرجال) تظهر أن التل كان مرتفعاً بشكل كبير، لأنه وجبل البايض والممر كانوا يقعون على خط مستقيم عملياً، وكانت الصحراء هناك مستوية للغاية. كان ارتفاع قمة الممر حوالي 1700 قدم، وكان الجرف نفسه حوالي 250 قدماً. لكن لم يكن من الممكن رؤيته من قمة جبل البايض، الذي كان ارتفاعه 2150 قدماً، بسبب ارتفاع منخفض في الأرض. سيظهر الرسم البياني البسيط أنه نظراً لأنه كان مرئياً فوق هذا التل من قمة جبل "عبد الله"، فلا بد أن يكون ارتفاع الأخير 2700 قدم على الأقل.

بالطبع، ورغم أن قوي كان يمتطي جواده بمهارة، إلا أنه لم يفعل أي شيء عملياً. ولا شك أنه كان والسنوسيون متعاونين. فقد كان يطلب الإذن دائماً بالذهاب إلى أماكن مثل هنداو، وسمنت، وقلمون، حيث كنت أعلم أن السنوسيين لديهم زوايا، وكان الشيخ العفريت في سمنت و"الشيخ السنوسي" الشاعر في موط صديقين حميمين له، وكلاهما عضو في السنوسية.

كان السنوسيون يشكلون دائماً مصدر إزعاج للمسافرين الراغبين في دخول بلادهم. ومع ذلك، كان من الصعب معرفة ما يمكنهم فعله. اعتقدت أنهم لن يجرؤوا على فعل أي شيء علانية في الواحة، وبالتخلص من اثنين من جمالهم الثلاثة، كنت أفضل تقييدهم مؤقتاً، بقدر ما يتعلق الأمر بالصحراء. لذلك [155] واصلت استعداداتي لرحلتنا الأخيرة بعقل مرتاح إلى حد ما، مرتكباً الخطأ القاتل المتمثل في الاستخفاف بخصومي.

في البداية، قمت بتعيين صانع الصفيح المحلي لإصلاح ستة خزانات تسرب منها الماء. ثم أرسلت "إبراهيم" في جولة حول المدينة لأرى ما إذا كان بوسعه العثور على المزيد من الأسلحة. وعاد ومعه فأس حربية صغير أنيق، ورمح، ومدفع غازي طوله ستة أقدام مزود بقفل من الصوان. وقد اشتريت كل هذه الأشياء على سبيل التحف.

ثم خرجنا وجربنا البندقية. صحيح أنها أطلقت النار على بعد بضعة أقدام إلى أحد الجانبين، لكن مثل هذه الأشياء الصغيرة لا تعني شيئًا بالنسبة لبدوي. كان الرأي العام للرجال أنها بندقية جيدة جدًا بالفعل. قال "عبد الله" إنه كان في فيلق الجمال ويفهم البنادق، وتعهد بإصلاحها. أغمض إحدى عينيه ونظر على طول السبطانة، ثم أراح فوهة البندقية على الأرض وداس على نصف السبطانة تقريبًا لثنيها. كرر هذه العملية عدة مرات، ثم أعاد البندقية إلى "إبراهيم"، قائلاً إنه يعتقد أنه أصابها بشكل صحيح.

أقمت مباراة رماية بين السودانيين الثلاثة لاختبار ذلك، وكان الهدف علبة لحم فاسدة على بعد ثمانين ياردة. أصاب "إبراهيم" بالبندقية ذات الصوان العلبة برصاصته الثانية وفاز بالقروش العشرة التي عرضتها كجائزة، متغلباً على "عبد الرحمن" و"عبد الله" المسلحين بمشروب المارتيني.

ثم شرعت في شراء المزيد من الشعير لرحلتنا، وواجهت صعوبات على الفور. فأرسلت "عبد الرحمن" و"عبد الله" مع بعض الإبل إلى بيلاط، لكن العمدة أخبرهما أنه باع كل حبوبه، رغم أنهما علما في الواحة أنه لم يتمكن من بيع أي شيء، وما زال لديه مخزون ضخم منه.

بدأ "عبد الرحمن" في إلقاء تلميحات ثقيلة عن «الترتيبات» و«المكائد» التي وضعها السنوسيون، ولكنه رفض كعادته أن يكون أكثر تحديدًا. وعندما أخبرته بصعوبة الحصول على الحبوب، أبدى تعاطفه معي، ولكنه استسلم في تقوى. لقد كانت إرادة الله. ومن المؤكد أن عمدة بيلاط لم يعد لديه أي حبوب، لقد كان يعلم ذلك كحقيقة. وقال إنه سيكون من المستحيل أن أقوم برحلتي التي تستغرق خمسة عشر يومًا بهذه الكمية الضئيلة من الحبوب [156]، وفكر أن الشيء الوحيد الذي علي فعله هو التخلي عن فكرة الأمر .

أخبرته أنني لا أنوي التخلي عن الرحلة تحت أي ظرف من الظروف. كانت الخطة الأخرى الوحيدة التي يمكن أن يفكر فيها هي شراء الحبوب من السنوسيين في قصر الداخل. كان لديهم الكثير، شعير ممتاز. ذكرت هذا لدهب، الذي كان ساخرًا للغاية، وأعلن أنهم لن يبيعوني أيًا منها، أو إذا فعلوا، فسيتم تسميمها، لأنه قال إنه من المعروف أن الموهوبين يفهمون الطب .

وصل المأمور الجديد في الوقت المناسب. كان المأمور السابق، عمر وهابي، قد حاول مساعدتي بعدم الاتصال بي حتى هددته. أما المأمور الجديد فقد سار على نحو أفضل، فقد أرسل في طلبي، وكان لابد من معاملته بقسوة.

يولي أهل مصر أهمية كبيرة لهذا النوع من الأشياء، وقد سرني أن أرى أن معاملتي للموظف تسببت في تحسن كبير في موقف سكان موط تجاهي، الذي كان بعيدًا كل البعد عن الود من قبل.

لابد أن المأمور نفسه قد تأثر إلى حد كبير. اتصل بي وسألني عن رجالي، وسألني عما إذا كانت لدي أي شكاوى ضدهم. أخبرته أن "قوي" يعمل بشكل سيئ للغاية وأصبح كسولًا للغاية، لذلك قال إنه يعتقد أنه قبل أن أبدأ، من الأفضل أن يتحدث معهم على انفراد. كنت أعلم أنني سأسمع من رجالي ما حدث، لذا اعتقدت أن ذلك قد يكون له تأثير جيد على "قوي"، فأرسلتهم في فترة ما بعد الظهر إلى المركز.

عادوا وهم يبدون جديين للغاية. بدا "عبد الرحمن" على وجه الخصوص مذهولًا تقريبًا. سألته عما قاله المأمور. أخبرني أنه سجل جميع أسمائهم وعناوينهم، ثم أخبرهم أنه يجب عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم من أجلي، لأنه على الرغم من أنه لم يكن يعرف بالضبط من أنا، إلا أنني كنت بوضوح شخصًا مهمًا للغاية! كل هذا يوضح مدى سهولة تأثر الفلاح بأي شيء صغير! يجب أن يكون لديه الشجاعة في التعامل مع مواطن.

ثم أعطاني المأمور رأيه في رجالي. وكانت آراؤه بشأن دهب جديرة بالتكرار. أخبرني [157] أنه سأله وتوصل إلى نتيجة مفادها أنه صادق، صادق للغاية، "في الواقع"، قال، "إنه غبي تقريبًا!"

بدأت مقاطعة الشعير تتخذ أبعادًا مثيرة للقلق. فلم يسمع الرجال عن وجود أي حبوب في أي مكان في الواحة، باستثناء بيلاط وتينيدا وماهوبس، وبدا الأمر وكأنني سأضطر إلى التخلي عن رحلتي.

كان بوسعي بالطبع أن أحاول الحصول على بعض الحبوب من الخارجة، ولكن الأمر كان سيستغرق أكثر من أسبوع. وكان من المشكوك فيه أيضًا أن أتمكن من الحصول على الكمية التي أريدها دون الذهاب إلى وادي النيل، وكان ذلك ليضيع أسبوعين على الأقل. لقد كنت في حيرة من أمري ولم أكن أعرف ماذا أفعل.

جاء الفرج المنتظر (Deus ex machina) على هيئة ضابط الشرطة — وهي هيئة غير مألوفة إلى حد ما يتخذها هذا "المُنقِذ" في الواحات. جاء لزيارتي ذات ظهيرة. كنتُ قد بدأت أشعر بملل شديد من حديثه، حين أثار اهتمامي بقوله إنه سيرسل بعض الرجال لجلب الشعير للحكومة من السنوسيين في قصر الداخلة. ومن الطريقة التي كان يتحدث بها دائمًا عن المال ويذُمّ العُمَد "الجشعين"، تيقّنتُ إلى حد كبير أنه لا يُفوّت أي فرصة لتحقيق مكسب شخصي؛ لذا، عندما علمتُ أن السعر الذي سيدفعه هو

سبعون قرشًا فقط للأردب، أخبرته بأنني أدفع مئة وعشرين، وأنني لو اشترى أربعة أرادب إضافية، فسوف آخذها منه بذلك السعر – وتعمدتُ ألا أقدم أي اقتراح بشأن مصير فارق ثمن الشراء.وبما أن التجارة في مخازن الحكومة تعد جريمة جنائية، فقد كنت على يقين تام من أنه لن يخبر السنوسي عن الغرض الذي تم من أجله شراء تلك الأردبيات الأربعة الإضافية.

وكانت نتيجة هذه الصفقة أنني، على الرغم من مقاطعة الشعير التي خطط لها السنوسيون ضدي، تمكنت في نهاية المطاف من البدء مرة أخرى لاستكشاف الصحراء، التي كانوا يحرسون أسرارها بغيرة شديدة، بينما كانت جمالي تترنح حرفيًا تحت ثقل بعض الحبوب الرائعة حقًا، التي اشتروها (لو عرفوا ذلك فقط) من السنوسيين أنفسهم!

كانت خطة الرحلة على النحو التالي: كان علينا أن [158] نغادر الداخلة بكل جمل في القافلة، بما في ذلك القوافل، محملة بأقصى طاقتها بخزانات المياه والحبوب. وفي نهاية كل مسيرة يومية كان من المقرر ترك مستودع صغير، يتكون من زوج من الخزانات الصغيرة التي صنعتها للرحلة، وكمية كافية من الشعير للجمال والطعام للرجال لمدة يوم واحد. لقد حسبت أن تقليل وزن الأمتعة الناجم عن إنشاء هذه المستودعات، بالإضافة إلى الماء والحبوب التي تستهلكها القافلة في الرحلة، سيترك جملين حرين بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى الشجيرات الخمس.

كان من المقرر أن يرافق كل من قوي و"عبد الله" القافلة حتى هذه النقطة، ثم يتقدمان القافلة بعرباتهما المحملة بما يكفي من الماء والحبوب لنقلها إلى المستودع الرئيسي في جبل البايض. وهناك كان عليهما تجديد إمداداتهما، والمضي قدمًا معًا ليوم آخر ثم ينفصلان. كان من المقرر أن يتبع قوي آثار "عبد الله" إلى التل الثاني (جبل "عبد الله" كما أطلق عليه الرجال) الذي وصل إليه السوداني بمفرده في رحلته الاستطلاعية، وكان عليه أن يواصل السير إلى أبعد ما يشعر أنه آمن في نفس الاتجاه، وبعد ذلك كان عليه أن يعود على خطاه حتى يلتقي بالقافلة القادمة على نفس الطريق، حاملاً الماء والإمدادات لإغاثتنا. كانت تعليمات "عبد الله" هي التوجه جنوبًا عندما ينفصل عن قوي لمدة يومين أو ثلاثة أيام إذا أمكن. ثم كان عليه أن يتجه غربًا حتى يقطع مسار "قوي"، الذي كان ينبغي لنا أن نتبعه، ثم يعود عليه حتى يلتقي بالقافلة، التي ستستمر بعد ذلك على طول خط الطريق القديم الذي وجدناه لإكمال رحلتنا التي استمرت خمسة عشر يومًا، وإذا أمكن، الاستمرار حتى نعبر الصحراء مباشرة إلى السودان الفرنسي.

لم أكن أتوقع نتائج عظيمة من رحلة قوي، لكنه كان يعرف الكثير عن خططنا

وكان رجلاً مفيدًا للغاية في الصحراء لدرجة أنه لم يكن من المستحسن تركه خلفنا في الداخلة، حيث كان السنوسيون قد يستفيدون منه كثيرا. كان "عبد الله" مسلحًا جيدًا، ومقاتلاً صحراويًا متمرسًا، وعلى الرغم من مظهره الهزيل، كان رجلاً لن يكون من الآمن الاستهانة به. نظرًا لوجود قدر كبير من الاحتكاك بينه وبين قوي بسبب الموقف العربي المتعجرف [159] تجاه السودانيين بشكل عام، لم يكن لدي خوف كبير من تعاونهما.

كان لدى "عبد الله" أيضًا تعليمات خاصة بمراقبة "قوي"، وبما أنه لم يكن هناك الكثير من الود بينهما، فقد كنت متأكدًا من أنه سيفعل ذلك. وبينما كان "عبد الله" معه في الرحلة إلى المستودع، ولمدة يوم بعد ذلك، شعرت أن "قوي" سيكون عاجزًا. وإذا عاد بعد انفصاله عنه إلى جبل البايض لمحاولة الوصول إلى المستودع، فسوف نسبقه إلى هناك، حيث يجب أن نصل إلى هناك قبله. وبمجرد وصول القافلة إلى المستودع، يجب أن نلتقط كل الماء والحبوب التي تحتويها ونأخذها معنا ونتبع آثاره.

لقد جعلته يعتمد على القافلة، وذلك بإعطائه ما يكفيه من الماء لخمسة أيام فقط لاستخدامه الخاص، ولم أعطه أي ماء على الإطلاق لجمله. وطالما التزم ببرنامجه، فإنه كان آمنًا، حيث كان بإمكاننا أن نسقي جمله بمجرد عودته إلينا. ولكن إذا حاول اتباع أي خطة من خططه الخاصة، فسوف ينفد الماء منه على الفور ويجد نفسه في ورطة.

لقد شعرت أن الاحتياطات التي اتخذتها من شأنها أن تمنع أي محاولة من جانبه للقيام بتصرف غير مشروع. لقد كنت مدروسًا بعناية شديدة في خطتي، واعتقدت أنها كانت تتضمن كل الاحتمالات الممكنة، ولكن «أفضل الخطط التي وضعها الفئران والرجال في كل مكان» - وخاصة عند التعامل مع مرشد سنوسي.

الفصل السابع عشر

في البداية، سارت الأمور على ما يرام. صحيح أن "قوي"، على الرغم من أنه بذل قصارى جهده لإخفاء الحقيقة، كان من الواضح أنه منزعج للغاية من قدرتي على إنتاج الكثير من الشعير. لكن بقية الرجال كانوا في حالة معنوية ممتازة. كان "إبراهيم"، على وجه الخصوص، مع البندقية ذات القفل الحجري المعلقة على ظهره، مسرورا بنفسه مثل أي صبي يحمل بندقيته الأولى. سارت الجمال، على الرغم من حمولتها الثقيلة، بشكل جيد لدرجة أننا وصلنا إلى الشجيرات في مساء اليوم الثاني. [160]

وجدت أن بئرًا كنت قد حفرتها قبل عام من الآن حتى عمق ثلاثين قدمًا دون

أن أجد فيه أثرًا للماء قد امتلأ بالطمي حتى وصل إلى أكثر من نصف عمقه بالرمال. وهنا قطعنا ما أردناه من الحطب، وفي صباح اليوم التالي ترك "عبد الله" وقوي القافلة وانطلقا نحو جبل البايض.

سرت معهم مسافة قصيرة عندما غادروا، لأعطيهم التعليمات النهائية. أخبرتهم أنه يتعين علينا أن نتتبع آثارهم عن كثب. وبعد أن اكتسبت بعض الخبرة في طرق "قوي" المتثاقلة عندما كان يستكشف المكان بمفرده، أخبرته أنه يجب عليه أن يجعل جمله يبذل قصارى جهده، وإذا فعل ذلك فسوف أعطيه بخشيشًا كبيرًا في نهاية الرحلة.

لقد فقد أعصابه على الفور. قال إن الجمل ملك له، ولن أفرض عليه أي قيود، وعليه أن يسير بالسرعة التي يختارها. لم يكن يعمل لصالحي على الإطلاق، بل كان يعمل لصالح الله. ردي الواضح، بأنني في هذه الحالة لن أكون مضطراً لدفع أجره، لم يحسن الأمور على الإطلاق، وانصرف غاضباً. يعلم السنوسيون أتباعهم أن كل لحظة من حياة الإنسان يجب أن تكون مكرسة لخدمة خالقه، وبالتالي، حتى لو كان يعمل لصالح سيد دنيوي، فيجب عليه أولاً أن يضع في اعتباره أن كل شيء في حياته يجب أن يكون في خدمة الله، [161] وواجبه تجاه الله، باعتباره صاحب الحق الأول في خدماته، وهي حجة يسوعية من الواضح أنها تضع قدرًا كبيرًا من القوة في أيدي شيوخ السنوسية، الذين يزعمون أنهم مفسرون لإرادة الله.

كان "عبد الرحمن"، الذي كان يراقب هذا المشهد الصغير من بعيد، يبدو مضطربًا للغاية عندما عدت إلى القافلة. قال إن قوي كان يشعر بالقلق، وكان ذلك سيئًا، لأنه كان ماكرًا للغاية، وتنبأ بأننا سنواجه رحلة صعبة جدا. العرب بطبيعتهم شعب غير منضبط، ويرفضون أي نوع من القيود. يميلون إلى التبجح بموضوع استقلالهم، وسيخبرونك أنهم يريدون أن يكونوا مثل الغزال، أحرارًا في التجول حيثما يحلو لهم، وأن يكونوا أحرارًا مثل الريح التي تهب عبر قفارهم، وكل هذا القبيل، وهذا يجعل التعامل معهم أمرًا صعبًا.

كان "عبد الرحمن" على حق، فقد بدأت الأمور تسوء على الفور تقريبًا. كان اليومان الأولان بعد مغادرة موط باردين، ولكن موجة صقيع اندلعت بعد أن غادرنا الشجيرات وأصبح اليوم حارًا بشكل خانق. ونحو منتصف النهار، تسبب الضغط الداخلي الناجم عن تمدد الماء والهواء في أحد الخزانات في إعادة فتح تسرب تم إصلاحه، وبدأ الماء يتسرب من الفتحة. قمنا بتفريغ الجمل وقمنا بتدوير الخزان، بحيث أصبح التسرب في الأعلى وتوقف التنقيط، لكن سرعان ما بدأ تسرب في خزان آخر تم إصلاحه، وبحلول

المساء كان الماء في معظم الخزانات التي كنت أحملها يتسرب من نقطة واحدة على الأقل، وتسرب العديد منها من مكانين أو أكثر.

عندما كان الخزان يتسرب منه الماء مرة واحدة فقط، كنا قادرين على وقف الهدر بتعليقه بحيث يكون الشق في أعلى الخزان، ولكن عندما كان هناك أكثر من تسرب، كان هذا نادرًا ما يكون ممكنًا. كان أحد الخزانات يتسرب بشدة لدرجة أننا كنا نتناوب على وضع علبة معدنية تحته، وبهذه الطريقة تمكنا من توفير كمية كبيرة من الماء التي كنا نسكبها في قدر.

عند وصولي إلى المخيم، توقفت عن محاولة سد التسريبات [162]. كان فقدان الماء هذا يشكل مشكلة خطيرة. كنت أقيس كل صباح مخصصات اليوم لكل رجل باستخدام علبة صغيرة، وفي مواجهة التسرب من الخزانات، اعتقدت أنه من المستحسن خفض المخصصات بشكل كبير.

أثار هذا احتجاجات عالية من "عبد الرحمن"، الذي أعلن أنه من المستحيل أن يعمل في مثل هذه الحرارة وعلى مثل هذا القدر الضئيل من الإمدادات.

حاولت تهدئته بالإشارة إلى أنني لم أطلب منه القيام بأي شيء لم أكن مستعدًا للقيام به بنفسي، وأنه كسوداني ينتمي إلى عرق يفتخر بقدرته على تحمل المشاق التي قد يواجهها في رحلة صحراوية. لكنه لم يفعل سوى المزيد من الإثارة، قائلاً إنه و"إبراهيم" يقومان بعمل أكثر مما أقوم به، حيث كان عليهما تحميل وتفريغ الجمال والمشي طوال اليوم، بينما كنت أركب أحيانًا. وأضاف أن دهب لا فائدة منه في الصحراء، لأنه طباخ فقط، ويمكنني الاستغناء عنه، ولأننا كنا نعاني من نقص المياه، فمن الأفضل أن نتخلص منه. في النهاية كان يصرخ في وجهي بغضب، ولأنه لم يكن في حالة تسمح له بالاستماع إلى الحجج، ابتعدت عن المخيم إلى الصحراء لأمنحه الوقت ليبرد.

السوداني في قرارة نفسه متوحش، وإذا تصور أنه محروم من ضروريات الحياة، فإنه يميل إلى اللجوء إلى أساليب بدائية، وهو قادر على "التخلص" من أي شخص يقف بينه وبين إمدادات المياه. لقد راودتني صور المشاهد المروعة التي وقعت بين الناجين من غرق سفينتي «ميدوسا» و«مينيونيت»، عندما نفد الماء منهم، والمصير الرهيب الذي لحق بالناجين من حملة فلاترز الكارثية أثناء انسحابهم إلى الجزائر من الصحراء الوسطى. وعندما رأيت "عبد الرحمن" و"إبراهيم" يتشاوران بجدية، شعرت أن الموقف ليس بالأمر الذي يمكن الاستهانة به.

عدت إلى المخيم وأنا أتوقع أن أواجه شيئًا أشبه بالتمرد. اتصلت بـ "عبد الرحمن"

وأخبرته أنه لن يتحدث معي مرة أخرى بهذه الطريقة، وإذا فعل ذلك فسوف أفرض عليه غرامة كبيرة. وقلت له إننا سنجد الكثير من المياه في المستودع في جبل البايض [163] وطمأنته أنه لا يوجد أي سبب للقلق على الإطلاق، ولكن بسبب تسرب المياه من الخزانات، يجب أن نكون حذرين حتى نصل إلى هناك. أخبرته أنني سأساعد في تحميل وتفريغ الأمتعة، وسأمشي طوال اليوم لأثبت أن كمية المياه كافية. أما بالنسبة لدهب، فقد أوضحت له أنه عمل معي لمدة موسمين في الصحراء، وأنه من الخطر جداً أن يعود ويطلب "التخلص" منه مباشرة لمجرد وجود نقص طفيف في إمدادات المياه.

لقد فوجئت كثيراً عندما وجدته نادماً للغاية. قال لي إنني أستطيع أن أشرب كل ما لديه من ماء وكذلك ما لدى "إبراهيم" إذا أردت ذلك، وبطبيعة الحال كان يستطيع أن يتحمل كمية قليلة من الماء أفضل مني، فقد كان قوياً جداً، أما دهب فقد كان رفيقاً ممتازاً وصديقاً له، ولم يكن غاضباً إلا لأنه كان عطشاناً. أخبرته أنه من السهل عليه أن يتحدث، ولكنني أود أن أرى كم من الماء يكمن خلف ما يقوله، لذا تحديته لأرى ما إذا كان يستطيع أن يفعل ذلك بكمية أقل من الماء مما أستطيع. إن مثل هذا العرض الرياضي يجذب عموماً السودانيين أو العرب، وقد قبل تحديي بابتسامة.

وبعد ذلك اعتذر "إبراهيم" عن أخيه، قائلاً إنه كان يتصرف كامرأة.

لقد نجح الشمع الذي وضعته على التسربات في إغلاقها بشكل فعال، ولكن بحلول الظهيرة، أدى ارتفاع درجة الحرارة إلى ذوبان الشمع وسرعان ما بدأت التسربات تتفاقم أكثر من أي وقت مضى، كما انفتحت طبقات الخزانات الأخرى، التي ظلت صامدة حتى تلك اللحظة، بسبب الحرارة. وبحلول نهاية اليوم، كانت كل خزانات المياه التي أملكها تقطر محتوياتها الثمينة على الأرض. فقط الخزانات الصغيرة التي صنعتها للمستودعات ظلت مقاومة للماء.

وبما أن شمع الختم لم يكن فعالاً، فقد قمت بكشطه في المساء، وبما أن التسريبات كانت كلها في طبقات الخزانات، فقد قمت بسدها ببعض مانعات التسرب المصنوعة من مادة الجوتا بيرشا التي أحضرتها معي لحسن الحظ، وقمت بدفعها في الطبقات حيث تسربت بشفرة سكين. لم تتأثر هذه المادة على ما يبدو بالحرارة، ورغم أنها كانت عرضة للتفكك بسبب الاستخدام العنيف، فقد كانت تحسناً كبيراً مقارنة بالشمع. ولكن [164] تم سد التسربات بعد فوات الأوان. فخلال اليومين اللذين كانا مفتوحين فيهما، أصبح أحد الخزانات فارغاً بالكامل تقريباً، وفقدت الخزانات الأخرى جزءاً كبيراً من محتوياتها. ولحسن الحظ، كنت قد سمحت بإمدادات وفيرة من المياه، وكان معظمها

في المستودع في جبل البايض، لذا فبفضل الخزانات الصغيرة التي يمكن الرجوع إليها في حالة الحاجة، كان بوسعنا أن نعتمد على القدرة على الخروج لمدة اثني عشر يوما بدلاً من الخمسة عشر يوماً التي رتبتها، وكنت أتوقع أن تستغرق أكثر من مجرد الوصول إلى العوينات.

واصلنا مسيرتنا، تاركين وراءنا مخزنًا صغيرًا عند كل معسكر حتى وصلنا إلى المخزن الرئيسي. وجدت أنه لم يتم إنشاؤه، كما كنت أعتزم، عند سفح جبل البايض، بل على مسافة نصف يوم تقريباً إلى الشمال منه.

لقد شعرت براحة كبيرة عندما رأيت أن المستودع يبدو منظمًا، لكن "عبد الرحمن" كان يبدو مشبوهاً بشكل واضح، لأنه ترك تفريغ الجمال لـ "إبراهيم" ودهب، وتحرك إلى المستودع وبدأ يتجسس ويبحث في الحي عن آثار.

عاد على الفور بوجه متجهم للغاية، معلنًا أن كمية كبيرة من الماء قد أُفرغت. هرعت إلى المستودع، وأشار إلى بقعتين كبيرتين من الرمال مغطاة بقشرة سميكة على السطح، مما يدل على أن كمية كبيرة جدًا من الماء قد سُكبت. فحصنا المستودع نفسه. كانت أكياس الحبوب سليمة، لكن كل خزان حديدي كبير كان فارغًا عملياً، باستثناء خزان واحد كان ممتلئًا إلى النصف تقريباً. لم يبدو أن الخزانات الصغيرة المخصصة للمستودعات الصغيرة قد تم العبث بها، ربما لأنها كانت ستتطلب بعض الوقت لتفريغها.

كانت المنطقة المحيطة بالمكان الذي تم فيه سكب الماء مغطاة بآثار الأقدام المربعة الضخمة التي خلفتها الصنادل الجلدية التي كان يرتديها "قوي"، مما يوضح أنه هو الذي أفرغ الخزانات. ولم يكن هناك أي أثر للصندل الدائري الذي كان يرتديه "عبد الله" على ذلك الجانب من المستودع.

لقد تتبعنا آثار أقدام "قوي" لمسافة قصيرة. وعلى بعد حوالي مائتي ياردة من المستودع، انضمت إلى آثار أقدام "عبد الله"، وكانت العلامات الصغيرة الأنيقة التي تركها "قوي" واضحة [165]. كانت هناك آثار جمل تغطي آثار أقدام "عبد الله" الأكبر حجماً، مما يدل بوضوح على أن "قوي" كان آخر من غادر. ثم عدت مع "عبد الرحمن" إلى المخيم لاتخاذ قرار بشأن ما هو الأفضل للقيام به.

لقد كان التسرب الشديد من الخزانات التي أحضرناها معنا، إلى جانب كمية المياه الكبيرة التي ألقاها "قوي"، سبباً في جعل الأمر واضحاً أن أي فرصة لتنفيذ الخطة التي كنت أعمل من أجلها لمدة موسمين، أو عبور الصحراء إلى السودان، أو حتى الوصول إلى العوينات، كانت مستحيلة. لقد كانت ضربة قاسية، ولكن لا جدوى من إضاعة

الوقت في التذمر بشأنها.

كان موقفنا سبباً في بعض القلق. أما أنا والرجال الذين كانوا معي، فلم نكن في خطر على الإطلاق. كان من الممكن الوصول بسهولة إلى مدينة موط، بما فيها من إمدادات مائية، في غضون أسبوع تقريبًا، إذ كانت تبعد عنا مائة وخمسين ميلاً فقط، وكان لدينا ما يكفي من المياه معنا وفي المستودعات لنعود إلى هناك.

أما بالنسبة ل"قوي"، فقد شعرت أنه قادر على الاعتناء بنفسه، ولم أشعر برغبة كبيرة في الاهتمام به. كانت الصعوبة تكمن في "عبد الله". من آثاره كان من الواضح أنه لم يكن له يد في إفراغ الخزانات، وكنت أشك كثيرًا في ما إذا كان يعرف أي شيء على الإطلاق عن ذلك. كان تفسير "عبد الرحمن" لما حدث صحيحًا، كما شعرت بالتأكيد. كانت وجهة نظره هي أن "عبد الله"، على الرغم من "قوته الجسدية الكبيرة، كان ضعيفًا في الرأس"، وأن "قوي" تمكن من التخلص منه بحجة ما وبقي خلفنا لإفراغ الخزانات، التي أعادها بعد ذلك إلى أماكنها، على أمل ربما ألا نلاحظ أن هناك أي خطأ.

[166] وبصعوبة بالغة تمكنا من إنزال القافلة من الهضبة إلى الأرض المنخفضة، ثم سلكنا الطريق المؤدي إلى الغرب، تحت الجرف، من أجل مسحه. وكان هذا الجرف يمتد عمليًا شرقًا وغربًا، دون انقطاع أو انخفاض حتى وصلنا إلى حزام من الكثبان الرملية التي تدفقت فوقه، لتشكل صعودًا سهلاً إلى الهضبة، حيث واصلنا الصعود.

في الأعلى، كان حزام الرمال يمر بين تلتين من الحجر الرملي الأسود، وكان من الممكن من قمة إإحدى ميزات هذا الموقع هي الإطلالة الواسعة للغاية على المنخفض. كان من الواضح على الفور أنه لا توجد أي فرصة للعثور على الماء، ناهيك عن واحة، لمدة يومين على الأقل من الرحلة إلى الجنوب، لأنه لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يكسر رتابة السهل المغطى بالرمال أسفلنا. ولأن إمدادات المياه لم تكن كافية لتبرير أي تقدم آخر من موط، فقد اضطررنا إلى العودة، وهو أمر محبط دائمًا.

ولكننا وجدنا علامة تبعث على الأمل. فالممر الذي يؤدي عبر حزام الكثبان الرملية إلى الهضبة، أو "باب الصباح" كما أطلق عليه الشاعر "خليل"، لأننا رأيناه لأول مرة بعد الفجر مباشرة، كان عند سفحه "عالم". وعندما رسمت مسارنا على الخريطة، وجدت أن هذا العالم يقع على خط واحد تقريباً مع الطريق القديم الذي سلكناه في رحلتنا الأولى خارج مدينة "موط"، مما يدل على أن الممر كان النقطة التي يسلكها ذلك الطريق. ومن المؤكد أن المكان الذي يؤدي إليه هذا الطريق يقع بالقرب من أو

على استمرار الاتجاه من الممر إلى المكان الذي رأينا فيه أول "عالمين". وكانت هذه نقطة ذات أهمية كبيرة، حيث بدا أن هناك فرصة ضئيلة للعثور على أي بقايا من الطريق نفسه على التربة الرملية للمنخفض، ما لم نصادف أن نهبط على "عالم" آخر. كان الاتجاه الذي كنا نسير عليه من قبل قصيرًا جدًا لدرجة أنه كان هناك دائمًا خطر أنه بسبب إعاقة الطريق المباشر لبعض المعالم الطبيعية، فإن الجزء القصير منه الذي كنا نسير على طوله لم يكن يسير مباشرة نحو وجهته النهائية.

كان "عبد الله" يعتمد عليّ في إحضار الماء والمؤن، وقد انطلق في رحلة تستغرق ستة أيام، معتمدًا على لقائنا في نهاية تلك الفترة. وبعد أن ذهب إلى أقصى ما يستطيع باتجاه الجنوب، كان عليه أن يقطع طريق "قوي" ثم يركب على طوله عائدًا للقاءنا. لقد خدمني الرجل جيدًا، وعلى أي حال لم أشعر على الإطلاق بميل إلى تركه ليموت من العطش، وهو ما كان سيحدث بالتأكيد إذا لم نخرج للقائه. من الواضح، [166] أنه كان يتعين علينا أن نتتبع مسار "قوي" لنساعده، وهو المسار الذي كان يحمل أيضًا احتمالًا مغريًا للتمكن من الإمساك بـ "قوي" نفسه.

ولكن المياه التي كانت بحوزتنا لم تكن كافية لتمكين القافلة بأكملها من مواصلة مسيرتها معًا، وكان من الضروري للغاية أن نرسلها إلى الداخلة للحصول على المزيد من الإمدادات. وكانت الصعوبة تكمن في معرفة من نرسله. كان هناك دائمًا خطر أن ينقض علينا "قوي" ويحاول الوصول إلى خط مستودعاتنا، ومن المؤسف أنه كان يحمل بندقية مارتيني هنري كنت قد أقرضته إياها. وكانت فكرتي الأولى هي العودة مع دهب بنفسي، حيث كان بإمكاني أن أجد طريق العودة إلى مدينة "موط" دون صعوبة كبيرة، باستخدام بوصلتي إذا لزم الأمر، وكان الطريق سهلًا، والسماح للسودانيين بمواصلة الرحلة لحل مشكلة زميلهما "عبد الله"، ولكن هذه الخطة بدت وكأنها تلقي عليهما أسوأ ما في العمل، إضافة إلى رغبتي في المضي قدمًا لإجراء المسح.

كان بإمكان "عبد الرحمن"، بطبيعة الحال، أن يجد طريقه إلى العودة بسهولة تامة، ولكن على الرغم من أنه كان يحمل بندقية مارتيني هنري، فقد كان رميًا سيئًا، حتى من مسافة قريبة (كان يخطئ في الرمية بسبب الركلة)، وعلاوة على ذلك، كان يقف في رهبة من "قوي" لدرجة أنني كنت خائفًا، إذا التقيا، من أن يكون ثاني أفضل لاعب في حالة المواجهة، حتى مع وجود دهب لدعمه.

لكن "إبراهيم" لم يكن يهتم بقوي أكثر من اهتمامه بعفريت يقذف الحجارة، أو بأي شخص آخر. وباستخدام مدفعه الصواني، الذي صوبه إليه "عبد الله"، كان "إبراهيم"

ماهراً للغاية في التصويب، لكنه كان شابًا ولم تكن لديه خبرة كبيرة في السفر في الصحراء، وكنت أشك كثيراً في قدرته على إيجاد طريقه. ولكن عندما سألته عن هذا الأمر، وبعد تردد بسيط ومشاورة طويلة مع "عبد الرحمن"، أعلن استعداده للمحاولة، وقال شقيقه إنه يعتقد أنه قادر على القيام بذلك.

وفي صباح اليوم التالي، انطلق مع دهب وأسوأ الجملين، حاملين كل الخزانات الفارغة. وكانت تعليماته أن يعود بأسرع ما يمكن إلى مدينة "موط"، وأن يعيد ملء الخزانات، وأن يخرج مرة أخرى بأسرع ما يمكن بقافلة أكبر، إذا استطاع أن يجمع واحدة، وأن يتوسل أو يستعير أو يسرق كل الخزانات وقرب الماء التي يستطيع الحصول عليها في [167] طريق عودته إلى الواحة، وأن يعيدها كلها مملوءة بالماء. أعطيته مذكرة إلى ضابط الشرطة، أخبرته فيها بما حدث وطلبت منه مساعدته بأي طريقة يستطيعها. أعطيته مسدسي الثاني وبندقيتي، في حالة وقوعهما في قبضة "قوي" في الطريق، ثم ودعتهما، على الرغم من وجود قدر كبير من الشكوك حول النتيجة.

كان من الغريب أن نرى كيف أن اكتشاف إفراغ خزاناتنا في المستودع، على الرغم من الصعوبات التي خلقتها، قد أبهج الرجال. لقد زال شعور الترقب. كنا نعرف جيداً ما نواجهه، وأعتقد أن الجميع شعروا بالقوة في مواجهة الأزمة. بدا دهب جاداً بعض الشيء، لكن "إبراهيم"، الذي كان يحمل سلاحاً على كتفه، وتمت ترقيته فجأة إلى منصب مهم كمرشد لقافلة، على الرغم من أنها كانت تتألف من جملين فقط وطاه بربري قديم، كان في أعلى مستويات الروح المعنوية. لقد أوضحت له أن سلامة أخيه و"عبد الله" وسلامتي تعتمد بالكامل على كتفيه القويتين، وأنه لديه فرصة العمر لكسب السمعة التي يطمح إليها البدو كثيراً باعتباره فارساً شجاعاً، وهو الدور الذي كان "إبراهيم" ينوي أن يتقنه، أو يموت. لم يكن لدي أي شك على الإطلاق في نيته في إكمال الأمر، إذا كان ذلك ممكناً. كنت آمل فقط ألا يضل طريقه.

بعد أن ودعته من المستودع في طريق العودة إلى مدينة "موط"، تحولت إلى سائق جمال، ومع بقية الجمال وكل ما نستطيع حمله من ماء، انطلقنا مع "عبد الرحمن" لمتابعة آثار "قوي" لنساعد "عبد الله". وكان "عبد الرحمن" أيضًا على قدر المسؤولية، فبدأ يغني بمرح وبروح معنوية ممتازة. كنت قد أخبرته أنني أريد أن أرى ما إذا كان هو أو "قوي" هو الرجل الأفضل في الصحراء، وكان السوداني الصغير قد قرر أنه سيخرج منتصرا.

كان "عبد الرحمن" متتبعًا ممتازًا. [168] لم تكن هناك رياح تذكر منذ غادر "قوي" المستودع، وكانت آثار الأقدام على التربة الرملية حادة ومميزة كما كانت عندما تم تركها لأول مرة. وبتتبع آثار "قوي"، تمكنا من تجميع تاريخ رحلته دون أدنى شك، وقد أثبتت هذه العملية أنها مثيرة للاهتمام للغاية.

تتبعنا آثاره لمدة ثلاثة أيام، ولم يكن هناك سوى القليل جدًا مما فعله في ذلك الوقت إلا وكشفته آثاره، حتى أن "عبد الرحمن" أشار إلى مكان واحد بصق فيه "قوي" على الأرض أثناء ركوبه على جمله!

لقد تمكنا من رؤية المكان الذي سار فيه وقاد جواده، والمكان الذي ركب فيه مرة أخرى وركب. لقد تمكنا من رؤية المكان الذي سار فيه معها والمكان الذي هرول فيه، والمكان الذي جلس فيه على الأرض بجانبها ونام فيه ليلاً. وعلى طول مساره، كانت الأماكن التي توقف فيها للصلاة واضحة للعيان، آثار يديه المفتوحتين حيث انحنى على الأرض، وحتى العلامة التي وضع فيها جبهته على الرمال ساجدًا. تقام الصلوات الإسلامية في أوقات محددة، وكان "قوي" دائمًا منتظمًا للغاية في عباداته. كانت هذه العادة الصلاةية من أعظم المساعدات لنا، حيث أخبرتنا بالوقت الذي مر فيه بكل نقطة.

كان يسير على قدميه، وكان يقود جمله خلفه، عندما غادر المحطة، حتى وصل إلى أثر "عبد الله". ثم ركب وانطلق إلى الأمام بخطى بطيئة. كما غادر "عبد الله" المحطة سيرًا على الأقدام، يقود مطيته، وكانت آثار جمل "قوي" تتقاطع أحيانًا مع آثاره وتغطيها، مما يدل على أن "عبد الله" ومطيته كانا في المقدمة.

استمر "عبد الله" في المشي حتى تجاوزه "قوي" [169]، وكان من الواضح أن "عبد الله" كان يمشي على قدميه، كما يتضح من آثاره التي كانت تغطي آثار "قوي". وبمعرفة السرعة التي لابد وأن "قوي" قد هرول بها، والتي لابد وأن "عبد الله" كان يمشي بها، وبملاحظة الوقت الذي استغرقناه في السير من المستودع إلى حيث لحق "قوي" بـ "عبد الله"، تمكنا من تقدير أن "قوي" لم يكن ليغادر المستودع إلا بعد أن أصبح "عبد الله" على بعد ميل ونصف تقريبًا، وبالتالي كان بعيدًا جدًا بحيث لا يرى ما كان يفعله.

بعد أن انضم "قوي" إلى "عبد الله"، واصل الرجلان سيرهما معًا حتى وصلا إلى جبل البايض. ولكنهما توقفا هناك وتشاورا معًا لبعض الوقت قبل أن ينفصلا، حيث

كانت الأرض في هذه المنطقة الصغيرة قد دُوست عن كثب عند هذه النقطة. وعند الانفصال، انطلق "عبد الله" راكضًا، كما اتفق، نحو الجنوب، بينما سار "قوي" على مهل نحو التل الثاني، على بعد يومين إلى الجنوب الغربي، أو جبل "عبد الله" كما أطلق عليه الرجلان.

استنتجنا من آثار "قوي"، كما تم تحديدها من خلال أماكن صلاته، أنه لا بد أن يكون أمامنا أكثر من يوم طويل من السفر.

واصلنا تتبع أثره حتى بدأت الشمس تغرب، وعندما توقفنا ليلاً، لم نكن نريد أن نتجاهل أي أثر له في الظلام. وبحلول ذلك الوقت، كنا قد وصلنا إلى أرض غير مستوية، محفورة في تلال يبلغ ارتفاعها حوالي عشرين قدمًا، وقد خيمنا عند سفح أحدها.

على الرغم من احتجاجات "عبد الرحمن" الصادمة، أصررت على القيام بنصيبي من العمل في القافلة. ساعدته في تفريغ الجمال، ثم بينما كان يطعم الحيوانات، أشعلت النار وصنعت الشاي.

عاد "عبد الرحمن" وصنع الخبز، وفتحت علبة مربى صغيرة، وتقاسمناها معًا. ثم صنع "عبد الرحمن" بعض القهوة، وقد أحسن صنعها، وبعد أن تناولت بعض التمر، أخرجت علبة سجائر وجلسنا ندخن على النار. وكانت نتيجة هذه المعاملة غير الرسمية من جانبي أن أصبح "عبد الرحمن" أكثر قدرة على التواصل.

كانت آراؤه هي آراء البدوي النموذجي. لقد أبدى استياءه الشديد من الطريقة التي تصرف بها "قوي". وقال إنه لو كنا قافلة من الفلاحين لما كان ذلك ليحدث [170]. لقد كان الأمر سيئًا للغاية، ولكن أن يتصرف مرشد على هذا النحو معنا نحن الذين نعرف النجم، كان ذلك، في رأيه، بمثابة الكلمة الأخيرة في الخيانة. إن "معرفة النجم" (النجوم) التي يوجه بها العرب قواربهم في الليل تعني معرفة الطرق الصحراوية، وهو الإنجاز الذي ربما يشكل أقوى توصية ممكنة للبدوي الحقيقي.

أخبرني أنه عندما جمعهم المأمور جميعًا إلى المركز، وجاء دور "قوي" للاستجواب، الرجل الذي اشتكيت منه، سمع اسمه مباشرة، وأخبره أنه لا يحتاج إلى إعطائه المزيد من التفاصيل، لأنه يعرف كل شيء عنه، وأنه يجب الثقة به للقيام بواجبه. لكن يبدو أنه أغفل تحديد ما هو هذا الواجب، وكان المأمور قوميًا.

وعندما سألته عما إذا كان يخشى الذهاب معي بعد "قوي"، ضحك وقال إنه ذكي للغاية كما هو الحال في الصحراء، حيث عاش هناك طوال حياته تقريبًا وكان يسافر

مسافات طويلة بمفرده في كثير من الأحيان. وطالما كان لديه ما يكفي من الماء، فإنه لا يهتم بالمسافة التي يقطعها، بشرط ألا أرغب في اصطحابه إلى مواقعهم السرية. بل إنه تطوع للذهاب معي إلى مكان قريب من بلدهم، حتى أتمكن من تحديد موقعه، بشرط ألا يرى أي آثار لهم قبل الوصول إلى هناك. لقد كان مسرورا للغاية لأنه اكتشف "قوي"، وكان مليئًا بالثقة في قدراته.

ثم بدأ يقص علي بعض تجاربه. ذات مرة خرج إلى الصحراء مع جمل واحد، وعندما تعطل على مسافة بعيدة عن الماء، قام بربط الجمل، وحمله على ظهره، وترك جمله خلفه، وسار إلى وادي النيل. وصل بجمله خاويًا ونصف ميت من العطش، لكنه تمكن من الزحف إلى مجرى مائي، حيث شرب كمية هائلة من الماء حتى تقيأها مرة أخرى على الفور. تمكن من استعارة جمل آخر، استخدمه في نقل الماء إلى الجمل الذي تركه في الصحراء. كان الجمل الأخير قد كاد أن يموت عند وصوله، لكن بعد أن شرب واستراح ليوم واحد، تمكن من العودة إلى بر الأمان.

وقال إنه عندما يعاني العرب من نقص المياه، ولكن جمالهم لا تزال قادرة على السفر، فإنهم يلقون بكل أمتعتهم في الصحراء، حيث لا أحد، باستثناء أسوأ [171] لصوص الحرمين، يقترب منها. يضعون كل مياههم على الإبل ويسيرون طوال الليل والجزء البارد من النهار، ويستريحون في الظل، إن وجد، خلال ساعات الحر، ويستأنفون مسيرتهم بمجرد أن يبرد الجو مرة أخرى في المساء. وبهذه الطريقة، يركبون دوابهم للراحة من حين لآخر، ويمكنهم قطع أربعين ميلاً في اليوم بسهولة تامة لعدة أيام متتالية.

سألته إن كان قد سمع قط عن رجل، في وقت الضيق، يشق بطن جمله ليشرب الماء من معدته، وفقًا للحكايات الصغيرة التي رويت لي في طفولتي. وقد أثار هذا ضحك "عبد الرحمن" كثيرًا. وأشار إلى أنه إذا كانت القافلة في ضائقة شديدة بسبب العطش، فلن يكون هناك أي ماء في معدة الإبل. لكنه قال إنه سمع عن عدة حالات حيث ذبح رجل، وهو في حالة حرجة للغاية، جمله، وشقه، وحصل على الطعام نصف المهضوم في داخله، واستخرج العصارة المعدية منه وشربها. وقال إن هذا السائل كان كريه الرائحة بشكل لا يوصف، لدرجة أنه بالكاد يمكن شربه، ولكن على الرغم من أنه يجعل الرجل يشعر بمزيد من العطش، إلا أنه مكنه من البقاء لمدة يوم آخر بدون ماء.

بينما كنت جالسًا مع "عبد الرحمن" بجوار النار، سمعت صوتًا خافتًا من الغرب بدا وكأنه صوت حجر يُركل من بعيد. كان "عبد الرحمن"، الذي أعتقد أنه كان أصمًا بعض الشيء، عاجزًا عن سماع أي شيء. وضعت أذني على الأرض واستمعت لبعض الوقت،

وأخيرًا سمعت الصوت مرة أخرى، ولكن على ما يبدو من مسافة أبعد من ذي قبل.

بعد أن تركت "عبد الرحمن" مسؤولًا عن الإبل، وأخذت بندقيتي، انطلقت لأرى إن كان هناك شيء يمكن رؤيته. كان القمر خافتًا ومنخفضًا للغاية في ذلك الوقت بحيث لم يكن من الممكن رؤية أي آثار، وكانت الصحراء بأكملها مغطاة بضوء خافت وشبحي جعل من المستحيل رؤية أي مسافة. لذا بعد أن راقبت لبعض الوقت، ولم أسمع أي أصوات أخرى، عدت واستلقيت لأقضي ليلتي على بعد حوالي مائة ياردة من "عبد الرحمن" وإبله.

من الغريب كيف يمكن سماع أدنى صوت بسهولة في هدوء ليلة صحراوية، وكيف يستيقظ المرء بسرعة عند أدنى صوت غير عادي. حوالي منتصف الليل، بدأت في الاستيقاظ. كان صوت جمل بعيد يركض [172] نحو المخيم بوضوح، وكان الجمل يمتطيه بسرعة جنونية. وبحلول ذلك الوقت كان القمر مرتفعًا في السماء، مما جعل الصحراء المحيطة مرئية لمسافة كبيرة، وفجأة رأيت راكبًا وحيدًا يقترب من كتف التلال التي كنا نخيم بالقرب منها، ويرسل جمله بسرعة جنونية.

سمعت على الفور التحدي الحاد والتهديدي الذي وجهه "عبد الرحمن"، ورأيته يرمي ببندقيته إلى الأمام استعدادًا للهجوم. وجاء الرد بصوت أجش منهك، وكان مرضيًا على ما يبدو، حيث دخل صاحب الجمل إلى المخيم، وسقط جمله على ركبتيه، وسقط الرجل، أو بالأحرى سقط، على الأرض.

نادى عليّ "عبد الرحمن" ليسألني من هو، فرددت عليه قائلًا إنه "عبد الله". وبعد أن انحنى لبضع لحظات على هيئته الساجدة، ركض إلى حيث كنت مستلقيًا. قال إن "عبد الرحمن" ورفيقه كانا منهكين للغاية، لكنه أخبره أنه لا يوجد خطر وأننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا قبل شروق الشمس، وبدأ بيانًا طويلاً عن عودة "قوي"، وفي منتصفه نام. ذهبت إلى المخيم لألقي نظرة عليه. كان جسده الطويل الضعيف ممتدًا على الأرض، تقريبًا حيث ترجل، وغارقًا في أعمق نوم. لذا، نظرًا لأنني لم أر أي سبب لإزعاجه، وأردت أن يكون نشيطًا قدر الإمكان في الغد، عدت إلى سريري وتبعته، تاركًا "عبد الرحمن" للمراقبة، حتى أيقظني لأقوم بدوري في الحراسة في وقت لاحق من الليل.

في صباح اليوم التالي، بدا "عبد الله" غائر العينين، وربما أنحف من أي وقت مضى، ولكن بخلاف إصابته بذعر شديد، بدا أنه ليس في حالة أسوأ من جمله، فالسودانيون يتمتعون بقدرات تعافٍ رائعة. ومع ذلك، كانت مطيته في حالة يرثى لها، ومن الواضح

أنه اضطر إلى ركوبها بقوة شديدة، لكنها كانت حيوانًا رائعًا، ولم تبدُ أنها عانت كثيرًا من مجهودها، وكانت مستعدة لإعداد إفطار شهي للغاية.

ومع ذلك، بدا أن أعصاب "عبد الله" قد اهتزت بشدة. لقد تحدث بطريقة غير متماسكة وغير واضحة للغاية [173]. كان حديثه مختلفًا عن حديثه البطيء المعتاد، الطويل إلى حد ما. فقد استرسل كثيرًا في سرد ما حدث، وألقى العديد من الألفاظ المسيئة على "قوي"، حتى أنه كان من الصعب في بعض الأحيان متابعته، وكان على "عبد الرحمن" أن يساعدني أحيانًا في شرح ما يعنيه.

"قوي"، في المستودع، كان يتباطأ كثيرًا في تحضيراته لمغادرة المخيم، حتى أن "عبد الله"، الذي كان يتطلع على الأرجح إلى البخشيش الذي وعدته به، نفد صبره بسبب التأخير. وفي اللحظة الأخيرة، قبل أن يكون مستعدا للبدء، جلس "قوي" بهدوء وأشعل النار وبدأ في إعداد الشاي. احتج "عبد الله" على هذا التأخير، لكن "قوي" أكد له أنه لا داعي للتعجل، وأخبره أنه بمجرد أن ينتهي من تناول الشاي وملء قربته، سيبدأ، واقترح عليه أن يتقدم قبله وأنه سيلحق به.

بعد أن قطع مسافة ما، نظر "عبد الله" إلى الوراء فرأى "قوي" يجر الخزانات، وهو ما بدا له في ذلك الوقت أداءً غير ضروري إلى حد ما، ولكن كما أوضح "قوي"، عندما لحق به، أنه كان يعيد ترتيب المستودع فقط ويضع أكياس الشعير بحيث يكون أكثر فعالية في تظليل الخزانات، فقد تبددت شكوكه. وقبل أن ينفصلا مباشرة، أخبره "قوي" أنه ينوي الخروج إلى أبعد ما يمكن، حتى يكسب بخشيشًا كبيرًا جدًا، وأنه يأمل أن يمضي ثلاثة أيام ونصف أخرى قبل أن يعود أدراجه، ونصح "عبد الله" أن يفعل الشيء نفسه.

خلال معظم اليوم الأول بعد مغادرة "قوي"، ظل "عبد الله" يُقلب الأمور ببطء شديد في "رأسه الضعيف"، وفي نهاية اليوم الثاني، بدأ يدرك أن تأخير "قوي" الطويل في المستودع كان مُثيرًا للشكوك إلى حد ما. لذا، قبل المضي قدمًا على طول طريقه، اعتقد أنه من المستحسن أن يعود ويلقي نظرة على المسار القديم الذي صنعه بنفسه في رحلته السابقة، للتأكد من أن "قوي" كان مُلتزمًا بنصيبه من الترتيب، باتباعه نحو جبل "عبد الله".

عند وصوله إلى مساره، لم ير أي علامة على أن "قوي" قد مر من هذا الطريق، لذلك أصبح مُتوترًا بشكل خطير، وركب عائدًا على طوله على أمل مقابلته. على بعد 1000 متر فقط [174]، وبعد يوم واحد من جبل البايض، وجد المكان الذي عاد منه

"قوي" (والذي أخبره أنه ينوي الذهاب إليه لمدة يومين ونصف آخرين)، مما أقنعه بأن هناك شيئًا خطيرًا للغاية. ثم أصيب على ما يبدو بالذعر وعاد مسرعًا على طول مساره للتأكد من أننا سنخرج لمقابلته وأن المستودع لم يتعرض للعبث.

وقال إن "قوي" عاد على نفس المسار لمسافة ما، حتى أصبح في مرمى بصره جبل البايض، وعندها انحرف نحو الجانب الغربي من التل، على ما يبدو بهدف تجنب القافلة، التي كان يعلم، وفقًا للاتفاق، أنها ستتبع مسار "عبد الله" على جانبها الشرقي.

لقد خطر ببالي أنه بما أن أثر "قوي" كان يقع إلى الغرب من معسكرنا، فإن الأصوات التي سمعتها خلال المساء السابق من ذلك الاتجاه ربما كانت ناجمة عنه أثناء مروره بجانبنا في الظلام، لذلك أرسلت "عبد الرحمن" ليرى ما إذا كان يستطيع العثور على أي شيء، بينما قمت أنا و"عبد الله" بحزم وتحميل الجمال.

عاد "عبد الرحمن" في سعادة غامرة ليعلن أنني كنت على حق في تخميني، وأنه وجد أثر "قوي"، فبدأنا في تتبعه. وإلى الغرب من المخيم كانت هناك سلسلة من الأرض تقع بين موقعنا وآثار "قوي"، وربما منعتني هذه السلسلة من رؤيته، وكان من المؤكد أنها كانت ستجعل من المستحيل عليه أن يرى إما نحن أو نيراننا.

لقد مر بنا "قوي" على مسافة كبيرة، حيث استغرقنا واحدًا وعشرين دقيقة للوصول إلى مساره، مما يدل على الطريقة غير العادية التي تحمل بها حتى أدنى الأصوات في الصحراء في ليلة هادئة.

وبينما كنا نتتبع مساره، ناقشنا الموقف. وكان من الواضح أنه بما أن "قوي"، عندما غادر المستودع، لم يكن لديه سوى خمسة أيام من المياه في الخزانين الصغيرين اللذين أعطيته إياهما، فسوف يضطر قبل فترة طويلة إلى تجديد إمداداته من خزاناتنا، حيث كان قد أمضى بالفعل ثلاثة أيام بعيدًا عن المستودع.

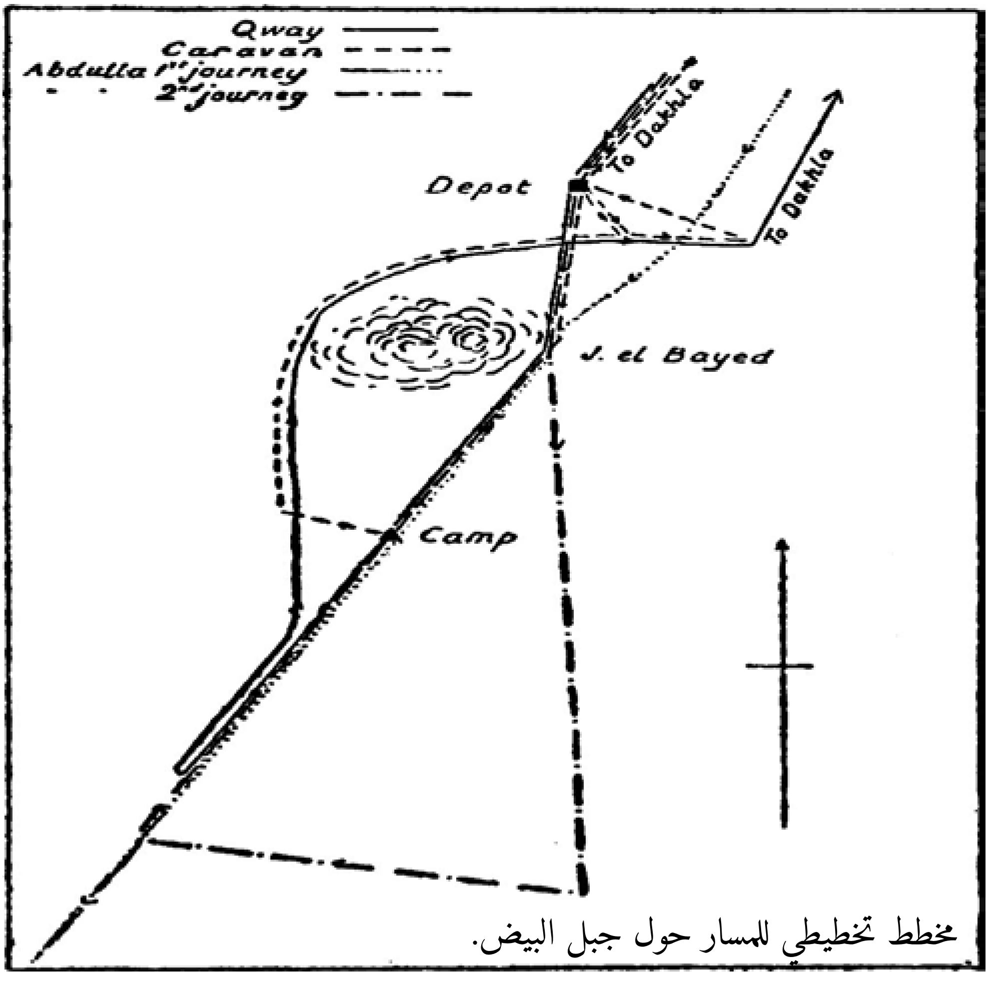
لقد قام "عبد الرحمان"، بدلاً من إنشاء مستودعنا في جبل البايض، كما طلبت منه أن يفعل، نظرًا لكونه معلمًا بارزًا، لحسن الحظ كما اتضح، [175] لقد قطعنا نصف يوم تقريبًا إلى الشمال من التل، في وسط صحراء مسطحة للغاية لا يوجد بها أي معالم من أي نوع في الجوار. عندما تم تكديس الخزانات وأكياس الحبوب المكونة للمستودع، فقد شكلت كومة يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثة أقدام فقط، وبما أن الأكياس، التي تم وضعها فوق الخزانات للحماية من الشمس، كانت تقريبًا بلون محيطها الرملي، فقد كان مخزوننا الصغير من الماء والحبوب غير مرئي، إلا على مسافة قصيرة جدًا لأي شخص لا يتمتع برؤية مثالية، وكان "قوي" ناقصًا إلى حد ما في هذا الصدد. وبالتالي، سيواجه صعوبة

كبيرة في العثور على هذا المستودع، ما لم يعثر على آثارنا.

وبينما واصلنا تتبع خطواته، أصبح الأمر[176] كان واضحًا أن هذا ما كان يهدف إليه، فطريقه، الذي كان في البداية يتجه شمالًا تقريبًا، دار تدريجيًا حول جبل البايض حتى اتجه شرقًا تقريبًا، قاصدًا على ما يبدو قطع الطريق الذي رسمناه في اليوم السابق. استمر أثره بثبات، يدور حول التل الأسود العظيم خلفنا دون توقف واحد لكسر رتابة الرحلة.

كنا نتبع أثره لمدة ثلاث ساعات ونصف تقريبًا عندما وصلنا إلى النقطة التي التقى فيها أثره وعبر المسار الذي صنعناه بأنفسنا، وبما أن "قوي" لم يتردد للحظة، فقد كان من الواضح أنه في ضوء القمر غير المؤكد قد مر به دون أن يلاحظه أحد.

بينما واصلنا تتبع آثاره، اتضح أنه كان في حيرة شديدة. توقف عدة مرات لينظر



مخطط تخطيطي للمسار حول جبل البيض.

حوله من أعلى مرتفع طفيف في الأرض، ثم تابع سيره في الاتجاه الشرقي نفسه وكرر العملية.

عندما رأى عبد الرحمن هذه الآثار، انبهر. صفع فخذه وانفجر ضاحكًا، معلنًا أن قوّي قد ضاع، وأن «الحمد لله» لم يحصل إلا على ما يكفيه من الماء لخمسة أيام. بل بدا عبد الله أكثر سرورًا.

بعد برهة، ظنّ "قوي" أنه سينتظر حتى طلوع الفجر قبل مواصلة الرحلة، إذ وجدنا المكان الذي نام فيه. وكان واضحًا أنه انطلق مجددًا قبل الفجر، إذ لم يصلّ في مكان نومه، بل بعد رحلة دامت قرابة ساعة.

تبعناه لمسافة قصيرة، ولكن بما أن فترة ما بعد الظهر كانت قد انقضت، فقد اعتقدت أنه من الأفضل العودة إلى المستودع لقضاء الليل، في حالة وصول كيوي إلى هناك قبلنا.

كثيراً ما كنتُ أضطر، أثناء وجودي في الصحراء، إلى إرسال "قوي" أو أحد الرجال بعيداً عن القافلة، إما لتسلّق تلّ لاستطلاع ما يُرى من قمته، أو لاستكشاف الطريق أمام القافلة، أو لأي غرض آخر. ونظراً لوجود خطر دائم بأن الغائب قد لا يتمكن من العودة إلى القافلة قبل حلول الظلام، فقد وضعتُ ترتيباً ثابتاً يقضي بأنني، إذا ضلّ أي شخص طريقه لهذا السبب، سأُطلق صاروخاً (إشارة ضوئية) بعد نصف ساعة من غروب الشمس، وصاروخاً ثانياً بعد ربع ساعة من ذلك، لمساعدته في العثور على المخيم.

وبناءً على ذلك، أُطلِق هذان الصاروخان من المخيم (أو المستودع "depot")، وعلاوة على ذلك، وبما أنها كانت ليلةً ساكنةً تماماً بلا رياح، فقد أُشعلت شمعة وتُرِكت مشتعلة على قمة كومة من الحجارة لجذب انتباهه في الظلام، إن كان في أي مكان قريب. كنتُ آمل بهذه الوسائل أن أحثّه على العودة وتسليم نفسه، مفضّلاً ذلك على المخاطرة بموت محتمل بسبب العطش — لكنه لم يظهر أبداً.

في الصباح، انطلقنا مجددًا لنقتفي أثره. لم أستطع تركه يموت عطشًا لو كان قد ضل طريقه حقًا، وكنت أرغب أيضًا في معرفة ما يفعله. ولأن حالة الجمال كانت تتدهور بشدة، بسبب العمل الشاق الذي بذلته وقلة الماء التي خصصتها لها، تركنا جميع الأمتعة في المستودع، وأخذناها معنا، ولم نحمل معنا سوى ما يكفينا من الماء خلال النهار.

وجدنا أثر قوّي حيث تركناه، وبعد تتبعه لمسافة، وجدنا مكان وصوله إلى آثار

أقدامه القديمة الخافتة التي تركها عبد الله في رحلته الأولى، حين ركب وحيدًا إلى جبل عبد الله. لقد حيرته هذه الآثار بشدة. ترجّل ووقف قليلًا يفحص الأثر ويمسح الصحراء المحيطة، كما يتضح من عدد آثار أقدامه التي تركها في المكان والاتجاهات التي تشير إليها.

وبعد تردد طويل، انطلق مرة أخرى في نفس الاتجاه الشرقي الذي كان يتبعه من قبل، وربما كان لا يزال يأمل في العثور على آثار القافلة التي عبرها في ضوء القمر دون أن يراها.

أردتُ أن يركب عبد الله حصانه ويتبع آثاره هرولةً، آملاً أن يتمكن في تلك المنطقة السهلية، حيث كان "قوي" يسير مشياً فقط، من تجاوزه بما يكفي لرؤيته من بعيد. لكنه لم يستعيد رباطة جأشه من الرعب الذي شعر به، ورفض رفضاً قاطعاً أن يتركنا، فواصلنا تتبع آثاره معاً.

بعد ركوب مسافة أبعد، صعد "قوي" مرة أخرى إلى قمة سلسلة منخفضة. هنا وقف[178]في بعض الأحيان، كانت آثار أقدامه تشير إلى كل الاتجاهات، محاولًا تحديد اتجاهات المستودع والطريق الذي اتبعه عندما غادره.

لكن ربما صُنعت تلك البقعة الصحراوية خصيصًا لإرباك مرشد مُضلّ. امتدت على مد البصر في جميع الاتجاهات مساحةٌ شبه مستوية من التربة الرملية، لا تُظهر أيَّ معالمَ تُرشده، إلا حيث ارتفعت كتلة جبل البايض السوداء الضخمة عن سطحها الرتيب. واستدلّ من آثاره أنه وصل إلى تلك النقطة قبيل منتصف النهار بقليل، حين كانت الشمس في ذلك الوقت من العام تُشبه السماء، وبالتالي لا تُفيد في تحديد اتجاهات البوصلة. ومن مكانه، لم يكن جبل البايض نفسه ليُرشده، فرغم أن للتل قمتين تقعان تقريبًا شرقًا وغربًا، إلا أن القمة الغربية كانت مُختبئة من تلك النقطة خلف القمة الشرقية، التي كانت مستديرة الشكل لدرجة أنها بدت مُتطابقة تقريبًا من جميع الزوايا على جانبها الشرقي.

أخيرًا، بدا واضحًا أن قوّي قد تخلى عن المشكلة. ركب جمله، ودار حول دائرة قطرها نحو مئة ياردة في محاولة أخيرة لتحديد اتجاهه، ثم انطلق راكضًا نحو الشمال. كان عبد الرحمن في غاية النشوة.

«لقد ضاع قوّي. لقد ضاع قوّي.» التفت إليّ مبتسمًا بسعادة. «لقد أخبرتك أنني أفضل دليلاً من قوّي.» ثم فجأةً اعتراه الجدّ. على الرغم من كرهه الشديد للعربي المتغطرس، إلا أنه عمل معه لموسمين، وكما قال، هناك رابطة بين من «يعرفون النجم

« . «سيموت. من المؤكد أنه سيموت. لم يكن لديه سوى خمسة أيام من الماء، وقد مرّ أربعة أيام منذ أن غادر المستودع. إنه لن يذهب إلى حيث يوجد الماء، لكنه متجه إلى «وادي الجرذ». من المؤكد أنه سيموت عطشًا. لم يكن لدى جمله ماء منذ أربعة أيام.»

كان موقف عبد الله أكثر قسوة، وبعد معاملة قوّي له، لا يمكن لومه. قال السوداني: «فليمت العربي الملعون. ابن الكلب خائنٌ لا غير».

لقد اتبعنا آثار أقدام Qway لمسافة قصيرة.[179]لكنه كان يسير بسرعة كبيرة، وكان من البديهي ألا نلحق به أبدًا. كان في رحلة متواصلة إلى موط، ولأن مخزوننا من المياه لم يكن وفيرًا، فكرتُ أنه من الأفضل أن نحذو حذوه؛ فطلبتُ من عبد الله أن يعيدنا إلى المحطة. كانت الساعة آنذاك حوالي الظهر.

نظر عبد الله إلى جبل البايض، ونظر إلى الشمس، ثم نظر حول الأفق، وحكّ خده في حيرة، وقال إنه لا يعرف مكان المستودع، لكنه يعتقد أنه موجود هناك - وأشار إلى مكان ما باتجاه الشمال الغربي. أما عبد الرحمن، فكان حازمًا في قوله إن هذا ليس الاتجاه الصحيح، وأشار إلى نقطة قريبة من الغرب كموقع له.

بعد نقاشٍ طويل، ولأنهم لم يتفقوا، التفت إليّ عبد الرحمن وطلب مني أن أنظر إلى بوصلتي لأحدد الاتجاه الذي سنسلكه. للأسف، كنت قد تركت البوصلة في المخيم ولم أتتبع آثار "قويٍ" كما فعلت في اليوم السابق. كنا جميعًا شغوفين بقراءة آثار "قوي" لدرجة أننا لم ننتبه كثيرًا للتغيرات في اتجاهه، فوجدنا أنفسنا في نفس مأزق "قوي".

كان يومًا حارًا وهادئًا، وكانت الشمس تشرق بشكل عمودي تقريبًا على الأفق بأكمله مما جعله يرقص سرابًا، مما أعطى انطباعًا بأننا كنا نقف على ضفة رملية منخفضة في مساحة شاسعة من المياه، حيث كانت شواطئها البعيدة تتلألأ باستمرار في ضباب الحرارة - «بحر الشيطان» الحقيقي كما يسميه السكان الأصليون.

لم تكن لديّ سوى فكرة مبهمة عن موقع المستودع، ولكن بما أنني كنت مضطراً لتحديد الاتجاه الذي سأسلكه، أخبرتهم أنني متأكد تمامًا من أنه يقع غربًا شمال غربًا - في منتصف المسافة تقريبًا بين الاتجاهين اللذين أشار إليهما الرجلان. كان مجرد تخمين، مبني على افتراض أنهما لم يكونا مخطئين تمامًا، بل إن خطأهما يكمن في كلا جانبي الاتجاه الصحيح. ولحسن الحظ، كنت أقرب إلى الصواب من أيٍ من الآخرين، مما زاد من احترامهم لمعرفتي بالنجم !

بعد مسيرة استمرت لساعتين أو نحو ذلك، نظر عبد الرحمن للحظة إلى المسافة و[180]

أعلن أنه رأى المستودع أمامنا. لم أستطع أنا ولا عبد الله رؤية أي شيء. بعد جهد، تمكنتُ من تحديد الجسمٍ الذي كان عبد الرحمن يشير إليه، لكن كل ما استطعتُ تمييزه كان ضبابيةً غامضةً بلا شكل، ترقص وتتغير شكلها باستمرار في السراب. مع ذلك، كان عبد الرحمن واثقًا تمامًا من أن هذا هو الهدف الذي كنا نهدف إليه، ولأنني كنتُ أعرف قدراته الخارقة في تحديد الأجسام في ظروف مماثلة، توجهنا نحوه ووجدنا أنه كان مُحقًا.

استرحنا في المستودع حتى غروب الشمس. وقبل الانطلاق بقليل، خطر ببالنا احتمال أن نمرّ بإبراهيم ودهب على الطريق. كان الاتفاق الذي اتفقت عليه معهما أنه إذا لم يرانا قبل الوصول إلى المستودع، فعليهما ترك أكبر قدر ممكن من الماء هناك والعودة فورا إلى موط. لكنني أردتُ ترتيب وسيلة تُمكّنهما من معرفة وجهتنا في حال وصولهما إلى المستودع. كانت الرسالة هي الطريقة البديهية، لكن دهب كان الرجل الوحيد في القافلة الذي يجيد القراءة والكتابة، وكنتُ أشك في عودته، فقد نصحته ألا يفعلٍ ذلك إذا أُصيب بتسمم في رحلة العودة إلى موط. كان إبراهيم، بالطبع، أمياً تماما، مثل السودانيين الآخرين، لذا كان من الصعب عليّ التواصل معه إذا خرج بمفرده. أما عبد الرحمن، فكان على قدر المسؤولية. أخبرني أنه سيكتب لإبراهيم «رسالة» يفهمها، ثم أخذ عصاً وحفر وسمه (علامة قبيلته) عميقًا في التربة، ثم رسم خطًا منها باتجاه الداخلة، وكان «الحرف» عند الانتهاء كما يلي: [رمز]، والعلامة [رمز]هي وسمه . قال عبد الرحمن إن هذه الرسالة تعني: «أنا، من القبيلة التي تستخدم هذا الوسم ، قد ذهبت في اتجاه الخط الذي رسمته منه». بعد الانتهاء من هذه الرسالة المهمة، انطلقنا في رحلة العودة.

الفصل التاسع عشر

لقد سلكنا نفس الطريق الذي وصفه "عبد الرحمن"، وهو طريق العرب حين يواجهون مصاعب في الصحراء. لقد استرحنا في منتصف النهار وسرنا طوال الصباح ومعظم الليل. [181]

وفي آخر توقف لنا وقت الظهيرة قبل الوصول إلى الشجيرات، قمت بفحص القافلة. وباستثناء الجمل الضخم، كانت كل الحيوانات في حالة يرثى لها بحلول ذلك الوقت. كان جملي ضعيفًا لدرجة أنه لم يكن قادرا حتى على حمل سرجه. وكان جمل آخر أطلق عليه "عبد الرحمن" اسم «الجمل المسكين» هزيلاً للغاية، بينما كان جمل آخر أطلق عليه

اسم «الجمل المسكين إلى حد ما» ضعيفًا للغاية لدرجة أنه في الصورة التي التقطتها له، لم يظهر سوى الصحراء!

كان الجمل الضخم هو الذي جرنا عبر هذه الرحلة. فقد وضعنا على ظهره حمولتي الجملين «المسكين» و«المسكين إلى حد ما»، بالإضافة إلى حمولته العادية، وأضيفت سرجي إلى الكومة. وعلاوة على ذلك، كلما أراد أي منا أن يستقل جمله، كنا نركبه، وكان يبدو أنه يستمتع بذلك!

كان "إبراهيم" قد تأخر عن موعده بيومين، وبما أنه لم يره أحد منا، فقد بدأت أشعر بالقلق والخوف من أنه قد مر بنا في الظلام دون أن نراه. ولكن أثناء توقفنا وقت الظهيرة، أطلق "عبد الله"، الذي كان لا يزال متوترًا بعض الشيء، إنذارًا بوجود لصوص. فجمعنا على الفور أدواتنا الحديدية وخرجنا لمواجهتهم، ولكن مما أسعدنا كثيرًا أننا وجدنا "إبراهيم" وحده يقترب ومعه ثلاثة جمال ورجل آخر.

وجدنا أن دهب وأحد جمالي قد مرضا أثناء رحلتنا إلى مدينة "موط"، وكان لزامًا علينا أن نتركهما وراءنا. استغرق الأمر من "إبراهيم" يومين للعثور على المزيد من الحيوانات. [182] كان الوافد الجديد رجلاً سودانيًا مسنًا كان موجودًا في قصر الداخل ومعه جملان عند وصول "إبراهيم" إلى مدينة "موط"، وكان اسمه أبه "عبد الله".

لقد تحيزت لصالحه بشكل كبير عندما سمعته يستعين بشخص يدعى «سيدي محمد»، أو محمد بن "عبد الرحمن" بو زيان (ليعطيه اسمه الكامل)، مؤسس الدراويش الزيانية، وهو فرع من الطريقة الشاذلية العظيمة التي تلعب دور حامي المسافرين. أعتقد أنها معروفة بشكل أفضل في شمال غرب إفريقيا منها في الجانب المصري. في الصحراء الغربية، يمكن وصف «سيدي بو زيان»، كما يُطلق عليه أحيانًا، بأنه القديس الراعي للمسافرين في الصحراء.

وكان "عبد الله"، عندما يقع في مشاكل، يلجأ إلى شخص معين هو «سيدي عبد الجواد»، الذي لم أتمكن مطلقًا من اكتشاف هويته.

لقد قام "إبراهيم" بعمله على أكمل وجه. فخلال اليومين اللذين قضاهما في مدينة "موط"، قام بإصلاح الخزانات التي تسرب الماء، واستعار بعض الخزانات الأخرى من المسؤولين المحليين. ثم أحضرها كلها ممتلئة حتى حافتها. ثم قمنا بسقي جميع الإبل، وبعد أن أعطيناها الوقت الكافي لامتصاص الماء، بدأنا من جديد في السير نحو الشجيرات.

عندما وصلنا إلى مدينة "موط"، كان المساء قد حل، وسرت إلى مسكني عبر البلدة

القديمة الخلابة، متعثرًا على السطح غير المستوي للشارع المزدحم بالأنفاق، الذي لم يكن يقطع ظلامه في الغسق المتصاعد إلا وميض من ضوء النار من خلال باب نصف مفتوح. الرائحة المألوفة لنيران الحطب، التي كان دخانها يملأ الشوارع بكثافة، وطنين المطاحن اليدوية الصغيرة التي كانت النساء يستخدمنها لطحن الدقيق، والضربات الرتيبة أثناء طحنهن للأرز داخل منازلهن، كان لها تأثير رائع في جعلني أشعر وكأنني في بيتي.

بعد وصولي بفترة وجيزة، حضر الوفد الممل المعتاد من المسؤولين الحكوميين لتهنئتي بعبارات تقليدية على عودتي سالماً. وبعد أن شكرتهم على إقراضهم الخزانات، سألت المأمور عما إذا كان قد سمع أي شيء عن "قوي". فأقر بجهله التام بالموضوع وأراد الحصول على تفاصيل كاملة عما كان يفعله. فأعطيته تقريرًا مفصلاً [183]، وتحدثت عن سلوك "قوي" كما يتضح من آثاره والخزانات الفارغة، وطلبت، كما فعلت تقريباً مع "عبد الله"، أن يتم القبض عليه على الفور.

تردد المأمور لحظة، ثم صاح بحماس: «أبدًا! إن "قوي" رجل رياضي». فأشرت إلى أن الرجل قد رحل على أي حال ومعه بندقية ومنظار من ممتلكاتي، وأنني كنت على يقين من أنه دخل الواحة وكان يختبئ فيها. لم يعتقد المأمور أنه مختبئ، لكنه سيظهر بمجرد أن يسمع بعودتي. وعلى أي حال فقد رفض إرسال رجال للبحث عنه أو اعتقاله. وأصررت على أن من واجبه أن يجده ويعتقله، وبعد قدر كبير من الإلحاح، استسلم في النهاية إلى حد الوعد، إذا لم يظهر "قوي"، بإرسال رجل للبحث عنه «بعد غد».

لا بد أن هذا كان بمثابة رقم قياسي في الطاقة بالنسبة لمسؤول واحة، وبدا أنه استنفد قواه بالكامل. فقد رفض إرسال رسالة إلى العمد لاعتقاله إذا ظهر. وبعد فترة وجيزة قال شيئًا عن العشاء وغادر.

تركتني هذه الأفكار في حالة من عدم الرضا. فلم يكن هناك أدنى شك في أنني ارتكبت خطأً فادحًا عندما طلبت اعتقال "قوي". فحتى لو تمكنت من محاكمته على هذه الجريمة، فسوف يتعين علي أن أجد بعض الدوافع وراء أفعاله، ولم أكن لأتصور كيف يمكن تحقيق ذلك دون إثارة قضية السنوسيين في واحة حيث يتمتعون بنفوذ هائل، على الرغم من قلة عددهم. وقررت أنه من الأفضل أن أقتصر اتهامي له على سرقة البندقية والمنظار.

لقد بدا لي احتمال تمكني من القبض عليه ضئيلاً للغاية. ولم يترك موقف أهل الواحة تجاهي أي شك في ذهني بأنهم جميعًا سيحمونه. ومن الواضح أن المسؤولين الحكوميين

كانوا في نفس الحالة الذهنية، ورغم أنهم قد يتظاهرون بمحاولة القبض عليه، إلا أنني كنت على يقين من أنهم سيحاولون سرًا مساعدته في الهروب. وفي الخلفية، كنت أعلم أن السنوسيين سيكونون، مستخدمين كل النفوذ الكبير الذي يتمتعون به [184] في الواحة، من أجل حماية دميتهم، "قوي"، ومنع القبض عليه.

ومع وجود ثلاثة سودانيين فقط وطاه بربري قديم خلف ظهري، كان من الصعب أن أرى ما يمكنني فعله. ومع ذلك، وبما أنني أصررت بحماقة على تقديمه للعدالة، فقد كان علي أن أرى ذلك يتحقق. لم تكن المهمة ميؤوسًا منها، ففي حالات من هذا النوع، فإن سودانيًا واحدًا يساوي ألف فلاح. ولكن في الوقت الحالي، كان الشيء الوحيد الذي يمكن فعله في ظل هذه الظروف هو الاختباء وانتظار التطورات.

وسرعان ما وصلت. وكما هي الحال عادة عند التعامل مع السكان الأصليين، فقد كانت أقرب إلى نوع من الأوبرا الكوميدية. في البداية، حددت مكان إقامة "قوي" في الزاوية السنوسية في "سمنت". ولكن كاتب القاضي في مدينة "موط"، "الشيخ السنوسي"، الذي أخبرني "قوي" أنه كان «مثل الأخ له»، وجد أنني أتعقبه عن كثب وخشي أن تتورط السنوسية، فنقله إلى رشيدة. ثم، مثل المتسلل الشرير الذي كان عليه، جاء إليّ، ولكسب ودي، أخبرني بمكانه.

فانطلقت على الفور، ورأيت المأمور فقلت له إني سمعت أن "قوي" كان في رشيدة، وذكرته أن هذا هو «بعد غد»، وأنه وعد بإرسال «رجل» للبحث عنه، وطلبت منه تنفيذ وعده.

حاول المأمور تجنب القيام بذلك، ولكن بعد بعض العناء، تمكنت أخيرًا من إقناعه بإرسال رجل على الفور.

كنت في المركز في اليوم التالي عندما عاد. ركب حمارًا ونزل ودخل الغرفة وأدى التحية بخطوات بطيئة وقدم تقريره. ووفقًا للتعليمات، ذهب إلى رشيدة ورأى "قوي"، وأبلغه رسالة المأمور بأنه يجب أن يأتي إلى مدينة "موط". لكن "قوي" قال إنه لا يريد المجيء. جادله الرجل وبذل قصارى جهده لإقناعه بالمجيء، لكن "قوي" تمسك بأنه لا يريد ذلك حقًا، لذلك صعد مرة أخرى على حماره وركب عائدًا إلى مدينة "موط" لإبلاغه بالنتائج.

لقد شعر المأمور براحة كبيرة. لقد فعل كل ما طلبته منه. لقد أرسل رجلاً في مهمة [185] وكان من المفترض أن يستعين الحاكم بحماره لإحضار "قوي"، لكن "قوي" لم يكن راغبًا في المجيء. فماذا كان بوسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟ لم يكن من المجدي

أن يطلب من "قوي" أن يأتي إذا لم يكن راغبًا في ذلك. لقد كان حزينًا للغاية، لكنه بذل أقصى ما بوسعه.

لقد اقترحت عليه أن يرسل شرطيًا، شرطيًا حقيقيًا يرتدي زيًا رسميًا ويحمل بندقية (وليس غفيرًا)، ويعطيه تعليمات بأنه إذا رفض "قوي" مرة أخرى الحضور، فعليه إحضاره. لكن المأمور لم يجد طريقة للقيام بذلك. لماذا يجب عليه اعتقال "قوي"؟ ماذا فعل؟ هل سرق بندقية، أليس كذلك؟ هل كان لديه أي خراطيش؟ لا يزال لديه عشرون خرطوشة وبندقية، أليس كذلك؟ لا، من غير الممكن أن يعتقله. قد يكون "قوي" عجوزًا، لكن العرب كانوا رفاقًا متوحشين للغاية، ولم يكن لديه قوات، فقط عدد قليل من رجال الشرطة المسلحين.

تلا ذلك نقاش طويل، وفي النهاية توصل المأمور إلى حل للمشكلة. قال إنه لا يستطيع إلقاء القبض على "قوي"، لكنه سيرسل شرطيًا لإحضار البندقية والخراطيش. هل أقنعني ذلك؟ لم يقنعني. قلت إنني يجب أن أحصل على "قوي" أيضًا. بعد نقاش طويل، وافق أخيرًا على إرساله لإحضاره إذا أرسلت رسالة بواسطة الشرطي لإخبار "قوي" بأنه لا ينبغي له إطلاق النار عليه!

في اليوم التالي، جاءني المأمور وقد بدت عليه علامات الارتياح الشديد. وقال لي إن الشرطي ذهب إلى رشيدة لإحضار "قوي"، ولكنه وجد أنه قد غادر القرية، وبالتالي لم يعد هناك ما يمكن فعله. ومن الواضح أنه شعر الآن بأنه قد برئ من كل المسؤولية في هذا الأمر.

لقد فقدت أثر "قوي"، وبدأت أشعر باليأس من إمكانية الوصول إليه. ولكن في اليوم التالي أخبرني "عبد الرحمن"، الذي كان طوال الوقت يحاول بلا كلل الحصول على معلومات عن مكانه، أن "قوي" شوهد بالقرب من تينيدا مرتديًا زي فلاح [4]، وهي حقيقة تسببت في تسلية السوداني الصغير بشكل كبير.

فأرسلت "عبد الله" ليذهب إلى قريته في تينيدا بحجة شراء الشعير، ويحاول العثور على "قوي". وإذا نجح، فأخبره مني أن يأتي على الفور إلى مدينة "موط".

[186] وفي اليوم التالي نزلت إلى المركز لأستفسر عما إذا كانت هناك أي أخبار. ورأيت ضابط الشرطة، الذي أخبرني أنه تلقى للتو أنباء مؤكدة مفادها أن "قوي" غادر الواحة واتخذ الطريق إلى وادي النيل. وبما أنه أصبح الآن خارج نطاق اختصاصه، الأمر الذي بدا وكأنه يخفف عنه إلى حد كبير، فقد أصبح في وضع يسمح له بإعداد محضر بشأن التلسكوب والمسدس اللذين سرقهما، وهي معلومة كانت محبطة بشكل

واضح. وبدأت أتساءل ما هو أفضل شيء يمكن أن أفعله بعد ذلك.

لكن هذه المشكلة حُلَّت من تلقاء نفسها. كنت قد انتهيت للتو من تناول الغداء عندما سمعت طرقًا خجولًا على الباب، فدخل "قوي"!

من الواضح أن الوحش العجوز كان يمر بوقت عصيب. فقد سمح لنفسه بأن يصبح أداة في يد السنوسيين، ولكن خططه فشلت فضاع وكاد يموت من العطش في الصحراء، فقد اكتشفت بعد ذلك أنه ظل بلا ماء لمدة يومين تقريبًا، وكانا يومين شديدي الحرارة، ولم يكن سوى ناقته القوية التي ساعدته على الصمود.

كان يبدو أكبر سنًا بعشر سنوات. كانت عيناه غائرتين ومحمرتين، ووجنتاه غائرتين، وشفتاه متشققتين، ولحيته غير مشذبة، وكان مظهره غير مهذب وقذرًا تقريبًا.

وضع البندقية والمنظار على سريري، وتحسس ملابسه الضخمة وأخرج حفنة من الخراطيش، وأخرج المزيد من جيبه، وأخرج منه أيضًا مسبحة، يحمل السنوسيون في الغالب حبات مسبحتهم بهذه الطريقة وليس حول أعناقهم كما هي الحال مع معظم المسلمين. ثم فك طرف منديله وأخرج طلقتين أو ثلاث طلقات أخرى ووضعها كلها على الطاولة.

«عدهم يا صاحب السعادة، إنهم كلهم هناك»، وجدت أن قصتهم كانت كاملة.

نظر بحزن إلى الأرض وتنهد بعمق وقال: «لقد كنت أعمل بشكل سيئ للغاية، بشكل سيئ للغاية حقًا. أنا شيء مكسور. أنا اللحم وأنت السكين». بدا الأمر كذلك بالتأكيد.

سألته عن العذر الذي كان لديه لتبرير سلوكه، فنظر إليّ للحظة ليرى ما هو السطر الذي قاله. [187] من الأفضل أن أختار، والاختيار الذي اختاره لم يكن متوافقًا بشكل خاص مع ذكائي.

«لقد كان الجو حارًا جدًا، يا صاحب السعادة، حارًا جدًا بالفعل. وكنت وحدي وصعد أحد العفاريت على جملي».

في هذه المرحلة، فكرت أنه قد يكون من المستحسن أن يكون هناك شاهد، لذلك ناديت على "دهب".

«لا، أفنديم، ليس "دهب". لا تنادي دهب»، قال "قوي" بصوت مضطرب للغاية. من المحتمل أنه كان يعتقد أن دهب لن يقتنع بقصته مثلي. دخل دهب الغرفة بسرعة مدهشة، الأبواب في الواحة ليست عازلة للصوت.

لقد طلبت من ”قوي“ أن يواصل قصته عن العفريت، والتي من المتوقع أن تكون قصة جيدة.

«كان هناك عفريت، يا صاحب السعادة، صعد خلفي على جملي وظل يخبرني بالذهاب إلى هناك والقيام بهذا، وكان علي أن أفعل ذلك. لم يكن خطأي أن الماء كان مضطربًا. كان العفريت هو السبب. كان علي أن أفعل ما قاله لي». ثم سمع شخيرًا من دهب، وأضاف أنه لم يكن هناك عفريت واحد فقط، بل العديد، وأن هذا الجزء من الصحراء مليء بهم.

اعتقدت أنه حان الوقت لإيقافه. أخبرته أنني سمعت ما يكفي، وأنه يجب أن يأتي معي إلى المركز. أزعجه هذا الأمر بشدة.

«لا، ليس المركز يا صاحب السعادة. ليس المركز. باسم الله لا تأخذني إلى المركز. خذ كل ما لدي، ولكن لا تأخذني إلى المركز».

ولكن كان عليه أن يذهب إلى المركز. توقفنا في ساحة الإبل لاستلام الرجال الآخرين، حيث قد يكونون مطلوبين كشهود، ثم توجهنا في مجموعة إلى مكتب الحكومة، وكان ”قوي“ يحاول طوال الطريق رشوتي للسماح له بالمغادرة بعرض ممتلكاته علي، ومن بينها، وبكل ألم واضح، عرض علي جمله صراحةً.

التقينا بالمأمور عند باب المركز، واندفع ”قوي“ على الفور إلى الأمام ليحاول تقبيل يده. لكن المأمور لم يكن ليقبله. ومثله كمثل كل الفلاحين تقريبًا، أيد الفائز، وكنت أنا في تلك اللحظة منتصرًا.

«هذا الرجل خائن، خائن عادي»، قال [188] كان القاضي الذي لم يحاكمه بعد والذي أخبرني سابقًا أنه رجل رياضي، لكني حصلت على أفضل صفقة، وعلاوة على ذلك، كنت سأعود قريبًا إلى مصر وقد أبلغ أحد المفتشين عنه؛ لذلك قرر أن يُظهر لي كيف يمكن لمسؤول مصري أن يحقق العدالة عندما يخلع معطفه للوظيفة. دخل بسرعة إلى المكتب وبدأ في ترتيب الأوراق بعناية على طاولته. كما جاء ضابط الشرطة واستعد لتدوين الإفادات.

بعد أن اطمأن إلى سيرِ الأمور كما يريد، أمر المأمور بإحضار السجين. فوصل السجين بين شرطيين جامِدي الملامح

«حسنًا، أيها الخائن، ماذا لديك لتقوله عن نفسك؟» ثم، عندما خطر بباله أنه قد تجاهل أحد الإجراءات الشكلية، سأل «قوي» عن اسمه.

«قوي يا أفنديم.»

«ماذا؟» سأل المأمور بتهيج.

”قوي حسن قوي“ حضرتك. جدي كان باي.

«باي؟» شخر المأمور.

«نعم يا صاحب السعادة.»

«أين كان يعيش؟»

«قرب أسيوط يا صاحب السعادة. ربما لم يكن بكًا. لا أعرف. ربما كان مأمورًا أو ضابط شرطة. لا أعرف بالضبط ماذا كان، لكنه كان يعمل لصالح الحكومة».

كرر المأمور بازدراء: «يا إلهي! يقول السيد هاردن كين إنك أهدرت بعض الماء. ماذا تقول؟»

«نعم، لقد أهدرت المياه. لكن لم أستطع منع نفسي من ذلك. كان يومًا حارًا جدًا...»

« كذاب!» قال المأمور.

«نعم؟» قال «قوي»، مندهشًا إلى حد ما.

«لقد قلت كاذبًا»، صاح المأمور وهو يضرب الطاولة بقوة. وجد قوي، الذي كان رجلاً عجوزًا مرحًا، أن هذا الأمر لا يحتمل، وبدأ يشعر بالغضب. وكان من سمات وضعنا في مصر في ذلك الوقت أن يلجأ قوي، المتهم، في هذه اللحظة إليّ، المدعي، طلبًا للحماية من القاضي.

«لقد كان يومًا حارًا، أفنديم، أليس كذلك؟»

[189] لقد كان سلوكه سيئًا للغاية، وكنت أشعر بالأسف الشديد تجاهه، وكنت أشعر بكراهية شديدة تجاه تصرفه هذا. لذا أجبته بأن ذلك اليوم كان أحد أكثر الأيام حرارة على الإطلاق.

لم يستطع المأمور أن يعارضني، لكنه بدا غير مرتاح بشكل واضح وتحرك في كرسيه بقلق. ثم أمر «قوي» بالاستمرار. وبدأ «قوي»، الذي بدأ يستعيد رباطة جأشه، في الاستفادة إلى أقصى حد من النصر الذي حققه عليّه.

« كما قلت، يا أفنديم، كان يومًا حارًا، حارًا جدًا، وأنا رجل عجوز وربما كانت الشمس هي السبب. لا أعرف ما هو السبب، لكن ربما كان السبب هو الشمس».

قال المأمور وهو يبسط يديه: «الله، عفريت؟» بدأ قوي يشعر بالتوتر قليلاً.

«نعم يا أفنديم، عفريت.»

« كذاب» كرر المأمور. «لقد قلت إنك كاذب».

نظر «قوي» حوله مرة أخرى طلبًا للمساعدة، لكنني لم أكن لأعزز هذا البيان. بدأ المأمور في فحصه لمعرفة الطبيعة الدقيقة لذلك العفريت. انهار «قوي» وتلعثم ودخل في فوضى رهيبة. أخيرًا، بعد أن انتزع منه المأمور بدوره حقيقة وجود عفريت واحد، وأن هناك اثنين، وأن هناك حشدًا منهم، وأخيرًا أنه لم يكن هناك أي منهم على الإطلاق، انتقل إلى المرحلة التالية وسأل عما حدث بعد ذلك.

وأوضح قوي أنه بعد مغادرة المستودع ركب لمدة يومين باتجاه الجنوب الغربي، ثم عاد ودار حول جبل البايض وأخيرًا ركب باتجاه الشرق.

«الشرق؟» قال المأمور. «كنت أظن أن الداخلة تقع إلى الشمال».

«الشمال الشرقي، أفنديم» صحح «قوي». «شمال الشمال الشرقي إلى حد ما».

«فلماذا ذهبت إلى الشرق؟ هل ضللت الطريق؟»

تلعثم «قوي» أكثر من أي وقت مضى. كرر المأمور سؤاله. بدأت دمعتان تتدحرجان على خد «قوي»، ورفع يده الكبيرة الملتوية لإخفاء شفتيه المرتعشتين.

«نعم»، قال بجهد كبير. «لقد ضللت الطريق». ولأنه عربي، لم يكن يكذب، على الأقل ليس في كثير من الأحيان.

«لكنك مرشد وقد ضللت الطريق!»

[190] «نعم»، تلعثم «قوي». لا بد أن الاعتراف لفلاح عادي بأنه، مرشد الصحراء العظيم، قد ضل طريقه، كان أمرًا مهينًا للغاية. فالسخرية المفضلة لدى البدو من الفلاحين هي أنهم «مثل النساء»، ويضيعون فور دخولهم الصحراء.

لم يكن بوسع أي مصري أن يقاوم مثل هذه الفرصة. بدأ المأمور يسأل «قوي» بدقة عن المكان والكيفية ومتى ضل طريقه، وعن الدرجة الدقيقة التي ضل بها طريقه في كل مرحلة من مراحل الإجراءات، ولقد أجاب «قوي»، ولحسن الحظ، بصدق تام.

وعندما لم يعد بوسعه أن يتحمل الأمر، بدأ المأمور يسأله عن بقية رحلته. ووصف له قوي كيف اضطر إلى البقاء يومين دون ماء، وكيف كاد يركب جمله حتى الموت من أجل العودة إلى مسارنا، وكيف تمكن هو وجمله في النهاية من العودة إلى الداخلة ميتين أكثر من كونهما أحياء.

«كنت مختبئًا عندما عدت. أين اختبأت؟»

تردد قوي لحظة، ثم سأله بصوت خافت عما إذا كان يحتاج إلى إجابة. لم يلح عليه المأمور في طرح هذا السؤال. لقد كان سؤالًا غير مستحسن على الإطلاق. لقد كان قوي في الزاوية السنوسية في سمنت. طرح عليه بعض الأسئلة الأخرى، ثم أخبره مرة أخرى أنه خائن وأن عمله كان «مثل القار»، وسألني عما أود القيام به بعد ذلك. اقترحت عليه أن يستدعي بعض الشهود، لذا تم إحضار «عبد الله».

كان «عبد الله» قد تعافى من الذعر الذي أصابه في الصحراء، ورغم أن «قوي» حاول أن يخفف عنه، إلا أن معاملة المأمور له بدت وكأنها قد خففت من حدة آرائه تجاهه. هناك رابطة اتحاد بين أولئك الذين «يعرفون النجم»، وكان «قوي» أيضًا في وضع صعب، وعادة ما يتعاطف المسلمون مع بعضهم البعض في مثل هذه الظروف. لذا حاول «عبد الله» تبرئة «قوي».

سأله المأمور عما يعرفه عن القضية.

قال: «أفنديم، أعتقد أن «قوي» قد أصيب بالجنون».

ألقى المأمور بنفسه إلى الخلف في كرسيه ونشر يديه.

«الله!» صاح. «هل أنت طبيب؟»

لقد تم كشف هذه التمثيلية القصيرة [191]. كان «عبد الله» جامدًا وكان ينظر إلى المأمور بفضول مسلٍ، كما لو كان يشاهد قردًا يؤدي عروضه.

«لا»، قال بطريقته البطيئة الغبية. «أنا لست طبيبًا، بالطبع، لكنني أعرف الأحمق عندما أراه!»

وخلص المأمور إلى أنه سمع ما يكفي من شهادة «عبد الله». وبدأت أتساءل عما إذا كان السوداني «ضعيف العقل» إلى هذا الحد الذي تم تقديمه به!

«أرى أن «قوي» خائن. عمله كان أشبه بالرصاص. ماذا تريد مني أن أفعل به؟» سأل القاضي.

لقد اقترحت، بأقصى ما أستطيع من الرقة، أن هذه مسألة يجب أن تقررها المحكمة، وليس المدعي. وبعد محادثة همسية مع ضابط الشرطة عبر الطاولة، أعلن المأمور أنه ينوي وضعه في السجن وإرساله، عندما يذهب ساعي البريد، بعد حوالي أسبوع، إلى أسيوط لمحاكمته.

لقد تغير موقف الرجال تجاه قوي بعد محاكمته. فلم يعد هناك ما يدعو إلى الخوف

منه. فقد زال استياؤهم من سلوكه في الصحراء. فقد تعرض للتنمر من قبل مأمور فلاح، وأُرغم على الاعتراف علنا بأنه ألحق العار بنفسه بضياعه في الصحراء، وألقي القبض عليه من قبل سوداني، وأُخرج علنا في الواحة مرتديًا زي فلاح. لقد كان إذلاله كاملاً ولا يمكن أن يكون أكثر شمولًا. لقد تم إشباع غريزة الانتقام البدوية بشكل كاف. إن الكراهية تتألف عمومًا إلى حد كبير من الخوف أو الغيرة، ولم يكن هناك بالتأكيد مجال لأي منهما عندما يتعلق الأمر بقوي. وعلاوة على ذلك، كان لدى الرجال الشعور المعتاد بالشفقة على أولئك الذين يمرون بالشدائد والذي يشكل واحدة من أفضل السمات في الشخصية الإسلامية.

أما أنا فقد كنت أشعر بالأسف الشديد على مرشدي المخطئ، الذي كنت أكن له كل الحب منذ البداية، لأنه لم يكن سوى أداة بيد السنوسيين، الذين كانوا الجناة الحقيقيين. لذا، بعد أن أُدين، أخبرت المأمور أنني لا أريد أن يعاقب بشدة، بشرط «عدم المساس بصفات الرحمة».

[192] أخبرني دهب أن قوي كان مقيدًا بالأغلال ولا يتغذى إلا على الخبز والماء. لذا أرسلت له بعض الشاي والسكر، مع رسالة إلى الشرطة مفادها أنهم قد يرفعون الأغلال وأنني سأراهم قبل أن أغادر الواحة. طلب دهب نقودًا لشراء عدد غير ضروري من البيض لاستهلاكي. لم أسأل أبدًا عما حدث لهم جميعًا، ولكن في نفس المساء طلب الإذن بالذهاب إلى منزل الطبيب، وانطلق بجيوب منتفخة في اتجاه المركز. عاد مرة أخرى بها فارغة بعد فترة وجيزة، قائلاً إنه قيل له إن قوي كان مستسلمًا ومصليًا للغاية. كما سمعت بعد ذلك، أرسل له السودانيون بعض الجبن والعدس، وأضاف «عبد الله» إليهم حفنة من البصل، لذلك لا بد أن قوي كان يستمتع بوقته في السجن.

الفصل العشرون

وبعد أن انتهينا من مسألة «قوي»، ذهبتُ إلى رشيدة لحضور احتفال «شم النسيم». وكان مسؤولو الواحة هناك أيضًا، واحتفلنا باليوم بالطريقة المعتادة [193]. ففي الصباح، ارتدينا ملابس نظيفة وتناولنا إفطارنا في الهواء الطلق «لنستنشق النسيم». ثم صعدنا بين مزارع النخيل إلى حمام سباحة بدائي صنعه العمدة بسد مجرى مائي من أحد آبارِه. وخلع السكان الأصليون ملابسهم ومارسوا التسلية في الماء، فسبحوا ورشوا بعضهم بعضًا بالماء، واستمتعوا كثيرًا.

وبعد الاستحمام، ارتدينا ملابسنا مرة أخرى واستلقينا تحت أشجار النخيل حتى أحضروا لنا الغداء. استلقينا على الأرض نتسامر ونتحدث حتى وقت متأخر من بعد الظهر، عندما ظهرت امرأة من القرية كلّفها العمدة بالرقص. فرشوا لها سجادة لتؤدي عليها، واستلقينا حولها وراقبناها. بدت امرأة محترمة للغاية، وكانت رقصتها رقصة محترمة جداً، وكانت لتكون إضافة جيدة إلى «تشو تشين تشاو»، لكن المأمور استغل الفرصة ليصاب بالصدمة من ذلك. جلس وظهره إلى المرأة، يراقبها من زاوية عينه، ويبدو أنه كان يستمتع بالأداء. ورغم أنني لم أتمكن من اكتشاف أي خطأ في الرقصة، إلا أن حساسية المأمور الدقيقة كانت غاضبة للغاية لدرجة أنه (لأنه لم يكن على علاقة جيدة بعمدة رشيدة) شعر أنه من واجبه الإبلاغ عنه إلى المفتش في أسيوط لأنه قام بأداء غير أخلاقي في فناء منزله الخاص. إن الحكومة في ظل المأموريات المصرية مؤسسة رائعة!

في اليوم التالي، عدت إلى موط لحزم الأمتعة. زارني عدد من الأشخاص لوداعي خلال الفترة القصيرة المتبقية [194] التي قضيتها في المدينة. فمنذ أن حققت النجاح، أصبحت الواحة بأكملها ودودة بشكل رائع.

وكان من بينهم الشيخ العفريت من سمنت. كان شديد التكلف في أسلوبه، وكان يخاطبني دائماً بقوله: «يا حضرت البيه». لقد أعطاني الكثير من المعلومات حول العفاريت. كان يتحدث بلهجة رجل لديه خبرة مدى الحياة في هذا الأمر. وقال إنه من المهم للغاية استخدام النوع الصحيح من البخور عند استدعائهم، لأنه إذا تم استخدام النوع الخطأ، فإن العفريت دائماً ما يغضب ويقتل الساحر - يبدو أنها مهنة خطيرة.

أخبرني بالكثير من المعلومات من نفس النوع، وأعطاني عدداً من الأمثلة على لقاءات مع العفاريت لتوضيح ملاحظاته. ومن بينها ذكر (بشكل عرضي) أن العفريت كان هو الذي أضل «قوي». كان هدف زيارته على ما يبدو هو طرح هذا الرأي، بصفته ساحراً متمرساً، أمامي، لأنه غادر بعد ذلك مباشرة تقريباً.

وكان من بين زواري الآخرين عمدة رشيدة، الذي قال إنه جاء إلى مدينة "موط" لأنه كانت لديه قضية يريد رفعها أمام المأمور ضد ابن عمه حاجي إسماعيل، وهو أيضاً وقف إلى جانب «قوي». وكان هو المواطن الوحيد من الواحة الذي امتلك الشجاعة للدفاع عن قضيته علناً.

بعد مرور بعض الوقت، اضطررت إلى التوجه إلى المركز. سمعت شجاراً هائلاً يدور في الداخل عندما اقتربت. كان هناك شخص ما يضرب الطاولة باستمرار، وكان اثنان

أو ثلاثة رجال يصرخون ويصيحون على بعضهم بعضًا. وبالنظر إلى الأصوات الصادرة من الداخل، فقد كان كل شيء على وشك الانفجار.

لكنني وجدت أن المأمور وحده هو الذي «يصنع السلام» بين أهل رشيدة. فقد كان عمدة رشيدة واثنان من إخوته يرفعون دعوى ضد ابن عمهم حاجي سمين الذي كان يملك جزءًا من نفس القرية. توقف الخلاف لبعض الوقت عندما دخلت، واستمرت الإجراءات لبضع دقائق بطريقة منظمة. ثم عادوا إلى الشجار مرة أخرى، بالمطرقة والملقط، وهم يصرخون ويصيحون في بعضهم بعضًا وفي المأمور الذي كان يحاول إحداث المصالحة، بأعلى أصواتهم. تحدث المأمور في البداية بنبرة هادئة مقنعة، لكنه سرعان ما فقد أعصابه وتوقف عن الكلام [195]. كان العمدة يصرخ فيهم: «إنهم سيئون كما كانوا». فضرب بقبضته على الطاولة وصاح فيهم أن يصمتوا ويستمعوا إلى ما يريد قوله. وصاح العمدة فيهم: «ليس هو، بل حاجي سمين، هو الذي يعطل الإجراءات»، بينما صاح حاجي سمين نفسه، الذي كان يزبد من فمه، وفي بعض الأحيان كان عاجزًا عن التعبير عن نفسه من شدة الغضب، بأن العمدة هو الذي أحدث كل هذا الضجيج.

كان سبب كل هذه الضجة على النحو التالي: كان لدى حاجي إسماعيل شجرة برتقال تنمو في ممتلكاته، وكان أحد أغصانها يمتد خارج حدوده ويتدلى فوق بعض الأراضي التابعة للعمدة. سقطت ثلاث برتقالات من هذا الغصن على أراضي العمدة، وتم رفع القضية للبت فيمن تخص هذه البرتقالات الثلاث. كانت قيمتها الإجمالية فلسا واحدا عند التداول.

غادرت في اليوم التالي إلى مصر. وعندما ركبت جملي للانطلاق، أعلن المأمور ورفاقه أنهم يعتزمون السير معي لجزء من الطريق. ولأن هذا كان من شأنه أن يزيد من هيبتي بين السكان الأصليين الآخرين، فقد قررت أن أقبل صحبتهم لبعض الوقت.

ركبت وسار المأمور، وكان الأمر على ما يرام، لأن هذه الفروق الصغيرة تحمل وزنًا كبيرًا بين هؤلاء السكان الأصليين البسطاء. وقد سررت برؤية المأمور وهو يرتدي زوجًا من الأحذية البنية الجديدة التي يتم ربطها بمشبك معدني فوق مشط القدم، وكان نعلها رقيقًا مثل نعال أحذية الرقص. وكانت الطريق وعرة ومحروقة بشدة بفعل الشمس في الأماكن التي لم تكن مستنقعية. وأتصور أن المأمور لم يكن معتادًا على الكثير من التمارين التي يمارسها المشاة، وسرعان ما أصبح من الواضح أن قدميه متقرحتان.

رأيته ينظر بحنين إلى جمل غير محمل، فطلبت من دهب أن يمتطيه. وقد ألمح عدة

مرات إلى أنه قد قطع مسافة كافية، لكنني كنت سأجعله يركض إلى جواري لمسافة ميل آخر بتعبير وجهي المتفاجئ وغير الراضي. لقد كان متملقًا أثناء وجودي في الواحة، وأدرك أنه بعد أيام قليلة سأقابل أحد المفتشين بشأن «قوي»، لذلك كان حريصًا بشدة على عدم القيام بأي شيء قد يزعجني.

أخيرًا، قررت أن أختصر الطريق، فتركنا الطريق واتجهنا مباشرة عبر البلاد على طول [196] الصحراء، التي كانت وعرة للغاية. ناديت على «عبد الله» لكي يسرع بالإبل لأنها كانت تسير ببطء شديد، وكانت النتيجة أن المأمور الأعرج والقاضي العجوز السمين بدآ يتخلفان عن الركب. كانت المهزلة واضحة للغاية لدرجة أن رجالي كانوا يبتسمون لهم، وهمس لي «عبد الرحمن» ساخرًا بأنه يعتقد أن المأمور لا بد وأنه قد بدأ يتعب.

وعندما ابتعدت عن الطريق، وعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال من أي مسكن، نظرت إلى الخلف واكتشفت فجأة أن المأمور كان يعرج بشكل ملحوظ. فسألته لماذا لم يخبرني من قبل أن قدميه كانتا مغطيتين بالبثور، وأصررت على أن يعود على الفور إلى مدينة "موط".

في الطريق إلى أسيوط، رأيت في القطار «الشيخ السنوسي» العجوز موهوب، وهو يتجه (كما قال) إلى القاهرة. ولكن لم يفاجئني على الإطلاق أن أجد أنه قطع رحلته في أسيوط، حيث كان يكافح في مسقط رأسه في المديرية من أجل إخراج قطه الصغير «قوي» من محنته، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير.

ذهبت إلى المديرية بمجرد وصولي إلى المدينة، لأجد أن المفتش الإنجليزي كان غائبًا، لذلك طلبت مقابلة المدير (الحاكم المحلي للمحافظة). لم يصدق المدير أن «قوي» قد حوكم بعد، ولكنني أصررت. فهل سأذهب إلى المدينة وأسأل في مكتب المأمور؟ هناك طلب مني الانتظار بينما يقومون بالاستفسارات. قاموا بالاستفسارات لمدة ثلاثة أرباع الساعة تقريبًا، ثم دخل رجل بابتسامة غير مخفية وأعلن أن «قوي» قد حوكم للتو وتمت تبرئته!

ذهبت لمقابلة المدير مرة أخرى، ولكن هذه المرة كنت ساخطًا بعض الشيء. كان هادئًا ومهذبًا، ولكنه حازم. قال إنه تمت تبرئته لأنني قلت له إنني لا أريد أن يعاقب بشدة، ولأنني قد أحسنت التصرف في العام السابق. إن مسار القانون الحقيقي لم يكن يسير بسلاسة في مصر قط!

حاولت التراجع عن هذا القرار بالتوجه إلى شخصية مرموقة للغاية، إلا أنه أخبرني

أن الحكومة لا تريد إثارة مسألة السنوسيين وأنها حريصة على تجنب وقوع أي حادث على الحدود، وأنه يخشى ألا يتمكن من إثارة هذه المسألة.

[197] كان عليّ أن أتغلب على «قوي» بطريقة ما. وبما أن أساليب المحاكمة المنتظمة قد فشلت في التعامل معه، فقد أخذت القانون بين يدي (وهو أفضل مكان يمكن أن يُطبّق فيه القانون في مصر)، وغرمته بقية راتبه الذي بلغ نحو عشرين جنيهًا. وبعد ذلك سمعت أن السنوسيين، من أجل منع «قوي» من تقديم شكوى ضدهم، قاموا بتقديمه بما قيمته 42 جنيهًا من القطن؛ لذلك فقد تمكنت في النهاية من الوصول إلى الجناة الحقيقيين، ولكنها كانت طريقة ملتوية للقيام بذلك.

وبفضل «قوي» والسنوسيين، لم تَرُق نتائج سنتي الثانية إلى مستوى توقعاتي. ذلك أن العمل الرئيسي الذي خططت له للموسم كان بطبيعة الحال رحلة الخمسة عشر يومًا إلى الجنوب الغربي من الداخلة، والتي كنت آمل أن تأخذني إلى العوينات. ولكن بدلاً من ذلك، لم نتمكن من الذهاب إلى أبعد من منتصف الصحراء، على حد تقديرنا لمكان موقعها.

الفصل الحادي والعشرون

خلال الموسمين الأولين من رحلتي، تمكنت من الخروج إلى قلب الصحراء ونجحت في رسم خريطة لمساحة كبيرة منها، لكن الهدف الرئيسي الذي كرست له هاتين السنتين، وهو عبور الصحراء من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، لم يتحقق، ولم يكن هناك أي أمل في أن أتمكن من تحقيقه، لأن العوينات (المرحلة الأولى من الرحلة) كانت بعيدة للغاية بحيث لا يمكن الوصول إليها إلا باتباع نظام معقد من المستودعات أو المناوبات، وحتى مغامرة "قوي" أثبتت أنها خطيرة للغاية. لقد فاز السنوسيون بالتأكيد بالجولة الأولى في هذه اللعبة، لكنني لم أشعر على الإطلاق بالميل إلى ترك الأمور تسير على طريقتهم [198].

لكنني لاحظت أن نُذُر أي رحلات أخرى لم تكن مواتية بأي حال من الأحوال في ذلك الوقت، حيث كان السكان الأصليون متحمسين للغاية للغزو الإيطالي لطرابلس. وعلاوة على ذلك، كان السنوسيون مستعدين بوضوح للمشاركة بنشاط في اللعبة، وحتى في ذلك الوقت، كانوا يفكرون بوضوح في غزو مصر، إذا سنحت الفرصة المناسبة.

لكن الحقيقة الأخيرة بدت لي وكأنها تحمل في طياتها وجهين. ذلك أن السنوسيين كانوا متيقظين إلى الحد الذي جعلهم يدركون أنه إذا تمكنوا من إيقاع أوروبي في الفخ،

فإن شكلاً من أشكال الحملة العقابية سوف يتبع ذلك على الأرجح، وهو ما قد يضطرهم إلى الدخول في أعمال عدائية في وقت غير مناسب، لذا استنتجت أنهم سوف يبدؤون القتال على مضض كما كنت سأفعل أنا، وكان هذا يعني الكثير.

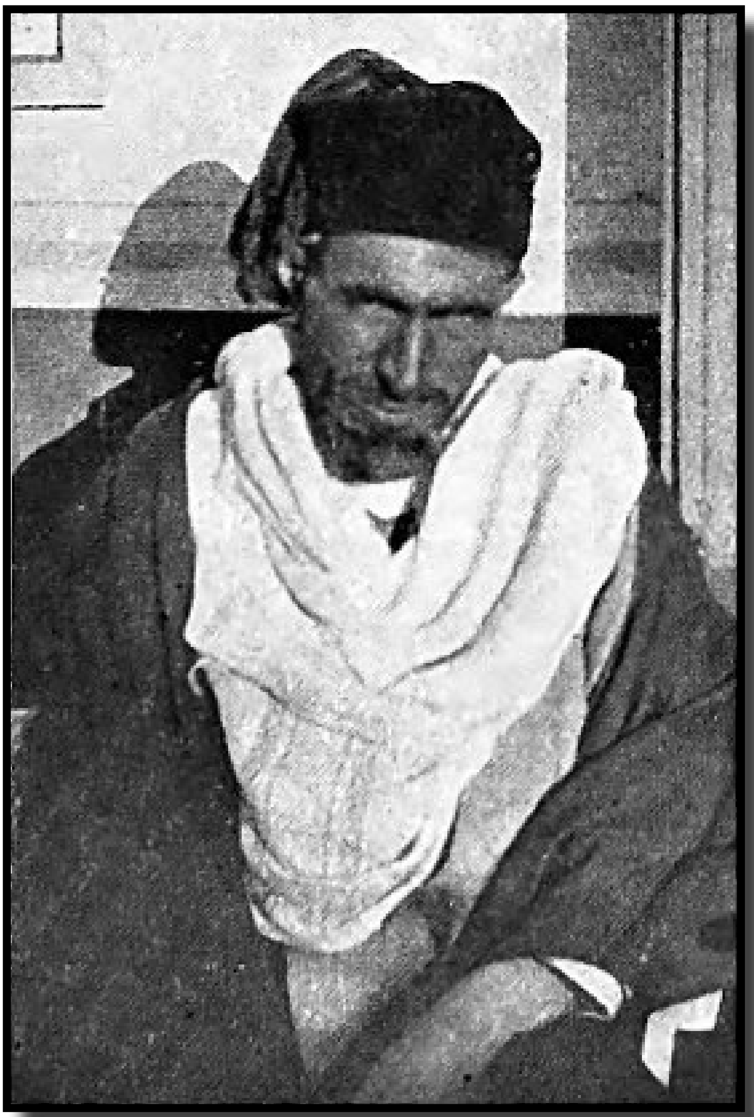
وبما أن عبور الصحراء بدا وكأنه خطة غير عملية في تلك اللحظة، فقد تخلّيت عن هذا الجزء من برنامجي. وبما أن هناك الكثير من المناطق الكبيرة الأخرى التي تنتظر الاستكشاف، فقد قررت تجربة منطقة مختلفة وانطلقت [199] لاستكشاف أكبر قدر ممكن من الأجزاء غير المعروفة من الجانبين الشرقي والغربي للمنخفض الهائل الذي تقع فيه واحة الفرافرة.

كنت أنوي أيضًا زيارة واحة إديلة الصغيرة، التي تقع على مسافة غير بعيدة إلى الغرب من الفرافرة، وكنت آمل أن أتمكن من التفوق على السنوسيين بالاندفاع إلى الكثبان الرملية إلى الجنوب الغربي من الفرافرة وتحديد موقع واحة دندورة، التي كانوا يستخدمونها أحيانًا كنقطة توقف في منتصف الطريق عند السفر من مصر إلى الكفرة.

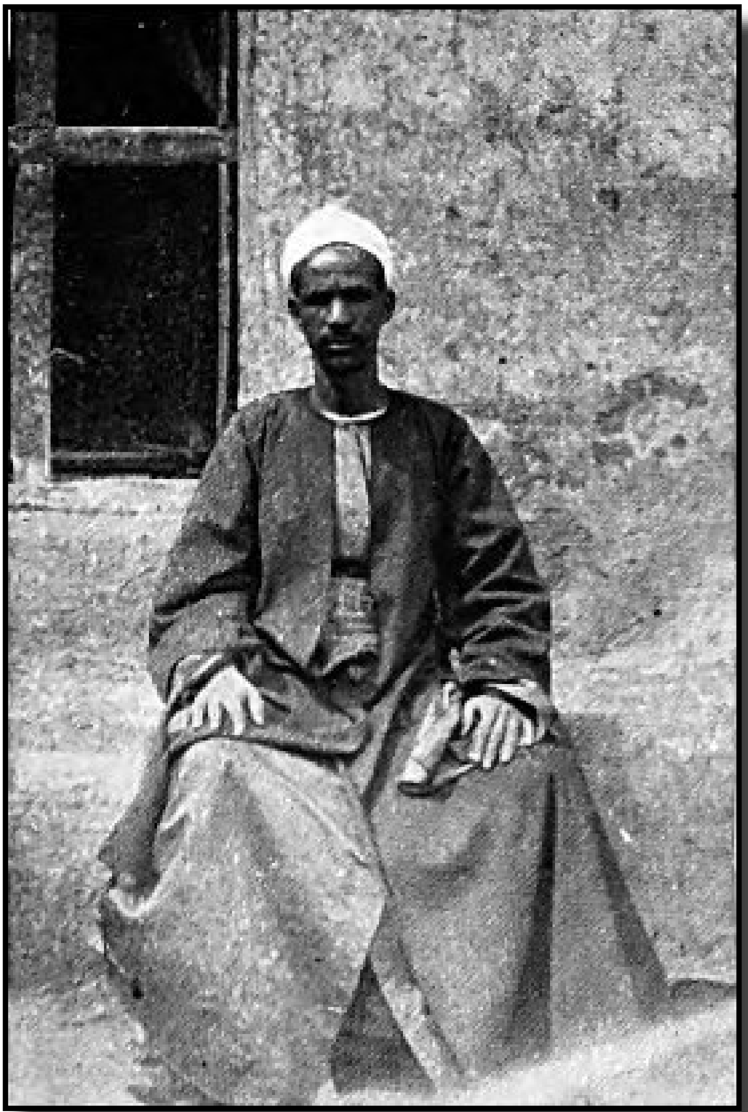
لكن للأسف الشديد (وإن لم أعلم بهذا إلا بعد ذلك)، أعلنت إحدى الصحف المحلية في القاهرة قبل انطلاقي أنني قد عدت إلى مصر مرة أخرى وأنني أنوي الذهاب متخفياً إلى الكفرة، وأن نسخة من الصحيفة قد أرسلت إلى تلك الواحة ذاتها. وكان هذا مجرد اختلاق من جانب تلك الصحيفة، وهو ما أدى إلى عواقب غير سارة إلى حد ما.

لقد نصحني أحد الأشخاص بأن أصطحب معي رجلاً من السنوسية وسائقي جمال من نفس المذهب كمرشد لي. لم تكن النصيحة مقنعة بالنسبة لي، لكن احتراماً لآراء أولئك الذين توقعت أن يعرفوا الكثير عن البلاد أكثر مني، فقد قبلتها إلى الحد الذي جعلني أقرر أن أصطحب معي مرشدًا سنوسياً وواحدًا أو اثنين من رعاة جماله، مع إضافة "عبد الرحمن" و"إبراهيم" و"دهب" أيضًا إلى القافلة، ولكن "عبد الله" لم يكن متاحًا للأسف.

لقد تعاقدت في نهاية المطاف مع رجل يدعى قويطين، وكان يقال إنه رجل موثوق به. وكان حاجي قويطين محمد سعيد (وهو اسمه الكامل) من مواليد مدينة سرك في واحة الكفرة، وكان يعيش في ذلك الوقت في وادي النيل، في منطقة منفلوط، بالقرب من أسيوط. وكان يعمل لبعض الوقت جابياً للضرائب بين البدو لصالح علي دينار سلطان دارفور. وعندما كان يرغب في التواصل، كان يستطيع أن ينقل قدراً كبيراً من المعلومات عن أجزاء غير معروفة من الصحراء. ويبدو أنه كان يعيش حياة متجولة



حاجي قويطين - مرشدي في آخر
عام لي في الصحراء. (ص 199).



الشيخ السنوسي .- كاتب القاضي في
قرية موط وشاعرها. (ص44).



على اليسار، حاجي قويطين . على اليمين، حاجي قويطين . — كان قويطين مرشدي خلال أول عامين قضيتهما في الصحراء. (ص 26).



الشيخ ابن إدريس – أحد مشايخ السنوسيين
الزاوية بالفرافرة . (ص228).

إلى حد ما، وكان يشعر بالراحة في معظم أنحاء شمال ووسط إفريقيا. فعلى سبيل المثال، كانت له زوجة من البدو في دارفور، وأخرى من التوارق في مكان ما بالقرب من تمبكتو، وواحدة (إن لم تكن اثنتان) بالقرب من منفلوط.

لقد كان رجلاً غريب الأطوار ولم أكن أهتم به على الإطلاق [200]. وعندما أخبرته بأنني أملك بالفعل اثنين من راكبي الجمال ولا أريد المزيد، انزعج بشدة وأعلن أنه لا يستطيع أن يأتمن الغرباء على جماله. وفي النهاية توصلنا إلى حل وسط من خلال الاتفاق على أن يأخذ معه ثلاثة رجال وأن أحضر أنا أيضًا "عبد الرحمن" و"إبراهيم" ودهب.

لقد طلبت أن أرى الرجال الذين كان سيحضرهم معه. وكان الرجال الثلاثة الذين أحضرهم معه (مهنى ومنصور وعبد اللطيف) أقل جاذبية من "قويطين" نفسه. لقد كانوا نماذج نموذجية لسائقي الجمال من البدو من الطبقة الدنيا الذين يوظفهم أصحاب الجمال بأجور رمزية ليتولوا رعاية حيواناتهم عندما يؤجرونها. وقد أثبتوا أنهم سائقون غير مبالين على الإطلاق. ولكن "قويطين" ورجاله كانوا ضعفاء بشكل واضح لدرجة أنني لم أشك في قدرتي على التعامل معهم إذا ما تسببوا في أي مشكلة، وذلك بفضل رجالي الثلاثة.

كنت أنوي أن أستنزف قويطين قدر استطاعتي من المعلومات التي يمكن أن يقدمها لي عن الأجزاء المجهولة من الصحراء، وبمساعدة رجالي، إجباره بالقوة، إذا لزم الأمر، على اصطحابي إلى مكان قريب من دندورة، بعد أن نغادر الفرافرة.

وبعد أن انتهيت من هذه التمهيدات، أرسلت في طلب "عبد الرحمن" و"إبراهيم" للانضمام إليّ في أسيوط، وكان دهب معي بالفعل. وبينما كنت أنتظر في الحانة اليونانية الصغيرة حيث كنت أنتظر وصول رجالي، تعرفت على مصري متعلم كان منخرطًا في نوع من الأعمال الأدبية ولم أتمكن من معرفة طبيعتها بالضبط. كانت لغته الإنجليزية ممتازة، وكان من الواضح أنه كان حريصًا على ممارستها لأنه كان يلتصق بي كالعلقة.

ولم يتعب قط من الإسهاب في الحديث عن جماليات اللغة العربية كلغة أدبية. ففي الأدب العربي (كما قال)، كان الشيء العظيم هو استخدام أكبر قدر ممكن من الاستعارات، وأفضل الاستعارات هي تلك التي كانت الأكثر غموضًا أو (على حد تعبيره) تلك التي تجعل القارئ «يعمل بعقله» إلى أقصى حد. ومن المؤكد أن بعض الأمثلة التي ساقها لم تترك أي شيء مرغوب فيه على الإطلاق في هذا الاتجاه.

أصر على الحضور لتوديعي في المحطة، حيث أوضح أنه ظل مستيقظًا لجزء طويل من

الليل [201] حتى يتمكن من التفكير في استعارة جيدة حقًا بالنسبة لي عند الفراق.

لقد كان الأمر كذلك، فهل يتذكر حادثة سابقة حيث قال إنه وصف رجلاً بأنه يمتلك كلبًا جبانًا للغاية، وماذا أظن أنه يعني؟ لقد اقترحت عليه عدة حلول محتملة: إما أنه رجل وحشي يضرب كلبه بلا رحمة، أو أنه رجل فقير للغاية لا يستطيع شراء كلب جيد، أو أنه رجل حقير للغاية يكاد يقتل الكلب جوعًا. وبما أن أيًا من هذه الحلول لم يكن صحيحًا، فقد طلبت منه أن يشرح لي الأمر، لكنه فضل أن يبقيني متوترًا ورفض أن يفعل ذلك، وكان يضحك من شدة سروره بالطريقة التي كان يجعلني بها «أعمل على تحسين عقلي».

بالقرب من نازالي جنوب، حيث خيّمتُ أثناء شراء جمالي، وجدتُ أحد معارفي الذي كانت مهمته مسح القبور ورسم الهيروغليفية عليها. حيث قال، إذا أردنا العودة إلى الاستعارة، بالإنجليزية فقط:

"الخط الوهمي الطويل للفراعنة المتوجون بالآلهة
هي غبارٌ بين غبارٍ أطاعهم يومًا ما."

لقد شاركته قبرًا مريحًا للغاية أثناء الوقت الذي قضيته هناك.

وبعد نحو أسبوع (خلاله قام "قويطين" مع "عبد الرحمن" بزيارة القرى والأسواق المجاورة بحثًا عن الإبل التي يحتاجها لإكمال القافلة)، انتقلنا إلى منزل "قويطين" على بعد سبعة أميال تقريبًا. وفي صباح اليوم التالي، 24 مارس/آذار، انطلقنا في رحلتنا إلى الصحراء. وكان "إبراهيم" في البداية (كعادته) يطلق بندقيته حسب العادة العربية لإبعاد الأرواح الشريرة أثناء رحلتنا.

قررت أولاً أن أتوجه إلى واحة غير مأهولة بالسكان تسمى بو غرارة، والتي لم يتم الإبلاغ عنها من قبل، والتي قال قويطين إنه يعرفها وتقع على مسافة صغيرة من درب الطويل وليست بعيدة جدًا إلى الشمال الشرقي [202] من الداخلة. وقال إن هذه الواحة تحتوي على أشجار النخيل والآبار وبعض المباني القديمة، لكنها مهجورة منذ سنوات طويلة.

«درب الدير» الذي سلكناه يبدأ من قرب دير قديم يسمى «الدير المحروق»، والذي أخذ اسمه منه، وهو فرع من «درب الطويل» العظيم الذي يبدأ من وادي النيل بالقرب من منفلوط ويمتد عبر هضبة الصحراء إلى واحة الداخلة.

وعند صعوده إلى الهضبة، أشار "قويطين" إلى تلة منخفضة في المسافة إلى الغرب، وقال إنها تسمى جبل جبيل، حيث توجد (كما ذكر) العديد من المقابر.

كانت الهضبة مستوية وبلا ملامح مثل الهضبة الواقعة بين وادي النيل وواحة الخارجة، والتي كانت تشبهها بشكل عام إلى حد كبير. وكانت هناك نفس البقع من الرمال والحصى، تتخللها مناطق من الحجر الجيري، وتظهر عليها نفس أنواع التآكل الناتج عن الرياح: الخراشيف والخرافيش والبطيخ والرسوف.

في العديد من الأماكن، ظهر الحجر الجيري على شكل رخام، وأحيانًا مصقولًا بفعل تأثير نفخ الرمال. وقد شوهد في الحجر الأبيض والأسود والرمادي والأصفر والوردي الجميل، في مجموعات مختلفة. وقد أظهر الكثير منه شقوقًا كبيرة على السطح، ولكن كانت هناك مناطق كبيرة من الحجر، وخاصة الرخام الرمادي بخطوط رمادية داكنة، والتي بدت صلبة . كانت الصخور في بعض الأماكن شفافة ويبدو أنها من المرمر، ولكن من نوعية رديئة للغاية. بدا بعض الرخام الوردي ذو لون وملمس جيدين، ولكن من المشكوك فيه في مثل هذا الموقع الذي يصعب الوصول إليه أن يكون قادرًا على مكافأة العمل.

في وقت مبكر من يومنا الثاني في الصحراء، انضممنا إلى الطريق الرئيسي: درب الطويل، أو «الطريق الطويل». بالقرب من شرق النقطة التي يلتقي فيها الطريقان، كانت هناك إحدى التلال الصخرية المنخفضة التي كانت مرصعة بالهضبة. من سفح هذا التل يمتد طريق غير مستخدم يؤدي إلى عين أمور، عبر عين إمباريس، وهي بئر غير مكتشفة حاولت الوصول إليها عن طريق المنخفضات الصغيرة المؤدية إلى وادي عين أمور، وقيل إنها كانت مغطاة بالرمل تقريبًا ولا تعطي سوى القليل من الماء.

في اليوم التالي، مررنا بالنقطة التي [203] يتفرع منها طريق إلى الغرب من درب الطويل ليذهب مباشرة إلى قصر الداخلة. يعرف هذا الطريق (الذي لا يبدو أنه مستخدم كثيرًا) باسم «درب الخشبة» أو «الطريق المشجر»، نظرًا لوجود بقعة من الأشجار الميتة يبلغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام على بعد حوالي يومين من نقطة انطلاقه من درب الطويل. ويقال إنه طريق سهل العبور.

وفي اليوم التالي، وصلنا إلى حزام الكثبان الرملية في أبو محرق، واستغرق عبوره ثلاث ساعات وعشرين دقيقة (أي ما يعادل ثمانية أميال ونصف الميل إذا ما سارنا بسرعة ميلين ونصف الميل في الساعة). وكانت الكثبان الرملية التي يتكون منها الحزام كلها (على حد ما رأيناه) من النوع الهلالي وربما كان ارتفاعها أقل كثيرًا من خمسة

عشر قدمًا. وكانت هناك فجوة خالية من الرمال في المكان الذي يعبر فيه الطريق الحزام، وكانت الكثبان الرملية في ذلك الجزء موزعة بشكل رقيق إلى حد ما، وإن كانت تبدو أقرب إلى بعضها البعض في الشمال. وكان الطريق بأكمله، حيث يمر عبر الحزام، خاليًا من الرمال المتناثرة. وقد خيمنا تلك الليلة في وسط الكثبان الرملية.

وعند مغادرتنا الكثبان الرملية إلى بو غرارة، أرسلت "قويطين" و"عبد الرحمن" للبحث عن واحة أخرى سمع عنها الأول، وقيل إنها تقع على مسافة ما إلى الغرب من طريقنا، إلا أنه فشل في العثور عليها. وفي المساء الذي سبق رحيله، جاء إلى خيمتي وأعلن أن «كتابه يقول» إننا سنصل في اليوم التالي إلى قارة بو غرارة. وقال إن الطريق تشعب هناك، وخرج أحد الفروع من الطريق المعتاد الذي تتبعه القوافل المتجهة إلى الداخلة، واستمر في الاتجاه إلى الغرب وأدى إلى بو غرارة، الواحة التي كنا نبحث عنها.

كان هذا أول ذكر له لأي «كتاب»، لذا سألته عن الكتاب الذي يشير إليه. بدا قويطين مندهشًا بعض الشيء لأنني لم أسمع به من قبل، وقال إنه «كتابه الثمين!»

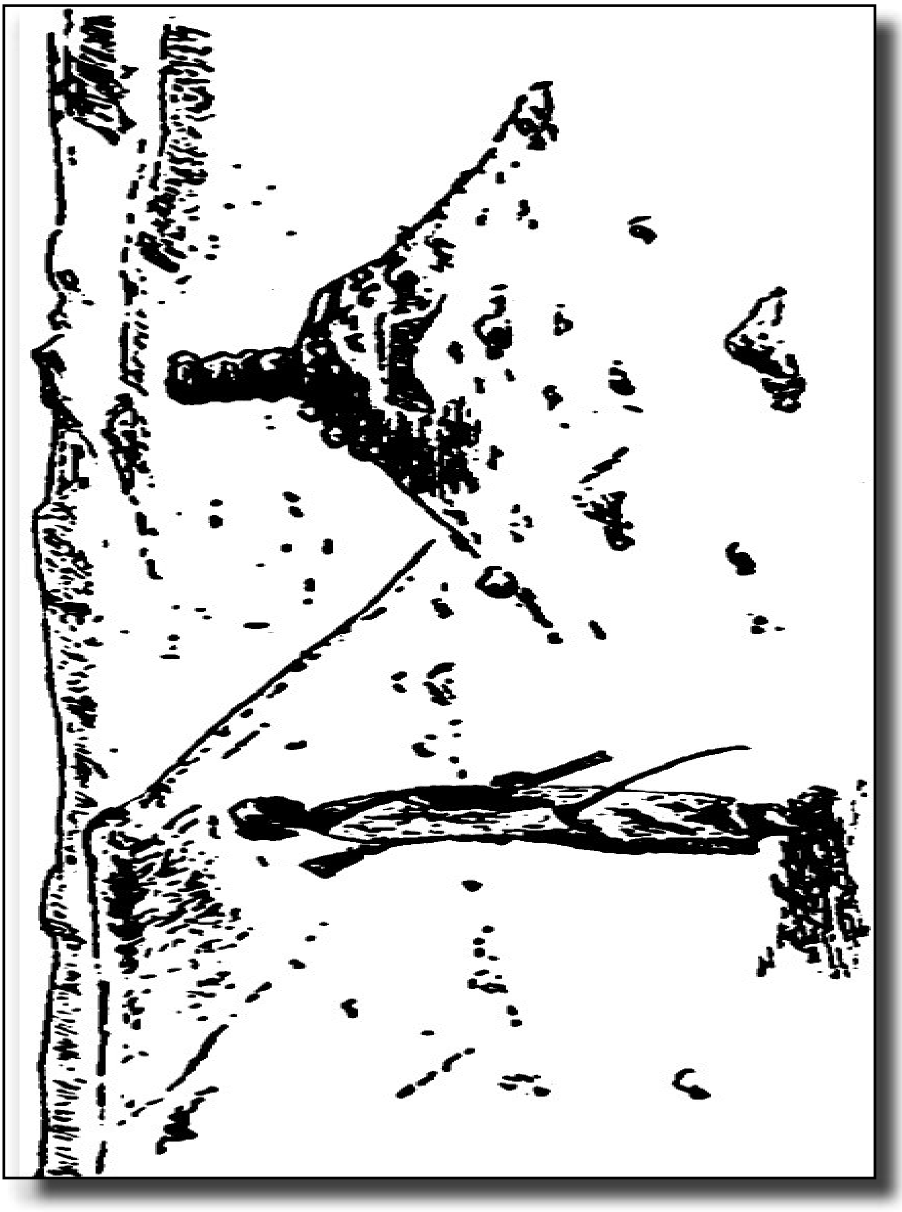
أثار الاستجواب الحذر حقيقة أنه لم يسبق له أن ذهب إلى بو غرارة من قبل، لكنه كان يعتمد بالكامل على التوجيهات الواردة في هذا المجلد الثمين ليأخذني إلى هناك. ومن الواضح أنه توقع (عندما وصلنا إلى المكان)، أن نبدأ جميعًا في الحفر بحثًا عن [204] الثروات المدفونة التي قال الكتاب أنها موجودة هناك، بدلاً من المضي قدمًا ورسم خريطة للصحراء.

كان من الواضح أنه كان يعتقد أنه يقدم لي خدمة كبيرة بإرشادي إلى سر الثروة الهائلة التي كان يتوقع العثور عليها. إن إثارة أي شك حول موثوقية كتابه الرائع كان سيسبب له إهانة قاتلة، فالسكان الأصليون حساسون للغاية تجاه هذه الموضوعات. ولكن بما أن اتباع تعليماته لم يكن من المرجح أن يأخذني بعيدًا عن الجزء الذي أردت أن أذهب إليه، وسوف يقودني إلى أرض جديدة، فقد اعتقدت أنه من الأفضل أن أجاريه، على أمل أنه عندما يفشل في العثور على المكان، سيكون على استعداد للنزول إلى العمل الأكثر دنيوية وهو رسم خريطة للصحراء. وهكذا، على عكس ميولي، وجدت نفسي أخيرًا في رحلة بحث عن الكنز!

وبعد وقت قصير من انطلاقنا في صباح اليوم التالي، مرضت إحدى الإبل. لم أتمكن من تحديد نوع المرض الذي أصابها، ولكن العلاج الذي استخدمه موهاني كان نزف الدم من طرف ذيلها، وهي العملية التي بدت وكأنها قد وفرت بعض الراحة. إن الأساليب البيطرية البدوية بسيطة ولكنها فعالة في مجملها. ويمكن تلخيصها في ثلاث

كلمات: «نزف الدم، أو دهنه بالزبدة، أو حرقه».

لقد وصلنا إلى تلة بو غرارة، وهي تلة منخفضة طويلة مسطحة القمة وذات قمة صغيرة في نهايتها الشرقية، بعد مسيرة إحدى عشر ميلاً من معسكرنا، حيث تفرع الطريق إلى بو غرارة من درب الطويل، وفقًا لكتاب كنز "قويطين".



صخرة "بيناكلي" عند النزول إلى وادي بوغرارة.

كان قويطين قد أعطى تعليمات دقيقة لموهاني بشأن العثور على المكان. لذا، عند وصوله إلى التل، جاء إليّ وأعلن أنه من الضروري الآن [205] مغادرة درب الطويل، الذي يتجه نحو الشرق، واتباع طريق يؤدي مباشرة إلى هدفنا.

ولكن رحيلنا إلى غارا بو غرارة تأجل لفترة قصيرة بسبب إصابة الجمل بنوبة أخرى من المرض الذي كان يعاني منه، مما استلزم إجراء عملية نزيف أخرى له، وهذه المرة من الأنف. وبعد نجاح العملية، بدأنا في البحث عن كنزنا.

لقد فوجئت جدًا عندما وجدت طريقًا مميزًا جدًا يتفرع من درب الطويل، ولكن من مظهره الخارجي بدا أنه لم يستخدم لفترة طويلة. وعلى الجانب الشرقي من طريقنا، بجوار درب الطويل، كانت هناك تلة صغيرة ولكنها بارزة للغاية من التربة الصفراء الزاهية، ربما الكلسية، وقد قيل لي إنها كانت تلة الذهب.

وبعد فترة وجيزة مررنا عبر مساحة صحراوية مليئة بالحجارة. وعبر هذه المنطقة الصخرية كان هناك طريق ممهد، وقد أُزيلت كل الحجارة من على سطحه، ثم تم تنعيمه بدقة، مما جعل من غير المحتمل للغاية أن يكون البدو قد قاموا بهذا العمل على الإطلاق. فاحتقارهم لجميع أشكال العمل اليدوي يدفعهم دائمًا إلى تحمل جزء سيئ في الطريق، إذا لم يتمكنوا من تجاوزه عن طريق التفاف بسيط.

بعد عبور هذا الجزء الصخري من الصحراء، وصلنا إلى قمة منحدر شديد الانحدار، حيث كان من الواضح مرة أخرى أن عرقًا أكثر تحضرًا من بدو الصحراء كان يعمل هناك. فقد تم شق الطريق إلى المستوى الأدنى من جانب المنحدر بطريقة لا تقل عن براعة مهندس حديث. بعد ذلك، شعرت بالاستعداد لأي تطورات.

بعد أن عبرنا نقب شوشينة (وهو الاسم الذي أُطلق على النزول من الهضبة إلى مستوى المنخفض)، وصلنا إلى سهل رملي مستو، حيث نجح مهنى (الذي كان يعمل مرشدًا باتباعه التوجيهات التي أعطاها له "قويطين" من كتابه الرائع) في الضياع لبعض الوقت. وبعد أن تجولنا لبعض الوقت بحثًا عن القصور الرخامية والقباب المذهبة في بو غرارة، وقع نظرنا أخيرًا على شخصين في المسافة. وعندما فحصناهما من خلال المنظار، تبين أنهما "قويطين" و"عبد الرحمن".

الفصل الثاني والعشرون

لقد وجدنا "عبد الرحمن" و"قويطين" منهمكين في التنقيب في الأرض بجد. وردًا

على سؤالي عما إذا كانا قد رأيا أي شيء من بو غرارة، قيل لي أننا نقف عليها. وأشار "قويطين" إلى أسس العديد من الجدران التي يمكن رؤيتها بوضوح فوق السطح الرملي للأرض، والكثير من الفخار المكسور الملقى في الصحراء. ثم قادني على بعد بضعة أمتار إلى حيث يمكن رؤية بقعة دائرية من التربة الرملية غير العادية يبلغ قطرها بضعة أقدام، والتي قال إنها كانت فوهة بئر، وأخرج كدفعة أولى من «الكنز» الذي تم العثور عليه: قطعة من الزجاج الأرجواني المكسور (والتي كانت تشكل فيما يبدو جزءًا من كوب أو وعاء) وعملة نحاسية من العصر البطلمي التي كان قد حفرها [206].

كان مشهد تلك العملة المعدنية مرهقًا للغاية بالنسبة لرجالي. كان كل ما بوسعي فعله هو إقناعهم بإنزال الجمال ونصب خيمتي، قبل أن ينطلقوا جميعًا للحفر في الأرض بحثًا عن ثرواتهم، متوقعين في كل لحظة العثور على الثروة التي لا تُحصى التي وصفها الكتاب. استمروا في الحفر حتى حل الظلام ولم يتمكنوا من الرؤية، ثم بدأوا في العمل لإعداد وجبة العشاء.

كان رجال قويطين أكثر بدائية في ترتيباتهم الطهوية من "عبد الرحمن" و"إبراهيم". كانت مؤونتهم من الطعام تتكون من كيس جلدي عادي من الدقيق وجرة نخارية (مغطاة بجلد خام) تحتوي على زبدة مصفاة كانوا يعلقونها على جمل وعدة علب صفيح تحتوي على جبن يبدو ضعيفًا للغاية. كانوا يخلطون الدقيق والماء والملح والزبدة معًا في عجينة ثم يفردونها إلى ألواح سميكة بعصا يبلغ قطرها حوالي ثلاثة أرباع البوصة فوق أحد صناديق المؤونة الخاصة بي. ثم أشعلوا نارًا ضخمة من الشجيرات المحيطة [207]. وعندما يسخن الرمل بدرجة كافية ويتحول الخشب إلى جمر متوهج، يكشطون النار ويضعون قطعة العجين على الرمل الساخن ويغطونها مرة أخرى بالرماد. وبعد حوالي ربع ساعة من الخبز يعتبر الخبز جاهزًا للأكل. كان رجالي يطهون عجينهم على صفيحة حديدية مقعرة قليلاً تسمى الساج.

جاء "قويطين" إلى خيمتي في المساء، مسرورًا للغاية لأنه وجد بو غرارة. ولسوء حظي اكتشفت أنه لم يكن يفكر في الذهاب إلى الفرافرة على الإطلاق بل كان في رحلة بحث عن الكنز وبدا وكأنه يتخيل أنه سيجرني معه في جميع أنحاء الصحراء بحثًا عن الثروات المدفونة. وأوضح أن كتابه لم يصف الطريق حتى بو غرارة فحسب بل قال أيضًا إنه يوجد بالقرب منه تل إلى الغرب يقف في نفس الوادي، وأشار "قويطين" إلى تل يقف بمفرده إلى الغرب كدليل قاطع على صحة كتابه، وأن طريقًا يمر عبر سفح التل وإذا اتبعته فسيؤدي إلى تل كبير يوجد على قمته بئر دُفنت فيها كنوز ثلاثة سلاطين.

وقال إنه رأى الطريق عند سفح التل في الصباح. لم يتبعه أبدًا ليرى إلى أين يقود ولكنه كان قد رأى تلًا قبل بضع سنوات في اتجاه الطريق ولاحظ الكثير من الحمام يحط على قمته وظن أنه ربما كان هو الذي يشير إليه الكتّاب وأنهم ذهبوا إلى هناك ليشربوا من البئر.

كان عقله مهووسًا إلى حد كبير بفكرة الكنز ولم أتمكن من جعله يتحدث عن أي شيء آخر.

حاولت أن أحصل منه على بعض المعلومات عن الفرافرة وإديلا، ولكن دون جدوى فعاد مرة أخرى ليجمعها على الفور. قال إنه في آخر مرة زار فيها الفرافرة كان في طريق العودة من تيبستي حيث قال إنه وجد طبقة من الماس ترتفع قدمين عن الأرض مثل الجدار وركض مسافة طويلة. لقد قطع بعض كتل الماس وقطع الزجاج، لكن شيوخ السنوسية استولوا عليها لصالح السنوسية. كان من الواضح أنه كان مستاءً للغاية بشأن هذا الموضوع.

حاولت أن أجعله يبتعد عن بلد البدايات [208] ولكنه كان عديم الفائدة تقريبًا. قال إنه يعرف عددًا من الأماكن هناك حيث توجد آثار ربما تحتوي على كنز وطلب رؤية خريطتي.

درسها لبعض الوقت وطلب مني أن أقرأ الأسماء بصوت عالٍ ثم أعلن أن كل ما كتبته كان خاطئًا وطلب قلمًا وورقة وقال إنه سيرسم لي رسمًا أفضل. وضع الورقة على الأرض ومص طرف القلم وبدأ في رسم الطرق التي تربط بين الأماكن التي سيتحدث عنها. وكان يستشير بين الحين والآخر بوصلة رخيصة للتأكد من أنه رسم الطرق في الاتجاه الصحيح. عندما اكتمل هذا الإطار بدا أشبه بشبكة عنكبوت مكسورة أكثر من أي شيء آخر.

ثم شرع بعد ذلك في وضع عدد من النقاط الضخمة على «خريطته» لتمثيل مواقع الأماكن التي يرغب في إدراجها فيها وبدأ في سرد العديد من الأسماء التي لا توجد على أي خريطة مطبوعة. وبدأت المحادثة تصبح مثيرة للاهتمام وأصبحت أقرب إلى حكايات الكنز المدفون.

ولكن الأسماء التي أطلقها العرب والتبو والبدائيون والسودانيون على الأماكن لا يتذكرها أحد بسهولة أو حتى يستوعبها بمجرد سماعها للمرة الأولى. فسمحت له بالاستمرار في السرد حتى أكمل قائمته ثم أخذت منه القلم وبدأت أكتب أمام النقاط أسماء الأماكن التي تمثلها والمسافات بينها وبين بعضها البعض واتجاهاتها. وسرعان ما نفد صبر

قويطين كما كان يفعل دائمًا كلما سألته عن تصريحاته أو رآني أكتبها ولم أتمكن من تذكر أكثر من اسمين أو ثلاثة من الأسماء قبل أن ينصرف غاضبًا.

كان من الصعب للغاية الحصول على المعلومات منه. فإذا سألته عن جزء من العالم زاره فإنه لا يعطيني أي معلومات على الإطلاق في كثير من الأحيان. وفي بعض الأحيان كان اقتراحي بأنه ربما لا يعرف شيئًا عن ذلك الجزء من العالم يحفزه على الإفصاح عن بعض معلوماته ولكن في كثير من الأحيان كان ذلك يؤدي إلى جعله ينطق بالكثير من التصريحات الكاذبة التي ربما كانت تروق لعقله اليافع باعتبارها مزحة ولكن بعد استجوابه لاحقًا تبين أنها غير صحيحة وكل ذلك كان بمثابة تذكير له بأنه لا يعرف شيئًا عن ذلك الجزء من العالم [209]. كان عليّ أن أتحقق من تصريحاته حتى أحمي نفسي من هذا الشعور الغريب بالفكاهة الذي يمتلكه.

كنت عادة أتأكد من معلوماته من خلال جعله يكرر ما قاله بعد فترة أسبوع أو أكثر وفي ذلك الوقت كنت أحسب أنه لو كذب لكان قد نسي ما قاله.

في المرة الأولى التي ضبطته فيها وهو يخدعني قمت بتوبيخه لكن تبين لي أن هذا كان خطأً فادحًا وكاد أن يؤدي إلى حجب معلوماته . لقد غضب بشدة ولعدة أيام لم يخبرني بأي شيء على الإطلاق. ثم في وقت متأخر من إحدى الليالي بينما كنت جالسًا أنتظر ظهور نجم على خط الزوال من أجل الحصول على خط عرض عندما كان على وشك الوصول وكنت على وشك إجراء المراقبة جاءني قويتين بهدوء وقال إنه سيخبرني عن بلد البدايات. كان علي أن أتخلى عن المراقبة وأذهب وأجلس في الخيمة حيث قمت بتدوين كل ما قاله مكتوبًا تحت معطف ألقي على ركبتي بحجة الشعور بالبرد حتى لا يراني أفعل ذلك.

لقد وجدت أن المعلومات التي تطوع بها بهذه الطريقة موثوقة دائمًا تقريبًا لكنه كان يختار عادةً بعض الوقت عندما أذهب إلى الفراش أو في منتصف عملٍ آخر ليأتي ويشاركني معلوماته ويتوقف على الفور إذا رآني أكتبها. أثناء مسيرة النهار أيضًا كنت أحيانًا أجعله في مزاج تواصل وكان يصف لي الطريق الذي يربط بين مكانين. تم حل صعوبة تدوين كل ما قاله قبل أن أنساه بسهولة في هذه الحالة بالتوقف لأخذ اتجاه البوصلة كما رآني أفعل كثيرًا من قبل ثم كتابة المعلومات التي تطوع بها بذريعة مواصلة المسح في دفتر طريقي.

إن جمع البيانات من السكان الأصليين كأساس لرسم الخرائط ليس بالأمر السهل كما يبدو فالعادة التي يتعمد العديد من البدو تضليلنا تجعل من الضروري التحقق من

الطرق الموصوفة بعناية شديدة. ولكن حتى المعلومات الحقيقية التي يتم جمعها بهذه الطريقة سوف تجعل الخريطة غير دقيقة إلى أقصى حد ما لم يتم العثور على وسيلة لتعديلها.

[210] كانت الخطة التي اعتمدتها هي الحصول على البيانات كلما أمكن ذلك في شكل مسارات مباشرة تربط بين مكانين تم تحديد موقعيهما مسبقًا. ومن الممكن بعد ذلك رسم الطرق الموصوفة على الخريطة واختبار دقتها وتعديل المسار ككل بحيث يتناسب مع مواقع الأماكن المعروفة بالفعل. وبهذه الطريقة يمكن تقليل الأخطاء قدر الإمكان.

ولكن جمع هذه المعلومات من "قويطين"يطين لم يكن سهلاً على الإطلاق. فمثله كمثل كل البدو تقريبًا كان أميًا وبالتالي لم يكن بوسعه أن يزودني بأسماء الأماكن (التي أعطاها لي) في الصحراء الليبية والسودان وتيبستي وإندي والتي لم يكن من الممكن العثور عليها على أي خريطة. وكان العديد منها غير قابل للنطق تقريبًا وفي بعض الحالات كانت تحتوي على أصوات لا يمكن حتى إعادة إنتاجها باستخدام الأبجدية العربية. ومن المفترض أنها كانت من لغات التبو أو البدايات وهي اللغة التي وصفها "قويطين"يطين لي بأنها تشبه «ثرثرة القرود».

ومن السهل أن نتخيل أن استحضار سلسلة طويلة من الأسماء الجديدة مثل هذه عندما يتم سحبها بسرعة كان أمرًا صعبًا إلى حد ما. ولكن الأمر بدا يستحق بذل بعض الجهد للحصول على هذه المعلومات. فقد طُلب مني أن أحصل على أي معلومات أستطيع الحصول عليها عن الأجزاء المجهولة من الصحراء، لأن قضية السنوسي كانت مطروحة في الأفق ولم تكن الحكومة في حالة غفلة كما تصور الناس. وفي ذلك الوقت كان يتم إعداد ملف ضد علي دينار سلطان دارفور الذي لم تكن تصرفاته تلقى دائمًا موافقة السلطات. لذا، فمن المرجح أن تكون المعلومات عن هذه الأجزاء المجهولة ذات فائدة عملية إلى حد ما، بالإضافة إلى تلطيخ البياض البكر لهذا الجزء من خريطة أفريقيا.

كانت معرفة قويطين بالأجزاء الأقل شهرة في شمال ووسط أفريقيا عميقة، وكان يتمتع بفضيلة عظيمة (من وجهة نظري) تتمثل في كونه غبيًا للغاية لدرجة أنه لم يكن قادرًا على إدراك قيمة كل ما يملكه. قبل أن أنتهي منه، زودني ببيانات كافية لتكوين خريطة كاملة إلى حد ما للأجزاء غير المعروفة من الصحراء الليبية، مع قدر كبير من بلاد البدايات [211]. لقد تعلمت منه الكثير من المعلومات حول تضاريس الصحراء وتوزيع الكثبان الرملية. وعندما اكتملت الخريطة، احتوت على أسماء نحو سبعين مكانًا

لم يسبق تسجيلها، وأعتقد أن العديد منها قد عُثر عليها منذ ذلك الحين تقريباً في نفس الموضع الذي ظهرت فيه. لا شك أن الخرائط من هذا النوع لا تتسم بالدقة، ولكن لها استخداماتها خاصة في إعطاء المسافرين في المستقبل ذلك الهدف المحدد الذي يبحثون عنه، والذي كنت في أمس الحاجة إليه عندما بدأت العمل في هذه الصحراء. ولو كنت تمكنت خلال سنتي الأولى من جمع المعلومات التي حصلت عليها في النهاية وخاصة من قويطين في سنتي الأخيرة لكنت بالتأكيد قد تعاملت مع المهمة بطريقة مختلفة .»

في صباح اليوم التالي لوصولنا إلى بو غرارة، بدأ الرجال في العمل بجدية في الحفر في الموقع. ونتيجة لذلك تم بحلول منتصف النهار اكتشاف بضع قطع من الفخار والزجاج المكسور واثنتين أو ثلاث عملات نحاسية صغيرة أخرى. ولأنني أردت التأكد من وجود أي ماء في البئر فقد طلبت من الرجال تنظيفها في فترة ما بعد الظهر، مما أثار استياءهم.

وبعد أن عمل رجال "قويطين" لفترة قصيرة ألقوا بأدواتهم معلنين أن هذا النوع من العمل لا يليق إلا بالفلاحين ولا يليق بكرامة العرب. ولم يكن من الممكن أن يستأنفوا عملهم إلا بعد أن أشرت إليهم أن البئر هي المكان الأكثر احتمالاً للبحث عن الكنز وذكرتهم بأن السلاطين الثلاثة دفنوا كنوزهم في البئر على قمة التل الموصوف في كتاب "قويطين". ثم قرروا أن يستأنفوا عملهم بعزم وسرعان ما قاموا بتطهير البئر حتى القاع.

كان قطر البئر حوالي تسعة أقدام وعمقها ثمانية أقدام. وعلى الجانب المؤدي إلى موقع بو غرارة كان هناك منحدر محفور في جانبه يؤدي إلى القاع. وكان الجزء الصحراوي الذي غرقت فيه البئر مغطى بطبقة رقيقة من الصخور وتحتها طبقة من الطين تمتد إلى طبقة أخرى من الصخور والتي شكلت قاع البئر. وقبل أن نبدأ في الحفر كانت البئر مليئة بالكامل بالرمال التي انجرفت إليها. وفي منتصف الطريق تقريباً ارتفعت توقعاتنا بسبب الرطوبة التي كانت تظهر في الرمال [212]. كانت المياه تتدفق من البئر حتى القاع وأصبحت الرمال أكثر رطوبة مع نزولنا ولكن لم يكن هناك ماء. كان هذا مخيباً للآمال إلى حد كبير حيث كان وجود بئر في هذه النقطة على درب الطويل ذا قيمة كبيرة للمسافرين الذين يستخدمون الطريق.

لقد أظهرت ثمار نخلة الدوم التي قمت باستخراجها وجذوع بعض أشجار النخيل التي تم بناؤها في الجدران أنه في وقت ما لا بد وأن هناك إمداداً وفيراً من المياه في المنطقة المجاورة. ربما كان المكان عبارة عن محطة محصنة صغيرة تم بناؤها أو على الأقل احتلالها

خلال العصر البطلمي لحماية البئر والتي لا بد وأنها كانت ذات أهمية كبيرة من موقعها على «الطريق الطويل».

إن وجود جذوع الأشجار المتحجرة وأحواض الأنهار القديمة في الصحراء الليبية يثبت بشكل قاطع أن هذا الجزء من العالم كان في الماضي البعيد بلداً غنياً بالمياه ولكن ما إذا كان هذا الجفاف قد بلغ ذروته قبل العصور التاريخية أو ما إذا كان لا يزال مستمراً هو أحد أكثر النقاط المثيرة للجدل فيما يتعلق بهذه المنطقة. ومن المؤكد أن فشل البئر في بو غرارة قد يكون راجعاً إلى سبب محلي بحت لم يكن واضحاً ولكن في غياب أي تفسير لطبيعته فإن هذه المستوطنة الصغيرة المهجورة تقدم حجة قوية للغاية لصالح الرأي القائل بأن إمدادات المياه (باستثناء تلك المستمدة من الآبار الارتوازية) قد فشلت بشكل ملحوظ في الأوقات الأخيرة نسبياً ويرجع ذلك على الأرجح إلى انخفاض هطول الأمطار. ومن وجهة النظر هذه كان اكتشافنا ذا أهمية إلى حد ما على الرغم من أن المكان نفسه لم يكن له أي أهمية على الإطلاق.

ولكن تم العثور عليه باتباع التعليمات الواردة في كتاب كنز قويطين. إن الأعمال التي تحمل هذا الوصف (على أقل تقدير) ينُظر إليها في مصر بقدر كبير من عدم التصديق وأنا أعترف بهذا الشك وكنت أشاركه بالكامل إلى أن اكتشفت بو غرارة.

«منذ ذلك الحين، تغيرت وجهة نظري بشأن هذه القضية، وأعتقد أن الشكوك العالمية التي تنظر بها إلى هذه الكتب قد لا تكون مبررة . جزء من هذه الشكوك يعود على الأقل إلى التحيز القوي تجاه أي معتقدات أو عادات أصيلة لا تقبل التفسير الفوري، أو التي ترتبط بأي شكل من الأشكال بالسحر أو الثروات المدفونة.

إن هذه الكتب التي تتحدث عن الكنوز كتبها في الغالب أناس من طبقة المنجمين، الذين يفترضون بوضوح أن قراءهم سيعتمدون بشكل كبير على التعويذات والوسائل الخفية المختلفة لاكتشاف الثروات المخفية التي يزعمون أنهم يعطونهم مفتاحها. لقد عاش العديد منهم في العصور الوسطى، لكن هذا النوع من الناس لم ينقرض. لا يزال هناك المئات من نفس الطبقة يمارسون فنونهم على أهل مصر السذج. أحد الموضوعات الرئيسية التي يستُشارون فيها حتى الآن هو استعادة الكنوز المدفونة. يوجد شيخ للعفاريت (حاكم الأرواح) في كل قرية تقريباً، يلجأ إليه السكان لإقناعه باستخدام «بركة الحبر»، أو أي طريقة مماثلة، للتنبؤ بالمستقبل أو إرشادهم إلى مكان دفن الكنز. ربما يؤمن بعضهم بقدراتهم الخاصة، لكن الغالبية العظمى منهم ليسوا أكثر من محتالين. حتى الآن، كل شيء يبدو سيئاً.

ولكن يبدو أن هناك قدرًا لا بأس به من الحقائق وسط كل هذا الهراء الموجود في هذه الكتب، لأنه في كثير من الحالات لا تشير فقط إلى أماكن معروفة جيدًا، مثل إسنا، ولكنها تصف أيضًا الطرق المؤدية إليها، عندما تكون هذه الطرق لا تزال قيد الاستخدام.

ولهذا السبب أعتقد أنها تستحق عناية خاصة، أو ربما من الأفضل أن أقول حذرة. صحيح أنها في كثير من الحالات تذكر أماكن وتصف طرقًا ربما كانت معروفة في الوقت الذي كتبت فيه الكتب، ولكن لا يمكن تحديدها الآن. لكن هذا لا يثبت شيئًا. هناك العديد من الآبار القديمة المرصوفة بالرمل، والواحات الصغيرة المهجورة، ومحطات البؤر الاستيطانية الصغيرة من العصور الرومانية وغيرها، مثل بو غرارة، منتشرة في الصحراء. لا تزال آثار العديد من الطرق القديمة مرئية، ولا يعرف وجهتها النهائية الآن، لكنني أعتقد أنها تؤدي إلى هذه الواحات المهجورة، والتي من المحتمل جدًا أنها كانت في القرن الخامس عشر، عندما كتب كتّاب جونسون باشا المشار إليه، قرى وواحات مكتظة بالسكان، ولكنها أصبحت مهجورة منذ فترة طويلة بسبب فشل إمدادات المياه، أو زحف الرمال، أو أي سبب آخر.

وعلى هذه الأسس، أعتقد أن هذه الكتب تحتوي، بالإضافة إلى الكثير مما لا فائدة منه إلا من باب الفضول، على بعض المعلومات القيمة ذات الطابع الجغرافي عن الأماكن القديمة في الصحراء التي فُقدت عن الأنظار منذ زمن طويل، والتي ربما تكون أسماؤها قد نُسيت الآن.

ولكن لماذا لا يتم الاهتمام بها؟ هل يرجع هذا إلى عمر الكتّاب، أم إلى حقيقة أن الأوصاف الواردة فيه ترتبط بالسحر والكنوز المخفية؟ إذا كان السبب الأول هو الصعوبة، فاسأل أي عالم آثار عما إذا كان سيتردد في البحث عن موقع مدينة قديمة، لأن الإشارات الوحيدة إليها كانت موجودة في بعض البرديات القديمة أو النقوش الهيروغليفية في المعابد. فضلاً عن ذلك، ألم تقرأ الجمعية الجغرافية الملكية ورقة أمامها حول هوية جنة عدن مع بلاد ما بين النهرين؟ إن الوصف الذي أدى إلى تحديد هوية جنة عدن مأخوذ من سفر التكوين، الذي كتب قبل وقت طويل من التفكير في أي من هذه الكتب.

إذا كان الكنز هو الذي يمثل الصعوبة، فهل لم تكن هناك مناقشة لا نهاية لها بين الجغرافيين حول هوية جزر واق الواق وغيرها من الأماكن المذكورة في «ألف ليلة وليلة»، حيث لا تدعي نسبة كبيرة من القصص الواردة فيها أنها أكثر من مجرد

حكايات خرافية؟ ومن المؤكد أن هناك ما يكفي من الكنز المدفون المذكور فيها لإرضاء أكثر صائدي الثروات حماسة في مصر.

أليس الأوروبيون المتعلمون، حتى الآن، ينطلقون باستمرار للبحث عن الثروات الهائلة التي خبأها قبل مائة أو مائتي سنة بعض القراصنة القدامى، عادة على جزيرة ما، لنقل في جزر الهند الغربية؟ إن هوية الجزيرة لا شك فيها على الإطلاق، ولكن يبدو أن الكنز لا يُعثر عليه في كثير من الأحيان!

بقينا ليوم أو يومين آخرين في بو غرارة، وخلال هذه الفترة عثر الرجال على إناء فخاري صغير وبعض قطع الزجاج والفخار المكسورة وعملة نحاسية واحدة أو اثنتين، وهذا كل شيء! وبعد ذلك، وبما أننا لم نجد أي كنز في بو غرارة، فقد بحثنا عن كنز آخر في منطقة بو غرارة. كان جميع الرجال يرغبون في الذهاب إلى التل حيث دُفنت ثروات السلاطين الثلاثة في أسرع وقت ممكن. وكان "قويطين" هو الأكثر إصرارًا بينهم جميعًا، على ما يبدو لأنه كان يفترض أنني تخلّيت عن خطتي للذهاب إلى الفرافرة وقررت بدلاً من ذلك تخصيص موسم كامل للبحث عن الكنز.

لم يكن التل الذي دُفن فيه السلاطين الصوفيون ثرواتهم بعيدًا، رغم أنه لم يكن في الاتجاه الذي كنت أعتزم الذهاب إليه. لكنه كان في جزء من الصحراء لم يتم رسمه على الخريطة من قبل، لذلك اعتقدت أنه من الأفضل أن أخضع لرغبته مرة أخرى وأسمح له بأخذي إلى هناك.

نزلنا باكرًا في الصباح التالي، وقادنا "قويطين" مباشرة نحو التل في الوادي، حيث وجدنا عند سفحه الطريق الموعود.

كلما ابتعدنا عن الجرف الواقع إلى الشمال من بو غرارة، أصبح من الممكن رؤية محيط المكان بشكل أفضل. بطبيعة الحال، كان المنظر إلى الشمال مقطوعًا بالجرف، والذي بمجرد أن ابتعدنا عنه، أصبح من الممكن رؤيته ممتدًا لعدة أميال إلى الشرق، مشكلاً استمرارًا للمنحدر الذي يحد منخفض الخارجة من جانبه الشمالي.

إلى الجنوب الشرقي كانت هناك مساحة شاسعة من الأرض المرتفعة، ومن الواضح أنها الهضبة التي تقع فيها بعض المنخفضات الصغيرة التي وجدتها إلى الشمال من عين أمور. وبقدر ما أستطيع أن أرى، لم يكن هناك جرف على الجانب الشمالي من هذه الهضبة، وكانت الأرض تنحدر إليها فقط من المستوى الأدنى. كانت هناك بئر، عين إمباريس، حاولت الوصول إليها عن طريق سلسلة المنخفضات الصغيرة، ولا شك أنها تقع بين سفح منحدر الهضبة الرئيسية وهذه الأرض المرتفعة التي تقع إلى الجنوب منها.

على الجانب الغربي، كان منحدر الهضبة مرئيًا لمسافة طويلة. قادنا طريق "قويطين" القديم في اتجاه الجنوب، موازيًا تقريبًا لجرف هضبة منفصلة. كان ملحوظًا بشكل أساسي بسبب العدد الكبير من البقع الصغيرة من الشجيرات، المعروفة باسم «الطرق»، التي كانت متناثرة على طولها. بدا أن هذه البقع هي أرض التغذية المفضلة للغزلان، بناءً على عدد الآثار التي رأيناها، ومع ذلك، كانت معظمها قديمة إلى حد ما. في أحد الأماكن، بدلاً من الشجيرات الصغيرة المعتادة، شوهدت شجرتا أكاسيا صغيرتان.

لقد رأينا التل الذي كنا نبحث عنه في فترة ما بعد الظهر، وقبل ساعة من التخييم، وصلنا إلى قمة منحدر شديد الانحدار على أرض منخفضة، على ارتفاع حوالي مائتين وخمسين قدمًا تحتنا، والتي قال "قويطين" إنها تسمى في كتابه «نزول الرومي». كان الطريق المؤدي إلى الوادي أدناه اصطناعيًا إلى حد ما، وعلى الرغم من انحداره الشديد، فقد تم اجتيازه دون صعوبة. لقد نصبنا مخيمنا أسفله.

كانت هذه الأرض المنخفضة مغطاة بالرمال والحصى لدرجة أنني لم أتمكن من رؤية ما إذا كنا لا نزال على الحجر الجيري. لكن مستوى الأرض ارتفع مرة أخرى بشكل كبير عندما اقتربنا من التل، وفي الجزء الأخير من الطريق ظهر الحجر الجيري مرة أخرى على السطح. ربما يوجد صدع في المنطقة المجاورة.

وصلنا إلى التل نفسه عند الظهر، وخيمنا على جانبه الجنوبي. كان عبارة عن تل صغير مغطى بالحجر الجيري، ويتميز بشكل خاص بمدى تماسك الحجر الجيري مع الرمال التي تحملها الرياح. عند سفح التل، بالقرب من المخيم، كانت هناك صخرة كبيرة تدحرجت من الأعلى. كان قطرها أربعة أقدام تقريبًا، وكانت مليئة بالثقوب مثل الإسفنج.

وبمجرد إقامة المخيم، اندفع الرجال إلى أعلى التل وبدأوا في البحث بدقة في كل زاوية وركن عن البئر المذكورة، بينما كان "قويطين" يتجول بحزن على طول قاع التل، باحثًا بلا جدوى عن الزجاج المكسور الذي تنبأ كتابه أنه سيعثر عليه هناك. لقد اعتقد أنه ربما أخطأ التل، وقال، إذا لم نتمكن من العثور على البئر أو أي زجاج، فمن الأفضل أن نتبع الطريق إلى أبعد من ذلك، لنرى ما إذا كان هناك تل آخر فوقه قد يكون هو الذي أشار إليه كتابه. لكن إضاعة المزيد من الوقت في البحث عن ذلك التل كان آخر شيء كنت أنوي القيام به.

بحلول غروب الشمس لم يتم العثور على البئر، على الرغم من أنه لا بد من فحص كل شبر من هذا التل بعناية شديدة عدة مرات.

لقد كانت هذه ضربة قوية لآمال "قويطين"، وخيبة أمل واضحة للقافلة بأكملها باستثناء «إبراهيم»، الذي أوضح لي أنه لم يكن ليمانع في الحصول على القليل من المال، لكنه لا يعرف ماذا يفعل بأكياس الذهب، أو الماس، حتى لو وجدها.

وفي المساء، عقدنا أنا و"قويطين" وعبد الرحمن ودهب مشاورة جادة. وكان موقع التلة يتطابق مع الوصف الوارد في كتاب "قويطين"، حتى إنه شعر بأنه الموقع الصحيح، ولكنه كان قلقاً للغاية بشأن الفشل في العثور على البئر.

قال دهب إنه يعتقد أنها ربما كانت موجودة بالفعل، لكنها كانت مخفية بالسحر، وسيكون من الضروري أن نحرق بعض البخور قبل أن تصبح مرئية.

لقد ابتهج "قويطين" إلى حد ما بهذه الفكرة، لكنه قال إننا لا نحمل معنا أي بخور، وأضاف أنه من الصعب اللعب بهذا الأمر، حيث كان من المهم للغاية أن يكون لدينا النوع المناسب، ويجب أن نكون متأكدين من أننا نعرف كيفية استخدامه.

ووافق عبد الرحمن على هذا، وكان حازماً للغاية في قوله إنه ينبغي لنا أن نكون على يقين تام من أننا قد تعبنا من ذلك، لأنه سمع قصة عن عربي مغربي انضم إلى فلاحين اثنين في البحث عن كنز مدفون في بعض المقابر على جانب تل كان له سحر عليه، وبالتالي لا يمكن فتحه إلا بإجراءات رسمية مناسبة. ووجدوا المكان الذي كانت المقابر مخفية فيه، ثم قاموا بالتلاوات اللازمة وأحرقوا بعض البخور وفتحوا المقابر على الفور. ثم دخل الفلاحان لجمع الكنز بينما بقي المغربي بالخارج لرعاية جماله وإبقاء البخور مشتعلاً. ومن المؤسف أن البخور نفد، وبمجرد إحراق آخر ما تبقى منه، أغلقت المقابر مرة أخرى بضجة، فدُفن الفلاحان التعيسان على قيد الحياة. وكان المغربي قد عاد بعد ذلك إلى منزله مع جماله، وكان عبد الرحمن على يقين من أن ذلك العربي قد فعل شيئاً ذكياً للغاية.

واقترح أنه من الأفضل لنا، من باب الأمان، أن نذهب ونستدعي الشيخ إبراهيم، شيخ العفاريت من الداخلة، ليخرج ويؤدي التعاويذ اللازمة. لكن هذا لم يلق موافقة "قويطين" على الإطلاق. وقال إن الشيخ إبراهيم كان عضواً في الحركة السنوسية. وكان يعرف كل شيء عنه. كان لديه الكتب الصحيحة والبخور المناسب وكان ماهراً جداً في عمله. لكنه كان رجلاً سيئاً لدرجة أن الأرواح لم تكن تطيعه في بعض الأحيان، وأشار إلى أنه إذا أضرب أحد العفاريت في منتصف العرض، فقد نجد أنفسنا في ورطة كبيرة.

وبعد نقاش جاد، توصلنا إلى نتيجة مفادها أنه في ظل هذه الظروف لا جدوى

من إضاعة المزيد من الوقت في فحص التل، ولكن في نهاية الرحلة سنذهب ونستعين بساحر من الدرجة الأولى حاصل على شهادة عالية من القاهرة أو من إحدى المدن الكبرى، ونجعله يخرج ويقوم بالمهمة. وفي غضون ذلك، وكما أخبرني "قويطين" أن هناك بعض التلال في تل القيروان، فيجب أن نذهب إلى هناك عبر الجزء الشرقي من منخفض الفرافرة ونرى ما إذا كانت تحتوي على كنوز. وكان "قويطين" قد سمع أنها تحتوي على مبان، ولذلك اعتقد أنها قد تكون مكانًا محتملاً للثروات المدفونة، رغم أنه، كما قال بحزن، لم يكن يتوقع أن نجد شيئًا مثل ما كان من الممكن أن نفعله لو اكتشفنا كنز هؤلاء السلاطين الثلاثة. وفي صباح اليوم التالي، انطلقت قافلة محبطة إلى الجانب الشرقي من الفرافرة.

الفصل الثالث والعشرون

عند مغادرة التل، سلكنا طريقًا يقودنا نحو الشمال. التففنا أولاً حول الطرف الغربي من منحدر الهضبة المنفصلة الموازية التي سرنا إليها قادمين من بو غرارة، وبعد حوالي ساعتين من انطلاقنا، صعدنا منحدراً شديد الانحدار إلى قمة الهضبة، التي لم يكن ارتفاعها هنا سوى حوالي خمسين قدماً.

من قمة تلة صغيرة قريبة، كان من الممكن رؤية جرف ضخم يمتد إلى الشمال والجنوب، إلى أقصى مدى يمكن للعين أن تراه في الشرق. بدا هذا الجرف هو الحد الشرقي لمنخفض الفرافرة، وكما اكتشفت لاحقًا، هو استمرار للجرف إلى الشمال من بو غرارة.

كان المنحدر بعيدًا جدًا بحيث لم أتمكن من رؤية أي تفاصيل لسطحه، بسبب الضوء الذي كان خلفه. وبما أن الجزء العلوي منه كان يظهر كخط مستقيم فقط، لم تكن هناك نقاط عليه يمكنني تحديد اتجاهها.

في ظل هذه الظروف، كان من المستحيل تحديد موقعه أو تقدير الاتجاه الذي يسير فيه. وقد واجهت هذه الصعوبة عدة مرات، لكنني وجدت أنه عندما يواجه الجرف جهة الجنوب، فكل ما علي فعله هو الانتظار حتى تدور الشمس بعيدًا بما يكفي لبدء إضاءة سطحه، وبعد ذلك يمكن الحصول على تقدير تقريبي للاتجاه الذي يسير فيه الجرف من خلال أخذ اتجاه الشمس نفسها. وكانت هذه الحيلة مفيدة بشكل خاص عندما كان من الضروري رسم خريطة لاستمرار الجرف، حيث تم مسح جزء منه بالفعل ولم يكن من الممكن رؤية بقية الجرف إلا من نقطة واحدة، مثل قمة تل مرتفع.

كان الجزء من منخفض الفرافرة الذي وجدنا أنفسنا فيه عبارة عن سهل خالٍ من الملامح، يتكون من رمال مستوية صلبة، ينحدر قليلاً نحو سفح المنحدر على الجانب الشرقي منا. هنا وهناك صادفنا بقعًا من الرمال الناعمة، أو الطين الأخضر اللون، مع خطوط بيضاء تمر من خلاله، تظهر فوق سطح الرمال.

يُقال إن الملك الفارسي قمبيز، أثناء احتلاله لمصر، أرسل جيشًا عظيمًا عبر الصحراء لتدمير معبد جوبيتر آمون في واحة سيوة. لم يصل الجيش إلى سيوة قط، بل ضاع في الصحراء. لا أحد يعرف آخر مكان استراح فيه، ولكن وفقًا للتقارير المحلية، هلك الجيش بأكمله عطشًا في هذا المنخفض الضخم الذي تقع فيه واحة الفرافرة.

لقد ذكرت ل"قويطين" موضوع الرمال الغنائية، وسألته عما إذا كان قد سمع أيًا منها من قبل. أخبرني أنه في مكان ما في شمال منخفض الفرافرة توجد صخرة يُفترض أنها "كنيسة" أرواح الجيش الفارسي المفقود. وقد أُطلق عليها اسم "الصخرة الكافرة"، لأنها "تغني يوم الأحد". ويبدو أنها نوع من الرمال الموسيقية.

لم نرَ في الغرب حقل الكثبان الرملية الذي يحتل وسط وادي الفرافرة إلا في اليوم الثالث من انطلاقنا من تل الكنز. بدت هذه الكثبان بيضاء اللون تقريبًا، وتقع على مسافة بعيدة.

أخبرني "قويطين" أنه يتعين علينا الوصول إلى حطية القيروان في اليوم الثالث بعد مغادرة تلته. وسوف يعطيكم هذا فكرة عن عدم كفاءته المطلقة كمرشد عندما أقول إننا لم نصل إلى هناك فعليًا إلا بعد خمسة أيام.

لقد جاء إلى خيمتي في المساء الأول وبدأ في الحكي بطريقة عشوائية، كما يفعل عادةً كمقدمة لموضوع جاد، وحاولت استخراج بعض المعلومات منه فيما يتعلق بتضاريس بلد البدايات، التي كان على دراية بها جيدًا.

لكنه سرعان ما فقد صبره وغير الموضوع إلى موضوع التلة المربكة التي كان يسكنها. وانتهى به الأمر إلى أن يطلب منا، بل ويطالبنا، بالعودة إلى هناك لنلقي نظرة أخرى عليها، ولنتأكد من عدم وجود تلة أخرى في الجوار قد تكون هي التي أشار إليها في كتابه. وعندما رفضت ذلك، قفز خارج الخيمة. لقد كان بالتأكيد زبونًا غريب الأطوار.

كلما تحدثت معه في اليوم التالي بدأ يتذمر بشأن تلته البائسة، وقال إنه يريد العودة إليها. ولكن نحو المساء استعاد عافيته، وعندما جاء إلى خيمتي، قمت مرة أخرى بالتحقيق في بلد البدايات. ورغم أنه رفض أن يخبرني بأي شيء عن المنطقة، فقد بدأ

في إعطائي الكثير من المعلومات عن البدايات أنفسهم، والتي، نظراً لكونهم عرقًا غير معروف تقريبًا، أثبتت أنها مثيرة للاهتمام للغاية.

يزعمون أنهم يتحدرون من عفريت، والذي بسبب جريمة ما حبسه داود أو "سليمان" في صندوق، حتى كبر إلى حجم هائل لدرجة أنه فتحه. ويبدو أنه لا يزال هناك قبيلة هجينة من قبيلة البدايات، قبيلة تبو، تعرف باسم مخيات الريح، تمتلك القوة المعجزة المتمثلة في القدرة على المشي على الرمال دون ترك أي آثار خلفها، وهو إنجاز مفيد للغاية في الصحراء لسلالة من القراصنة بالفطرة. هذه الميزة يدينون بها لحقيقة أنه أينما ذهبوا تتبعهم ريح تمحو آثار أقدامهم على الفور!

في يومنا الرابع بعد مغادرة تل الكنز، اتجه طريقنا نحو الكثبان الرملية الواقعة إلى الغرب منا، وبما أن "قويطين" بدا وكأنه ضائع بلا أمل، فقد تسلقت أحد أكبر الكثبان الرملية معه لمحاولة تحديد موقعنا.

من أعلى التلة، كان من الممكن رؤية المنحدر الشرقي والغربي، مع وجود فجوة فيه تؤدي إلى واحة بحرية، التي تقع شمال الفرافرة، ولكن لم يكن هناك أي أثر لحطية القيروان. ومع ذلك، كان أمامنا سيف مرتفع ثلاثي الرؤوس، أو كثيب رملي طولي، أعلنه "قويطين" بأنه معلم للحطية من الجنوب.

وبما أننا كنا نعاني من نقص شديد في المياه، فقد تسببت أنباء عدم وجود الحطية في الأفق في إحداث نوع من الذعر بين رجالي. فبدأوا جميعًا يتذمرون من جهل "قويطين" بالطريق، وذهب إبراهيم إلى حد سؤاله مباشرة عن سبب تسميته نفسه مرشداً، إذا كان لا يعرف سوى القليل عن الصحراء.

كان هذا الكلام صادراً من شاب سوداني لم يتجاوز بعد سن المراهقة، إلى مرشد عربي مسن، وشيخ لقبيلته، وكان ذلك عيباً كبيراً، وانزعج أهل "قويطين" بشدة. وفي ظل هذه الظروف، كان أهل "قويطين" سيضطرون إلى الرد. ولقد ردوا على ذلك ببعض التعليقات اللاذعة حول دونية "العبيد" والاحترام الواجب على الصبي أن يبديه لكبار السن والرؤساء في الرتبة، ولكن "قويطين" كان يفتقر إلى قواه المستعدة للسباب والقذف. لقد كان عجوزاً بطيئاً في التفكير، وفشل في وضع إبراهيم في مكانه الصحيح. ووقف رجاله إلى جانبه بطريقة ضعيفة، ولكنهم لم يكونوا نداً لإبراهيم، وفي النهاية تخلوا عن أي محاولة للدفاع عن شيخهم، ربما لأنهم شعروا بأنهم لا يملكون الكثير ليقولوه في دفاعهم عنه. ولأنني كنت أرغب في تشجيع قدر معين من الاحتكاك بين رجالي ورجال "قويطين"، فقد تركتهم لحل خلافاتهم بأفضل ما يمكنهم، وكانت النتيجة أن

"قويطين" ورجاله قد نالوا النصيب الأكبر من المشاجرة.

تبلغ مساحة حطية القيروان حوالي ثمانية عشر ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وسبعة أميال من الشرق إلى الغرب. وهي تتألف من منطقة مستوية مغطاة بالشجيرات، حيث يمكن رؤية بعض أشجار النخيل المهملة هنا وهناك. وقد حُفرت عدة آبار هنا في أوقات مختلفة. إحدى هذه الآبار تقع على الحافة الشرقية القصوى من الحطية، حيث يدخل الطريق القادم من أسيوط أولاً إلى الشجيرات، وتُعرف باسم بئر مر. ويقال إن هذه البئر، التي لم أزرها، قد رُصفت بالرمل. وأعتقد أن بئرًا أخرى في مكان ما إلى الشمال تُعرف باسم بئر عبد القادر. وهناك أيضًا العديد من الآبار الأخرى، ويبدو أن جميعها تُسمى بير القيروان بشكل محايد. وربما يمكن العثور على الماء تحت جميع الأجزاء السفلية من الحطية عن طريق الحفر لبضعة أقدام في الأرض، التي تتكون في جميع أنحاء هذه المنطقة من الطباشير.

في كل الأحوال، يبدو أن الآبار تعطي مياهًا كثيفة للغاية بجزيئات الطباشير، بحيث يصبح الماء عند سحبه منها في البداية حليبياً تقريباً مثل الجير الأبيض. وقد فشلت محاولات تنقية المياه عن طريق تمريرها عبر مرشح بيركفيلد، حيث سد الطباشير المرشح بعد بضع ضربات. ولكن عندما تُركت المياه لبضع ساعات، استقر معظم الطباشير في القاع، ومرت المياه التي تم سكبها بسهولة تامة عبر المرشح، وبعد ذلك ثبت أنها ذات جودة جيدة.

لسوء الحظ، نسيت أن أشغل ساعتي في الليلة الأولى في الحطية، وبالتالي نفدت نصف ساعة الكرونومتر التي كنت أستخدمها في تدوين ملاحظاتي. وبما أنني كنت أعتمد عليه في تحديد خطوط الطول الخاصة بي، فقد كان هذا ضرورياً للبقاء لمدة يومين أو ثلاثة أيام في المخيم من أجل التأكد من سرعته الجديدة بعد إعادة لفه.

ولسبب ما، صُنعت هذه الساعات بحيث تعمل ليوم واحد فقط. ونظراً لأن مثل هذه الأخطاء شائعة الحدوث بين المسافرين، فيبدو أنه من الأفضل أن تصنع هذه الساعات بحيث تعمل ليومين، وأن تكون مزودة بمؤشر لأعلى ولأسفل لإظهار المدة التي انقضت منذ آخر مرة تم فيها لفها.

قضيت جزءًا كبيراً من الوقت أثناء وجودي في الحطية في محاولة، دون جدوى، للحصول على فرصة لصيد الغزلان. بدا أن هناك عدداً قليلاً جداً منها في المنطقة، على الرغم من أنه كان من الممكن رؤية عدد كبير من آثار أقدامها القديمة حيث كانت تتغذى على الشجيرات.

ولعل ندرة الصيد هذه كانت راجعة إلى أن بعض البدو كانوا يعيشون في ذلك الوقت هناك، وكانوا مسؤولين عن بعض الإبل المملوكة للزاوية السنوسية في قصر الفرافرة. وكان هؤلاء الرجال يبتعدون عن المخيم، ولكنني رأيتهم هم وإبلهم عدة مرات يتجولون في الأدغال، ووجدت مرتين أكواخًا صغيرة مبنية من الحطب كانوا يعيشون فيها، ولم يكن لديهم، على حد علمي، أي خيام.

لقد أمضى رجالي معظم وقتهم في التنقيبٍ في بعض التلال الكبيرة. وعلى قمة أحد هذه التلال، التي يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين قدما، عثر إبراهيم على بعض الطوب المحروق. وكان التل بأكمله مغطى بنمو كثيف من شجيرات الترفا، التي تراكمت الرمال بينها، مما أدى إلى إخفاء أي مبنى قد يكون موجوداً تحتها .

لا بد أنه كان في الأصل مبنىً ذا حجم معين وارتفاع كبير، وربما كان برجًا. وقد اكتشف الرجال جزءًا من غرفة صغيرة في قاعدة التل. كانت الغرفة مبنية بشكل جيد، من نفس الطوب المحروق، وكان الجزء الداخلي مغطى بالجص. وقد عُثر على بضع قطع من الفخار المكسور، إحداها مغطاة بطلاء أخضر. كان هناك أربع أو خمس تلال أخرى ذات طبيعة مماثلة في المنطقة المجاورة، لكن لم يكن لدينا الوقت ولا الأدوات اللازمة لفحصها بدقة.

كنتيجة إجمالية لبحثهم عن الكنز في القيروان، لم يعثر الرجال إلا على جثة واحدة وبعض القطع من الفخار المكسور. لم يجدوا حتى قطعة نحاسية واحدة لإشباع جشعهم. ونتيجة لذلك، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة في جهودهم، ولم أواجه أي صعوبة في إقناعهم بالتوجه إلى قصر الفرافرة.

توجهت أولًا إلى البئر الرئيسية، المعروفة باسم بئر القيروان، لإغلاق طريقي. كان مستوى المياه حوالي ثمانية أقدام تحت السطح، وكان الوصول إليها يتم من خلال المسار المنحدر المعتاد، الذي تم قطعه من أحد جوانبه. وعند قمة البئر كان هناك حوض مبني من الطين لسقي الإبل، وبجانبه علبة بارافين فارغة لاستخدامها كدلو.

بمجرد مغادرة الحطية، وصلنا إلى الكثبان الرملية التي تغطي مساحة كبيرة في وسط منخفض الفرافرة. كان عبور الكثبان الرملية الأولى والثانية والثالثة صعباً إلى حد ما، لكننا وجدنا عبور بقية الكثبان سهلاً للغاية. كانت جميعها، على حد ما أستطيع أن أرى، من النوع الطولي جداً الذي يشبه ظهر الحوت، والذي يمتد تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، في اتجاه الرياح السائدة.

كانت منطقة قصر الفرافرة تقع إلى الغرب من معسكرنا مباشرةً. وبعد أن دخلنا إلى

الرمال، اتضح لي أن "قويطين" قد ضل طريقه مرة أخرى، حيث وجدت أننا نسير نحو الجنوب تقريبًا. واضطررت إلى أن أقنع مرشدي، بكل ما أوتيت من قوة، بأنه إذا غير الاتجاه الذي يقودنا إليه بزاوية قائمة، فربما نصل إلى وجهتنا، بدلاً من الاستمرار إلى واحة الداخلة كما بدا لنا. وكان "قويطين" قد ضل طريقه إلى حد أنه قبل اقتراحي دون أدنى جدال.

وبعد فترة وجيزة من ذلك، خرجنا من الرمال إلى صحراء مستوية، حيث رأينا عددًا كبيرًا من عقيدات البيريت السوداء ملقاة على السطح. وبعد ذلك، وجدنا بعض العينات الدقيقة لتآكل الرمال على شكل "فطر" طباشيري وصخور منضدية. وبخلاف ذلك، كان هذا الجزء من الصحراء بلا معالم مميزة. كان الطريق يقع بالكامل فوق الطباشير الأبيض، مما تسبب في وهج مجهد إلى حد ما في ضوء الشمس الحارق.

لقد رأينا قصر الفرافرة في مساء اليوم الثاني بعد مغادرة القيروان، ولكن عندما حل الليل قبل أن نتمكن من الوصول إليه، خيمنا على بعد أميال قليلة من القرية. وفي صباح اليوم التالي، وبعد مسيرة ساعتين، وصلنا إلى الواحة. وفي ضواحيها، مررنا برقعة من الأرض كانت الرمال تغطيها، وكانت بعض أشجار النخيل الواقعة إلى الشمال منها مغمورة بالكامل تقريبًا بالمياه.

خيّمنا على الجانب الشمالي من القرية. وخرج حشد كبير من السكان الأصليين ووقفوا يراقبوننا أثناء نصب الخيمة. وكان من بينهم رجل ذو مظهر عابس، قيل لي إنه العمدة، لذا، بمجرد نصب الخيمة، دعوته وبعض الرجال الآخرين الواقفين بجوارنا للدخول.

لقد خيَّمنا بغباء على مقربة شديدة من القرية، وكانت النتيجة أن المخيم كان محاطًا طوال الجزء الأكبر من اليوم بحشد من الرجال والأطفال يراقبون كل تصرفاتنا، ويحدقون في الخيمة، ويتجمعون حول جهاز المزواة، عندما بدأت في تسجيل الملاحظات، وكانوا عمومًا يظهرون فضولًا سيئًا يتناقض مع سلوك أهل الواحات الأخرى التي مكثنا فيها. ولأن الفرافرة هي الأقل شهرة بين الواحات المصرية، كان قدوم الأوروبيين حدثًا نادرًا للغاية لدرجة أن أهلها قرروا على ما يبدو الاستفادة منه قدر الإمكان."

"إن سكان واحة الفرافرة، المعروفون بالفرافراويين، هم مجموعة أكثر قوة وحيوية من سكان الخارجة والداخلة. إنهم يتميزون بمظهرهم القاسي.

في اليوم التالي لوصولنا، تجولت مع العمدة و"قويطين" لزيارة القرية والمزارع. باستثناء العزبة في عين شيخ مرزق، حيث توجد بضعة منازل وزاوية سنوسية وعائلة

أو اثنتان تقيمان باستمرار لرعاية الزراعة بالقرب من البئر، فإن قصر الفرافرة هو المكان الوحيد المأهول بالسكان بشكل دائم في منخفض الفرافرة بأكمله. إنه مكان صغير فقير يبلغ إجمالي عدد سكانه حوالي خمسمائة وخمسين نسمة. المنازل من النوع المعتاد المبني من الطين، وفي معظم الحالات ليست أفضل من الأكواخ. والاستثناء الوحيد تقريبا هو برج مربع يظهر في بعض الأماكن بقايا أسواره، وينسبها السكان الأصليون، ربما بحق، إلى الرومان، الذين يُقال إنهم أقاموه كحصن لحماية القرية.

لقد ثبت أن هذا المكان مثير للاهتمام إلى حد ما. فهو غير مأهول بالسكان، ولكن الباب مغلق ويحرسه حارس دائم الحراسة. ويُستخدم المبنى كمخزن فقط، ولكل أسرة في القرية الحق في استخدام إحدى الغرف التي يحتويها، ويقال إن المبنى يحتوي على ما لا يقل عن مائة وخمسة وعشرين غرفة.

أرشدنا العمدة إلى البرج. كان المدخل يقع عبر باب خشبي قوي، أعلى مجموعة من الدرجات، في ممر يتم الدخول إليه في منتصف أحد الجدران الخارجية، وكانت الجدران على جانبيه مثقوبة بفتحات، ويبدو أنها كانت مخصصة لاستخدامها كثقوب. كان الممر يمتد على ارتفاع المبنى بالكامل وكان غير مسقوف، حتى يمكن إسقاط الحجارة من أعلى على أي مهاجم يحاول اقتحام الباب.

كان الجزء الداخلي من البرج عبارة عن متاهة مثالية من السلالم المتعرجة والغرف الصغيرة التي تفتح من ممرات مظلمة ضيقة. وبعد أن تسلقنا عدة مجموعات من الدرجات وضربنا رأسنا مرارًا وتكرارًا في الظلام بالسقف المنخفض، خرجنا أخيرًا إلى نوع من الفناء في الأعلى، محاطًا بطبقتين من الغرف الصغيرة، كل منها مزود بباب مغلق خاص به. وبعد المزيد من التسلق، وصلنا إلى السطح الذي غطى الغرف وشكل نوعًا من المنصة المحيطة بالفناء. ومن هنا يمكن الحصول على منظر واسع للواحة والمنخفض.

لم يكن هناك الكثير من الأمور التي يمكن رؤيتها. ففي الأسفل كانت القرية تبدو، عند النظر إليها من الأعلى، أكثر بؤسًا من النظر إليها من الأسفل. وكانت تنتشر حولها، في دائرة نصف قطرها بضعة أميال، عدد من البقع الصغيرة المزروعة، والتي تُظهر مواقع الآبار والينابيع المختلفة. وعلى بعد سبعة أو ثمانية أميال إلى الغرب كان هناك جرف ذو ارتفاع كبير، يشكل منحدر جوس أبو سعيد، وهي هضبة معزولة تقع خلفها، على الرغم من أنها غير مرئية من البرج، بئر "بئر لبيات"، وواحات صغيرة من إديلة ونسلة، في منخفض كبير آخر، أبعاده غير معروفة. وفي كل مكان على أرضية المنخفض، كانت هناك تلال معزولة تنتصب لكسر رتابة المستوى، وأبرزها جبل قونة



[صورة: صبي يحمل قوسًا ونشابًا، الفرافرة...]

البحري، على بعد حوالي خمسة عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي. وبخلاف ذلك، كان المنظر فوق المنخفض رتيباً بشكل غريب. الميزة الأخرى الوحيدة التي يمكن ملاحظتها هي المنحدرات في المسافة البعيدة إلى الشمال والشرق والتي تمثل حدود الهضبة الأعلى.

وعند النزول من البرج، أخذني العمدة في جولة حول القرية. وباستثناء مظهرها الفقير، لم تكن تختلف كثيرًا عن تلك الموجودة في واحات الداخلة والخارجة. فقد بدا أن هناك عددًا قليلاً من المنازل ذات الطابق الثاني، ونادرًا ما كانت سياجات النخيل، التي كانت عادة تعلو الجدار المحيط بالأسقف المسطحة في الواحات الأخرى، مرئية.

وبعد أن أكملنا مسح القرية، أخذنا العمدة إلى منزله. وكان المنزل فقيرًا للغاية بالنسبة لرجل في مثل مكانته في القرية، وكان يعج بالدواجن والماعز والأطفال الصغار القذرين، الذين يعانون في الغالب من القوباء الحلقية. وقد أعطانا بعض التمر وشايًا سيئًا للغاية، ولكن لم يتم إنتاج أي سجائر، ربما لأنه، مثل معظم سكان المكان، "يتبع الشيخ".

وفي فترة ما بعد الظهر، ذهبت مع عبد الرحمن والعمدة لرؤية رافعة آلة الحفر التي أعطاها أحد الأثرياء المصريين في القاهرة للزاوية، حتى يتمكنوا من حفر بئر جديدة. أرادوا أن أعرف رأيي فيها، حيث انكسرت اثنتان من عجلاتها المسننة، مما أدى إلى توقف أعمال حفر البئر. كان من الواضح أنه لا يوجد شيء يمكن فعله، باستثناء استبدال العجلات. قمت بأخذ قياسات الأجزاء المكسورة ووعدت بصنع نسخ طبق الأصل منها في القاهرة، عندما أعود، وإرسالها إلى الواحة.

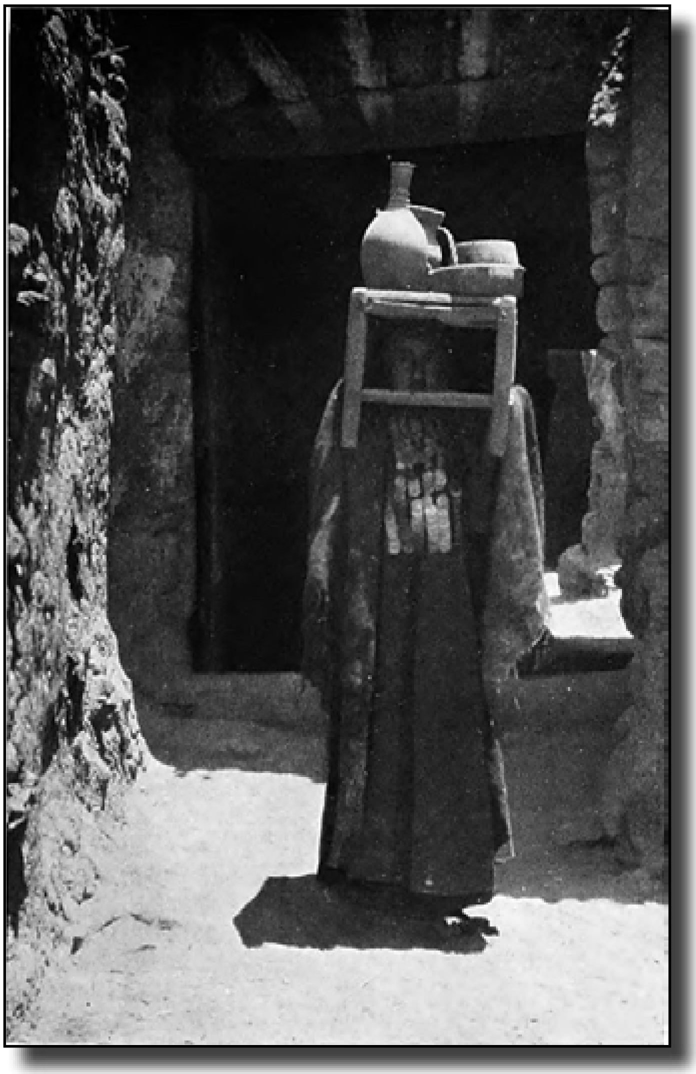
كنت منهمكًا في تدوين أبعادهم، عندما أبلغني عبد الرحمن أن شيوخ السنوسية كانوا قادمين من الزاوية، ورأيت رجلين، مع "قويطين" في موكبهما، يتجولان في اتجاهي.

كانت الزاوية يديرها ثلاثة شيوخ أشقاء، وكان الأكبر منهم في ذلك الوقت مسافرًا إلى القاهرة. أما الاثنان الآخران فلم يكونا جذابين. كان الشيخ ابن إدريس، الأكبر سنًا، عربيًا وسيمًا، وكان ليكون وسيمًا حتى لو لم يكن وجهه مشوهًا بتعبيره العابس المشاكس. أما أخوه الأصغر الشيخ محمد، فكان يبدو وكأنه لم يتجاوز سن المراهقة، وكان يبدو وكأنه تابع، حيث كان مغمورًا بشخصية الشيخ الأكبر العدوانية. وكان الانطباع الوحيد الذي تركه في نفسي هو الانزعاج الشديد. أخبرني "قويطين" أنهم جاءوا لأخذي في نزهة حول المزارع المحيطة بالقرية، وأضاف أنه بما أنني غريب في الواحة فقد شعروا بأنهم يجب أن يستضيفوني.

لم يبدوا أنهم يستمتعون بهذه الوظيفة كثيرًا. كان الشيخ ابن إدريس شديد الصمت، ولم يفتح أخوه فمه قط طوال جولتنا التفتيشية.

وبالمقارنة بالواحات المصرية الأخرى، كانت مزارع الفرافرة تحتوي على عدد قليل نسبيًا من أشجار النخيل ونسبة أكبر بكثير من أشجار الفاكهة الأخرى: الزيتون والكروم والمشمش والتوت الأبيض والتين والرمان والليمون الحامض والليمون الحلو وعدد قليل من أشجار البرتقال وتفاحة صغيرة، والتي كانت تعتبر نادرة، وكانت ذات قيمة عالية للغاية. في السابق كان هناك تصدير كبير لزيت الزيتون إلى وادي النيل، ولكن لسبب ما، ربما لأن الأشجار كانت قديمة جدًا، قيل إن المحصول قد تضاءل بشكل كبير، وبالكاد يكفي احتياجات الواحة.

تم زرع الحقول المحيطة بالمزارع بالقمح والشعير والبصل فقط، ولكن يقال إن الذرة والأرز يزرعان أيضًا في الواحة. كانت المساحات المزروعة تبدو صغيرة، ولكن النباتات كانت تبدو صحية، وحتى خصبة. لم أر بقعًا من الأرض المالحة، مثل تلك التي غالبًا ما نراها في الداخلة.



[صورة: العروس ونخارها. لا تستطيع العروس من الطبقات الفقيرة أن تساهم إلا بكمية صغيرة من الفخار لتأثيث منزلها الجديد. وفي موكب زفافها، تحمل الفخار على كرسي فوق رأسها. لاحظ الترتر على مقدمة فستانها. (ص 253).]

الفرافرة مكان صغير جدًا، فهو إداريًا تابع للواحة البحرية، وهي أقرب واحة، وتقع على بعد حوالي ثلاثة أيام إلى الشمال الشرقي. وفي واحة الفرافرة بأكملها، لا يوجد سوى حوالي عشرين بئرًا، ويقال إن أهم بئرين هما عين إبساي، التي تقع على بعد أربعة إلى خمسة أميال إلى الجنوب من القرية، والتي لم أزرها، وعين البلاد (بئر المدينة)، ويقال إن كليهما من أصل روماني ويشبهان البئرين في واحة الداخلة.

ويقال إن بعض الآبار متصلة بقنوات ترشيح طويلة تحت الأرض محفورة أفقيًا، على عمق معين تحت السطح، تشبه تلك الموجودة في عين أم الدباديب، ولكن لم تتح لي الفرصة لفحص أي منها. كانت عين البلاد، التي تغذي القرية، تتدفق إلى بركة كبيرة مغطاة بالأعشاب الخضراء وتحيط بها إلى حد ما بساتين النخيل، والتي كانت في ضوء الشمس الغاربة تشكل صورة رائعة للغاية.

لقد أنهينا جولتنا عند باب منزل الشيخ ابن إدريس في الزاوية. كان المنزل عبارة عن مبنى قاتم مبني من الطين، لا يوجد به أي أثر للأثاث الأوروبي الذي يميز زاوية ومنازل عائلة موهوب في الداخلة. وهنا ودعت رفاقي غير المحبوبين، وهو ما أحسست به من ارتياح متبادل. ولأن الشيوخ كانوا قد ذاب جليدهم إلى حد ما أثناء سيرنا، فقد طلبت من ابن إدريس أن يسمح لي بالتقاط صورة له، وهو ما أدهشني إلى حد ما، فقد وافق على مضض. لم تكن الصورة جميلة. كان يرتدي تعبيره الطبيعي، عبوسًا "لم يزل أبدًا"، ولم يكن هناك شيء مما قلته يجعله يبدو لطيفًا.

كانت الإمدادات من جميع الأنواع نادرة للغاية في الواحة. لم يكن من الممكن الحصول على أي فاكهة أو خضروات، وكانت الأطعمة الوحيدة التي يمكن شراؤها هي الدواجن والبيض والبصل. ونظرًا لأن جميع السكان تقريبًا أعضاء في السنوسيا، فقد كان من الصعب جدًا الحصول على التبغ أيضًا، حيث يحظر على أعضاء الطائفة التدخين. نفد مخزون الرجال من السجائر، وكانوا منزعجين للغاية لعدم قدرتهم على تجديد إمداداتهم.

في صباح اليوم التالي لنزهتي مع الشيوخ، أخبرني إبراهيم، الذي كان مولعًا دائمًا بأي نوع من أنواع الرياضة، أن طيور السمان بدأت في الوصول إلى الواحة، فخرجت معه لمحاولة اصطياد بعضها. لكنني لم أر سوى اثنين، وقد نجحت في تفويت أحدهما مرتين.

كان أهل قصر الفرافرة غير ودودين للغاية لدرجة أنني لم أتمكن من استكشاف المكان كما كنت أتمنى، ولم أتمكن إلا من التقاط عدد قليل جدًا من الصور.

وفي صباح اليوم التالي، حزمنا أمتعتنا وانطلقنا إلى بو منقار. وبعد رحلة هادئة

استغرقت نحو ثماني ساعات إلى الجنوب الغربي، عبر صحراء مستوية بلا معالم، وصلنا إلى واحة عين الشيخ مرزق الصغيرة، وهي البقعة الوحيدة المأهولة بالسكان بشكل دائم، إلى جانب قصر الفرافرة، في المنخفض بأكمله.

عندما اقتربنا من المزرعة، جاء ثلاثة أو أربعة رجال لمقابلتنا، وحيوا "قويطين" بحماس. كانت الواحة صغيرة جداً، لا تمتد إلا على بضعة أفدنة. كانت الزراعة تتكون من بضعة أشجار نخيل وأشجار فاكهة وحقل أو حقلين من الحبوب. بين أشجار النخيل كان هناك منزلان أو ثلاثة منازل مختبئة، لكنني لم ألحظها إلا من مسافة بعيدة. قيل لي إن أحدها كان زاوية سنوسية.

الفصل الرابع والعشرون

بدأنا رحلتنا في الصباح التالي عند الفجر. بعد وقت قصير من مغادرة عين الشيخ مرزق، أراني "قويطين" ممراً يصعد منحدر هضبة صغيرة، هضبة أبو سعيد، على يميننا، وقال إن الطريق يمر عبرها إلى إديلة. وقال إن الطريق من إديلة يمر مباشرة عبر نسلة وبو منقار إلى واحة الداخلة.

وبعد ساعتين من انطلاقنا، وصلنا إلى واحة صغيرة للغاية، لا تزيد مساحتها عن فدان أو فدانين، تُعرف باسم عين العجوة. وكانت تحتوي على عدد قليل من أشجار النخيل وبئر ماء على ما يبدو، رغم أن المكان كان مغطى بالرمال المتناثرة حتى أن أشجار النخيل كانت في بعض الحالات مدفونة حتى قممها، وكانت البئر غير مرئية .

وبعد ساعة تقريباً، وصلنا إلى واحة مماثلة، تُدعى عين خليف. ولم نجد أي أثر لسكان في أي من المكانين. فقد أظهرت الأوراق الميتة المعلقة على أشجار النخيل أنها لم تكن مزروعة على الإطلاق، وفي عين العجوة بدت الأشجار نفسها وكأنها تموت.

لا يبدو أن هذه الأماكن الصغيرة قد تم الإبلاغ عنها من قبل، على الرغم من أن طريق روهلفس لابد وأنه مر بالقرب من المكان الذي تقع فيه. ومن حجم أشجار النخيل، يبدو أن عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً، لذا فمن المحتمل أن تكون الآبار قد حُفرت منذ وقت زيارته.

ورغم أن الرمال كانت قد تسللت إلى حد ما إلى الواحة في عين العجوة، إلا أنها لم تفعل ذلك بنفس الدرجة التي فعلتها في عين خليف، وكانت البئر الضعيفة، التي تفرغ في بركة صغيرة يبلغ عرضها بضعة أمتار، لا تزال خالية من الرمال.

وبما أن المياه كانت جيدة، توقفنا هنا لمدة نصف ساعة، بينما قمنا بإعادة ملء الجوربات وفحصنا الواحة.

قبل غروب الشمس بقليل، وصلنا إلى مكان تشعب فيه الطريق. وقد وُضع خط من الحجارة الصغيرة عبر المسار الأيمن، وهي علامة شائعة بين العرب على أنه لا ينبغي اتباع الطريق. سلك "قويطين" الفرع الأيسر، وبعد ذلك بقليل وصلنا إلى قمة المنحدر إلى بو منقار. كان المسار عند هذه النقطة شقًا ضيقًا، يبلغ طوله بضعة أمتار ولا يزيد عرضه عن قدم أو قدمين، وكان من الصعب عبوره مثل شق مماثل للغاية يؤدي من هضبة عين أمور إلى الداخلة. أسفله يقع منحدر رملي يمتد إلى أسفل الجرف ولا يمثل صعوبة كبيرة.

عند الوصول إلى أسفل المنحدر، انطلقنا إلى بو منقار، التي كانت تقع على مسافة قصيرة أمامنا. ولكن عند الوصول إلى الحطية، ضل "قويطين" الطريق كالمعتاد، واستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن نتمكن من العثور على البئر.

كان يومًا حارًا للغاية، وقد سرنا لأكثر من ثلاث عشرة ساعة، مع توقف قصير في عين خليفة. لقد قطعت المسافة كلها سيرًا على الأقدام، لذا كنت متعبًا للغاية وعطشانًا للغاية. وبما أن مساء وصولنا كان غائمًا، ولأن القيام بمجموعة من الملاحظات كان من المحتمل أن يعني أنني سأضطر إلى الجلوس لعدة ساعات حتى تنقشع السحب، فقد أجلت العمل إلى اليوم التالي، عازمًا على مغادرة المكان في فترة ما بعد الظهر.

كانت خيمتي منصوبة على الطرف الشرقي الأقصى من الهضبة. وكان جرف الهضبة يشكل خليجًا نصف دائري ضخمًا على الجانب الشرقي منا، ويمكن رؤية النقطة الجنوبية منه على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من المخيم. وفي وسط هذا الخليج كانت توجد منطقة منفصلة كبيرة مغطاة بالشجيرات.

تحتوي منطقة بو منقار على بئرين على الأقل. بالإضافة إلى البئر التي خيمنا بالقرب منها، عثر الرجال على بئر ثانية، على بعد ربع ميل تقريبًا إلى الجنوب الغربي، وكان موقعها محددًا بمجموعة من الأشجار، أشجار السنط والنخيل، على حد ما أتذكر.

أما البئر الأخرى، التي تقع على بعد مائتي ياردة إلى الشمال الغربي من المخيم، فقد بدت وكأنها بئر ارتوازية، تشبه البئر الموجودة في الواحات المصرية. وكان هناك مجرى مائي صغير يتدفق منها لمسافة قصيرة حتى ضاع في التربة الرملية. وبقدر ما استطعت أن أرى، كانت الأشجار أكبر حجمًا وأكثر كثافة، والنباتات أكثر خصوبة من تلك الموجودة في حطية القيروان.

وإلى الجنوب، كانت مساحة شاسعة مغطاة بالكثبان الرملية حتى الأفق مرئية. وكان هناك كثيب رملي كبير يطل على المخيم من جانبه الشرقي، وبدا أن الرمال العائمة تتعدى على النباتات في أماكن عديدة. وفي جوار المخيم، كان هناك مكان للصلاة، أو "مسجد صحراوي"، بُني على طراز "قويطين" وفقًا لأحد النماذج السنوسية. وكان المسجد يتكون من صف من الحجارة الموضوعة على الأرض على شكل مشبك أزرار، وكان الجزء المستقيم منه يشير إلى اتجاه مكة، للإشارة إلى الاتجاه الذي يجب أن يتجه إليه المصلون عند أداء عباداتهم. وكان هذا هو مكان الصلاة الوحيد بهذا الشكل الذي رأيته على الإطلاق."

ربما يرجع تاريخ آبار الحطية إلى العصر الروماني، حيث كان يوجد على مسافة قصيرة إلى الجنوب من المخيم مبنى صغير من الطين (دير) ينسبه السكان الأصليون إلى تلك الفترة. وتميل بقايا الأسقف المقببة والقمم المقوسة للفتحات في الجدران إلى تأكيد



[صورة: مكان الصلاة السنوسي، بو منقار.]

هذا الرأي.

تمكنت في اليوم التالي من الحصول على الملاحظات الفلكية اللازمة لتحديد موقع المكان، ولكن لم أتمكن من إجراء فحص شامل له، حيث إن المضاعفات مع السنوسية، التي كنت أتوقعها منذ بعض الوقت من خلال العديد من المؤشرات التي رأيتها منذ مغادرة أسيوط، جاءت فجأة إلى ذروة غير سارة إلى حد ما.

لم أكتشف أن جميع الرجال في القافلة ينتمون إلى الطريقة السنوسية إلا بعد وصولي إلى بو منقار. كنت أعلم أن "قويطين" ورجاله الثلاثة كانوا دائمًا من السنوسية. وهذا الاقتناع، وفي أثناء وجودنا في الفرافرة، كان عبد الرحمن وإبراهيم ودهب قد تعرضوا جميعًا لتأثير الشيخ ابن إدريس عليهم، حتى أنه قبل أن نغادر تلك الواحة، انضموا هم أيضًا إلى الطريقة، وأظهروا كل التعصب المتوقع من المتحولين الجدد.

كانت فرقة مكونة من ثلاثين رجلاً من التبو، أرسلها من الكفرة الشيخ أحمد الشريف السنوسي (الذي كان آنذاك زعيم الحركة السنوسية) ظاهريًا لتسليتي، تحوم في مكان ما بجوار بو منقار، على مقربة كافية سمحت "قويطين" بالبدء بإرسال الإشارات إليهم عن طريق إطلاق النار على حمام وهمي وإشعال نار ضخمة لا داعي لها على الإطلاق عند الغسق — وهي إشارة عربية معروفة.

كما أُرسِل عشرون رجلاً آخرون من الكفرة لتعزيز قوة المواهيب في عزبتهم، الواقعة في الركن الشمالي الغربي من واحة الداخلة، وهي المنطقة التي كان سيتوجب عليّ المرور بها لدخول الواحة في طريقي إلى مصر؛ في حين كان سكان الفرافرة — وهي الواحة الأخرى الوحيدة التي كان بإمكاني اللجوء إليها بقافلتي الصغيرة — أعضاء في الطريقة (السنوسية) جلّهم إن لم يكن كلهم، وكانوا يترصدونني تحسباً لعودتي من ذلك الطريق.

وقد أُوضح لي أنهم سمحوا لي بالذهاب إلى بو منقر بدلاً من إيدِالة — وجهتي الأصلية — بهدف أن أغادر باتجاه مصر، ومن ثم، بما أنني قد غيرتُ خططي، فلن يعرف أحد "أين وقع الأمر!".

لقد كان فخاً صغيراً ومحكماً وقعتُ فيه بغباء؛ ولكن كانت به نقاط ضعف. كان الوقت قُبيل الغسق عندما أطلق "قويطين" طلقاته الإشارية مما دفعني للاستفسار، والأفضل من ذلك، كانت عاصفة رملية هوجاء تهب. فبمجرد أن نخرج إلى الصحراء في ظل هذه الظروف، كنتُ واثقاً من النجاة دون صعوبة. لكن احتمال أن يُداهم

المخيم قبل أن نتمكن من المغادرة أصابني بخوف شديد، لدرجة أنني قررتُ البدء بالتحرك في أسرع وقت ممكن.

غير أن "قويطين" ورجاله، حين أُمروا بذلك، رفضوا رفضاً قاطعاً مغادرة "الحطية" (منطقة منخفضة تتجمع فيها المياه أو ذات نباتات). لكنه هو وجماعته كانوا واهنين جداً لدرجة أنني لم أجد صعوبة تُذكر في إخضاعهم للنظام (أو السيطرة عليهم). لم نضيّع إلا وقتاً قليلاً، حتى أنني تمكنت من ملء الخزانات وانطلقت القافلة بعد غروب الشمس مباشرة.

قبل الانطلاق، خطر ببالي أن أستعير خدعة من عبد الرحمن. لذا، وجدتُ مساحة خالية من الرمال [235] بالقرب من البئر، وحفرتُ وسم السنوسية بعصا بعمق في الأرض، ثم، لتضليل السنوسيين عندما يأتون بشأن الاتجاه الذي سلكناه، رسمتُ خطاً منه يشير نحو الغرب — وهو الاتجاه الذي كنت أعلم أنهم يخشون أن أسلكه — ثم انطلقتُ باتجاه الجنوب الشرقي نحو الداخلة.

بعد مغادرة المخيم مباشرة تقريباً، وصلنا إلى التلال الرملية. حينها تركتُ الطريق، وتوغلتُ، وسط استياء "قويطين" الشديد، في الكثبان الرملية جنوباً، حيث محت العاصفة العاتية التي كانت تهب آثارنا بسرعة كبيرة.

بعد السير لمدة ساعتين ونصف، أصبحت الكثبان أكبر بكثير، وبما أن القمر كان قد غرب، أصبح السفر محفوفاً بصعوبة بالغة لدرجة أننا توقفنا حتى طلوع النهار.

ولكن بعد مغادرة بو منقر، بدأت رحلتنا إلى موت تأخذ طابع "المغامرات" بشكل أكبر من أن توصف بالتفصيل. لقد تطلب الأمر مني كل ما تعلمته خلال سبعة مواسم قضيتها في الصحراء، لإدخال قافلتي إلى الداخلة، دون التسبب في تلك الحادثة التي حُذرتُ من تجنبها، والتي كان من الممكن بسهولة أن تؤدي إلى ما يشبه انتفاضة محلية.

لم يكن أحد في القافلة سوى "قويطين" قد سلك هذا الطريق من قبل، وهو بالطبع ضلّ الطريق تماماً، وعلى أي حال لم يكن جديراً بالثقة، لذا كان عليّ أن أتولى مهمته وأبذل قصارى جهدي كدليل.

بعد مغادرة بو منقار، كان طريقنا في اليوم الأول يمتد عبر الكثبان الرملية. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، صادفنا ثلاثة سيوف، كثبان رملية ذات قسم على شكل حرف A يمتد لأعلى ولأسفل مع اتجاه الرياح، والتي كانت تشكل لنا بعض الصعوبات لأنها امتدت عبر طريقنا. كان ارتفاعها أقل من عشرين قدماً، ولكن جوانبها كانت

بزاوية شديدة الانحدار لدرجة أن الجمال لم تكن قادرة على تسلقها، وكان على الرجال أن يحفروا مسارات قطرية على طول واجهة الكثبان الرملية ثم ينزلوا مرة أخرى على الجانب الأبعد، حيث كان من الصعب على الجمال أن تتسلقها واحدة تلو الأخرى. وعلى الرغم من صغر حجم هذه السيوف، فقد تسببت في تأخير كبير. ولكن هذه التلال الثلاثة أثبتت أنها آخر حزام الكثبان الرملية، وبقية طريقنا، حتى وصلنا إلى الكثبان الرملية بالقرب من الداخلة، وجدناها سهلة.

يمتد جرف طويل من بو منقار إلى واحة الداخلة، ويقع الطريق بينهما عند سفحه.

كانت الكثبان الرملية التي تشكل حزامًا طويلًا يمتد من الشمال إلى الجنوب من التل العظيم، جبلٍ إدموندستون، الذي يقع على بعد خمسة عشر ميلًا إلى الغرب من قصر الداخل، سببًا في إحداث قدر كبير من المتاعب لنا، ليس فقط بسبب ارتفاعها، بل وأيضًا بسبب ليونتها الشديدة. فقد غاصت الإبل في تلك الكثبان حتى ركبتيها.

في الأماكن الأكثر رخاوة، توقفت القافلة، ولم تعد قادرة على إحراز أي تقدم دون مساعدة. كان عليّ أن أضع رجلًا على جانبي كل جمل، وأجعلهما يتحملان ثقل الأحمال على ظهورها، وأرفعهما مع كل خطوة تخطوها الجمال، حتى أتمكن من المضي قدمًا على الإطلاق. بعد أن تمكنت من عبور أحد الجمال عبر الأماكن اللينة، كان عليّ أن أحمل الجمال الأخرى، واحدًا تلو الآخر، بنفس الطريقة. وبالتالي انخفض معدل تقدمنا إلى ما يقرب من نصف ميل في الساعة.

في مساء اليوم الخامس بعد مغادرة بو منقار، وصلنا إلى موط، بعد أن فقدنا بعض الأمتعة، ورجلين واثنين من جمالنا السبعة، ومع بقية القافلة غرقنا بسبب القيادة الزائدة.

أثناء الرحلة نزولًا من بو منقار، أدرك رجالي، كما توقعت، أنهم كأعضاء في الحركة السنوسية يجب أن يقلعوا عن التدخين، فبدأوا يستعيدون عافيتهم تدريجيًا وتعافوا من هجومهم على الطريقة السنوسية. لذا، قبل أن نصل إلى موط، توقفنا بعيدًا عن أنظار المدينة، ووضعت عبد الرحمن على جمل وأرسلته لمعرفة كيف تقع الأرض في الواحة.

عاد سعيدًا للغاية بنفسه. لقد ترك جمله مربوطًا بين الكثبان الرملية ثم دخل موط "مثل اللص" كما عبر عن ذلك، حتى لا يراه أحد وذهب إلى منزل أحد أصدقائه، الذي أخبره أن بعض التيبو دخلوا موط عدة مرات، لكنهم لم يروا هناك مؤخرًا. لقد عادوا إلى الزاوية في قصر الداخل. هنا، كما سمعت بعد ذلك، شوهدوا وصورهم أحد السكان الأصليين الذي صادف أنه جاء إلى الواحة من وادي النيل. اعتقد صديقه أنه

سيكون من الآمن لنا أن ندخل الواحة، كما حدث عندما شوهدنا ذات مرة هناك، لم يجرؤ السنوسيون على التحرش بنا. لذا قمنا بحزم أمتعتنا مرة أخرى وبدأنا.

عند وصولي إلى موط، عدت إلى المتجر القديم. وبعد أن رأيت أمتعتي موضوعة بأمان هناك، توجهت إلى مكتب البريد للحصول على بريدي.

لقد وجدت أن "الشيخ السنوسي"، كاتب القاضي الشاعر، قد نجح في تعيين ابنه مديراً لمكتب البريد في الواحة، وهو المنصب الذي لابد أنه كان ذا فائدة كبيرة للسنوسي، بسبب رقة الظروف التي يستخدمها السكان الأصليون.

ورغم أن ساعات العمل الرسمية، على حد ما يمكن أن يقال عن وجودها في الداخلة، كانت قد انتهت منذ فترة طويلة، فإن باب المكتب نفسه كان مفتوحاً، ودخلت دون أن يسمعني أحد. ووجدت قسم الاستخبارات السنوسي في الواحة، الذي يتألف من "الشيخ السنوسي" وابنه، وهم يعملون بجد في فحص الرسائل. وكانوا يرفعون كل رسالة على حدة إلى الضوء، وإذا كان المحتوى مثيراً للاهتمام، كانوا يقرؤونه من خلال المغلف. ومن المفترض أن رسالة ملقاة فوق حوض من الماء الساخن لم يكن من الممكن قراءتها بهذه الطريقة، لذا كان لابد من فتح غطاء المغلف بالبخار. ويبدو أن وجود قطعة من الشمع وزجاجة من العلكة على المنضدة يشير إلى أنهم كانوا يواجهون في بعض الأحيان بعض الصعوبة في إعادة إغلاق المراسلات بعد قراءتها.

ابتعدت بهدوء عن الباب، ثم عدت وأنا أرفع صوتي وأحدث أكبر قدر ممكن من الضوضاء، ثم طلبت بريدي. رحب بي "الشيخ السنوسي" بكل ود. اختفى حوض الماء، والعلكة، وشمع الختم. كان مدير مكتب البريد مشغولاً بفرز الرسائل. لكنني أتصور أنني رأيت للتو إحدى الطرق العديدة التي تنتشر بها المعلومات في مصر!

لقد وجدت أن الأمور في موط كانت في حالة غريبة للغاية. فقد وصل إلى المكان مأمور جديد، والذي، وفقاً للتقارير، كان يشرب ويتعاطى الحشيش إلى حد أنه أصيب بالجنون تقريباً. لقد تشاجر بعنف مع ضابط الشرطة، الذي كان مساعده، حتى أنه أطلق عليه ذات يوم ثلاث طلقات من مسدس من نافذة في منزله، بينما كان يعبر الساحة بجوار المسجد. لقد أروني الأماكن التي حفرت فيها الرصاصات الأرض، لذا فمن المحتمل أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث.

وبعد هذا العرض، حبس المأمور نفسه في بيته ولم يخرج قط حتى إلى المركز، ورفض مقابلة أي شخص. وكان الشرطي يبذل قصارى جهده للحفاظ على سير الأمور، ولكن لأنه كان يخشى الذهاب إلى المركز، الذي يقع بالقرب من منزل المأمور، خوفاً

من أن يُطلَق عليه الرصاص مرة أخرى، فقد أصبح معوقًا إلى حد ما في عمله.

مررت مرة واحدة عبر ساحة المسجد ورأيت المأمور ينظر إلي من خلال الشق الموجود في مفصلة بابه نصف المفتوح، لكن هذا كان المنظر الوحيد الذي رأيته له.

ولكنه أرسل لي رسالة غير مباشرة مفادها أنه رآني أمر بمنزله، واعتبر أنني أخطأت في عدم زيارتي له، لأنه كان رئيس الحكومة في الواحة، وشخصية أكثر أهمية مني بكثير. وأضاف أنه يتوقع مني أن أفعل ذلك على الفور. ولأن آرائي فيما يتعلق بأهميتنا النسبية كانت مختلفة عن آرائه، فقد واصلت زيارتي له بنفس الطريقة حتى غادرت الواحة.

في اليوم التالي لوصولنا، طلب "قويطين" الإذن بالذهاب إلى قرية هنداو. كنت أعلم أن هناك زاوية سنوسية صغيرة هناك، لكن كان من غير المجدي أن أرفض الإذن له، طالما أنه حر، وفي ظل الوضع القائم في الواحة، كان من غير الممكن على الإطلاق محاولة القبض عليه. لذا، اعتقدت أنه من الأفضل أن أتظاهر بأنني لم أر ما كان يحدث وسمحت له بالذهاب.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، كنت في غرفتي في الطابق العلوي من المتجر، عندما سمعت، ولدهشتي، صوت "قويطين" في الصالة بالأسفل يتحدث إلى دهب وعبد الرحمن. ولأنني لم أتوقع عودته بهذه السرعة، فقد شككت في أنه يخطط لشيء ما، لذا لم أتردد على الإطلاق في الاستماع إلى المحادثة، خاصة وأنني كنت أرغب في معرفة الشروط التي يقف عليها مع رجالي بشكل أكثر دقة.

لقد كانا أسفل نافذتي مباشرة، لكن "قويطين" كان يتحدث بصوت منخفض للغاية لدرجة أنني لم أستطع سماع سوى كلمة هنا وهناك مما كان يقوله. لكنني تمكنت من سماع ما يكفي من المحادثة لأصبح مهتمًا بشكل كبير.

يبدو أنه كان يعطيهم التعليمات. لقد سمعته يتحدث عن شخص معين، وهو الشيخ أحمد، الذي لم أستطع التأكد من هويته. وقد سمعته مرارًا وتكرارًا يذكر كافرًا معينًا، ومرة "كلبًا"، ولم أشك في هويته على الإطلاق، فالمستمعون لا يسمعون عن أنفسهم خيرًا على الإطلاق. وقد سمعته عدة مرات يقول: "يقول الشيخ أحمد"، وهو شيء غير مسموع على الإطلاق، ثم تبع ذلك اعتراضات من دهب وعبد الرحمن، ثم قيل لهما مرة أخرى: "يقول الشيخ أحمد"، وهو شيء آخر كان الكافر ليبذل الكثير من الجهد لسماعه.

وفي النهاية، سمعت "قويطين" يبتعد، وبعد وقت قصير دخل دهب إلى الغرفة،

وكان يبدو عليه الخوف الشديد، وأعلن أن الداخلة مكان سيئ للغاية بالفعل، وأننا يجب أن نخرج منه في أسرع وقت ممكن.

ثم دخل عبد الرحمن فجأة وسألني فجأة عن الموعد الذي أنوي فيه أن أبدأ. فأخبرته أنني أنوي النزول في أقرب وقت ممكن. فبدا عليه الارتياح الشديد، وقال لي إننا كلما بدأنا مبكرًا كان ذلك أفضل.

لقد حاولت أن أعرف منهم بالضبط ما الذي كان في الريح، ولكن كما هو الحال في التعامل مع السكان الأصليين، لم أتمكن من جعلهم يكونون صريحين على الإطلاق.

لقد خرجت وقابلت "قويطين" وأخبرته أنني أنوي أن أبدأ الرحلة في اليوم التالي. فابتسم ورفض أن يسمح لي بأخذ الجمال. شعرت بميل إلى أخذها، ولكن قافلة تجارية كبيرة بها العديد من البدو أتت خلال النهار، وكان هؤلاء الرجال جميعًا يستمعون إلى حديثنا في حالة ذهنية بعيدة كل البعد عن الود، ورأيت أنه من الأفضل ألا أحاول القيام بذلك. لقد استطلعت آراء واحد أو اثنين من التجار بهدف استئجار جمالهم، لكنني قوبلت برفض عابس. كان بإمكاني بالطبع أن أحاول إقناع السلطات الحكومية في الواحة بإجبار "قويطين" على الوفاء باتفاقه معي، ولكن لا يجوز، في حالة من هذا النوع، أن يناشد رجل أبيض مسؤولًا محليًا للمساعدة، لذلك كان علي أن أبحث عن وسيلة أخرى لمواصلة رحلتنا.

وبعد بعض الصعوبة، نجحت في استئجار ثلاثة جمال أخرى كانت في الواحة. ثم بعد أن رتبت الأمر، تركت جزءًا من أمتعتي، التي لم يكن لدي استخدام فوري لها، في مكان آمن في موط حتى أتمكن من إرسالها في طلبها، واستعديت للانطلاق في صباح اليوم التالي.

لقد طلبت من عبد الرحمن أن يرسل صديقه إلى القرية لجمع المعلومات عن السنوسية. وخلال زياراتنا إلى موط، ساعدنا هذا الرجل عدة مرات بشكل كبير، ولكن خوفًا من الظهور علنًا كمؤيد لنا، كان دائمًا يدير عملياته بطريقة سرية.

كان عبد الرحمن، الذي كان دائمًا في بيئته الطبيعية في أي شيء يشبه المؤامرات، قد أدخله سرًا إلى المتجر في منتصف الليل، وأحضره إلى غرفتي. كانت المعلومات التي قدمها لي مرضية . لم أتمكن من معرفة الخطة التي وضعها السنوسي لصالحنا بالضبط، لكنه أعلن أن نيتنا في المغادرة المبكرة قد أحبطتهم، وأنهم كانوا غاضبين بشدة نتيجة

لذلك.

ولكن، كما قال، كانوا ماكرين للغاية، وبما أننا تغلبنا عليهم الآن، فإن رغبتهم الوحيدة كانت أن يتم نسيان الحادثة بأكملها وأن يظهروا الآن كأفضل أصدقائنا. وقال إنه إذا هربنا بسرعة، فلن يكون لدينا ما نخشاه منهم، لكنه أكد على أهمية عدم إضاعة أي وقت. وودعته بضربة قوية.

الفصل الخامس والعشرون

أصر ضابط الشرطة والطبيب الحكومي، وهو مسلم هذه المرة، على مرافقتي عبر الواحة. وأخبراني أنهما أرسلا رسولًا إلى تنيدة ليخبراني بأننا نعتزم المبيت هناك، حتى يتسنى للعمدة الوقت للاستعداد لنا.

بدت قافلتي الصغيرة المكونة من ثلاثة جمال وثلاثة رجال صغيرة للغاية بعد القافلة التي اعتدنا عليها، لكن الرجال كانوا في حالة معنوية جيدة بسبب احتمال العودة قريبًا إلى منازلهم، وكانت الجمال جيدة وسارت بشكل جيد.

وعندما غادرنا سمينت، مر بنا الشيخ السنوسي الشاعر من موط وهو في حالة من الإثارة الشديدة، وهو يلوح بذراعيه بعنف في الهواء، ونادى على الشرطي بشيء لم أستطع التقاطه.

عند وصولنا إلى تنيدة، ذهبنا إلى منزل العمدة، الذي يقع على بعد ميل أو اثنين إلى الشمال من المدينة، حيث شربنا الشاي المعتاد. بعد ذلك، دعانا مضيفنا للجلوس في حديقته.

كانت هذه الحديقة كبيرة تغطي عدة أفدنة، محاطة بسور ومزروعة بمجموعة متنوعة من أشجار النخيل وأشجار الفاكهة، وكلها تبدو في حالة صحية ممتازة. وبالنظر إلى حجم الأشجار، فمن غير الممكن أن تكون قد زُرعت منذ أكثر من عشرين عامًا. وكانت الحديقة غنية بالمياه، حيث كان هناك جدول صغير قادم من بئر، بئر منصورة عبد الله، يجري عبر المزرعة بصوت خرير كان ممتنًا للغاية بعد رحلتنا الحارة عبر الواحة. كانت الحديقة في المجمل مكانًا مظللًا بشكل رائع.

كان العمدة يقودني في الطريق، ويوجه انتباهي إلى أنواع الأشجار المختلفة التي مررنا بها. وكان خلفنا حشد من المسؤولين وكبار رجال المنطقة، يضحكون ويداعبون بعضهم البعض بالطريقة الصاخبة المعتادة للمصريين. وعندما وجدنا مكانًا مستويًا أملسًا تحت

نخلة، مع وجود النهر الذي يجري بالقرب منه، اقترحت أن نجلس هناك، لكن العمدة أعلن أن أفضل مكان كان أبعد قليلًا، خلف غابة كثيفة أمامنا، وأفسح المجال لي على الطريق للذهاب أمامي.

فجأة توقف السكان الأصليون الآخرون عن الحديث وتبعونا في صمت غير طبيعي. قمت بإرشادهم، ثم استدرت حول الغابة، فوجدت نفسي وجهًا لوجه مع الشيخ موهوب العجوز!

كان جالسًا على سجادة في ظل شجرة تين صغيرة، منخرطًا على ما يبدو في تأمل تقوي. كان مشهدًا مثاليًا، وكانت العريشة المغطاة بالكروم والورود التي كانت تقف خلفه تشكل خلفية مؤثرة.

كان على ما يبدو مستعدًا لرحلة، وكانت أمتعته التي تتألف من كيس صغير لا يحتوي إلا على القليل من الملابس تشير إلى أن احتياجاته كانت تُلبى بسهولة. كما أظهر إبريق من الماء وحفنة من التمر، متبقية من وجبته، أنه كان يُظهِر للفلاحين المترفين في الواحة الحياة البسيطة التي يعيشها السنوسيون في زواياهم، بمساعدة طاهٍ تركي.

كان الموقف واضحًا . فقد أخطأ المنحدر الصغير للسنوسية التقدير، وكانوا قلقين بشدة من تجاهله. لذا فقد رتب أهل الواحة، بغرائزهم الطيبة المعتادة، هذا الاجتماع من أجل "إحلال السلام". كنت على استعداد تام للموافقة على آرائهم، فلم يكن هناك جدوى من إثارة مسألة السنوسيين.

استقبلني موهوب العجوز بابتسامة طيبة، كانت ودودة إلى حد ما مثل الأب. ثم ربت على السجادة بجانبه، كدعوة للجلوس، ودخلنا في محادثة.

لقد أعرب عن سعادته برؤيتي، ولكنني لاحظت أنه أغفل الإجراءات الرسمية التي عادة ما يتم إجراؤها لمن يعود من رحلة، ولم يحمد الله على سلامتي. ولم يشر علي الإطلاق إلى وجودي في الصحراء، باستثناء قوله إن ابنه الشيخ أحمد كان غاضبا للغاية، بل غاضبًا للغاية، لأنني مررت بالقرب من عزبته دون أن أشاركه ضيافته. لقد شعرت بثقة في غضبه، لكنني شككت في سبب غضبه.

وأوضح موهوب أنه كان في طريقه إلى القاهرة "لبيع بعض الخيول" التي كان يحملها معه. والحقيقة أن أحد الخيول كان يستقل سيارة أجرة. ولقد صادفت زياراته النادرة لوادي النيل مرة أخرى عودتي إلى الحضارة بعد مشقة في بلاد السنوسية، ولم يكن ذلك من الأمور التي تجاهلتها. وقررت أنه سوف يقطع رحلته إلى القاهرة في أسيوط،

حتى يتولى مساعدة "قويطين" في التغلب على أي تعقيدات قد تنشأ في المديرية، وهو ما حدث بالفعل.

وبعد عشر دقائق من الحديث، تجنبنا خلالها الحديث عن المواضيع الخطيرة، أخبرني ابنه الأصغر عبد الواحد، الذي كان يسافر معه، وكان يعمل خادماً شديد الانتباه والتفاني، همساً أن والده متعب، ولأنه رجل عجوز وأمامه رحلة طويلة في الغد، فإنه يريد النوم. فودعته وعدنا إلى منزل العمدة، حيث قُدِّمت لنا وجبة طعام، وبعد ذلك ركبت عائداً إلى المخيم لقضاء الليل.

وبعد فجر اليوم التالي بقليل، مرت قافلة موهوب، وهي مجموعة بائسة المظهر تتألف من زوج من الجمال وحصان بائس، بمعسكرنا تحت قيادة اثنين من السود ذوي المظهر الكئيب. وبعد بضع دقائق، ركب موهوب نفسه مع ابنه، راكبين حصانين بائسين المظهر، ويبدو أنهما الحصانان اللذان كان يأخذهما إلى القاهرة للبيع.

وعندما وصلنا إلى المخيم، ترجلنا من على صهوة جوادنا، واقترح علينا الشيخ العجوز، بما أننا كنا مسافرين إلى الخارجة، أن نوحد قوانا ونقوم بالرحلة معاً. كان رجلاً عجوزاً مثيراً للاهتمام، وشعرت بالرغبة في القيام بذلك. ولكن على الرغم من أنني كنت مستعداً لترك الماضي إلى حد ما، إلا أنني لم أكن مستعداً للذهاب إلى هذا الحد، لذلك عندما وجدت أنه ينوي السفر عبر الطريق السفلي أو طريق جوباري، قررت أن أسلك الطريق عبر الهضبة عبر عين أمور. قفز موهوب، الذي بدا عليه خيبة الأمل الشديدة، على سرجه مرة أخرى برشاقة مفاجئة لرجل في مثل سنه، وانطلق متمنياً لي طريق السلامة.

لقد حرصنا على مراقبة المكان عن كثب ليلاً ولم نخاطر بأي شيء خلال الوقت المتبقي لنا في الصحراء، ولكن احتياطاتنا كانت على الأرجح غير ضرورية. كانت رحلتنا إلى الخارجة خالية من الأحداث .

وهنا وجدنا تغييرات كبيرة. فقد كانت الشركة الانكليزية التي كانت تسعى إلى جعل الصحراء تزدهر أشبه بوردة، فلم ينجحوا إلا في جمع الأشواك. فقد ثبت أن نقص إمدادات المياه، الذي أدى إلى تداخل الآبار، والطبيعة المالحة للأرض، والرمال العائمة والعواصف الرملية الهادرة، كانت أكثر مما يمكنهم تحمله. وكانت الشركة في طريقها إلى التصفية عملياً. وذهب معظم الموظفين الأوروبيين إلى أماكن أخرى. ولم يبق سوى عضو واحد من الفريق، وكان مشغولاً بالاستعدادات النهائية اللازمة قبل مغادرة المكان تحت إشراف أحد السكان الأصليين. وبعد أن وجد نفسه مطرودا

من وظيفته، بدأ يبحث عن وظيفة جديدة، وكان يأمل في إحياء مكتب مفتش الواحات القديم لصالحه، ووجدت نفسي، نتيجة لذلك، ينظر إليّ بعين ساخرة إلى حد ما باعتباري منافسًا محتملاً.

ولكن لم يكن من الضروري أن يشعر بالقلق إزاء هذا الأمر. فقد يمضي المرء وقتًا ممتعًا إلى حد ما في رسم خرائط للأجزاء غير المعروفة من الصحراء، وجمع الأعشاب الضارة التي لا يريدها أحد، ودراسة عادات السكان الأصليين وخصائصهم، والاستماع إلى قصصهم عن الكنوز المدفونة والمدن المسحورة، ومطاردة الواحات الشاردة في الصحراء، ولكن الاستقرار في هذه الواحات البائسة طوال حياتي الطبيعية، والتأكد من أن المسؤولين المحليين لم يفرضوا أكثر من مبلغ معقول من البقشيش من الفلاحين البائسين تحت رعايتهم، وتسوية النزاعات بشأن البرتقال الذي يسقط على الجانب الخطأ من الجدار، لم يكن من الأمور التي تروق لي كثيرًا.

لقد كانت الراحة الليلية التي حصلت عليها في الخارجة موضع ترحيب كبير، فلم تكن هناك ليلة واحدة منذ مغادرة قصر الفرافرة، قبل أسبوعين، حيث تمكنت من الحصول على أكثر من كمية محدودة للغاية من النوم.

إن الرجل النائم لا حول له ولا قوة، لدرجة أنني اضطررت إلى العمل لساعات طويلة حتى لا أحصل على أي قسط من الراحة على الإطلاق خلال الرحلة التي استغرقت خمسة أيام من بو منقار إلى الداخلة. ولم أشعر إلا عندما وصلنا إلى موط بأنني أستطيع أن أثق في رجالي بما يكفي لأجازف بالقبض عليهم نائمين. وحتى أثناء إقامتنا في المتجر القديم، كنت أنا ودهب نتناوب على مراقبة المكان أثناء الليل.

استيقظت في الصباح التالي وأنا أشعر بأنني أكثر حيوية مما كنت عليه لبعض الوقت، وفي القطار واصلت قسطي من الراحة الليلية على فترات متقطعة أثناء الرحلة.

وعندما وصلنا إلى قارة، قاعدة السكة الحديدية على حافة وادي النيل، توقف القطار لبضع دقائق، فنزلت ومشيت على الرصيف. فوجدت أنني كنت مسافرًا مع الشيخ موهوب العجوز في القطار. كان القطار مزدحمًا بالمواطنين، ولكن المقصورة التي كان يشغلها هو وابنه كانت متروكة لهم بالكامل."

كان الزوجان يبدوان غير ملفتين. كان الرجل العجوز يجلس متكومًا في الزاوية البعيدة من عربة الدرجة الثالثة، يرتدي معطفًا قديمًا من جلد الغنم يبدو صدئًا، وبجانبه زجاجة ماء وحفنة من التمر على المقعد الخشبي. كان هو وابنه يرتديان ملابس رثة تقريبًا مثل البدوي العادي، وربما كانت "أثاثاته المريحة" محصورة في الخرج المرقع والمتهالك

الذي كان يحمله معه. لن يكلف أي شخص غير مطلع على هويته نفسه عناء النظر إليه مرة أخرى. ولكن على الرغم من كل ذلك، كان رجلًا ربما كان له نفس القدر من النفوذ بين المسلمين في مصر مثل أي مواطن آخر.

كان لا يزال يسافر بصفته تاجر خيول، وباع أحد براغيله إلى المهندس المسؤول عن الخط مقابل 5 جنيهات إسترلينية، بدا السعر باهظًا.

وبعد فترة وجيزة، عزلوا عبد الله كاهال، وهو لص عجوز كان يعمل لدى تاجر سجاد، وكان يعيش في الحي الأصلي بالقاهرة، وكان يشغل منصب شيخ السنوسية في مصر، من منصبه، وعينوا الشيخ موهوب بدلًا منه. وإذا كانت هناك أية مكافآت مرتبطة بالوظيفة، فقد تساءلت أحيانًا عما إذا كان بوسعي أن أطالب بنوع من العمولة مقابلها.

توقفت لبضع ليالٍ مع صديق مضياف، في طريقي إلى أسيوط، لأسمح ل"قويطين" بالمرور من الداخلة. ولأنني كنت نائمًا معظم الوقت، فلا بد أنني كنت ضيفًا مملًا بشكل ملحوظ. ثم توجهت إلى أسيوط لقضاء بعض الوقت مع مرشدي.

وبعد أن رتبت الأمر بشكل مرضي إلى حد ما، استقلت القطار إلى القاهرة، وتركت "الصحراء الرومانسية" لتعتني بنفسها، واستبدلت أجواء "ألف ليلة وليلة" المحمومة بأجواء أوروبا الأكثر عقلانية.

وفيما يلي أهم نتائج زياراتي للصحراء الليبية:

1. تم تجميع خريطة للصحراء بأكملها تقريبًا من المعلومات التي تم جمعها من السكان الأصليين. وقد تضمنت أسماء حوالي سبعين مكانًا جديدًا لم تظهر في أي خرائط سابقة. كما أظهرت أيضًا توزيع الكثبان الرملية والعديد من سمات التلال غير المعروفة.

2. كانت أبعد نقطة تم الوصول إليها إلى الجنوب الغربي من الداخلة هي مركز الصحراء تقريبًا. وقد أظهرت هذه الرحلة أن الأفكار السابقة حول هذه المنطقة كانت خاطئة، وأن مئات الآلاف من الأميال المربعة، التي تظهر في هذا الجزء على الخرائط القديمة مغطاة بكثبان رملية عملاقة، كانت في الواقع خالية عمليًا من الرمال المنجرفة، وأن حقل الكثبان الرملية الكبير الواقع إلى الغرب من الحدود المصرية، والذي وجده رولفس عائقًا لا يمكن عبوره، قد انتهى بعد مسيرة يوم تقريبًا إلى الجنوب من طريقه، حيث كانت الرمال متراكمة بالكامل

بواسطة هضبة الحجر الرملي المرتفعة التي وجدناها تحتل مركز الصحراء.

3. تم تحديد موقع حطيط بو منقار فلكيًا، وتم رسم الخريطة للمنحدر الممتد من هناك إلى الداخلة لأول مرة.
4. تم رسم خريطة للجرف الذي يشكل الحد الشرقي لمنخفض الفرافرة، مما يدل على أن الجرف الواقع شرق وشمال الخارجة هو استمرار للجرف الذي يمتد غربًا من واحة إديل، وبالتالي فإن الجرف بأكمله، باستثناء فجوة ضيقة إلى الشمال من الفرافرة، متواصل ويمتد لحوالي 450 ميلًا. وهو يشكل الحد الجنوبي للهضبة الجيرية، وهو السمة الجبلية الرئيسية لهذا الجزء من الصحراء.
5. تم العثور على واحتين صغيرتين جديدتين، عين العجوة وعين خليفة، في الجزء الغربي من منخفض الفرافرة. كما تم اكتشاف موقع بو غرارة، ورسم خريطة لمعظم الهضبة الصغيرة المعزولة التي تقع في الجنوب الغربي.
6. أظهر مسح للصحراء الواقعة شمال عين أمور أن الهضبة هناك مليئة بشبكة غريبة من المنخفضات الصغيرة.
7. قضيت عدة أشهر في دراسة الكثبان الرملية وطريقة تشكلها.
8. تم جمع كمية كبيرة من المواد حول عادات وتقاليد وأساطير وقياسات وخرافات السكان الأصليين.
9. كما تم تدوين الملاحظات حول أساليبهم في حفر الآبار، وتقسيم التدفق من الآبار.
10. تم العثور على أكثر من 240 حرفًا ونقشًا من النوع "الليبي" وتم نسخها.
11. تم جمع عدد من النباتات التي تنمو في الصحراء والواحات ودراسة توزيعها الجغرافي.
12. كما تم إنشاء مجموعة حيوانية، خاصة من الحشرات.

الفصل السادس والعشرون

العادات والخرافات والسحر

يُعرف أهل الواحات في مصر باسم الواحات، وهم مجموعة ضعيفة مقارنة بسكان وادي النيل، الذين يبدو أنهم مرتبطون بهم ارتباطًا وثيقًا من الناحية العرقية. وربما يرجع هذا التدهور في العرق إلى فقرهم، ونقص الغذاء، وسوء المساكن، وانتشار

الشكل الخطير من الملاريا المعروف باسم حمى الواحات.

إن سكان الواحات يشبهون في عاداتهم سكان وادي النيل إلى حد كبير، ولكنهم يختلفون عنهم في بعض النواحي. فحتى إنشاء خط السكة الحديدية المؤدي إلى الخارجة، كانت الواحات أكثر عزلة عن العالم الخارجي مما هي عليه الآن. ونتيجة لهذا، فإن سكان الواحات أكثر بدائية من فلاحي وادي النيل في كثير من النواحي، وما زالوا يتبعون عادات ربما كانت متبعة هناك في بعض الحالات، ولكنها أصبحت بالية منذ زمن بعيد. ومن المحتمل أن العديد من خصائصهم الغريبة في هذا الصدد تقتصر على الواحات، وربما لم تكن موجودة في أي مكان آخر.

وكمثال على الظروف البدائية للحياة في الخارجة، تجدر الإشارة إلى أن الطريقة القديمة لإنتاج النار عن طريق فرك قطعتين من الخشب معاً لا تزال تستخدم من قبل بعض السكان الأكبر سناً، على الرغم من أن إدخال أعواد الثقاب يتسبب في انقراضها. يتم إنتاج النار بهذه الطريقة بطريقتين. في الأولى، يتم وضع عصا عموديًا على كتلة من الخشب وتدويرها بسرعة بين راحتي اليدين. وفي الطريقة الأخرى، يتم فركها ذهابًا وإيابًا في أخدود على الكتلة بحركة نجار يشحذ إزميلاً على مسن. في كلتا الحالتين، يتم وضع قليل من الرمل الناعم أحيانًا بين قطعتي الخشب من أجل زيادة الاحتكاك.

إن التنبؤ بمستقبل الطفل يستقيه الوالدان من الأحداث التي تحدث في وقت ميلاده. فإذا تعرض والده أو أي فرد من أفراد أسرته لحادث أو مرض في تلك الفترة، فمن المعتقد أنه لن يحالفه الحظ. أما إذا حالف الحظ والده، مثل قدرته على إبرام صفقة جيدة، فمن المعتقد أن هذا فأل حسن لمستقبل الطفل.

يقال إن الولادة يوم الأربعاء أمر سيئ الحظ، لأن هذا اليوم من الأسبوع طوال العام يعتبر يوماً نذير شؤم في الواحات، ويعتبر آخر أربعاء من شهر صفر الأكثر سوء حظًا على الإطلاق.

بمجرد ولادة طفل، سواء في واحة الداخلة أو الخارجة، يتم إجراء احتفال صغير،

موكب الزواج بواحة الداخلة.
لاحظ المهرج والفرقة الموسيقية في المقدمة، وأصدقاء العروس وهم يطلقون النار ويحملون الأعلام، وأطباق الشاي وفستان زفافها على صليب فوق الموكب خلفها. وهي ترتدي ملابس قديمة. (ص 252)





[صورة: النباتات في حطية القيروان. تظهر هذه الصورة أشجار النخيل والشجيرات المهملة التي يمكن رؤيتها في الحطية، أو الواحات غير المأهولة بالسكان.]

لا يمكن وصفه هنا، ولكن المقصود منه جعل الطفل عندما يكبر عداءً سريعًا جدًا. في هاتين الواحتين، يتم إجراء احتفال غريب جدًا في اليوم السابع بعد ولادته، والذي يعرف باسم "غربلة الطفل". يتم وضع قليل من الملح وكمية صغيرة من كل من الحبوب، القمح والشعير والأرز، المزروعة في الواحات، في منخل دائري. في هذا المنخل أيضًا يوضع الطفل. ثم يتم هزه، كما لو كان يستخدم بالطريقة العادية، بينما تدق امرأة قريبة بمدقة على هاون بأعلى صوت ممكن، كما لو كانت تدق الأرز.

ثم يقوم الأب بجمع الحبوب والملح التي تمر عبر المنخل بعناية، ويأخذها ويلقيها في الهواء شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا في أماكن مختلفة في جميع أنحاء قريته. وتكتمل المراسم بأخذ الأب المنخل ورميه مثل الطوق على طول شوارع القرية.

يقال إن تأثير هذا الإجراء الغريب يكون على النحو التالي: يُفترض أن الحبوب والملح اللذين يوضعان في المنخل مع الطفل يحميانه من الفقر ويكفيانه ما يكفيه من الطعام طوال حياته. تُدق الهاون والمدقة بالقرب منه لضمان عدم خوفه من أي ضجيج عندما يكبر. تُلقى البذرة على أربع نقاط من البوصلة في قريته لتكون بمثابة تعويذة تمكنه من السفر بأمان في أي مكان، في حين أن توجيهه إلى الاتجاه الذي ينبغي له أن يتركه فيه، ورمي المنخل في الشوارع هي تعويذة أخرى تهدف إلى جعله عداءً سريعًا.

إن هذه الاحتياطات المعقدة، التي تتخذ لضمان قدرة الطفل على السفر بأمان، وكونه عداءً سريعًا، تبدو غير منسجمة مع عِرق غير رياضي ومستقر مثل سكان الواحات. ويبدو أنها أكثر توافقًا مع شخصية العرب، الذين من الممكن أن تكون هذه الاحتفالات مستمدة منهم، أو ربما ترجع أصولها إلى قبيلة ما في السودان. ويقال إن احتفال غربلة الحصى هذا يُقام أحيانًا أيضًا في وادي النيل.

إن أول عملية قص لشعر الطفل وأظافره تتم في احتفالية ما، وتتم عندما يبلغ الطفل عامًا واحدًا. وفي حالة الصبي، تُترك خصلة من الشعر طويلة على جبهته، لتذكير والديه بأنه يجب عليهما أن يشكرا الله على إنجابهما صبيًا، فالطفل الذكر يُعتبر دائمًا أكثر قيمة من الفتاة.

ولأن فتح مقص أمام وجه طفل ما يعتبر نذير شؤم لسبب ما، ربما خوفًا من وقوع حوادث، فإن أظافره تُقص أولًا ويده خلف ظهره، ولكن في أغلب الأحيان، يقوم الوالدان بقضمها قبل أن تقطع. ثم تُغمس أطراف الأصابع في الدقيق المطحون حديثًا "لمنعها من النمو مرة أخرى".

إذا كان الطفل يتمتع بجمال غير عادي أو بنية جيدة، بحيث تخشى الأم أن يتعرض

لعين شريرة من أمهات أخريات أقل حظًا في ذريتهم، يتم تلطيخ صليب أسود كحماية على جبهته، إذا كان وجهه هو الذي من المحتمل أن يكون موضع حسد، أو على ظهر يده إذا كان من المحتمل أن يكون سميناً مما يسبب حرقة في القلب. من المرجح أن هذه العادة مستمدة من الأقباط.

الخوف من العين الحاسدة (أو الحسد) منتشر على نطاق واسع، خاصةً في الشرق، وفي الواحات تُتخذ العديد من الاحتياطات للوقاية منها. فلضمان محصول جيد للنخلة، على سبيل المثال، يُعلَّق عظم حيوان — غالباً ما يكون جمجمة — أو قطعة من الروث ملفوفة في قطعة قماش، في أغصانها، وأحياناً تُستخدم مجسمات صغيرة تشبه الدمى بنفس الطريقة.

أما التمائم، التي تكون على شكل نصوص أو رموز طلسمية، يكتبها إما شيخ دين أو رجال معينون[251] يُعتقد أن لديهم موهبة خاصة في هذا المجال، فتلُف أحياناً في صُرّة صغيرة، مصنوعة عادةً من الجلد، وتُعلَّق حول رقبة طفل أو بهيمة ثمينة كحماية من العين؛ لكن لا يُقبل عليها الناس كثيراً.

كما أن لديهم تعويذة يتلوونها قبل الاستلقاء للنوم، أو الجلوس في مكان يشتبهون في أنه موبوء بالعقارب أو غيرها من المخلوقات السامة. وبعد تلاوتها يبصقون في اتجاه الشمال والجنوب والشرق والغرب، ثم يعتبرون أنفسهم في مأمن من الهجوم. حاولت الحصول على نسخة من التعويذة التي أُعطيت لي مترجمة، لكنني لم أتمكن من العثور على شخص يمكنه القيام بذلك. يبدو أنها مجرد هراء.

عادة ما يتم ختان الصبية في الواحات بين سن الثالثة والخامسة، وإذا كان الوالدان فقيرين، ينتظران حتى يدخرا ما يكفي لإقامة الحفلة اللازمة، كما يحاولان، إذا أمكن، أن يتزامن الختان مع حفل زفاف في قريتهما، حتى يمكن توفير النفقات على الطرفين من خلال الجمع بين مواكب الزفاف والختان. أما الأسر الغنية فتذبح شاةً، أو حتى بقرة، من أجل وليمة الختان، أما الطبقات الفقيرة فتكتفي بوجبة أبسط كثيرًا.

تتزوج الفتيات في سن مبكرة للغاية، أحيانًا عندما لا يتجاوز عمرهن ثماني سنوات. ولكن في هذه الحالات ربما لا تتصرف الزوجة في البداية إلا كمرافقة لزوجها. ولكن عندما تبلغ الفتاة الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها تبدأ في إنجاب الأطفال، ثم تتوقف عن ذلك بين سن الأربعين والخامسة والأربعين.

إن الطلاق أمر شائع للغاية. وقد رأيت فتاة صغيرة في الداخلة، قيل لي إن عمرها لا يتجاوز الثانية عشرة، ولم يكن يبدو أنها أكبر من ذلك، وقد طُلِّقت ثلاث مرات

بالفعل. والواقع أن حالة الأخلاق في هذه الواحات متدنية للغاية بالفعل، وربما كان لهذا، إلى جانب الزيجات المبكرة للغاية، تأثير كبير على شخصية السكان الضعيفة.

ويتم الاحتفال بالزواج في احتفالات فخمة للغاية، وخاصة في حالة السكان الأثرياء، وتختلف احتفالاتهم في بعض النقاط الملحوظة عن تلك الموجودة في وادي النيل.

إن المهر أو الصداق يدفعه الرجل لأسرة العروس في كل الأحوال باستثناء حالة الفقراء للغاية. وبعد أن يتم الاتفاق على هذه الأمور الأولية، يتم إجراء مراسم "كتابة الكتاب"، على الرغم من أنه نادرًا ما يتم إعداد أي عقد زواج مكتوب، كما هو الحال في وادي النيل. يذهب العريس، برفقة صديق أو اثنين، إلى منزل عروسه المقصودة، حيث يلتقي بممثلها، الذي يدفع له الجزء المتفق عليه من المهر. يتلو الجميع الفاتحة، أو السورة الأولى من القرآن الكريم، والتي يشار إليها عادة باسم "قول الفاتحة"، ثم يجلس العريس وممثل العروس القرفصاء على الأرض، ويمسك كل منهما بيد الآخر، بتحريض من شيخ ديني عادة، ويقسمان على عقد الزواج.

وبعد حوالي أسبوع، يبدأ موكب العروسة إلى بيت العريس، المعروف باسم زفة العروسة، بعد الظهر بقليل. وكان موكب من هذا النوع رأيته في واحة الداخلة، يتقدمه مهرج، كان قد ربط طرف ورقة نخيل طويلة بخصره من الأمام، ثم مرر الطرف الآخر من خلال ساقيه إلى ظهره، بحيث بدا وكأنه ذيل كثيف. وكان يحمل عصا في كل يد، ويقفز عليها بطريقة غريبة للغاية.

وخلفه رجل يضرب على الطبل المعروف في مصر باسم الطبل البلدي، وبجانبه رجل أعمى يضرب على الصنج (الكاس). ثم تبعه حشد من أصدقاء وأقارب العروس.

لا ترتدي العروس نفسها، على عكس عرائس وادي النيل، فستان زفافها. بل تحمله خلفها، فوق رؤوس الموكب حتى يتمكن الجميع من رؤيته، وذلك من خلال دعمه بعصاتين مربوطتين معًا لتكوين صليب. وترتدي العروس نفسها ثوبًا عاديًا وشالًا، أحمر اللون أو بلون زاهي، على رأسها.

يختلف الثوب الذي ترتديه نساء هذه الواحات إلى حد ما عن الثوب الذي ترتديه نساء مصر عادة. فهو عادة إما أسود أو أزرق داكن للغاية، ويصنع من الأمام من صوف ملون، عادة أحمر وأصفر، بنمط يشبه "عظم الرنجة". أما الثوب الأكثر ثراءً فهو من قماش شبكي. عادة ما تغطي النساء جزءًا كبيرًا من مقدمة فستانهن، حتى أسفل الخصر، بترتر فضي مخيط بشكل وثيق مع المواد التي يتكون منها الفستان، مما ينتج تأثيرًا يشبه إلى حد كبير البريد القديم.

عادة ما يتدلى شعرهن على ظهورهن في ثلاث أو أربع ضفائر طويلة، والتي غالبًا ما يتم تزيين نهايتها بخيوط من الخرز.

ومن بين السمات المميزة الأخرى لمراسم الزفاف في الواحات أن "الجهاز" الذي تحمله العروس، أي الأشياء التي تساهم بها في الأسرة المشتركة، لا يتم إرساله إلى منزلها المستقبلي في موكب منفصل كما هو الحال في المصريين، بل يتم حمله في "زفة العروسة". وفي حالة العروس الغنية، قد يتكون هذا من أكواب الشاي والقهوة، ونوع ضخم من جرة النحاس، لا يختلف عن السماور الروسي، لتسخين الماء عند صنع الشاي، وصينية نحاسية. وسوف يحملها أحد أصدقائها الذكور على الصينية في الموكب.

ولكن في أغلب الأحوال، بين هؤلاء الفقراء، لا يتألف "جاهز" العروس إلا من بضعة أوعية وزجاجات مياه مصنوعة من الطين المحلي، وفي هذه الحالة يتم حملها على كرسي تضعه العروس بنفسها على رأسها عندما تسير في الموكب إلى منزل زوجها المستقبلي. ربما يتوافق هذا الكرسي مع المظلة التي تمشي تحتها العروس في القرى المصرية، أو ربما يكون تمثيل الكرسي الذي يضع العريس عليه عمامته، والذي يذكره لين بأنه يشكل عادةً أحد عناصر "جاهز" العروس.

عادة ما يتم حمل علمين كبيرين، عادة ما يكونان باللون الأخضر ومغطاة بنصوص مناسبة، في الموكب، والذي يضم أيضًا بعض أقارب العروس الذكور المسلحين بالبنادق، والتي يطلقونها على فترات متكررة أثناء تقدم الموكب. في الجزء الخلفي من الزفة، يوجد غالباً رجل يضرب على الدف، وصبي يرتدي ملابس بيضاء بالكامل ويمتطي جواداً، تم إدخاله إلى الزفة لتوفير تكلفة موكب ختان منفصل له وحده.

وتتبع الزفة وليمة في بيت العريس، وبعدها يقدم جميع الضيوف الهدايا، وعادة في هذه المناسبة، يتم تقديم المال للعروس. وخلال هذا الترفيه، تعزف الفرقة الموسيقية المحلية المعتادة، وأحيانًا تؤدي فتاة راقصة، ولكن هذا لا ينطبق إلا على السكان الأصليين الأكثر ثراءً. أما بين السكان الأكثر فقرًا، أي الغالبية العظمى من الحالات، فلا توجد موسيقى أو رقص، وأحيانًا لا توجد حتى وليمة أو هدايا.

إن موكب الجنازة إلى القبر يتميز ببعض السمات التي لا يمكن رؤيتها، على حد علمي، في وادي النيل. فبينما كنت أقيم في واحة الداخلة، أحدث موط حارس قبر أحد الشيوخ في المنطقة ضجة كبيرة، وشاهدت بعد ذلك موكب جنازته، الذي كان يشبه إلى حد كبير موكب العروس المتجهة إلى بيتها المستقبلي. ولم يكن المهرج الذي يتقدم الجنازة بالطبع موجودًا، ولكن بدلًا من المجموعة المعتادة من الرجال الذين

ينشدون الأغاني في مصر، كان هناك نفس الرجال كما في حالة حفلات الزفاف، يقرعون الطبول والصنوج. وكان يتبعهم أصدقاء المتوفى من الذكور، ونفس الأعلام التي كانت تظهر في موكب العروس. وخلفهم يأتي النعش، مغطى بشال، وبعده يأتي الحشد المعتاد من النساء اللواتي يبكين، حيث تحمل في المؤخرة امرأة تحمل صينية مغطاة بقطعة قماش، تحتوي على خبز وتمر لتوزيعها على الفقراء بعد الحفل.

بعد الجنازة، يتشكل الجزء النسائي من الموكب مرة أخرى، مصحوبًا بالطبل والصنوج، ويعود إلى منزل الوصي المتوفى في نوع من الرقص البطيء، مع إصدار صرخات قصيرة حادة من النوع المعتاد في بعض الأحيان.

وفي المساء، تقام وليمة الجنازة وما يعرف بالختمة في منزل المتوفى، حيث يقوم واحد أو أكثر من الفقهاء، رجال الدين من نوع متواضع، وكثيرًا ما يكونون من معلمي المدارس في القرية، بتلاوة السورة السابعة والستين من القرآن الكريم، المعروفة باسم سورة الملك، والتي تتناول إلى حد كبير العقوبات التي تنتظر الكفار عندما يصلون إلى الجحيم. وعادة ما يتم توفير الطعام لكل الحاضرين. ويتم توزيع الطعام الذي يحمله الموكب عند القبر.

وعادة ما يطلق المسلمون على الليلة التي تلي الجنازة اسم ليلة الوحشة، أو ليلة الخراب، على الرغم من أنها تُعرف أحيانًا أيضًا باسم ليلة الوحدة، أو "ليلة العزلة"، لأن المسلمين يعتقدون أن الروح تبقى مع الجسد خلال هذه الليلة الأولى بعد الدفن.

وتذهب قريبات المتوفى من النساء لزيارة القبر يوميًا في الواحة لمدة خمسة عشر يومًا، وأطول إذا كان محبوبًا كثيرًا.

سمعت أن القبر من النوع الإسلامي المعتاد، ولم أطلع عليه، حيث يوجد به لَحد أو تجويف على جانب القاع، يوضع فيه الجسد. وقد وُجِّهت هذه التجاويف بحيث يكون الجثمان، عندما يرقد على جانبه، متجهًا نحو مكة. ويتم سد التجويف قبل ملء القبر.

يعتقد المسلمون أنه بمجرد مغادرة المعزين للمقبرة، يزور القبر ملاكان أسودان لهما عينان زرقاوتان، يُطلق عليهما اسم "مُنكر" (المجهول) و"نكير" (الجاحد)، ومهمتهما استجواب الميت حول إيمانه بمحمد وبالله، وإذا لزم الأمر إنزال "عذاب القبر" به. يمسكه أحدهما من خصلة الشعر التي توجد في أعلى رأس معظم المسلمين، ويرفعه إلى وضع الجلوس، بينما يطرح الآخر الأسئلة. وإذا كانت إجاباته مرضية، يتم توسيع القبر بشكل كبير ويمتلئ بالنور، ويُلقى الميت في نوم عميق يستمر حتى يوم القيامة. ولكن إذا ثبت أن الجثة لكافر، يُضرب حتى يصبح هلامًا بهراوة من حديد.

ونظراً لزيارة هذين الملاكين، فمن المعتاد، قبل أن يغادر فريق الدفن القبر، أن يجلس الفقيه (الرجل المقدس) أمامه، ويشرع في تعليم الجثة الإجابات التي يجب أن يقدمها عندما يأتون.

لقد بدا لي أن مواكب الجنازات التي رأيتها في الواحات لا تحمل أي قدر من الجلالة والوقار المرتبطين بمراسم الدفن الأوروبية. فجثمان حارس القبر الذي أشرت إليه بالفعل، رغم أن الجثة كانت لرجل ربما كان من المفترض بحكم عمله أن يكون ذا شخصية قديسة إلى حد ما، عندما رأوني واقفًا بجوار الكاميرا، مترددًا في التقاط صورة خوفاً من التدخل في مثل هذه المناسبة الجليلة، جاءوا في اتجاهي من تلقاء أنفسهم، وتطوع أحدهم بإعطائي المعلومات التي تفيد بأنني أستطيع تصويرهم إذا كنت أستطيع، ولكن لسوء الحظ كان الضوء سيئًا للغاية ولم يسمح لي بالاستفادة من الدعوة.

ومن الغريب أن نلاحظ أنه في واحة الداخلة، رغم أن الأمر ليس كذلك على ما يبدو في الخارجة، تقام أحيانًا احتفالات الجنازة والختان عند مقابر الشيوخ الدينيين المحليين.

تختلف أساليب الاحتفال ببعض الأعياد الدينية في الواحات قليلاً عن عادات وادي النيل. فاليوم العاشر من محرم، الشهر الأول من السنة الإسلامية، هو ذكرى العديد من الأحداث المهمة في دينهم، ويحتفل به كعيد في جميع أنحاء مصر، ويعرف بيوم عاشوراء.

ويقال إن هذا اليوم هو ذكرى اليوم الذي خرج فيه نوح من السفينة بعد الطوفان، ويقال إن آدم وحواء، اللذين غابا عن بعضهما البعض بطريقة ما عند طردهما من جنة عدن، التقيا مرة أخرى لأول مرة بعد ذلك في هذا اليوم. ويقول البعض إن هذا هو اليوم الذي خلق الله فيه آدم وحواء، وإن الجنة والجحيم والحياة والموت والقلم الذي كتب به الله أعمال البشر المقدرة، والعدد الدقيق لكل الأشياء التي ستخلق إلى الأبد واللوح الذي سجلت عليه كل ذلك، كل ذلك قد خلق في هذا اليوم. ولكن الأهم من ذلك أنه ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي وحفيد النبي في معركة كربلاء.

ولهذا السبب، يعتبره فرع الشيعة من المسلمين، الموجود في بلاد فارس والهند، أكثر قدسية بكثير من فرع السنة، الذي ينتمي إليه جميع المسلمين المصريين تقريبًا.

في كل من واحات الداخلة والخارجة، من المعتاد في هذا اليوم أن يتلقى الجميع هدية كما في عيد الميلاد. يعطى الصبي دجاجة، والفتاة حمامة، والرجل ديكًا روميًا أو بطة أو

أي طائر كبير آخر، بينما تتلقى المرأة دجاجة من نفس النوع. يتم ادخار كل البيض في القرية لهذا العيد، ولأسبوع أو نحو ذلك قبل أن يصبح من المستحيل تقريبا شراء أي بيض. تُسلق هذه البيض وتصبغ، ويستخدمها الناس لرمي بعضهم البعض، وأعتقد أن هذا يحدث أيضًا في بعض أجزاء وادي النيل، ولكن ليس بمناسبة هذا العيد، ولكن في احتفال شم النسيم. وهناك نوع من اللعبة يلعبه الرجال في الواحات، حيث يضربون بيضهم معًا، ويأخذ صاحب البيضة التي كسرها أولًا البيضة التي تكسرها.

تُستخدم بيضات "Pace" في مدينة كمبرلاند في عيد الفصح في لعبة مشابهة للعبة الموصوفة. ويفترض أن كلمة "Pace" هي تحريف للكلمة الفرنسية "Pasque".

وفي هذه الواحات يؤمنون، كما يؤمن سكان وادي النيل، بأن جنيًا خيرًا (روحًا أنثوية أو جنية) يتجول أحيانًا في القرى في الليلة التالية لهذا المهرجان، في هيئة بغلة، تُعرف باسم "بغلة العشار"، أو "بغلة العاشر"، تحمل حقيبتين مليئتين بالكنوز لتُمنح لأحد المسلمين المستحقين. ولكي تتاح للبغلة كل فرصة لاختيار نزلائها كمتلقين لكرمها، تُترك أبواب كل منزل في القرية مفتوحة أثناء الليل.

في وادي النيل، يعتقدون أن البغل يحمل سلسلة من الأجراس حول رقبته، ورأس رجل ميت على ظهره بين حقائب السرج، وأنه عندما يصل إلى منزل الفرد المحظوظ الذي تنوي إثرائه، يهز رأسه، ويقرع الأجراس عند الباب، ويبقى هناك حتى يخرج المالك ويفرغ حقائب السرج ويملأها بالقش. ومع ذلك، لن يتمكن من القيام بذلك، ما لم يتمكن من حشد الشجاعة الكافية لإزالة رأس الرجل الميت من ظهرها، وهو إجراء يصبح مخيفًا إلى حد ما بسبب حقيقة أن الرأس يلف عينيه ويتجهم في وجهه بطريقة مرعبة للغاية، كما قيل لي. ومع ذلك، لم أستطع سماع أن هذا الاعتقاد صحيح في الواحات.

في بداية الصيف يأتي الخماسين، "الخمسين يومًا"، والتي من المتوقع أن تهب خلالها رياح السموم الحارة. يُعرف اليوم الأول من هذا اليوم باسم "شم النسيم". وهو اليوم الذي يلي أحد الفصح في الكنيسة القبطية، ويُحتفل به كمهرجان في جميع أنحاء مصر.

في هذا اليوم، يتم تعليق الشعير من المحصول الجديد على الأبواب الخارجية للمنازل في الواحات لجلب الكثير منه في العام التالي. كما يتم تعليق البصل أيضًا، الذي تم وضعه طوال الليل تحت وسائد سكان الواحات، في المنزل "لإعطائهم الطاقة"، مع الشعير حتى "يجلبوا الانتعاش" للعائلة حتى الموسم القادم. يبدو البصل المزروع في الواحات نفاذ الرائحة بشكل غير عادي، وقد رأيت عدة مرات مواطنًا "ينعش" نفسه عن طريق

حشو قطعة صغيرة منه في أحد منخاريه. ربما يؤدي استنشاق الهواء من خلال أحد هذه البصيلات ذات الرائحة العطرة بهذه الطريقة إلى إحداث إحساس بالبرودة في الممرات الهوائية مماثل لذلك الذي يسببه النعناع.

في بعض الحالات، توضع فروع أشجار العشار مع الشعير والبصل فوق الباب لإبعاد العقارب والزواحف والحشرات السامة، ومنع الأسرة من الكسل. وأعتقد أن هذا الاستخدام للأوشار خاص بواحات الداخلة والخارجة.

ومن المعتاد أيضًا في هذا اليوم أن يستحم السكان الأصليون قبل الفجر حتى يتمكنوا من "الانتعاش" حتى العام التالي، حيث من المفترض أن يستحموا مرة أخرى. وقد سمعت أن هذه العادة موجودة أيضًا في وادي النيل.

تفرز شجرة الأوشار عصارة خضراء عند قطعها، ويقوم الرجال أحيانًا بإدخال هذه العصارة في أعينهم، وذلك لتجنب التجنيد. ويقال إن هذه العصارة تسبب التهابًا عنيفًا يستمر لبضعة أيام، مما يؤدي إلى فقدان البصر بشكل أو بآخر. كما تُستخدم الألياف من ثمار هذه الشجرة المجففة في حشو الوسائد، لكنني لم أتمكن من التأكد مما إذا كان من المفترض أن يكون لها أي خصائص غريبة.

إن أكثر الأعياد إثارة للاهتمام التي يمكن مشاهدتها في الخارجة، والتي لا أعتقد أنها تقام في الداخلة، هي عيد المحمل، الذي يقام في اليوم الخامس عشر من الشهر العربي، شعبان. هذا اليوم هو ذكرى دينية في وادي النيل، وتُعرف الليلة هناك باسم "ليلة منتصف شعبان".

يُعتقد بوجود شجرة سدر في الجنة تُعرف باسم "شجرة المنتهى"، تحمل أوراقاً بعدد البشر الأحياء في العالم، وأن كل ورقة مكتوب عليها اسم الشخص الذي تمثله.

وفي ليلة النصف من شعبان، تُهَزّ هذه الشجرة فتتساقط الأوراق المدون عليها أسماء أولئك [259] الذين سيموتون خلال العام. وبناءً على ذلك، يقضي العديد من المسلمين الأتقياء جزءاً كبيراً من الليل يتلون صيغة خاصة من الدعاء في المسجد.

ولكن، على حد علمي، لا تُقام أية مراسم أخرى في وادي النيل في هذا اليوم، لذا، فعلى الرغم من تطابق التاريخ مع تاريخ عيد المحمل في واحة الخارجة، لا يبدو أن هناك أية صلة بينهما.

ولا يبدو أن مهرجان الخارجة هذا مرتبط بأيٍ شكلٍ من الأشكال بمحمل، الذي يعد رحيله السنوي من القاهرة للحج إلى مكة مشهدًا معروفًا جدًا للسياح في مصر. يشبه

محمل الخارجة في المظهر كثيرًا محمل القاهرة، لكن غطائه الأحمر والأخضر ليس بهذا الجمال. يتم حمله في موكب حول قرية الخارجة، مصحوبًا بالحشد المعتاد الذي يحمل الأعلام ويضرب الطبول ويطلق البنادق ويحمل الخيال المعتاد في المواكب الاحتفالية.

وبدلًا من أن تكون مجرد سلة مهملات فارغة، كما في حالة المحمل في القاهرة، يجلس فيها رجل، يجمع البقشيش من سكان القرية. ويعطيه كل واحد منهم حفنة أو اثنتين من التمر أو الحبوب أو محصول أي محصول آخر من المحاصيل المجاورة. ويحتفظ بهذا البقشيش كشرط أساسي.

لم أتمكن من معرفة أصل هذه العادة. يزعم أهل الخارجة أن المحمل الخاص بهم مؤسسة أقدم بكثير من المحمل الموجود في القاهرة، والذي يقولون إنه تم نسخه من المحمل الخاص بهم. يقولون إنه يعود إلى عهد الأسرة الفاطمية، التي حكمت مصر من عام 908 إلى عام 1171 م، في حين يُفترض أن المحمل الموجود في القاهرة يعود تاريخه إلى حوالي عام 1265 م. امتياز الركوب في المحمل الموجود في الخارجة وراثي، حيث تم وصف العائلة التي تتمتع بحق القيام بذلك لي بأنها عائلة من الفقهاء.

عندما كنت في الخارجة، كان ممثل العائلة هو ناظر المدرسة في القرية، الاسم خليفة زناتة، وربما يكون من نسل أحد السلاطين الصغار الذين حكموا الواحة، أو ربما من نسل أحد الشيوخ المقدسين.

في الحالة الأخيرة، ربما يكون عيد المحمل شكلًا من أشكال المولد، أو احتفالات أعياد الميلاد، ولكن لم أسمع عن أي موالد أخرى لأي من الشيوخ المحليين في الخارجة أو الداخلة. ومع ذلك، تُستخدم المحملات في عدد قليل من الأماكن الأخرى في وادي النيل لنقل السجاد إلى قبر الشيخ المتوفى في مولده.

يتألف المحمل الذي يحمله الجمل من مصر في رحلة الحج إلى مكة من هيكل مربع الشكل، يبلغ طوله حوالي خمسة أقدام مربعة، ويعلوه قمة هرمية الشكلٍ، ومغطى بالكامل بقماش أسود مطرز بشكل غني. وهو فارغ، ولا يعدو كونه رمزًا للملكية.

إن تاريخ مصر مثير للاهتمام. فقد كان السلطان الصالح نجم الدين يمتلك جارية تركية جميلة تدعى شغر الدر، والتي أصبحت في نهاية المطاف زوجته المفضلة. وعندما توفي آخر أبنائه، انتهت سلالة آل أيوب، التي كان هو آخر ممثليها. ثم تمكنت شجرة الدر بطريقة ما من الحصول على الاعتراف بها كملكة لمصر، وبهذه الصفة أدت فريضة الحج إلى مكة محمولة على ظهر جمل في محفة مغطاة رائعة. وخلال بقية حكمها، أرسلت المحفة فارغة في الحج، كرمز لسيادتها. وقد حافظ حكام مصر منذ ذلك الحين على هذه العادة

المتمثلة في إرسال محفة فارغة مع الحجاج إلى مكة.

لقد زودني أحد الأطباء المحليين في موط بالتفاصيل التالية. خلال السنوات الثلاث التي قضاها في الواحة، 1908-1906، وُلد في موط 110 أطفال ذكور و106 أطفال إناث، وبالتالي فإن نسبة الذكور كانت 100 إلى 96.36 من الإناث. وفي نفس الفترة كان هناك 76 حالة وفاة من الذكور مقابل 70 حالة وفاة من الإناث، حيث كانت نسبة وفيات الذكور 100 إلى 92.1 من الإناث.

ويبدو أن النساء أمهات مهملات للغاية، حيث يتركن الأطفال ليتولوا رعاية أنفسهم. ومن الملاحظ أن مهدات الأرجوحة، مثل تلك التي يمكن رؤيتها في بعض الأجزاء الأخرى من شمال أفريقيا، غير مسموعة على الإطلاق في واحة الداخلة.

الجريمة، بأشكالها الأكثر خطورة، نادرة جداً بالفعل. والجنح الرئيسية هي سرقات الطعام البسيطة، والتي هي على الأرجح نتيجة للفقر المدقع. والمشاجرات حول مياه الري تؤدي أحياناً إلى اعتداءات، ولكن قلما تُستخدم فيها الأسلحة. أما الأطفال غير الشرعيين فأعدادهم كبيرة جداً ويُقتلون أحياناً (يتم التخلص منهم). ويُنظر إلى نسبة كبيرة جداً من النساء على أنهن غير ملتزمات أخلاقياً (أو: فاسدات أخلاقياً)، ولكن هذا الأمر، كقاعدة عامة،[261] يُعتبر أمراً مسلّماً به (أو: يؤخذ كأمر طبيعي)، ولا ينتج عن ذلك سوى القليل من الغيرة.

وقال أحد الأطباء إن حالات المهق والصرع والصمم غير معروفة، لكن الرجل الذي خلفه في المنصب كان على علم بحالة واحدة من الصرع في قصر الداخل.

كانت هناك حالة أو حالتان من الجنون معروفتان في الواحة، وحالة واحدة من رقص القديس فيتوس، في حالة من الجنون الجزئي.

وقيل إن هناك أربع أو خمس حالات من البكم بين سكان موط.

ولم تكن هناك سوى حالة واحدة من حالات السل، وهو رجل أمضى بعض الوقت في وادي النيل، لكنه أصيب بالمرض عند عودته إلى الداخلة.

كانت أكثر الشكاوى شيوعًا هي الملاريا والتهاب الشعب الهوائية المزمن وانتفاخ الرئة، وكان السبب الرئيسي في الأخيرين، وفقًا للطبيب المحلي، هو ضعف الرئتين الناجم عن تدخين الحشيش وفي بعض الحالات الأفيون. وكان التهاب الشعب الهوائية والالتهاب الرئوي القصبي أيضًا من بين الشكاوى الأكثر شيوعًا بين الأطفال. كانت الحالات الجنسية نادرة للغاية، بالنظر إلى طبيعة السكان، ويبدو أن السكان الأصليين

محصنون تقريبًا ضدها. كانت مشاكل الجهاز الهضمي شائعة للغاية، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الشاي القوي للغاية الذي يستهلكونه في كل فرصة.

وكما قد يتوقع المرء من عِرق بدائي مثل أهل هذه الواحات، فإن العلاجات المستخدمة في حالة المرض تكون غريبة إلى حد ما في بعض الأحيان. فإذا أصيب رجل، على سبيل المثال، بنوبة حمى، فإن أحد أصدقائه يدعوه أحيانًا للتنزه، وخلال ذلك يغريه دون أن يدري إلى بركة ماء ويدفعه فيها فجأة. ويقال إن الصدمة العصبية، إلى جانب الغمر المفاجئ في الماء البارد، تؤدي في كثير من الأحيان إلى الشفاء، ولكن يبدو أن هذا علاج جذري.

التهاب العين، وهو شكوى شائعة إلى حد ما في هذه "الجزر المباركة"، ربما بسبب الأوساخ وتهيج العين الناجم عن الغبار أثناء العواصف الرملية المتكررة، يتم علاجه باستخدام ضمادات مكونة من البصل والملح، أو من الطماطم النيئة، في بعض الأحيان أيضًا، يتم استخدام خضروات تسمى البورسلين، والتي لم أتمكن من تحديدها، مطحونة بنفس الطريقة.

نبات يسمى الخبيزة يتم أحيانًا سحقه ووضعه كضمادة على لدغة عقرب في الداخلة، ويقال إنه يعطي راحة كبيرة. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه في الواحات يقولون إن لدغة العقرب "العطشان"، أي الذي يعيش بعيدًا عن الماء، من المرجح أن تكون قاتلة أكثر من لدغة العقرب الذي يعيش بالقرب من بئر. ومن الممكن أن يشير هذا إلى وجود نوعين مختلفين.

إن الأسر في الواحات عادة ما تكون كبيرة، حيث يبلغ متوسط عدد الأطفال فيها سبعة إلى ثمانية، كما قيل لي. والمرأة التي لا أطفال لها، كما هي العادة في مختلف أنحاء الشرق، تتعرض لانتقادات شديدة من جانب أخواتها الأكثر حظاً، ويستخدمن العديد من الحيل والتعويذات لإزالة العار. ولا يسعنا إلا أن نذكر واحدة منها. فبالقرب من موط في واحة الداخلة يوجد بئر يُعرف باسم عين الماسم، ويصب في بركة صغيرة. وتقوم المرأة التي لا أطفال لها بإصلاح البئر في عصر يوم الجمعة، فتأخذ معها زجاجة فخارية تستخدم لتبريد مياه الشرب، مملوءة بمياه مأخوذة من سبع آبار مختلفة. ثم تلقي بقطع صغيرة من الخبز والحبوب وما إلى ذلك في البركة ثم تستحم فيها. وعندما تخرج من حمامها، تقوم امرأة ثانية ترافقها بسحق الزجاجة على رأسها. ويقال إن هذا علاج قوي.

وتذهب النساء أحيانًا إلى مقبرة مهجورة للصلاة من أجل الأطفال، أو إلى قبر أحد

الشيوخ المحليين وينذرن البقشيش للشيخ في حالة نجاح صلواتهن.

خلال خمس زيارات قمت بها إلى الواحة الغربية، لم أتذكر قط أنني رأيت حالة واحدة من الصلع. وربما يرجع ذلك إلى أن الحلاقة المتكررة للرأس لها تأثير مقوي للشعر. ولكن حالات الشيب المبكر ربما بسبب الأوساخ والجفاف الشديد والحرارة، بدت شائعة بشكل غير عادي. ومن المحتمل أن تكون هذه سمات عرقية.

هناك بعض الخرافات الغريبة حول الكثبان الرملية في الواحات. ففي كل من الخارجة والداخلة يقولون إنه لم تكن هناك أحزمة رملية في الواحات في العصر الروماني، ولكنها جاءت منذ ذلك الحين من الشمال. وربما يكونون على حق في هذا، حيث لا تزال هناك آثار، على ما يبدو، لآثار رملية في الواحات. إن الآثار الرومانية التي يمكن رؤيتها في عدة أماكن تحت حزام الكثبان الرملية إلى الغرب من الخارجة، قد تكون موجودة بالفعل. وقد أخبرني أحد السكان المحليين أيضًا أنه ركب ذات يوم لمدة نصف يوم طويل على ظهر جمل إلى الغرب من واحة الداخلة، وعندما مر عبر أطلال واسعة بين الكثبان الرملية في عدة أماكن على طول الطريق، عثر على بعض المقابر المنحوتة في الصخر. لقد سمعت تقارير عن أطلال في هذا الاتجاه من عدة أشخاص، ورغم أن حجمها ربما يكون مبالغًا فيه، إلا أنني لا أشك في وجودها.

يقال إن هناك مكانًا في الهضبة الواقعة شمال قصر الداخل، حيث تصدر الرمال صوتًا عاليًا عند ضربها، ويمكن سماعه من مسافة بعيدة إلى الجنوب. كما سمعت أنها تصدر صوتًا موسيقيًا عند ضربها، لذا فمن الواضح أن هذه حالة من "الرمال الموسيقية" العادية التي تم العثور عليها في العديد من أجزاء العالم.

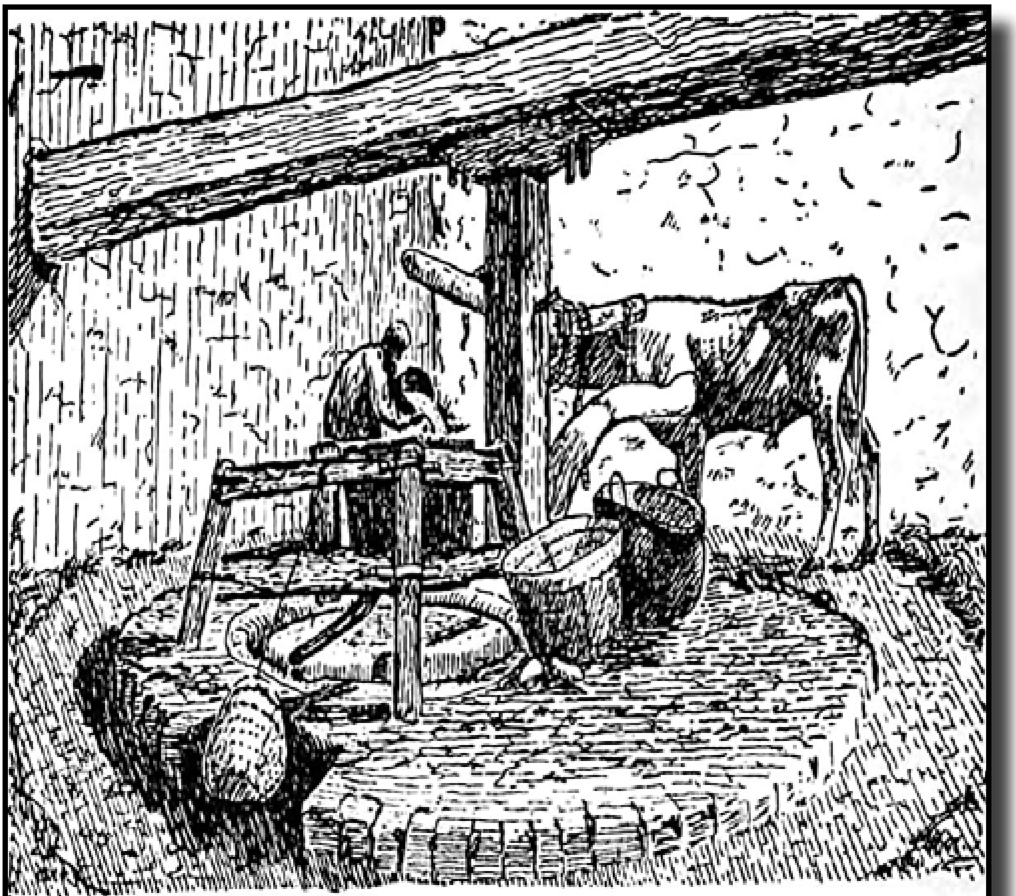
يقال إنه كان هناك في هذه المنطقة تعويذة رومانية كانت تمنع الكثبان الرملية من دخول منخفض الداخلة. ومن المحتمل جدًا أن التعويذة المذكورة كانت جدارًا، كان الغرض منه منع انجراف الرمال، حيث يُقال إن بقايا أحد هذه التعويذات، المبنية من الحجر غير المهشم، لا تزال مرئية هنا.

وفي واحة الخارجة يقال إن الرومان كان لديهم تعويذة أخرى على شكل بقرة من نحاس أعلى المنحدر إلى الشمال من المنخفض، وكانت، حتى إزالتها، تبتلع كل الرمال التي كانت تهب على الواحة وتحافظ على منخفض الخارجة خاليًا من الكثبان الرملية.

في جوار قرية رشيدة في واحة الداخلة توجد شجرة ميتة كبيرة، شجرة سنط أو أكاسيا على ما يبدو، تعرف باسم "شجرة الشيخ آدم"، ويفترض أنها تمتلك روحًا. ويقال إن خشبها غير قابل للاشتعال.

هناك شجرة سنط أخرى في الداخلة لها صفات غريبة مرتبطة بها، وربما تكون الآراء الخرافية للسكان الأصليين فيما يتعلق بهذه الأشجار بقايا من شكل قديم جدًا من أشكال عبادة الأشجار، مثل تلك الموجودة في الوقت الحاضر، كما أعتقد، بين البدايات في جنوب الصحراء الليبية.

توجد هذه الشجرة الثانية في بلات، وتُعرف باسم "صنوبر عبد النبي". عندما يسمع



[صورة: مطحنة الدقيق، رشيدة.]

رجل في الواحة أن عدوًا له قد مات، فإنه يهتف "كبريت وسنت البلات"، "عود ثقاب وسنت البلات"، أي أنه يتمنى لو كان لديه عود ثقاب وشجرة سنت البلات ليحرقه بها. في بعض الأحيان يقول أيضًا "وجريد الواحة"، "وأوراق نخيل الواحة"، أي أنه يرغب في إضافتها إلى الوقود أيضًا.

إن الأدوات الزراعية المستخدمة في الواحة بدائية للغاية بطبيعة الحال. فكل أعمال الزراعة، على حد علمي، كانت تتم باستخدام الفأس أو المجرفة العادية التي تتوافر في وادي النيل. وفي الحصاد والتقليم، يستخدم منجل ذو أسنان غريبة. والشفرة مدببة وتكاد تكون بزاوية قائمة على العمود الحديدي، الذي يتم إدخال نهايته في مقبض خشبي. أما المحاريث، على حد علمي، فلا تستخدم قط.

في رشيدة، عُرضت عليّ طاحونة دقيق تابعة للعمدة، وكانت من نوع مثير للاهتمام إلى حد ما. كان الحجران اللذان كان يتم طحن الحبوب بينهما غير متساويين في الحجم، الحجر العلوي أصغر كثيرًا من الحجر السفلي. وكان الحجر السفلي مجوفًا، وكان الحجر العلوي، الذي يدور حوله ثور يمشي في دائرة، يدور في تجويف الحجر السفلي، الذي كان يدور حول نفسه. كان يتم تثبيت الطاحونة في الأرض. وكان يتم تعليق صندوق فوق أحجار الرحى، بواسطة إطار خشبي رباعي الأرجل، حيث كان يتم صب الحبوب المراد طحنها، وكان هناك أنبوب من أسفل الصندوق يوصل الحبوب إلى الوصلة بين حجري الرحى العلوي والسفلي. وكان يتم سحب الدقيق من خلال ثقب في الحجر السفلي إلى سلة توضع في شق في الأرض حيث كان هذا الحجر مدفونًا فيه.

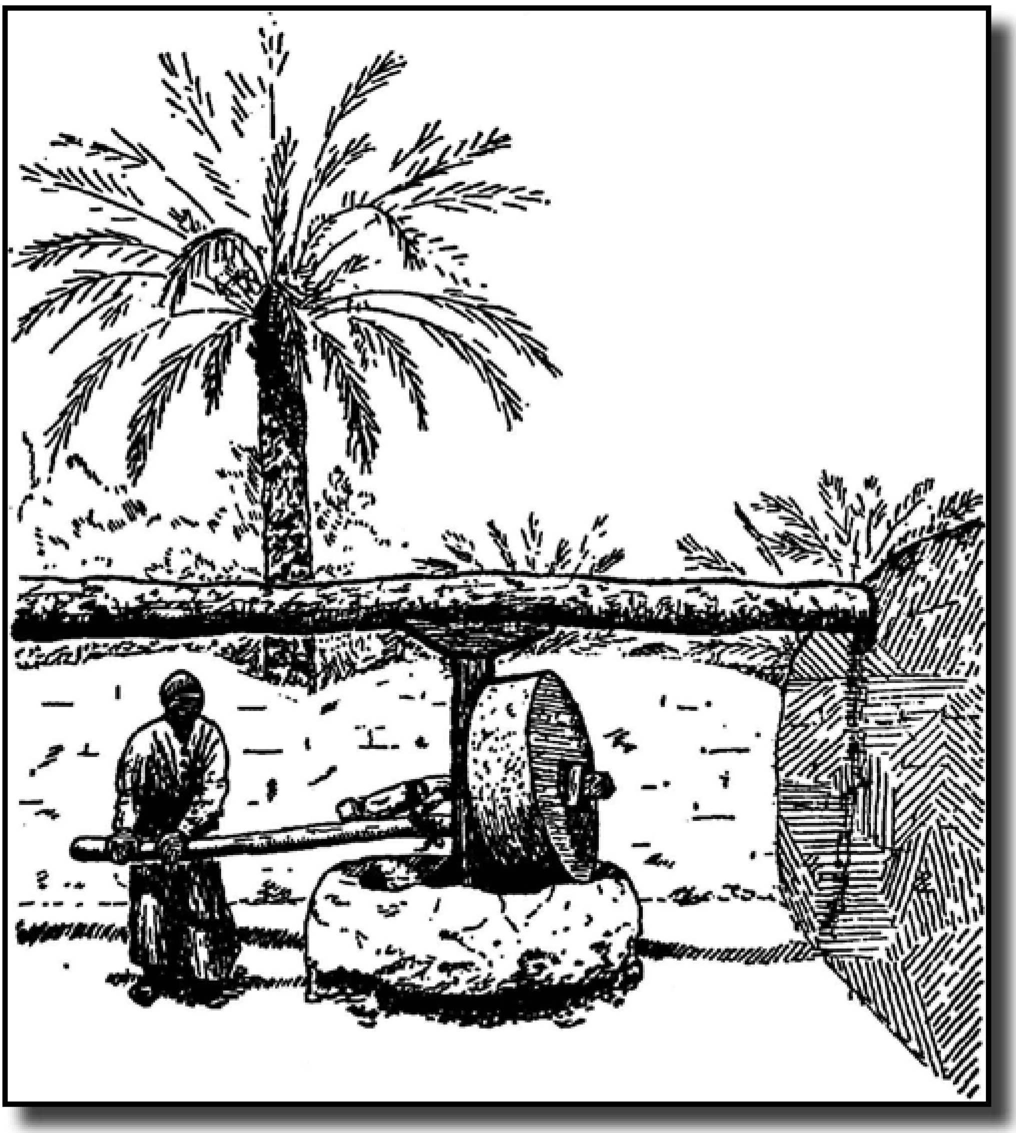
إن جزءًا كبيرًا من الحبوب المستهلكة في الواحات لا يتم طحنه في طاحونة، بل يتم تحضيره بواسطة النساء بطريقة أكثر بدائية، وهذا هو الحال بشكل خاص مع الأرز، الذي يستهلكه أغلب السكان الفقراء. يتم حفر تجاويف على شكل حوض يبلغ قطرها نحو قدم في الصخر، وغالبًا ما تكون على جانب الطريق، ثم توضع الحبوب في هذه التجاويف وتطحن إلى مسحوق بواسطة حجر كبير يتم حمله بكلتا اليدين.

رشيدة هي إحدى القرى القليلة في الواحة التي تزرع كميات كبيرة من الزيتون، حيث يتم زراعتها بكميات كافية لتبرير تركيب الأجهزة اللازمة لاستخراج الزيت.

يتم سحق الزيتون أولًا في طاحونة، وهي ترتيب بدائي إلى حد ما يتكون من عجلة حجرية ضخمة، يبلغ قطرها حوالي خمسة أقدام، وسمكها ثمانية عشر بوصة، والتي يتم تحريكها على حافتها حول حوض دائري يبلغ قطره حوالي ستة أقدام، بواسطة رجل يدفع ضد شعاع، ويدير المحور الرأسي الذي يتم توصيله به. يتم وضع كتلة الزيتون

المسحوقة عند إخراجها من الحوض في كيس وعصرها تحت مكبس لولبي، يعمل أيضًا بواسطة رجل يدفع قضيباً على مبدأ الرحوية، ويتم جمع الزيت أثناء تسربه في أواني فخارية، أو بالأحرى أحواض، توضع أسفل المكبس.

يتم صنع الزبدة عن طريق رج الكريمة في كيس جلدي. يتم وضع عصا طولها حوالي عشرة أقدام مع شوكة في الأعلى على الحائط، ويتم تعليق جلد الماعز المملوء بالكريمة



[صورة: معصرة الزيتون، رشيدة.]

بحبل من الشوكة. يتم تأرجحه ذهابًا وإيابًا بحركة متقطعة حتى تتشكل الزبدة.

على عكس أهل الداخلة والخارجة الذين لا يتظاهرون بالروح الرياضية، فإن أهل واحة الفرافرة من هواة الصيد. وأثناء تواجدي في تلك الواحة رأيت العديد من الأجهزة المبتكرة لصيد الطرائد.

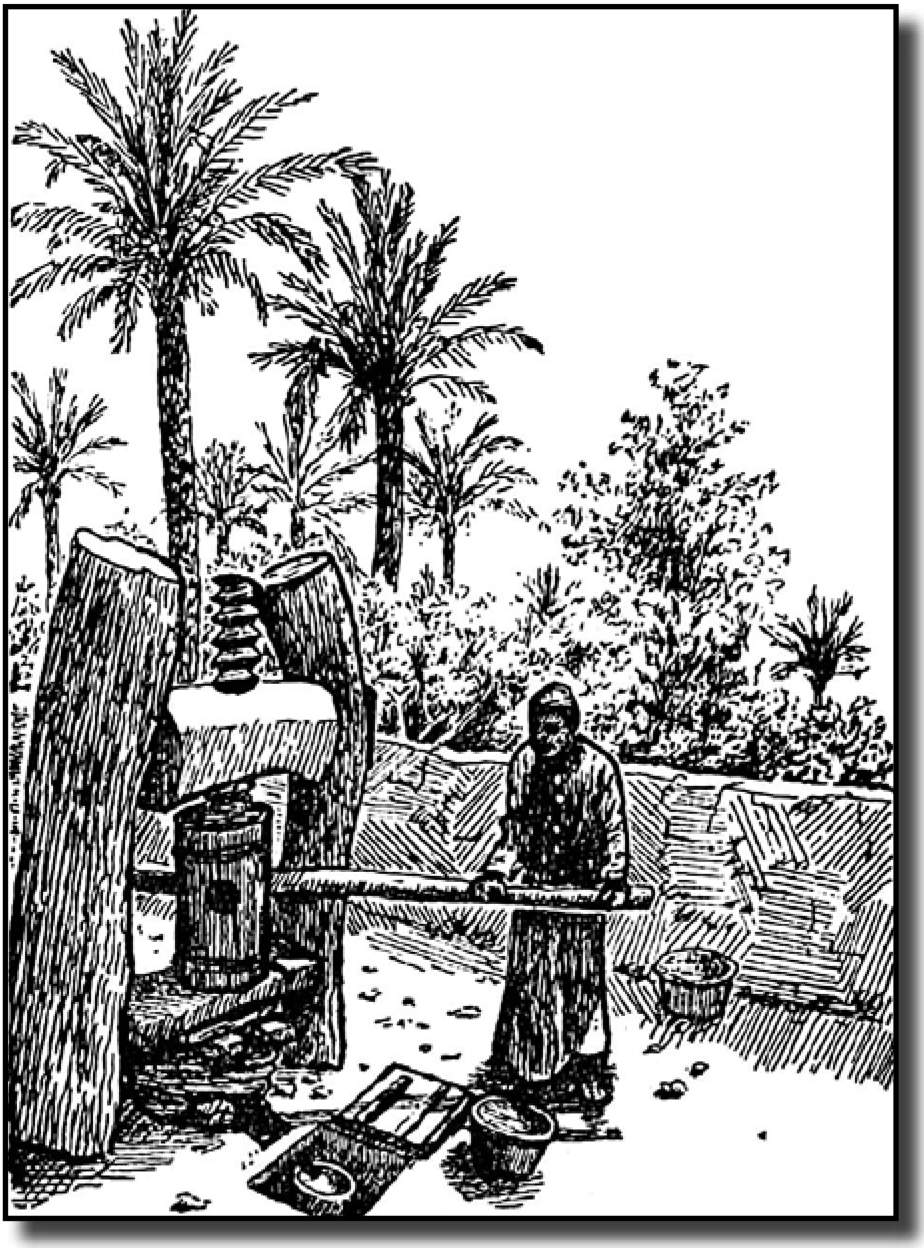
كان أكثر هذه الأدوات إثارة للاهتمام هو فخ لصيد الغزلان. وكان يتكون من قمع على شكل سلة، مفتوح من الأعلى والأسفل. وكان طوله 7 بوصات، وقطره 5.5 بوصة عند القمة، ويتناقص إلى 2.5 بوصة عند الأسفل. ويوضع الفخ عند سفح شجيرة اعتاد الغزلان على التغذية عليها. ويتم أولًا حفر حفرة في الأرض، ثم دفن القمع فيها بحيث يكون الطرف الكبير مستويًا مع سطح التربة.

في نهايته المفتوحة، تم تركيب ترتيب يشبه العجلة بدون محور، تتكون حافتها من سعف النخيل المضفر، والذي يمر من خلاله حوالي ثلاثين شوكة قوية من شجرة تمر. يتم تمرير النخيل، التي تمثل الأسلاك، حيث تلتقي نقاط هذه الأسلاك معًا في المنتصف. يتم وضع عقدة على هذه العجلة، في نهاية حبل، يتم ربط الطرف الآخر منه بجذع صغير من الخشب.

يتم إخفاء الفخ عن طريق تغطيته بروث الحمير، ويتم تغطية الحبل بالرمل. عندما يضع الغزال قدمه على العجلة، فإنه يمر بها حيث يجب أن يكون المحور، ثم يتم تثبيت قدمه بالأشواك حتى يتاح الوقت للحبل للالتصاق به. بعد ذلك، تسقط العجلة عمومًا، لكن الجذع الملتصق بالحبل يعيق حركات الغزال بحيث يمكن اصطياده وإمساكه بسهولة.

كانت هناك عدة مصائد لصيد الطيور، ويبدو أن هذه المصائد كانت مخصصة بشكل أساسي لصيد السمان. كان أحد هذه المصائد عبارة عن حفرة في الأرض، تُغطى بلوح من الصخر أو كتلة كبيرة من الحجارة، مُدعَّمة في مكانها بواسطة مجموعة من العصي لتشكيل نوع من الغطاء. وقد كانت هذه المصيدة تشبه إلى حد كبير الفخ المألوف المصنوع من أربع قطع من الطوب المستخدم في إنجلترا. ويبدو أن بضع حبات من القمح كانت تُستخدم كطُعم معتاد.

كان هناك أيضًا نوع مبتكر من المصائد الشبكية. كانت هذه المصيدة تتكون من شبكتين نصف دائريتين، يبلغ قطر كل منهما حوالي ثماني بوصات، ويشار إليهما بالرمزين (A) و (B). وعند نصب المصيدة، كانت الشبكتان متعامدتين على بعضهما البعض. وكان الجزء المنحني من إطارات هذه الشباك مصنوعًا من الجريد (الأضلاع



[صورة: معصرة الزيتون، رشيدة.]

الوسطى لأوراق النخيل)، بينما كان الجانب المستقيم من نصف الدائرة مصنوعًا من حبل من ألياف النخيل. وقد مُلئت الفراغات داخل هذه الإطارات بشبكة مصنوعة من شرائح ضيقة من أوراق النخيل.

كانت هناك عصا طويلة، يشار إليها بالرمز (ج)، تربط الإطارين معًا. وقد كانت العصا تمر أسفل الإطار (A) وعبر شبكة الإطار، ثم عبر حبل الإطار (B). وعندما يتم رفع الإطار (B) ليصبح متعامدًا على الإطار (A)، كان الحبل يلتوي بدرجة كافية لدفع الإطار (B) للعودة إلى الإطار (A) عند إطلاقه، وبالتالي الإمساك بالطائر بين الشبكتين. وكانت العصا (د)، ذات الطرف السفلي المدبب والمثبت في حلقة (هـ)، تُثَّبت بشكل عمودي. وكان الطُعم، وهو يرقة صفراء كبيرة في الفخ الذي رأيته، مربوطًا بالحلقة. وكان الطرف العلوي من العصا (د) مربوطًا بخيط (ج) بنهاية العصا (ج). وكانت شدة الطُعم تسحب الحلقة (هـ)، وبالتالي تُحرر العصا (د)، وتدع الإطار (B) حرًا للعودة إلى الإطار (A).

رأيت العديد من الصبية الصغار في الواحة يستخدمون قوسًا نشابيًا بدائيًا للغاية. كان "جذع" هذا القوس عبارة عن جريد قوي، تم قطع فتحة كبيرة بالقرب من أحد طرفيه. وكان القوس، وهو جريد آخر، يناسب هذه الفتحة بشكل غير محكم ولم يكن مثبتًا على "الجذع" بأي شكل من الأشكال. وعند ثني خيط القوس، كان يعلق في شق على الجانب العلوي من "الجذع"، حيث يتم تثبيت السهم في الجزء العلوي منه عن طريق الإمساك به بين إصبع وإبهام اليد اليسرى. ويتم تحرير الخيط من شقه عن طريق الضغط عليه لأعلى بإصبع اليد اليمنى الأول.

عند تحميل الإبل، كان الرجال ينطقون دائمًا بكلمات ترنيمة. وقد تمكنت من فهم كلمات عدد قليل منها. وفي بعض الحالات، أشك في أن هذه الكلمات تحمل أي معنى، ولكن عندما بدا أنها قابلة للترجمة، قمت بإدراجها كاقتراح. ولسبب ما، كان الرجال يكرهون أن يتم سؤالهم عنها، ولست متأكدًا من أنني كنت دائمًا أفهم الكلمات بشكل صحيح.

أثناء التحميل، كان رجل يقف على كل جانب من الجمل الرابض، وعادة ما يضعون جزءًا من الأمتعة على ظهره بالتناوب، ويغنون سطرًا من التراتيل أثناء قيامهم بذلك. وكان الهتاف الأكثر شيوعًا هو "إلي هوا لي أل لي" (هل هذا أعلى من ذلك؟). وكانوا يستمرون في الغناء مرارًا وتكرارًا حتى اكتمال التحميل.

كانت هناك أغنية أخرى مكونة من ثلاثة أسطر، يغنونها بالتناوب إلى ما لا نهاية.

وكانت الأغنية على النحو التالي:

يا تكنو ني

يا لوبال لي

يا طول لي

كانت هناك ترانيم أكثر تعقيدًا تتكون من خمسة أسطر، وعند الانتهاء منها يتم تكرارها. غنى كل من الرجلين السطرين الأولين مرتين، ثم كرر كل من الرجلين السطر الثالث بنفس الطريقة مرة واحدة، ثم غنى كل من الرجلين السطر الرابع مرتين. ثم بدأوا بالسطرين الأولين مرة أخرى وكرروا العملية برمتها. تم غناء السطر الأخير مرة واحدة فقط، من قبل الرجل الذي أضاف الحزمة الأخيرة إلى الحمولة. وكانت الأغنية بأكملها على النحو التالي:

"أنا وحدي" (يرددها كل رجل مرتين).

"ونُوَارُ هَادِئٌ (وأُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا)" (يرددها كل رجل مرتين).

"شوفي جيبي دي (انظر! أنا أحضر لك هذا)." (مرة واحدة فقط لكل رجل).

"يا هوه ديبي دي (أوه! هوه! أحزم هذا معه)." (مرتين من قبل كل رجل).

"ما صفّيت عليّ (لا ترتب لي أي شيء آخر)." (مرة واحدة فقط عندما يتم وضع الحزمة الأخيرة في مكانها).

أثناء المسيرة، كان الرجال يندفعون في الغناء كثيرًا، ولكن في هذه المناسبات كان الغناء بصوت عالٍ ومختلفًا عن ترانيم التحميل، التي كانت بنبرة صوتهم الطبيعية. لم أتمكن أبدًا من التقّاط الكلمات، ولكنني لم أجد أي نوع من الأغاني التي تغنى للجمال أثناء المسيرة، وكانت الألحان، التي تختلف في سلمها عن تلك المستخدمة في أوروبا، أكثر إرباكاً. ولكنني سمعت عبد الله، الذي قال الرجال إنه جاء من مكان ما في الحبشة، مرة أو مرتين أثناء مسيرة ليلية طويلة، وهو يبدأ في غناء أغنية لنفسه، بدت وكأنها على السلم الأوروبي. وكانت أغنية منخفضة حزينة تشبه إلى حد ما الأغنية البريطانية القديمة "ابنة قاضي إزلنجتون". حاولت التقاط اللحن، ولكن بما أنني كنت "بطيئًا في الفهم" فيما يتعلق بأي شيء موسيقي، فقد طلبت منه بغباء أن يغنيها مرة أخرى، حتى أتمكن من الإمساك بها. ولكن عبد الله كان حساسًا للغاية فيما يتعلق بالموضوع، ولم يغن مرة أخرى. وحتى بالنسبة لأذني الأوروبية كانت أغنية جميلة بشكل واضح، ومختلفة الاختلاف عن الصراخ المتنافر الذي نسمعه عادة من العرب.

من المفترض أن غناء سائقي الجمال يساعد رعيتهم في طريقهم، ويبدو أن له بعض التأثير في هذا الاتجاه، ربما لأن الحيوانات تعرف من التجربة أنه إذا فشل الغناء في إحداث التأثير، فسوف يتبعه صفعة من الكورباج.

إن المصريين شعب يؤمن بالخرافات، وربما كان سكان الواحات هم الأكثر سذاجة بين كل المصريين. ولقد تمكنت من تعلم الكثير عن المعتقدات والممارسات الخفية لدى أهل المنطقة من الطبيب القبطي في الداخلة، عيسى ـ الذي سبق ذكره.

ذات يوم، تطرق إلى موضوع الكهنة الأقباط، ولكونه قبطيًا، فمن المحتمل أنه كان يعرف ما يتحدث عنه. قال إنهم جميعًا منجمون جيدون للغاية، لكنهم ماكرون للغاية ولن يعترفوا أبدًا بمعرفة أي شيء عن هذا الموضوع.

إنهم يعملون عن طريق علامات البروج، التي تستخدم جنبًا إلى جنب مع الجداول. كان لديه أحد الجداول، لكنه لم يتمكن من استخدامه، لأنه لم يكن لديه المفتاح. وهناك عدد من هذه الجداول، كل منها جمعه أحد الفلاسفة العظماء - سليمان، وسقراط وما إلى ذلك، الذين سميت باسمهم.

والجداول والمفتاح مكتوبة عادة باللغة القبطية، وبواسطة المفتاح يمكن الحصول على إجابة سؤال من الجدول بالقافية، وهو ما قال إنه صحيح بشكل عام. وكانت عائلته تمتلك إجابة أُعدت لجده، تنبأت فيها بثورة عرابي والاحتلال البريطاني لمصر، ربما بعبارات غامضة للغاية.

كان السحر والاستبصار من الموضوعات التي اهتم بها بشدة. فقد قال إنه كان في قصر الداخل صبي يبلغ من العمر نحو ثلاثة وعشرين عامًا، وكان أهل الواحة يلجأون إليه كثيرًا عندما يفقدون أي شيء، أو يريدون معلومات عن كنز، أو يرغبون في التنبؤ بالمستقبل.

كان لدى الصبي صديقة - عفريت (روح) أنثى - كانت تظهر له أحيانًا أثناء الليل. كان يعرف دائمًا موعد وصولها، حيث كان يشعر بالنعاس والغباء لمدة يوم أو يومين قبل ذلك. وبعد زيارتها، ظل في حالة من الاستبصار لعدة ساعات. كان يعلم مسبقًا أنه كان يتوقع زيارة من عفريتته، وكان أولئك الذين يريدون معلومات يتقدمون إليه. وعندما وصلت، كان يسألها. وفي بعض الأحيان كانت تجيب شفهيًا، لكنه عادة ما كان يرى أو يسمع إجابة السؤال أثناء وجوده في حالة الاستبصار بعد زيارتها. وقال الطبيب، الذي رأى الوسيط، إنه حكم عليه بأنه مصاب بالصرع.

لقد روى لي القصة الغريبة التالية، والتي أنا متأكد من أنه صدقها بنفسه. لقد تم استدعاؤه ذات مرة لمقابلة زوجة شيخ العفريت الشهير (الساحر) الذي يعيش بالقرب من القاهرة - في الزيتون. اشتكت له من أن زوجها يهملها لصالح روحه المألوفة، عفريت ذكر، كان يتحدث إليه دائمًا. وعندما رأى الطبيب الزوج - وهو عربي مغربي عجوز، يُدعى عبد اللطيف - بدأ يضايقه بشأن هذا الأمر، وطلب منه أن يتنبأ بشيءٍ يريد معرفته. ووعد عبد اللطيف أن يفعل ذلك، إذا جاء ذات يوم وأحضر معه صبيًا صغيرًا. فاختار الطبيب صبيًا يعرفه، وأخذه إلى منزل الساحر. وأجلسه شيخ العفريت على أريكة، ووضع الصبي على أريكة أخرى مواجهة له على مسافة ما. ثم جلس في الطرف الآخر من الغرفة، حيث بدأ يضرب نهاية عصاه بطريقة إيقاعية على الأرض.

بدأ الصبي يشعر بالنعاس على الفور تقريبًا، وبعد حوالي دقيقتين صرخ وسقط على الأرض. فهرع الطبيب لفحصه، فوجد أنه يعاني من كل علامات الاختناق وظن أنه يحتضر. لكن الساحر أكد له أنه ليس في خطر، وطلب منه أن يسأل الصبي بأي لغة يحبها. وبدأ الطبيب في استجوابه باللغة الإنجليزية - وكان يعلم على وجه اليقين أن الصبي غير قادر على الكلام. وأجاب الصبي بنفس اللغة، وكانت الإجابات على الأسئلة التي طرحها صحيحة، باستثناء بعض التفاصيل البسيطة. وبعد هذه الجلسة، كان الصبي مريضًا لمدة شهر، وخلال هذه الفترة كان يعتني به!

بفضل الطبيب تمكنت من رؤية أداء الماندال، أو الاستبصار عن طريق بركة من الحبر، الذي قام به الساحر من سمينت المذكور سابقًا. وقد اقترحت عليه أن نمسك به ونجعله يقوم بضرب المندل، فتعهد بإجراء مقابلة معه وترتيب الأمر.

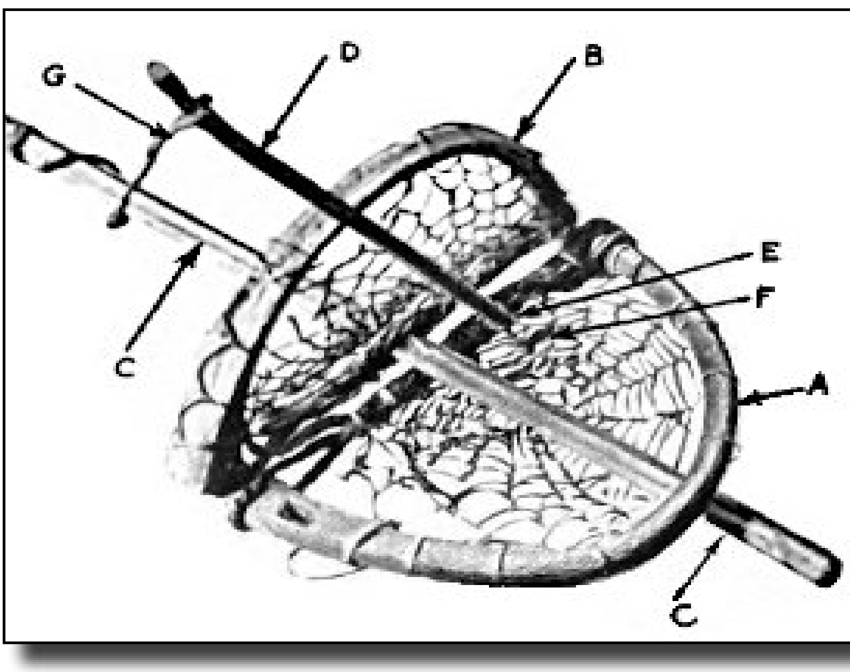
وبعد قليل جاء الساحر والطبيب إلى منزلي معًا. وكان شيخ العفريت يحمل عصا في إحدى يديه ومسبحة في الأخرى. وصعد السلم إلى سطح المنزل وهو يتمتم بما افترضت أنه تعويذات. كان شخصًا ضخم البنية، ووجهه كبير ومترهل وعيناه صغيرتان ماكرتان. تفضل بتناول بعض الشاي، ثم بدأنا العمل وسألته عما إذا كان سيقيم المانداك.

أعرب عن استعداده للقيام بذلك، ووعد بأنه سيحضر العرض بشرط أن تكون الشمس مشرقة ولا توجد رياح، وهي الشروط التي قال إنها لا غنى عنها لنجاح الجلسة الروحانية. واقترح أن نحضر صبيًا صغيرًا لمقابلته، ليلعب دور المتحضر، أي الشخص الذي يحدق في المرآة السحرية.

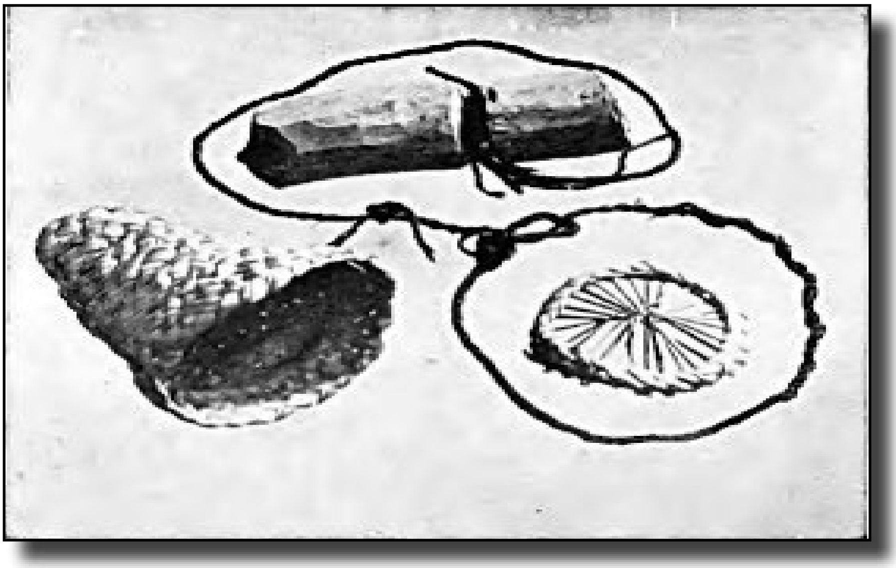
لقد بذل الساحر جهدًا كبيرًا لتوضيح أنه لا يتعامل على الإطلاق في السحر الأسود، على الرغم من أنه قال إنه يعرف كل شيء عنه.

النظرة الأولى على "وادي الضباب".
تقع واحات الصحراء الليبية في منخفضات يصل عمقها إلى عدة مئات من الأقدام في الهضبة الرئيسية.
ولم يسبق الإبلاغ عن هذا المنخفض الضخم من قبل. (ص 95).





مصيدة السمان والطيور الصغيرة. (268)



فخ الغزال. (266)

يستخدم سكان واحة الفرافرة هذين الفخين المبتكرين، حيث يعتبر العديد منهم من الصيادين المهرة.

كنا حريصين على أن يبدأ في ممارسة فن السحر على الفور، لكنه أعلن أن ذلك مستحيل، لأنه لم يكن لديه النوع المناسب من البخور لاستخدامه في الدعوة. وأخبرنا أنه من الأهمية بمكان استخدام النوع المناسب، وإلا فلن نتمكن من ممارسة السحر. وكان الجن يغضبون منه وربما يقتلونه أو يهدمون البيت كله، وأوضح لهم أن هناك أنواعًا كثيرة من العطور المستخدمة في السحر، بحسب طبيعة الدعوة التي يقصد بها.

[صورة: فخ الغزال.]

[صورة: مصيدة السمان والطيور الصغيرة.]

بعد مناقشات مطولة، أظهر خلالها الساحر إلمامًا واسعًا بعلمه الغامض، تم الاتفاق أخيرًا على أن يقيم العرض في اليوم التالي.

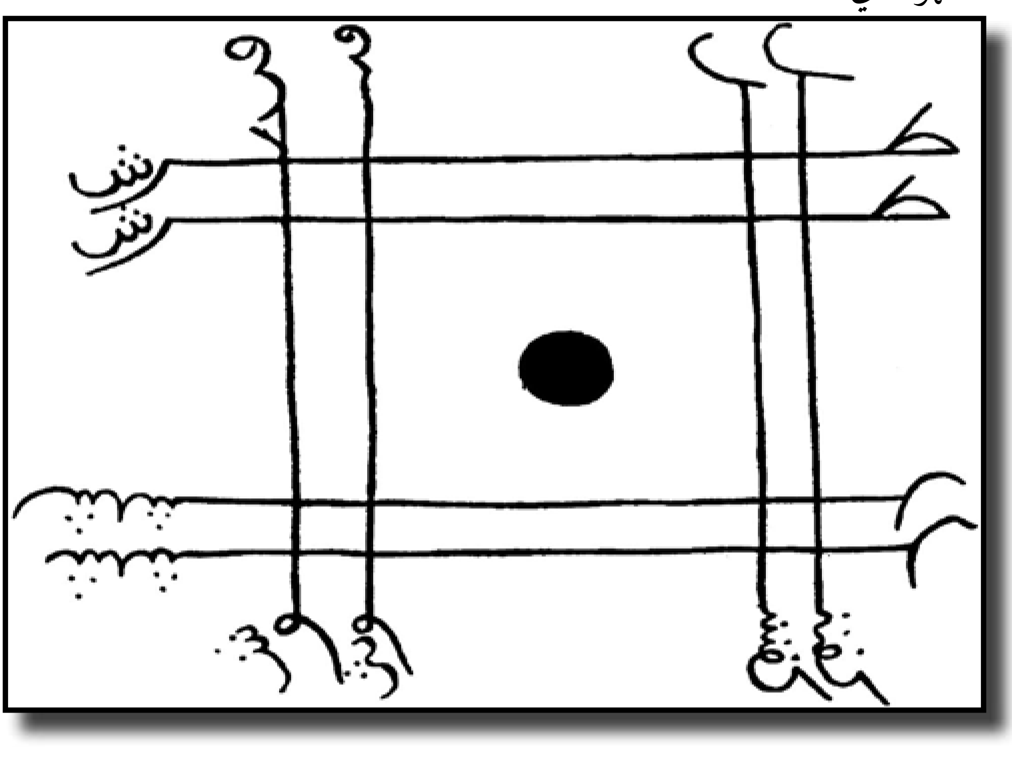
في صباح اليوم التالي، وصل الساحر ومعه عصاه ومسبحته، وصعد الدرج وهو يتمتم بالصلوات أو التعاويذ كما فعل في السابق. وبعد أن شرب الشاي المعتاد، ووافق على الصبي الذي تم تجهيزه للعرض، أعلن عن استعداده لبدء العمل. طلب إشعال الفحم في موقد، وتوفير بعض الورق والحبر. ثم انصرف إلى الغرفة التي تم إخلاؤها له، وبعد

أن أغلق الباب والمصاريع لإضفاء جو من الضوء الخافت المَهيب، جلس في الزاوية الأكثر ظلمة على جلد خروف أسود، وبجانبه الموقد. وطلب أن يُترك بمفرده ليقوم بالطقوس التمهيدية. وبناءً على ذلك، تقاعدنا أنا والطبيب إلى غرفة أخرى، واصطحبنا معنا الصبي.

بعد قليل، وصلت إلينا رائحة خفيفة من البخور من الغرفة المجاورة، وتلاها صوت همهمات وصراخ متقطع، مما دلّ على أن الساحر كان يستدعي الأرواح، وأخبرنا أنه قد بدأ العمل.

وبعد أن استمرت طقوس الدعوة لنحو عشر دقائق، نادى الساحر علينا وأخبرنا بأنه مستعد، وبوسعنا أن نحضر الصبي. فأجلسناه على جلد الغنم، واضعاً ساقيه على ساقيه أمامه، وربت على كتفه وأخبره أنه لا يوجد ما يخشاه، إذا فعل ما يُطلب منه فقط. وفي النهاية، هدّأه بما يكفي لتمكينه من مواصلة العرض.

أولاً، رسم الساحر بالحبر "الخاتم" على راحة اليد اليمنى للصبي، ثم وضع ورقة مكتوبة على جبهته، ولعقها حتى تلتصق بجلده. وأخيرًا، نظرًا لعدم قدرتها على الالتصاق بشكل كامل، قام بإدخال الحافة العلوية منها تحت حافة قبعته. ثم شرع في إكمال الخاتم بوضع بقعة كبيرة من الحبر في وسط المربع الذي رسمه على جبهته. وعندما اكتمل، كان له المظهر التالي:



طلب الساحر من الصبي أن ينظر في بركة الحبر في يده وألا يخاف من أي شيء، ثم شرع مرة أخرى في التمتم بالتعاويذ.

سرعان ما انخرط الساحر في العمل بجدية، وكرر تعويذاته بسرعة غير عادية، متمايلًا ذهابًا وإيابًا، وخافضًا صوته أحيانًا إلى همس يكاد لا يُسمع، ثم رافعًا إياه فجأة إلى صرخة وهو ينادي "ميمون" أو أي اسم آخر. استمر الساحر على هذا المنوال حتى بلغ به الأمر حدًا جعل العرق يتصبب من وجهه. بين الحين والآخر، كان يلقي بقطع من البخور في طبق فخاري استخدمه كموقد، وفي إحدى المرات، أخرج كيسًا جلديًا وأخرج منه سكينًا وقطعًا من العصا، ثم قام بتقطيعها إلى برادة وألقاها في النار. وسرعان ما امتلأت الغرفة بأكملها بدخان العطور المحترقة، ذي الرائحة الحلوة المزعجة.

كان الساحر يختلس النظر بين الحين والآخر، عبر الدخان، إلى الصبي ليتحقق من مدى تأثره بسحره. وبعد فترة من الوقت، استنتج على ما يبدو أن نهاية التعاويذ باتت قريبة. فضاعف جهوده، وأخذ يتمتم بسرعة لدرجة أنه كان من المستحيل التقاط كلمة واحدة، وحرك نفسه إلى درجة غير عادية من الإثارة. ثم خفض صوته فجأة حتى أصبح غير مسموع تقريبًا، ثم أطلق بعدها صرخة بأعلى صوت ممكن. توقف فجأة، واستند إلى الحائط وهو يلهث، ومسح وجهه المتصبب عرقًا، وأمر الصبي أن يقول "أتارو".

كرر الصبي الكلمة بعده. ثم طلب الساحر من الصبي، الذي كان من الواضح أنه يعتقد أن مهمته قد انتهت، أن يخبرنا بما رآه في الحبر.

ولكن التجربة باءت بفشل ذريع. فلم يعد الصبي قادرًا على رؤية أي شيء، ورغم أن الساحر حاول مرة أخرى إعادته إلى حالة الاستبصار، إلا أنه فشل أيضًا في محاولته الثانية.

في مناسبة لاحقة، عندما التقيت بهذا الساحر، حثثته على تدوين التعاويذ اللازمة، وما إلى ذلك، المطلوبة لإجراء ضرب المندل. وكانت ترجمة ما كتبه على الورقة التي وضعها على جبين المتحضر على النحو التالي:

"لقد عرضنا مقترحاتكم، ووفقًا للقرآن، فإننا نطلب من نبينا محمد أن يستجيب لصلاتنا."

بدأ التعويذة باستدعاء الأرواح التي كان يستدعيها على النحو التالي:

"تورش، تورش، فيبوس، فيبوس، شيشيل، شيشيل، كفتيل، كفتيل، كوفلشا."

الأسماء الأربعة الأولى، التي يتكرر كل منها مرتين، هي تلك التي كتبت لتشكل إطار الخاتم، فالأول في الأعلى، والثاني على اليسار، والثالث في الأسفل، والرابع على الجانب الأيمن. أما الكلمة الأخيرة، "كوفلشا"، فلا تظهر في الخاتم، وقد تكون كلمة مستخدمة في السحر.

كانت الدعوة، أو الدعاء الصحيح، على النحو التالي:

"انزلوا اليوم، أيها الأرواح السماوية، حتى يتمكن هنا من رؤيتكم بأم عينيه والتحدث إليكم بصدق. افتحوا فمه وضعوا أمامه ما يريد. انزلوا بسرعة ودون تأخير في هذه اللحظة بالذات. أدعوكم باسم سليمان، وباسم الله الرحيم الكريم، أن تطيعوا وتخضعوا لأوامري من أجل حب الله. زاغرا زاغران زافيران حفيان نقيب، زاغرا زاغران زافيران حفيان نقيب، زاغرا زاغران زافيران حفيان نقيب."

وقد تكررت هذه الدعوة مرارًا وتكرارًا، وتخللتها أحيانًا صرخة عالية "ميمون"، والتي يُفترض أنها اسم روحه المألوفة.

أما الجزء الأخير من الدعوة، والذي سنرى أنه عبارة عن سلسلة من الكلمات تتكرر ثلاث مرات، فهو غير قابل للترجمة. فهو إما أسماء بعض الأرواح الجديدة أو، على الأرجح، بعض الهراء السحري المصمم لإبهار المتحضر والمتفرج.

أخبرني الساحر أنه لو لم تكن الجلسة فاشلة، ولو كان قد تمكن من السيطرة على الأرواح عندما تم استدعاؤها، لكان من الضروري أن يحررها بعد ذلك عن طريق تعويذة ثانية أطلق عليها اسم "سراف" (تغيير؟)، وكان شكلها على النحو التالي:

"بسم الله الذي أرسلكم خاضعين لأوامري، أدعوكم أيها الأرواح أن تعودوا من حيث أتيتم، وأسأل الله أن يحفظكم إلى الأبد لفعل الخير وتنفيذ كل ما يُطلب منكم."

وفي وقت لاحق، أثناء إقامتي في الأقصر، قمت بمحاولة أخرى لمشاهدة المندال. وهذه المرة كنت أكثر نجاحًا.

كانت الدعوة، على حد ما رأيت، تشبه إلى حد كبير دعوة الساحر في الداخلة، لكن شيخ العفريت لم يحاول أن يكون مؤثرًا، وقام بأداء العرض بطريقة سطحية للغاية. بدا الصبي وكأنه يشعر بالملل فحسب، ولا يهتم إلا بالحصول على بقشيشه والعودة مرة أخرى للعب.

وعندما انتهى الساحر من التعاويذ، سأل الصبي عما رآه في الحبر، فأجابه أنه رأى مكنسة تمسح الأرض. فأخبره الساحر أنه عندما ينتهي من الكنس، عليه أن يطلب

من "الأرواح" (على الأرجح) أن ينصبوا خيمة.

وبعد فترة قصيرة، راقب خلالها الصبي الحبر باهتمام، قال إن الخيمة قد أُقيمت. ثم أُمر أن يأمرهم بوضع سبعة كراسي فيها. وعندما أعلن الصبي أن هذا قد تم، قيل له إنه يتعين عليهم استدعاء الملوك السبعة. وبعد فترة وجيزة، أعلن الصبي أن الملوك قد وصلوا وجلسوا على الكراسي.

ثم سألني شيخ العفريت عما أريد أن أعرفه، فقلت له إنني أريد من الصبي أن يخبرني بما أفكر فيه، وتخيلت شابًا من قبيلة التوارق التقيت به ذات مرة في الصحراء.

حدق الصبي في الحبر لبعض الوقت قبل أن يجيب. ثم قال بصوت متردد إلى حد ما إنه رأى امرأة.

سألته إن كانت محجبة، فأجابني الصبي أنها محجبة، فطلبت منه أن يصف لي النقاب، فقال لي إنه أسود اللون، ويتكون من قسمين، قسم يغطي الجزء السفلي من وجهها، وقسم يغطي الجزء العلوي.

كان هذا صحيحًا. كان الرجل الذي رأيته يرتدي اللثام المعتاد، أو القناع، الذي يرتديه أبناء عرقه، والذي يتكون من شريط طويل من القطن الأسود، ملفوف مرتين حول رأسه، حيث يغطي الشريط السفلي وجهه حتى مستوى عينيه، والشريط العلوي يخفي جبهته، ويترك بين الشريطين فتحة ضيقة يستطيع من خلالها الرؤية.

سألت الصبي بعد ذلك عما إذا كان يستطيع رؤية شعر المرأة. ومضى وقت طويل قبل أن يجيب على هذا السؤال. ثم قال بنبرة متشككة للغاية، وكأنه شعر أنه لا يصفه بشكل صحيح، إنه يستطيع رؤيته بارزًا من أعلى رأسها.

وهذا صحيح أيضًا، لأن اللثام الذي كان الرجل يرتديه لم يكن يغطي قمة رأسه، وبالتالي كان شعره مكشوفًا. وكان ذلك أمرًا لافتًا، وذلك لأن النساء المسلمات حريصات على إخفاء قمة رؤوسهن أكثر من تغطية وجوههن. فلا ينبغي أن يرى قمة رأسها والداها، أو حتى القمر كما يقول البعض.

ثم أخبرت الصبي أن وصفه كان دقيقًا، باستثناء أنه نظرًا لأن الشكل الذي رآه كان محجوبًا، فقد استنتج بشكل طبيعي جدًا أنه شكل امرأة. لقد سألته عما إذا كان الرجل يحمل أي أسلحة، وتخيلت خنجرًا غريبًا كان يرتديه، والذي كان مُلقًى على طول الجانب السفلي من ساعده الأيسر، مثبتًا به بشريط حول معصمه، ومقبضه مستقر في راحة يده.

أجاب الصبي بأنه يحمل سيفًا. كان هذا صحيحًا، رغم أنني لم أفكر في ذلك في ذلك الوقت. طلبت منه أن يخبرني ماذا يفعل بالسيف. قال إنه رأى سيفًا مسلولًا، وكان الرجل يحمله في يده اليسرى. بدا مرة أخرى متشككًا في الإدلاء بهذا التصريح.

إن اليد اليسرى تعتبر نجسة بين المسلمين، وبالتالي فإن السكان الأصليين ذوي اليد اليسرى نادرون جدًا. وعلى الرغم من أن تصريحه بشأن حمله لسيف مسلول في يده كان خاطئًا، فإن الارتباط باليد اليسرى، التي كان الرجل يحمل عليها الخنجر المغمد الذي كان في ذهني، كان غريبًا إلى حد ما، ما لم يكن يرى صورته معكوسة، كما كان ليفعل لو رآه في المرآة. سألته عما إذا كان متأكدًا من أن ما رآه هو سيف وليس خنجرًا، لكنه كان متأكدًا من هذه النقطة، وأضاف أنه كان طويلًا بشكلٍ غير عادي. وهذا من شأنه أن يتوافق جيدًا مع السيف، الذي كان طويلًا ومستقيمًا، مثل نوع الدراويش العادي من السودان. لكنني كنت أفكر في الخنجر وليس السيف، لذلك كان مخطئًا في هذه النقطة.

في هذه المرحلة من الإجراءات، دفع المترجم البائس من الفندق، الذي قادني إلى الساحر، بمجذافه، وسأل الصبي سؤالًا غبيًا، مما جعله يرفع نظره عن الحبر للإجابة. وأعلن الساحر أنه سيكون من غير المجدي طرح أي أسئلة أخرى عليه، حيث تم كسر التعويذة.

إن هذه الطريقة في الاستبصار، إن كانت كذلك، قد شاهدها العديد من الأوروبيين الموثوق بهم - على سبيل المثال، قدم لين وصفًا لها في كتابه عن "عادات وتقاليد المصريين المعاصرين" - ولا شك على الإطلاق في أنه، بطريقة غير مفسرة، غالبًا ما كانت تعطى إجابات صحيحة على الأسئلة التي طرحت على الصبي عندما كانت إمكانية التواطؤ غير واردة.

لقد تم التحقيق بشكل كبير في ظاهرة نقل الفكر في السنوات الأخيرة، وقد قام العديد من العلماء الجادين بتأييد إمكانية توصيل الأفكار بهذه الطريقة، دون الحاجة إلى الكلام أو السمع. وإذا افترضنا أن هذا ممكن، فإن نقل الأفكار يوفر وسيلة جاهزة لتفسير ظاهرة ضرب المندل في حالة مثل تلك التي وصفتها للتو.

ولكن يقال إن الماندال يستخدم بنجاح لأغراض أخرى إلى جانب مجرد قراءة أفكار شخص آخر. إن العثور على كنز مخفي أو أشياء مفقودة هو سبب شائع جدًا لاستخدامه، وقد أكد لي أهل المنطقة أن النتائج غالبًا ما تكون مرضية، ولكن الأدلة الموثوقة على هذه النقطة مرغوبة بالتأكيد.

كان أحد حراس السكك الحديدية في وادي النيل يتمتع بسمعة طيبة في ممارسة طقوس الماندال. وقد تم استدعاؤه ذات مرة لتشخيص حالة ابنة شابة لرجل أعرفه، ووصف العلاج. وقد قيل لي إنه نجح في ذلك، وشُفيت الفتاة . ومع ذلك، لا يوجد شيء ملحوظ في هذا، حيث إن معظم الشكاوى ستشفى من تلقاء نفسها إذا تركها الأطباء والسحرة الآخرون بمفردها. كما يجب أن نضع في الاعتبار أيضًا تأثير الشفاء بالإيمان والإيحاء في هذه الحالة.

لقد استخدم عامل السكة الحديدية مرآة صغيرة بدلاً من بركة الحبر. وذكر الصبي الذي كان ينظر إليها لاحقًا أنه بعد النظر إليها لبعض الوقت، بدا أنها أصبحت أكبر كثيرًا، وبدا وكأن غرفة تنعكس فيها. وقد طُلب منه أن يأمر بكنسها ثم رشها. لقد رأيت كوبًا من الماء يستخدم بدلاً من بركة الحبر، وأعتقد أنه يتم استخدام حوض من الزيت أيضًا في بعض الأحيان. إن السؤال برمته غريب للغاية، وقد يبرر التحقيقات على أساس أنه ليس سحراً.

الفصل السابع والعشرون: التاريخ الطبيعي

تَجعل الحرارة الشديدة والجفاف، وما يتبعهما من تبخر كبير، بالإضافة إلى الغياب شبه التام للأمطار، وحركة الرمال التي تدفعها العواصف الصحراوية العاتية، وجود الغطاء النباتي في الصحراء أمرًا شبه مستحيل.

ومع ذلك، لا يزال بإمكانك أن ترى هنا وهناك بضع شفرات من العشب، أو حتى شجيرة خضراء أو اثنتين، على الرغم من أن المرء قد يسافر لأيام عدة في أي اتجاه قبل أن يرى أي نباتات أخرى تنمو.

إن النباتات التي تنمو في الصحراء تتكيّف بطبيعتها لتحمل الحرارة والجفاف. فأشجار هذه الشجيرات مغطاة بغطاء خارجي كثيف يمنع التبخر، وأوراقها صغيرة وجلدية لنفس السبب. ولكن ربما تكون الميزة الرئيسية لهذه الشجيرات هي التطور غير العادي لجذورها، التي تمتد لمسافات هائلة بحثًا عن الماء.

لقد وجدت بعض النباتات البرية التي جمعتها من واحة الداخلة تنمو على أرض شديدة الملوحة، وفي بعض الحالات كانت التربة المحيطة بها بيضاء اللون، وكان الملح يغطي سطحها. ويبدو أن نخيل التمر قد صُمم خصيصًا من قِبل الطبيعة لكي ينمو في ظل ظروف الصحراء. فالنخلة تنمو في تربة تحتوي على ما يصل إلى أربعة بالمائة من الملح،

بشرط أن تتمكن جذورها من الوصول إلى طبقة تحتوي على أقل من واحد بالمائة. وإذا تمكنت من العثور على طبقة تحتوي على نصف بالمائة فقط من الملح، فإنها قادرة على إنتاج محصول وفير.

لا تقل الحيوانات في الواحة إثارة للاهتمام عن النباتات.

وتغدو الليالي في الداخلة، وخاصة في رشيدة وموط، مرعبة بسبب عواء الذئاب الكئيب. ربما كانت قبيلة الكلاب في الواحة مثيرة للاهتمام بشكلٍ غير عاديٍ. لقد جمعت عددًا من الجلود، ولكن عندما ذهبت إلى الصحراء، لم أتمكن من أخذها معي، واضطررت إلى تركها في حالة شبه معالجة في موط. تتكاثر الحشرات في الطقس الحار، ونتيجة لذلك، كنت أجد دائمًا، عند عودتي من رحلاتي الصحراوية المختلفة، أن الحشرات قد تسللت إلى جلودي لدرجة تجعلها عديمة القيمة لأي متحف.

تمكنت من إحضار جلد ابن آوى بحالة جيدة، وأهديته إلى متحف التاريخ الطبيعي في كنسينغتون. وقد حدده لي السيد مارتن إيه سي هينتون بكل لطف بأنه مطابق لابن آوى المصري الكبير، أو "الذئب"، Canis lupaster. جميع ابن آوى في الداخلة ذات حجم كبير بشكل غير عادي، ويُطلق عليها محليًا اسم "الذئاب". وقيل لي إنها تتكاثر بحرية مع كلاب القرية. بالإضافة إلى ابن آوى، فإن الثعالب كثيرة للغاية، ويبدو أن بعضها مطابق للثعلب الرمادي الشائع في وادي النيل.

ربما توجد بعض أنواع الكلاب الجديدة في الواحة. في إحدى الأمسيات بالقرب من موط، كنت عائدًا إلى البلدة عند غروب الشمس، ولاحظت ثعلبًا أدهشني مظهره غير العادي. وبعد وقت قصير من رؤيتي له للمرة الأولى، اختفى خلف تلة منخفضة، وبالتالي تمكنت من الاقتراب منه دون أن يراني، ووصلت إلى مسافة عشرة ياردات تقريبًا قبل أن ينتبه إلي. ثم فر، ولكن ليس قبل أن أتمكن من رؤيته جيدًا.

كان الثعلب كبيرًا إلى حد ما، ولونه بني رمادي، وذيله كثيف جدًا. لكن أكثر ما ميزه هو أنه كان مغطى ببقع سوداء كبيرة، بدا أن قطرها حوالي بوصة ونصف. وعند استجواب السكان، علمت أن ثعلبًا مرقطًا يُشاهد أحيانًا في الواحة، ولكنه يبدو غير شائع. أعتقد أن العلامات من هذا النوع غير معروفة في أي نوع من الثعالب، لذلك ربما كان هذا الثعلب مثيرًا للاهتمام بشكل غير عادي. لسوء الحظ، لم أتمكن من الحصول على عينة.

ويُقال إنه، بالإضافة إلى الذئاب والثعالب، يظهر أحيانًا نوع من الضباع في الواحة، ولكن لم أر أيًا منها خلال فترة وجودي هناك.

الحقيقة الغريبة فيما يتصل بالثعالب في الداخلة هي أنها تبدو نباتية إلى حد كبير، وتعيش في الغالب على الفاكهة المتساقطة في المزارع، وهي حقيقة تذكرنا بقصة الثعلب والعنب.

كانت الغزلان تكثر في المناطق المغطاة بالشجيرات في الواحات وحولها، ولكنني كنت أجدها خجولة للغاية ويصعب الاقتراب منها. وفي إحدى المرات، رأيت على مسافة بعيدة زوجاً بدا مثيراً للاهتمام. كان أحدهما ذو فراء شاحب للغاية، وربما كان غزالًا من نوع الحافة (غزال لودر)، ولكن الآخر كان بلون أحمر غامق، كستنائي تقريبا، وبدا مختلفًا عن أي نوع معروف. الغزال المعتاد الموجود في هذه الأجزاء هو غزال دوركاس الشائع، ولكن هذين الغزالين كانا مختلفين . ولا يبدو أن السكان الأصليين يميزون بين الأنواع المختلفة، التي تحمل جميعها تشابهًا قويًا مع بعضها البعض، ويصنفونها جميعًا على أنها "غزال".

تتكاثر العقارب في المباني القديمة في البلدة، ويتعرض السكان الأصليون للدغات العقارب بشكل متكرر، وفي بعض الأحيان تكون اللدغات قاتلة، كما قيل لي. يتم سحق أوراق نبات مستدير الأوراق يعرف باسم الخبيزة وتحويلها إلى ضمادة توضع على لسعات العقارب، ويُقال إنها فعالة جداً. اعتاد طبيب دجال محلي من وادي النيل أن يحقق أرباحًا كبيرة من بيع رقائق صغيرة سوداء اللون من تركيبة يحتفظ بها سرًا، وقيل أيضًا أنها مفيدة جدًا ليس فقط ضد لسعات العقارب ولكن أيضًا في حالة لدغات الثعابين. وأخبرني أحد الأطباء المحليين الذين قابلتهم في موط أنهم جربوها على بعض مرضاهم بنجاح كبير. لقد رأيت عناكب صفراء كبيرة جدًا وشعرية، وربما كانت عناكب الرتيلاء، مرة أو مرتين، ووجدت أن السكان الأصليين يخافون منها كثيرًا.

في وادي النيل، تُستخدم طاولات مصنوعة من الطين، تستند إلى ساق سميكة واحدة، لوضع الأطفال الصغار عليها لحمايتهم من هجمات العقارب والعناكب، التي لا تستطيع الصعود إلى أعلى الطاولة بسبب بروزها. ويحيط بسطح الطاولة جدار منخفض لمنع الأطفال من السقوط، وغالبًا ما تكون قمة الجدار مزخرفة بشكل رائع.

لم أصادف أي ثعابين في الداخلة، ولكن مرة واحدة رأيت جلدًا متساقطًا. ويُقال إن هناك ثعبانًا أسود طويلًا، يوجد عادةً في قنوات المياه أو بالقرب منها، وتعتبر لدغته خطيرة للغاية. ويبدو أن الأفعى ذات القرون العادية، على الرغم من أنها غالبًا ما تُصادف في الصحراء، نادرة في الواحة. ويمكن قول الشيء نفسه عن الأفعى غير ذات القرون التي تشبهها كثيرًا للوهلة الأولى. تتكاثر الحشرات خلال الطقس الحار

في الواحات. اما الفراشات تعتبر نادرة، لكن العث كثير إلى حد ما. وفي الخارجة، أمسكت بعثة القطن، ولكنني لم أرها في الداخلة. وأعتقد أن الجراد غير معروف تقريبًا، ولكن قبيلة الجراد في بعض الأجزاء، مثل تينيدا، كثيرة للغاية.



[صورة: منصة مقاومة للعقارب.]

كانت ذيول الشعيرات (السمكة الفضية) مُدمّرة بشكل مزعج، ويُلحق النحل الحفّار أضرارًا بالغة بثقب جذوع النخيل المستخدمة كعوارض خشبية في المنازل، مما يجعلها غير آمنة. كان ذباب المنازل شائعًا بما يكفي ليكون مصدر إزعاج، وإن لم يكن بالدرجة التي يوجد عليها عادةً في وادي النيل. أما البعوض، فكان موجوداً بأعداد قليلة[284] فقط في "موط"، ربما بسبب ندرة المياه في المنطقة المجاورة.

كانت أعداد ذباب اليعسوب كبيرة بشكل ملحوظ، منها النوع الأحمر الداكن، والنوع الأخضر، والنوع الأزرق الفولاذي الجميل، وهو الأكثر شيوعًا على حد ما رأيت.

في فصل الربيع، تهاجر أعداد كبيرة من الطيور إلى الواحة، قادمة من الجنوب الغربي. ويمكن رؤية طيور الدراج الرملية، ذات الذيل المدبب والمنقط، على مشارف الواحة وفي أجزاء منها بعيدة عن القرى. وتكثر طيور السمان والبط والشنقب والطيور المائية المختلفة في الواحة في مواسم معينة. لم أر أو أسمع عن طيور العقاب، ولكنني رأيت النسور عدة مرات. كما يوجد طائر من فصيلة الصقور. وتوجد الغربان بأعداد صغيرة.

إن الحمام ممثل بشكل جيد إلى حد ما، ومن الشائع وجود حمامة برية كبيرة الحجم، هي الحمام الأزرق على ما يبدو، الذي يعيش في الغالب في المنحدرات المحيطة بالواحة. وفي بعض الأحيان، تكون هذه الحمامة مرحة للغاية، ففي العراء تكون حذرة للغاية بحيث لا يمكن الاقتراب منها بالرماية، ولكن في المساء، تنزل إلى الآبار للشرب، وعادة ما تختار واحدة بعيدة عن القرى.

ولكن تبين أن هذه الحمام فقيرة جدًا في التغذية، حيث كان لحمها قاسيًا وجافًا، ولا يمكن مقارنتها بطيور الرمل في القدر.

كان صيد طيور القطا الرملي صعبًا للغاية أيضًا. والمكان الوحيد الذي نجحت في إطلاق النار فيه على أي منها كان على طريق ترابي بين واحات الداخلة والخارجة. وقد وجدت أعدادًا كبيرة منها هناك، حيث كان من الممكن رؤيتها عادة في الصباح الباكر في الأماكن التي يخيم فيها البدو ليلاً. ومع تقدم النهار، كانت هذه الطيور تترك الطريق وتطير بعيدًا إلى الصحراء.

كانت الطيور التي أثارت اهتمامي أكثر في الواحات هي الكيمري، أو حمام النخيل. يوجد في الداخلة نوعان على الأقل، الكيمري البلدي، أو حمام النخيل المحلي،

والكيمري الصيفي، أو حمام الصيف. يبدو أن النوع الأول مقيم في الداخلة طوال العام، لكن النوع الثاني مهاجر، يأتي إلى الواحة في مارس ويعود في الخريف بعد جني التمور. ويحتل هذا النوع في الداخلة نفس المكان الذي يشغله الوقواق في إنجلترا، حيث يُنظر إلى قدومه كعلامة على أن الشتاء قد مضى وأن الصيف قد اقترب. وعندما يأتي الطقس الحار، تعج المنطقة بهذه الطيور الصغيرة الجميلة، التي يصدر هديلها الناعم أثناء جلوسها متأرجحة على قمم أشجار النخيل، صوتًا شجيًا للغاية وممتعًا وهادئًا بعد رحلة طويلة في الصحراء الحارة.

إن مسألة الحياة الحيوانية والنباتية في هذه المناطق القاحلة تثير اهتمامًا كبيرًا. فعلى الرغم من الطبيعة القاحلة الشديدة لهذه الصحاري، فإنها تدعم بطريقة رائعة قدرا كبيرًا من الحياة.

كانت السحالي الصغيرة تتجول في الصحراء بشكل متكرر. وهي تجري بسرعة غير عادية، ويصعب الإمساك بها. والطريقة المعتادة، على حد اعتقادي، هي رمي منديل على الأرض ودفع السحلية نحوه، حيث تركض غالبًا تحت المنديل للاحتماء، ويمكن بعد ذلك الإمساك بها بسهولة. وقد وجدت أنه على الرغم من قدرتها على الركض بسرعة كبيرة لمسافة قصيرة، فإنها سرعان ما تتعب، وإذا تم تعقبها باستمرار لمسافة مائة ياردة، دون منحها الوقت للراحة، فإنها تصبح مُرهقة للغاية بحيث يمكن الإمساك بها بسهولة.

لم يسبق لي أن رأيت عينة من الوارل، أو السحلية الكبيرة، في الصحراء، ولكنني رأيت في إحدى المرات ما يشبه أثرها. كان يشبه أثر سحلية كبيرة الحجم تزحف ببطء على الرمال. ولكن رجالي أعلنوا أن هذا الأثر هو أثر سحلية إيسولا، التي وصفوها بأنها مخلوق يجمع بين شكل الثعبان والسحلية، وعندما يقترب منها أحد فإنها تطير نحو أي متطفل، فترتفع في الهواء بعد ركضة سريعة على أجنحتها الغشائية الممتدة بين ساقيها، فتتصرف على ما يبدو وكأنها طائرة. وقالوا إن لدغتها سامة، ومميتة عمومًا، ولكنها إذا فشلت في إصابة الهدف أثناء طيرانها فإنها تسقط على الأرض وتنفجر! وربما لا يكون وجود مثل هذا الزاحف، إذا استبعدنا الجزء المتعلق بالانفجار من القصة، مستحيلاً على الإطلاق. ولابد أن نتعامل مع مثل هذه التصريحات المحلية بقدر كبير من الحذر، ولكن لا ينبغي لنا أن نتجاهلها .

كان مساره متوافقًا مع الوصف الذي قدمه لي رجالي للزاحف، فبالإضافة إلى العلامات التي تركتها أقدامه، كان هناك شيء ما قد جُر على الرمال بوضوح، تاركًا أثرًا بدا على سطحه كخدش. من الصعب تحديد ماهية ذلك "الشيء"، ما لم يكن، كما أعلن

رجالي، جزءًا من الغشاء الذي يقال أن الطائر يبحر عبر الهواء من خلاله. لا يمكن أن يكون سبب ذلك ذيله، حيث ظهر في أماكن على جانبي المسار في وقت واحد.

أما فيما يتعلق بالقدرة التي يقال إنها تتمتع بها على الارتفاع في الهواء من الأرض، فأعتقد أن هذا لا يمثل صعوبة كبيرة. لقد استنتجت من رواية رجالي أن طولها كان يبلغ ثلاثة أقدام تقريبًا. أما السحالي الصغيرة السريعة الجري التي ذكرتها سابقًا، فإن طولها لا يتجاوز ست بوصات، ولا بد أنها قادرة على السفر بسرعة تقرب من عشرة أميال في الساعة، حيث يستغرق الأمر من رجل يسير على الأقدام كل وقته للحاق بها. وبما أن طول الإيسولا يجب أن يكون خمسة أضعاف طول هذه السحالي الصغيرة، فليس من غير المعقول أن نفترض أنها تستطيع الركض بسرعة مضاعفة، أو لنقل عشرين ميلاً في الساعة، وهو ما يعادل خمسين ميلاً في الساعة في الهواء إذا كانت تركض في مواجهة نسيم قوي، وهي السرعة التي قد تجعلها ترتفع بسهولة من الأرض، لكنها قصة طويلة.

الثعابين شائعة جدًا في الصحراء، الأفعى ذات القرون، وأفعى مماثلة جدًا بدون قرون توجد في أماكن كثيرة بشكل غير محبب. بالإضافة إلى ذلك، قتلنا ثعبانًا رمليًا رفيعًا جدا، يبلغ طوله حوالي أربعة أقدام، والذي، بقدر ما أستطيع الحكم عليه من رأسه، لم يكن سامًا. أما النجا، أو الكوبرا المصرية، التي ترى أحيانًا في وادي النيل، فأعتقد أنها غير معروفة في الصحراء والواحات.

سمعت عدة مرات شائعات عن وجود ثعبان ذي ريش. في البداية اعتبرت ذلك أسطورة، ولكنني اكتشفت بعد ذلك أن هذا المخلوق قد رآه أوروبي واحد على الأقل، كان يقيم في البلاد منذ فترة طويلة. وكانت العينة التي رآها ثعبانًا مقتولًا في وادي النيل. ووصفه بأنه ثعبان قصير، قوي البنية، رملي اللون، وله على ظهره، على مسافة ما خلف رأسه، نوع من التاج من القشور الطويلة المهترئة بشكل كبير عند أطرافها.

إن وجود هذا المخلوق ليس مستحيلاً بأي حال من الأحوال، فالزواحف والطيور ترتبط ببعضها ارتباطًا وثيقًا.

الحشرات في الصحراء قليلة العدد نسبيًا. ذات مرة وجدت بعض النمل الصغير، باللون الوردي والفضي. وكثيرا ما شوهدت حشرات صرصور كبيرة الحجم ذات مظهر غريب تركض في الأجزاء الرملية من الصحراء. بعضها كانت كبيرة الحجم، وكان طول العديد منها ثلاث بوصات. كانت مخلوقات فضولية، ومشاكسة للغاية، حيث كانت عندما تقترب منها، تستدير وتواجهني، وترفع نفسها قليلاً على أجسادها السمينة القصيرة

وتضرب الهواء بأرجلها الأمامية الكبيرة.

إذا دفعت قدمي نحوهم، فإنهم يهاجمونني بشكل متكرر، ويحاولون عض إصبع قدمي بأرجلهم. التقطت أحد أكبرهم وأعطيته نهاية إبهامي ليعضها، وهو إجراء أحمق إلى حد ما، كما أدركت بعد ذلك، لأنه على الرغم من كل ما أعرفه على العكس من ذلك، فقد تكون عضته سامة. عضني بشراسة في نهاية إبهامي بفكيه الهائلين إلى حد ما، ورغا في فمه وبذل قصارى جهده الضعيف لإيذائي. تمكن من الإمساك بقرصة صغيرة من الجلد بين فكيه، اللذين انغلقا في اتجاه أفقي، وعضني بقوة شعرت بها بوضوح.

ذات مرة، في الصحراء الواقعة غربي الداخلة، وجدت بعوضة، مما زاد من آمالي في أن أكون على مقربة من الماء. ولكن تبين لي أنها مجرد عينة من البعوض الذي ينتقل عن طريق الرياح، وربما كانت قادمة من نسلا أو بو منقار. كانت الذبابات ذات الأجنحة الدانتيلية تأتي إلى معسكرنا بشكل متكرر، حتى عندما نكون في أماكن بعيدة في الصحراء، وفي معظم الليالي كانت بعض العث تطير إلى خيمتي وتقترب من شمعتي، وفي بعض الأحيان كانت بأعداد كبيرة.

على الرغم من أن الذباب المنزلي الشائع يشكل إزعاجًا في الواحات، إلا أنه لحسن الحظ غير معروف في الصحراء، على الرغم من أن سربًا منه غالبًا ما يتبع القافلة عندما تنطلق من الواحة إذا لم تكن هناك رياح، إلا أنه يختفي في غضون يوم أو يومين.

ذات مرة، بينما كنت أركب في الصحراء مع قافلتي، وبعد أن غادرنا واحة في اليوم السابق، كنا منزعجين للغاية من هذه الآفات، التي ظل سرب منها يطن حول رؤوسنا، فتخلصت منها بطريقة غير متوقعة إلى حد ما. اقترب طائر السنونو، الذي يبدو أنه مهاجر، من القافلة من الجنوب، ولأنه كان جائعًا جدًا على الأرجح، ظل يطير حول رؤوسنا مرارًا وتكرارًا، وكان يلتقط ذبابة في كل دائرة. وربما بسبب جوعه، كان المخلوق الصغير أليفًا بشكل غير عادي، فقد كادت أطراف أجنحته تلمس وجهي عدة مرات. وبعد أن بقي مع القافلة لبضع دقائق، دار حولنا نصف دزينة من المرات للتأكد من عدم وجود ذباب قد تجاهله، ثم طار بعيدًا وتابع طريقه نحو الشمال.

ستجد قائمة ببعض الحشرات التي قمت بجمعها في الملحق الثاني.

كان الطريق الذي سلكناه إلى الجنوب الغربي من الداخلة يقع في الاتجاه الذي تهاجر منه الطيور، لذلك لم أقم فقط بتدوين كل عينة رأيناها، بل سجلت أيضًا في كتاب الطريق الخاص بي كل ريشة التقطتها، وحتى العلامات على الرمال حيث هبط هؤلاء المهاجرون، حيث كان كل هذا دليلًا قيمًا على أننا ما زلنا نسافر في الاتجاه الصحيح.

بالإضافة إلى الحمام النخيلي والمهاجرين الأصغر حجمًا، رأينا عدة مرات طيور اللقلق والكركي، أو آثارها، ولكن هذا، بالطبع، لم يحدث إلا خلال موسم هجرتهم. كان هناك طائر أبيض كبير، بدا وكأنه نسر، كنا نراه كثيرًا في جميع المواسم، لكنني لم أتمكن أبدًا من الاقتراب منه، لأنه على عكس معظم مخلوقات الصحراء، كان بريًا للغاية.

المكان الوحيد الذي رأيت فيه قط أي طائر رملي خارج الواحات كان على الطريق بين الخارجة والداخلة. بدا الأمر وكأنهم غائبون عن الصحراء الواقعة جنوب وجنوب غرب الداخلة، وكذلك عن الصحراء المحيطة بواحة الفرافرة، وربما كان سبب غيابهم هو نقص الطعام.

لم تكن الحشرات والزواحف والطيور منتشرة في الصحراء فحسب، بل إن الثدييات لم تكن مجهولة أيضًا. فبالإضافة إلى جرذان الصحراء، صادفت على بعد نحو ثمانين ميلاً إلى الجنوب من الداخلة بقايا غزال، ولكن من المحتمل أن هذا الحيوان الصغير المسكين كان قد تجول في الصحراء ليموت. أما الثعالب الصغيرة، على الرغم من وجودها في الواحة، فلم أرها قط في الصحراء، ولو رأيتها لما كانت الجرذان بهذا العدد الهائل. وقد رأيت آثار ثعلب أكبر حجمًا عدة مرات، وكثيرًا ما كان ذلك على مسافة عدة أيام من الواحة. أما آثار الذئاب، فلم أكن متأكدًا من أي منها، فكانت أكثر شيوعًا.

بالطبع، كان بإمكان قبيلة الكلاب أن تعيش على الفئران والسحالي، ولكن ما لم يحصلوا على رطوبة كافية من دم ضحاياهم، فلا بد أنهم عادوا من حين لآخر إلى الواحات للشرب. ويتساءل المرء لماذا تفضل هذه الحيوانات، التي تستطيع العيش أيضًا في الواحات، العيش في الصحراء، حيث الظروف التي تُجبر على العيش في ظلها تجعل الحياة مستحيلة تقريبًا.

لقد أثارت مشكلة كيفية وجود جرذان الصحراء الكثير من النقاش، ولا يزال من غير الممكن القول إنها حلت. لقد وجدتها بالتأكيد على بعد مائة وخمسين ميلاً من أي واحة، في جزء قاحل، ومع ذلك كانت تتمتع بصحة جيدة، وممتلئة الجسم، وحيوية.

لقد كنت ذات يوم أقيم معسكرًا لعدة أسابيع في حزام الكثبان الرملية الذي يمر عبر واحة الخارجة. وفي إحدى الأمسيات، كنت قد جلست للتو لتناول العشاء، عندما لاحظت أحد هذه الفئران الصغيرة التي تشبه الكنغر وهو يقفز في ضوء الشموع خارج باب خيمتي مباشرة. لقد أفزعته الحركة المفاجئة التي قمت بها، فقفز مسافة أربعة أقدام تقريبًا واختفى في لمح البصر.

ولكن بعد دقيقة أو دقيقتين، ربما بدافع الفضول، عاد مرة أخرى إلى مكانه

القديم، يحوم حول الخيمة. وعلى أمل أن ألقي عليه نظرة أفضل، قمت بقلب قطعة خبز صغيرة حتى سقطت أمامه مباشرة. وبعد بعض التردد، انقض عليها، وحملها على بعد بضعة أمتار، وشرع في أكلها.

ثم عاد مرة أخرى، واقترب مني قليلاً، وأخذ قطعة خبز أخرى ألقيتها إليه، فسقطت على بعد نصف المسافة تقريبًا بيننا. وسرعان ما جعلته يأخذ قطع الخبز من يدي بالفعل، كان هادئًا للغاية.

كنت قد انتهيت للتو من تناول وجبتي، وكنت قد نسيت أمره، وكنت أقرأ كتابًا كان موضوعًا على الطاولة أثناء تناولي الطعام، وفجأة شعرت بنقرة على أعلى فخذي، وعندما نظرت إلى الأسفل لأرى ما هو، وجدت أنه لم يعد فحسب، بل قفز بالفعل على ساقي بينما كنت جالسًا على الطاولة. وبعد لحظة أخرى، قفز على الطاولة نفسها وبدأ يأكل الفتات.

لقد كان شجاعًا للغاية لدرجة أنه سمح لي بمداعبة ظهره بإصبعي، ولكن عندما حاولت فورًا أن أغلق يدي عليه، قفز من على الطاولة مذعورًا إلى الأرض، ومع ذلك، فقد ظل يقفز بلا راحة بحركته المرنة بشكل غير عادي، حتى رميت إليه قطعة أخرى من الخبز.

ولكن يبدو أنه تناول كل ما أراده في تلك اللحظة، فبدلاً من أن يأكله كما فعل من قبل، التقطه وقفز خارج الخيمة واختفى لعدة دقائق. ولكنه عاد بعد قليل. فألقيت إليه قطعة أخرى فأخذها مرة أخرى، وبعد فترة عاد ليأخذ المزيد. لابد أنه أخذ حوالي عشر قطع بهذه الطريقة في ذلك المساء، كل قطعة بحجم حبة البندق. وظللت أطعمه طالما استمر في العودة، ولكن في النهاية، ربما لأنه كان متعباً بعد حمل ما لا بد أنه كان عبئًا ثقيلاً عليه، توقف عن الظهور.

عاد مرة أخرى في الليلة التالية، ولثماني مرات متتالية. وفي كل ليلة كنت أعطيه من الخبز ما يكفيه ليأكله ويحمله بعيدًا. بدا وكأنه يأكل القليل جدًا، لكن لا بد أنه أخذ معه ما يكفي من الخبز لصنع رغيفين أو ثلاثة. بالإضافة إلى ذلك، كان يفرض ضريبة على الحبوب التي تزرعها الإبل، والتي كان يحصل عليها عن طريق قضم الثقوب في الأكياس.

ولكن هذا الأخير أثبت أنه كان سبب هلاكه، إذ صادف أن أمسك به أحد رجالي متلبسًا، فقتله على الفور، مما أثار اشمئزازي. لا شك أن الفأر نفسه الذي كان يأتي إلى خيمتي كل ليلة هو الذي سرق الحبوب أيضًا، إذ لم يكن من الممكن أن نخطئ

في تحديد هويته نظراً لفقدانه إحدى عينيه.

لقد شعرت بالأسف الشديد لفقدان هذا الحيوان الصغير، الذي أصبح حيوانًا أليفًا، وأصبح في وقت لاحق أليفًا لدرجة أنه سمح لي بحمله ومداعبته. ولكن عندما أمسكه أحد رجالي بيده، عضه على الفور في إبهامه.

هذه الفئران الكنغر الصغيرة هي مخلوقات صغيرة جميلة بشكل رائع، فقط بلون الرمال نفسها، ولها عيون سوداء كبيرة وذيل طويل للغاية. وأكثر ما يميزها هو النمو العضلي الهائل لأرجلها الخلفية، والتي تبدو ضخمة بشكل غير متناسب مقارنة بأجسامها الصغيرة.

إن هذا التطور العضلي الرائع لأرجلهم الخلفية الطويلة هو ما يمنحهم هذه القوى الرائعة للحركة. ذات مرة، أثناء السفر مع قافلتي عبر مساحة كبيرة من الرمال المستوية، صادفت مسار أحد هذه الفئران، وكان مرئيًا بوضوح على السطح الأملس، وكما حدث أنني كنت أسافر تقريباً في نفس الاتجاه الذي كنت أسير فيه بنفسي، فقد اتبعته لمسافة طويلة.

كان المسار يتألف من سلسلة من النقاط المزدوجة حيث هبطت الأقدام الخلفية على الرمال، وكانت تحدث على فترات منتظمة تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أقدام. وتبعت تلك المسارات لأكثر من تسعة أميال في خط مستقيم تقريبًا، حتى أجبرني تغيير في اتجاه مساري عن مسار الفأر على تركها.

طوال الوقت الذي كنت أتابعهم فيه، وجدت فقط ثلاثة أو أربعة أماكن حيث تخلى الفأر عن خطوته المعتادة وتوقف للحظة أو اثنتين ليستدير ويدور على ما يبدو للعب بذيله.

إن السرعة التي تستطيع هذه الوحوش الصغيرة أن تسافر بها لا تقل عن كونها مذهلة. ولن يحظى أسرع عدّاء بأدنى فرصة لللحاق بها، فعندما تخاف، تنطلق بسرعة يقول أهل البلد إن حتى الحصان لا يستطيع أن يضاهيها. إن السرعة الثابتة التي حافظ عليها ذلك الحيوان الذي تتبعت آثاره لأميال عديدة، تُظهِر أنها تستطيع السفر لمسافات طويلة دون تعب، وأنها لا تستطيع ذلك فحسب، بل إنها تفعل ذلك بالفعل.

وأعتقد أنه من الممكن أن نجد تفسيراً لقدرتهم على العيش في هذه المناطق في هذه القدرة الرائعة على السيطرة على الأرض، وفي عادتهم في تخزين المؤن.

على الرغم مما تبدو عليه هذه المنطقة من جفاف مُطلق، الا إنه توجد هنا وهناك

رُقَعٌ من العشب، تبدو ميتةً تماماً في الظاهر، ولكنها على الأرجح قد نثرت بذورها على الأرض المحيطة. فحتى في هذه المناطق القاحلة، لا يُعد المطر أمراً غريباً — فقد كانت هناك روايات في واحة الداخلة عن هطول غزير للمطر قيل إنه حدث قبل سنوات ليست بالبعيدة، حيث تساقط المطر بكميات هائلة لدرجة أن العديد من بيوت الواحة المبنية بالطين قد ذابت بفعل المطر وانهارت. إن هطول أمطار كهذه، أو حتى مجرد زخة مطر غزيرة، قد يؤدي إلى إنبات البذور. وعادةً ما يُوجد هذا العشب نامياً على أكثر أنواع التربة الطينية صلابة، والتي من شأنها الاحتفاظ برطوبة المطر لفترة طويلة، وبفعل الحرارة الشديدة خلال الأشهر الأكثر دفئاً، ينمو العشب بسرعة فائقة. يمكن لهذه الجرذان أن تعيش بسهولة معتمدةً على هذا العشب وبذوره، وأن تخزن منه في جحورها تحت الأرض [292] مؤناً تكفيها لفترة طويلة جداً. ومن المعروف أن الجرذان قادرة على العيش على الحبوب الصلبة وحدها، حتى لو لم تحتوِ إلا على نسبة رطوبة تتراوح بين عشرة وخمسة عشر بالمائة. [18] ومن المحتمل أنها تعرف عدداً من الأماكن التي تنمو فيها هذه الحشائش، وبما أنه من المعروف أنها لا تشرب الماء أبداً، فإنها تستطيع الحفاظ على بقائها لعدة سنوات من الجفاف عن طريق إنشاء مخزن بالقرب من كل بقعة عشب، والتنقل بين هذه المخازن كلما نضب أحدها. وقد تكون الآثار التي رأيناها تمتد بشكل متواصل لمسافة تسعة أميال دفعة واحدة، دون انقطاع يُذكر، هي آثار جرذ كان ينتقل من أحد مخازنه إلى آخر. فمن المستبعد أن تتم رحلة كهذه دون وجود هدف محدد وراءها. فقطع مسافة خمسين ميلاً لن يمثل شيئاً يُذكر لأحد هذه المخلوقات الصغيرة، وبالتالي فهي قادرة على جلب إمداداتها من منطقة تمتد لآلاف الأميال المربعة، والتي ستتمكن ضمن نطاقها، حتى في هذه الصحراء القاحلة، من العثور على ما يكفيها للبقاء على قيد الحياة. وفي أحد الأماكن أيضاً، وجدنا شجيرات الطرفاء الخضراء، التي ربما حصلت منها الجرذان على بعض الغذاء، وربما على رطوبة كافية من أجزاء النباتات الخضراء تمكنها من البقاء دون الحاجة للشرب— على الرغم من أن القيام برحلة عرضية لمسافة مئة ميل أو نحو ذلك، وصولاً إلى إحدى الواحات لجلب الماء، سيكون أمراً يقع تماماً ضمن نطاق القدرات الحركية لهذه المخلوقات الصغيرة المدهشة.

لقد لخص السيد ف. ر. كانا، في ورقته القيمة وخريطته الملحقة بـ "المجلة الجغرافية" [19]، وجهات النظر السائدة حول جغرافية الصحراء الليبية وقت زيارتي للبلاد. يصف كانا هذه الصحراء قائلاً: "لقد توفرت بعض المعلومات عن طبيعتها في المنطقة المتاخمة لنهر النيل، وإلى الشمال على طول حافة هضبة قورينا... وتتميز الصحراء الليبية عمومًا بكونها قفارًا صخرية في الشمال والشرق، وبحرًا واسعًا من الرمال في الوسط."

تبدأ الأراضي القاحلة الصخرية مباشرةً جنوب الحزام الزراعي على طول الساحل الشمالي لمصر، حيث ترتفع الصحراء لتشكل هضبة. يلي هذه الهضبة منخفض شاسع، يقع جزء منه تحت مستوى سطح البحر، ويمتد من واحة سيوة شرقًا باتجاه النيل. سنتناول هذا الوادي الضخم بالتفصيل لاحقًا.

لم يتم رسم الجانب الجنوبي من هذا المنخفض بدقة على الخرائط بعد، ولكن خلفه يرتفع مستوى الصحراء مرة أخرى ليشكل هضبة مغطاة بالحجر الجيري، يزيد ارتفاعها في بعض الأماكن عن ألف قدم فوق مستوى سطح البحر. أعتقد أن الحد الغربي لهذه الهضبة غير محدد بوضوح في الجزء الشمالي منها، ولكنه يتضح كلما اتجهنا شرقًا، حيث يحده وادي النيل، مشكلاً الجرف الشاهق على جانبه الغربي الذي يعرفه جيدًا كل زوار مصر. عند خط عرض قنا، تضيق الهضبة إلى عرض يبلغ حوالي مائة ميل، ويشكل حدها الغربي المنحدر العظيم الذي يحد واحة الخارجة من جهتها الشرقية.

كانت جغرافية هذه الهضبة الجيرية، والصحراء الممتدة خلفها حتى الحدود المصرية الطرابلسية، معروفة جيدًا وقت وصولي إلى مصر. ولكن باستثناء الكفرة والواحات الأخرى في نفس المجموعة، كانت الصحراء بأكملها خلفها تُعد أرضًا مجهولة تقريبًا، تخضع لسيطرة السنوسيين. وكما ذكر السيد ف. ر. كانا في ورقته، كانت تعتبر بحرًا وعرًا من الكثبان الرملية الهائلة.

[294] قمت بثماني رحلات استكشافية في الصحراء إلى الجنوب الغربي من الداخلة، وذكرت بعضًا منها فقط. بالإضافة إلى هذه الرحلات، والرحلات الأخرى إلى الفرافرة وأماكن أخرى سبق ذكرها، قمت ببعض الرحلات إلى الشمال من عين عمر، حيث اكتشفت شبكة مثالية من المنخفضات الصغيرة.

كانت هذه الحفر الصغيرة، التي يبلغ عمقها نحو مائة وخمسين قدمًا فقط، تتصل في الغالب ببعضها البعض، وتغطي هضبة الحجر الجيري. كان الدخول إليها يتم عبر فجوة في

الجرف على الجانب الشمالي من وادي عينٍ أمور، حيث يظهر منها حزام صغير من الكثبان الرملية. كان عرضها في الغالب ميلاً أو ميلين فقط، على الرغم من أن بعضها كان طويلاً بشكل ملحوظ، حيث امتد أحدها لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. كانت هناك حفرة صغيرة غير عادية تبدو وكأنها حفرة معزولة، ذات شكل دائريٍ تقريبًا، في هضبة الحجر الجيري، بعمق حوالي مائة وخمسين قدمًا وجوانب عمودية تقريبًا. كان من الصعب تحديد كيفية تشكلها. وبالنظر إلى الأفق المتموج الذي أظهرته بعض المنحدرات المحيطة بهذه الحفر، فمن المحتمل وجود العديد من المنخفضات الأخرى التي لم يسمح لي الوقت باستكشافها.

كانت هناك حقيقة غريبة تتعلق بهذه الحفر الصغيرة، وهي أنه على الرغم من أن أرضيتها كانت مغطاة بالطين، إلا أنها لم تكن تحتوي على أي نباتات تقريبًا. ومع ذلك، لم تكن الشجيرات وحتى البقع الصغيرة من الشجيرات نادرة الظهور على هضبة الحجر الجيري المحيطة بها.

لقد كان أصل المنخفضات في هذه الهضبة الجيرية موضوعًا لبعض الجدل. وقد قدم العديد من الكتّاب تفسيرات لتشكل هذه المنخفضات، مثل تأثير المياه، وتآكل الرمال، وثني الطبقات. ومن المثير للاهتمام أن نذكر أن أقصى الجنوب من هذه المنخفضات الصغيرة إلى الشمال من عين أمور كان يحتوي على مجرى مائي واضح ، يحتوي على حصى مستديرة جيدًا، ويمتد نحو مدخل وادي عين أمور.

بالإضافة إلى هذه الرحلات، قمت برحلة استغرقت ثلاثة أيام إلى الجنوب من بيلات، في واحة الداخلة. على حافة الواحة، دخلنا أرضًا وعرة مغطاة بالملح، وتحتوي على بعض البقع من الملح الصخري.

خلف ذلك كانت تقع منطقة كبيرة مغطاة بالشجيرات تعرف باسم "ضيعة النمل"، أو أحيانًا باسم "الجرجوف"، وكانت مغطاة بالشجيرات بكثافة.

عند مغادرتنا هذه المنطقة، دخلنا الصحراء المفتوحة، التي ارتفع منسوبها هنا بسرعة كبيرة نحو الجنوب. وهنا وجدنا آثار طريقٍ قديم، لكننا فقدناه في اليوم الثالث بعد مغادرة بيلات. ربما كان هذا الطريق فرعًا من درب الطرفاوي.

في وقت مبكر من بعد ظهر ذلك اليوم، قادنا طريقنا إلى قمة جرف يبلغ ارتفاعه حوالي [295] وبعد بضع ساعات من السفر، وصلنا إلى جرف ثانٍ يبلغ ارتفاعه مائتين وأربعين قدمًا، خلفه مساحة واسعة من الصحراء الرملية المستويةً، تتخللها هنا وهناك بعض التلال الصخرية. ويبدو أن هذا الجرف الثاني كان استمرارًا شرقيًا للجرف الذي

يشكل الحد الجنوبي للهضبة الرملية إلى الجنوب الغربي من واحة الداخلة، والذي ينهار مع ذلك إلى منحدر تدريجي إلى الجنوب من مدينة موط، على الجانب الغربي من الداخلة، حيث يمتد الطريق من موط إلى واحة سليمة.

لقد حاولت أن أستغل الفرص القليلة التي سنحت لي لجمع المعلومات قدر المستطاع عن المناطق المجهولة الواقعة خارج الحدود المصرية. ولكن هذه الفرص كانت قليلة للأسف. فقد اعتبر السنوسيون هذه المناطق بمثابة محمية خاصة بهم، وبذلوا قصارى جهدهم لإبقائها مغلقة أمام الغرباء. وبالتالي، لم يكن أحد يعرف أي شيء عن المنطقة سوى أعضاء هذه الطائفة وأصدقائهم، وكان السنوسيون سريين للغاية بشأن بلادهم لدرجة أنني لم أستطع استخراج أي معلومات عنها إلا بصعوبة بالغة. وكان لابد من إجراء التحقيقات بحذر، لأن جمع البيانات من هذا النوع قد يثبت أنه عمل غير آمن.

لقد تم التحقق من صحة جزء من الخريطة التي تمكنت من تجميعها من البيانات التي قدمت لي من مصادر أخرى؛ وبما أن الكثير منها قد تبين أنه صحيح، فمن المفترض أن يكون الباقي منها موثوقًا بنفس القدر. إن المواقع المطلقة، فيما يتعلق بخطوط العرض والطول، ربما بها أخطاء كبيرة في معظم الحالات، ولكن الاتجاهات والمسافات النسبية لكل مكان عن تلك المحيطة به، في معظم الحالات، يتم تمثيلها بدقة معقولة.

لا شك أن الخريطة التي تستند إلى معلومات محلية لا يمكنها أن تنافس في دقتها تلك التي رسمت بأساليب المسح الحديثة؛ ولكنها قد لا تكون بعيدة كل البعد عن تلك التي رسمها الجغرافيون منذ مائة عام أو حتى خمسين عامًا باستخدام الأساليب الأولية. والغرض من هذه الخريطة هو إعطاء فكرة عامة عن المنطقة التي تغطيها، وبشكل أكثر تحديدًا، إعطاء المسافرين في المستقبل معلومات موضوعية ودقيقة بما يكفي عن موقعها، لتمكينهم من العثور عليها.

لم أعتمد نظامًا محددًا للتهجئة والإملاء في خريطتي. فالعديد من الأسماء من الواضح أنها ليست عربية، بل تعود إما "للتبو" أو "قبيلة البديات"، وهي أقوام، على حد علمي، لم تُوضع لأبجدياتها — إن كانت لها أبجديات أصلاً — أي نظام متفق عليه للنقل الحرفي (الترجمة الصوتية). وكان من المستحيل الحصول على الإملاء الصحيح حتى للأسماء العربية، لأن كل مصادري كانوا من البدو الأميين، لذا فقد كتبتها بأقرب شكل لطريقة نطقها صوتياً. ومن المحتمل أن النطق الذي سمعته يختلف عن النطق السائد في السودان، ولذلك قد تكون هذه المقارنة مفيدة.[296]

تم جمع المعلومات قدر الإمكان في شكل مسارات تربط بين الأماكن التي حددها

المسافرون السابقون بدقة إلى حد ما. ثم تم دمج بقية البيانات في هذه المسارات، أو تم رسمها من نقاط ثابتة بدرجة أو بأخرى على خرائط أخرى.

كانت الطرق الرئيسية الثلاثة التي استندت إليها الخريطة على النحو التالي:[20]

الطريق الأول: من طلاب في واحة الكفرة إلى بيداو.

ثلاثة أيام جنوبًا إلى بئر بُشارة.

أربعة أيام جنوبًا إلى أسارا، أو سارا (بئر فقط).

ستة أيام من أسارا، في اتجاه الجنوب والجنوب الغربي، إلى تيكيرو.

نصف يوم غربًا من تيكيرو إلى إيرولي، بئر.

ثلاثة أيام غربًا إلى جورو.

ثلاثة أيام في اتجاه الجنوب الغربي من جورو إلى أونجوري.

يوم واحد جنوب غرب إلى قرية إيرثا.

يوم واحد غربًا إلى بيداو.

الطريق الثاني: من تيكيرو إلى أبشر.

ثلاثة أيام جنوبًا إلى وانجونجا الكبير. تقع وانجونجا أخرى، تُعرف باسم وانجونجا الصغيرة، على بعد رحلة يوم واحد إلى الشرق. كلاهما مأهول بالسكان. يُطلق على هذه المنطقة أحيانًا اسم وانجونجات.

ثلاثة أيام جنوبًا إلى بيدادي، وهي بئر تابعة للبيديات.

ثلاثة أيام جنوبًا إلى بئر يُدعى فنفون، وهو تابع لقبيلة البدايات.

يوم ونصف (أو يومين) جنوبًا إلى ويتا الصغير.

يوم قصير في الجنوب إلى ويتا الكبير.

خمسة أيام جنوبًا - كما قيل لي أربعة أيام - إلى مشالوبة (أم شلوبة)، التي حددها الفرنسيون مؤخرًا. ثم استمر الطريق عبر لوغاد وأراثا إلى أبيشر.

الطريق الثالث: من وايتة الكبير إلى الفاشر.

يوم واحد شرقًا إلى أم العثم، بئر البدايات.

يوم واحد جنوبًا إلى با كي.

يوم واحد جنوبًا إلى بئر الجوتارا.

يومان شرقاً إلى عين البيضا، بئر البدايات.

يومان شرقًا إلى باو، بئر أو بركة بدايات، في وادٍ خصيب يسكنه البدايات.

يوم طويل، أو يوم ونصف، جنوبًا إلى الكفرة، وهو وادٍ مليء بالمياه.

يوم واحد شرقًا إلى ميجورس، وهو وادٍ يحتوي على العديد من الآبار.

[297] ثلاثة أيام وساعتين شرقًا إلى وادي هور. يعبر الطريق وادي هور، وبعد رحلة استمرت يومين في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي، يدخل أحد روافده - وادي فرواية. بعد عبور الوادي، يقود الطريق لمدة يومين جنوب شرق إلى مصبوط.

يقال إن كلاً من مصبوط وفروية عبارة عن وديان كبيرة تحتوي على العديد من الآبار. ويقال إن مصبوط تقع على درب الأربعين، وهو طريق القوافل القديم الذي كان يستخدم لنقل العبيد من السودان إلى مصر.

على بعد ساعتين جنوبًا من مصبوط إلى بهروز، ويومين جنوب شرق بهروز، يصل الطريق إلى فورمة، وهي بئر زغاوة.

وبعد يومين إلى الشرق، تصل إلى كافوت، وهي قرية في وادٍ يحمل نفس الاسم، ويستقبل على بعد نصف يوم إلى الجنوب رافدًا يعرف بوادي كوباي. ويتحد وادي كافوت نفسه، على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال، مع وادي كتم ليشكلا وادي مليات، وهو بدوره أحد روافد وادي هور العظيم.

يُظهِر مسح السيد بويس قسمًا قصيرًا من وادي كتم يمتد من الشرق إلى الغرب. ويُظهِر السيد سارسفيلد هول كتم على خريطته كقرية تقع على وادٍ غير مسمى - ربما وادي كتم - لا يظهر منه سوى قسم قصير يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. ولكن إلى الشمال يظهر وادٍ كبير غير مسمى يصب في الشمال، وهو ما يتوافق جيدًا مع الوصف الذي أُعطي لي لوادي كتم-مليات.

بعد ثلاثة أيام شرقًا ينتهي الطريق عند الفاشر.

وقد اتُّخذت هذه الطرق جميعها على أنها تبدأ من طلاب، وعندما رُسمت على أساس رحلة يوم واحد تبلغ عشرين ميلاً في خط مستقيم، أُغلقت بالأخطاء التالية، من مواضع نهاياتها كما هو موضح في الخرائط: بيداو، 95 ميلاً 34 درجة من الموضع الحقيقي، على طريق من طلاب يبلغ طوله حوالي 430 ميلاً كما هو موضح - بمعنى آخر، مع خطأ يبلغ حوالي 22 في المائة من المسار الإجمالي. أبيشر، 95 ميلا 98 درجة من الموضع الحقيقي، على طريق يبلغ طوله حوالي 680 ميلاً، أي حوالي 14 في المائة من

المسافة الإجمالية، الفاشر، 160 ميلاً 59 درجة من موضع الخريطة، على رحلة مدتها خمسون يومًا تبلغ 1000 ميل، أو 16 في المائة من هذه المسافة. وإذا أُخِذ في الاعتبار طبيعة المادة التي رُسمت عليها الخرائط، فإن هذا لا يقارن بشكل سلبي - باستثناء حالة بيداو - بخطأ محتمل في استخدام البوصلة المنشورية بنسبة نحو 10 في المائة.

ولكن هذه البيانات ربما تكون مضللة، ذلك أن العقيد تيلهو - وهو مراقب شديد الدقة ومجهز بجهاز لاسلكي للحصول على خطوط الطول عن طريق الإشارات الصادرة من برج إيفل - وجد أن مواقع ناختيجال لبعض الأماكن في تيبستي كانت خاطئة بما يصل إلى خمسين ميلاً، لذا فمن المفترض أن موقعه بالنسبة لبيداو لا يمكن الاعتماد عليه كثيرًا. كما أن مواقع روهلفس بالنسبة لطلاب وأجزاء أخرى من واحة الكفرة لا تزال بحاجة إلى التحقق من قبل أجهزة حديثة.[298] وطرق أكثر دقة من تلك التي كانت متاحة في وقت رحلته.[21]

عند رسم الخرائط، تم التعامل مع المسارات أولاً على أنها ثلاثة طرق منفصلة، تربط بين طلاب وبيداو وأبشر والفاشر على التوالي، وتم تعديلها بشكل منفصل بالطريقة الرسومية العادية، إلى نهاياتها الخاصة. أدى هذا إلى ثلاثة مواقع منفصلة لبشرى وأسارا وتيكيرو. تم اعتبار هذه المواقع الثلاثة في كل حالة وقبولها على أنها صحيحة، ومن موقع تيكيرو تم رسم الطريق إلى بيداو من جديد وتعديله إلى موقع ناختيجال.

تم مرة أخرى رسم الطرق جنوبًا إلى أبشر والفاشر من الموقع الجديد الذي تم العثور عليه لتيكيرو، وتم تعديلها مرة أخرى لتتوافق مع مواقع أبشر والفاشر على الخريطة، باعتبارهما طريقين منفصلين يمتدان إلى تلك الأماكن من تيكيرو. أعطى هذا منصبين منفصلين لوانجونغا الكبير، وبدادي، وفونفون، وويتا الصغير، وويتا الكبير.

وقد تم اعتبار متوسط هذين الموقعين صحيحًا، ومن هذا المتوسط بالنسبة لوايتا الكبير، تم رسم الطرق المؤدية إلى أبيشر والفاشر، وتم ضبطها في النهاية عند نهاياتها النهائية. ونتيجة لذلك تم تعديل العديد من الأماكن على هذه الطرق خمس مرات.

الطريق الرابع: من دنقلا إلى وادي الحواش.

من دنقلا يمتد طريق خمسة أيام إلى الجنوب الغربي إلى بو سناتة - وهي بئر تابعة لقبيلة الكبابيش.

وبعد أربعة أيام إلى الغرب والجنوب الغربي، نصل إلى جبل مايدوب. ومن هناك، بعد خمسة أيام إلى الغرب، يصل الطريق إلى بو زيباد، وبعد ثلاثة أيام إلى الغرب يصل

إلى وادي الحواش.

ولم أسمع عن وجود مدينة دنقلا القديمة، التي تقع على بعد حوالي خمسة وستين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة دنقلا الجديدة الأكثر شهرة، إلا بعد فترة طويلة من إعطائي هذا الطريق.

عند رسم الطريق على أساس مسافة عشرين ميلاً في اليوم من أي من هذين المكانين، فإن الطريق يكون خاطئًا إلى حد كبير، إذا كان من الممكن الاعتماد على موقع مايدوب. ومع ذلك، فإن الطريق الذي يبدأ من دنقلا القديمة وينتهي في مايدوب أفضل بكثير من الطريق من دنقلا الجديدة. المواقع على الخريطة هي تلك التي تم العثور عليها من خلال رسم المعلومات، دون تعديل من دنقلا الجديدة. يعتمد على هذا الطريق أيضًا جزء من وادي هواش، الواقع إلى الشمال من كوورة (انظر الصورة).

كان الوصف الذي أعطوني إياه لوادي هواش مثيرًا للاهتمام للغاية. فقد قيل إن جوانب الوادي في بعض الأماكن كانت مغطاة برسومات ملونة، وأنه يحتوي على العديد من[299] أطلال من الطوب المحروق، ربما من أصل مروي، بالإضافة إلى العديد من التماثيل - تماثيل ضخمة على ما يبدو - وحفر في الأرض تحتوي على رماد مغطى بألواح حجرية - ربما كانت هذه حفر جنائزية تحتوي على بقايا بشرية. تم الإبلاغ عمومًا عن أن منطقة البدايات تحتوي على العديد من الأطلال المبنية بالحجارة (ders)، ولديها العديد من النقوش الصخرية والآبار "الرومانية" - أي الآبار الارتوازية - مثل تلك الموجودة في الواحات الغربية في مصر، ويبدو من المرجح أن تثبت أنها مجال قيم لعلماء الآثار في المستقبل.

ومن بين الأماكن المتبقية الموضحة على الخريطة يمكن ذكر ما يلي. وكان جميع من أخبروني من العرب أو السودانيين المقيمين في مصر، لذا فإن الأسماء هي تلك المستخدمة بين البدو الناطقين بالعربية وقد تختلف عن تلك المستخدمة من قبل القبائل الناطقة بلغة أخرى، مثل التبوس والبداييت والأعراق السودانية الأخرى.

دندورا: هذا هو الاسم البديل الذي أطلقه رولفس على زرزورة ـ "واحة السود". وقد استنتجت أن زرزورة، إذا كانت موجودة على الإطلاق، هي مكان مختلف عن دندورا. فقد وُصِفَت الأخيرة بأنها كبيرة مثل واحة الداخلة، وأنها تقع إلى الغرب مباشرة من كثيب طولي هائل يكاد يكون من المستحيل عبوره، على بعد سبعة أيام غرب بو منقار (انظر أيضًا زرزورة).

الكثبان الرملية: يقال إن جميع أحزمة الكثبان الرملية في الصحراء الليبية تمتد من

الشمال إلى الجنوب. وفي محيط واحة الداخلة، وجد أن هذه الأحزمة تمتد بزاوية 352 درجة، وإذا كانت، كما سمعت، تسير بالتوازي مع طريق طلاب-تيكيرو، فإن الأحزمة تبدو في الواقع وكأنها تتقارب قليلاً نحو الشمال. ومن المحتمل أن تهب الرياح السائدة من ربع أكثر شرقية كلما تقدم المرء غربًا من مصر، حيث أن تأثير الهواء الساخن الصاعد من الصحاري العربية سيكون أقل شعوراً في الجزء الغربي من الصحراء الليبية. باتجاه وسط السودان يبدو أنها تقترب من اتجاه التجارة الشمالية الشرقية الموجودة عادةً في هذه خطوط العرض، حيث وجد القائد تيلهو أن الرياح السائدة في بوركو تهب من هذا الاتجاه. ويقال إن حزام الكثبان الرملية الذي يسهل عبوره يبدأ على بعد ساعتين تقريباً إلى الغرب من إربايانا، بالقرب من واحة الكفرة، ويمتد لمدة ثلاثة أيام - قيل لي أربعة أيام - إلى الغرب، ويختفي قبل أن يصل إلى خط عرض بُشرى. كما وردت تقارير عن وجود حزام على بعد ساعتين تقريباً إلى الغرب من إروالي. ورغم أن هذا الحزام يتساوى تقريباً في عرضه مع الحزام الواقع إلى الشمال، والذي يقع إلى الغرب من إربايانا، إلا أنه ربما يكون مجرد رمال تتراكم على تلال تيبستي، وإن كان يبدو من موقعه وكأنه استمرار للحزام القريب من الكفرة، والذي يتماشى معه تمامًا؛ وتؤكد ورقة تيلهو وجود حقل كبير من الكثبان الرملية حتى إرثا وبركو، وأيضًا إلى الجنوب من وادي دوم. ويقال إن خط الكثبان الرملية الذي يتبع طريق طلاب - الكفرة يبدأ بالقرب من غرب كاباو، وأن عرضه يبلغ حوالي يوم واحد من الشرق إلى الغرب. [300]يقال إن هذه الفصيلة من الكثبان الرملية كانت تتجه إلى السودان، ثم تنقرض في نباتات العوينات. وبين العوينات وديمي، وجد تيلهو "سلسلة صغيرة من الكثبان الرملية، يبلغ ارتفاعها نحو خمسين قدمًا، وتمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، ويتراوح عرضها بين خمسة إلى ستة أميال"، ويبدو أنها نهاية الحزام الذي وصفه المخبر.

إن أحزمة الكثبان الرملية تشكل اختباراً مفيداً لدقة البيانات التي قدمتها لي. ويبدو أن أحدها الذي رأيته في نهاية رحلتنا إلى الجنوب الغربي من الداخلة، بالقرب من جبل عبد الله، هو الاستمرار الشمالي للخط الذي يمتد من الأترون إلى "الواحة المصرية". ويقع الجزء الجنوبي من خط الكثبان الرملية إلى الغرب من الجزء الذي رأيته؛ ولكن من الصعب أن نتوقع أن تكون الخريطة التي تم إنشاؤها من خلال الاستخبارات المحلية دقيقة للغاية، وبافتراض أن الرياح السائدة في المناطق المجاورة للأترون تهب من اتجاه يقترب من الشمال الشرقي، كما وجد تيلهو في بوركو، فمن المؤكد أن خط الكثبان الرملية سوف ينحني قليلاً نحو الغرب عند نهايته الجنوبية. والحزام بالقرب من

دندورة يكاد يكون على نفس خط الحزام المذكور في المناطق المجاورة لأوانا، وكذلك الحزام العريض إلى الغرب من إربايانا مع حقل الكثبان الرملية المماثل إلى الغرب من إيرولي. إن الفواصل الخالية من الرمال في هذه الأحزمة الرملية ليست غير شائعة، والموت الذي حدث لهذا الحزام حول خط عرض بشارة والذي قيل إنه حدث، قد يكون مجرد بداية لواحدة من هذه الفجوات، حيث يصبح خط الكثبان الرملية متصلاً مرة أخرى إلى الجنوب.

"واحة مصرية": أخبرني أحد الأبدويين (أي من قبيلة البدايات) الذي كان صديقًا لأحد مرشديني، أنه ركب ذات مرة من مرجة (انظر الصورة أعلاه) مع اثنين من الهاجن (أي يمتطون الجمال) لمدة خمسة أيام شمالاً، متبعًا حزام الكثبان الرملية (قيل لي أيضًا أن المسافة كانت عشرة أيام طويلة من مرجة مع قافلة عادية). ثم صعد تلًا أسودًا مرتفعًا للغاية يقع في حزام الكثبان الرملية ورأى في المسافة تحت منحدر واحة ضخمة تحتوي على عدد من أشجار الزيتون والكثير من الترفا . كان بعيدًا جدًا لدرجة أنه لم يتمكن من رؤية ما إذا كانت مأهولة بالسكان، وكان خائفًا من الدخول، لأنه قال إنها "واحة مصرية"، وكان يخشى أن يقتل إذا فعل ذلك. أخبرني عربي آخر أن أحد أبناء عمومته كان يركب على طول قمة منحدر حوالي ثمانية أيام في مكان ما إلى الجنوب من الداخلة، عندما رأى تحته واحة كبيرة جدًا تحتوي على عدد من أشجار الزيتون والنخيل والآبار. كانت هناك بلدة كبيرة مدمرة لا يبدو أنها مأهولة بالسكان وعدد قليل من العزبات (أي القرى)، حيث كان من الممكن رؤية عدد قليل من الناس. كما قيل لي أن هذا المكان كان على بعد ما بين سبعة إلى عشرة أيام من واحة الداخلة.

إرشاي: بحيرة مياه عذبة، توصف بأنها بحيرة يبلغ عرضها ثلاثة أميال ومساحتها خمسة أو ستة أفدنة ، كما يوجد بها واد يحمل نفس الاسم. وعند دخول الوادي بالقرب من الجتارة، تقع البحيرة على مسافة ثلاثة أيام من الوادي حتى تصل إلى[301] الشمال. ويقال إن البحيرة تحتوي على تماسيح، والتي تمسك بالإبل عندما تنزل للشرب. لا يوجد شيء غير محتمل في هذا، حيث تم العثور على التماسيح بالفعل في وسط الصحراء الغربية، في برك وادي ميهارو، التي تؤدي إلى وادي إيغارغارين، وهو نفسه أحد روافد وادي إيغارغار العظيم، وهو الوادي الذي لابد أنه كان يحتوي في عصور ما قبل التاريخ على نهر هائل. ومن المفترض أنه مع جفاف هذا الجزء من الصحراء، انقطعت التماسيح، ولا توجد الآن إلا في برك مجرى النهر - وهي حالة مماثلة ربما تفسر وجودها في بحيرة إرشاي.

فاردى، وادي ال: اسم آخر لوادي تبو، أو بحر الغزل، الذي يتصل ببحيرة تشاد. يطلق عليه بارث اسم باروم وفيدي. ربما يكون الاسم الأخير تحريفًا للكلمة العربية فاردى.

وهناك أيضًا وادي فردي آخر يقال إنه يمتد شرق جبل كوسو، عبر جورو، وإربيانة، وبسيمة، وتازربو. ويعبر طريق جالو-الكفرة على بعد أربعة أيام جنوب جالو، ثم يمر عبر الجغبوب، وسيوة، والبحرين لينضم إلى النيل. وتقول إحدى الروايات إنه يمر أيضًا عبر الفيوم.

يقال إن عددًا كبيرًا من الوديان الفرعية تصب في وادي الفردي من سلسلة جبال تيبستي. تدعم هذه الوديان عددًا كبيرًا من سكان تيبستي؛ ولكن نظرًا لأن هؤلاء السكان الأصليين يبدو أنهم من بين أتباع السنوسيين الرئيسيين، لم أتمكن من إقناع المخبرين بإعطائي أي معلومات عن هذه المنطقة، التي يبدو أنها واحدة من المعاقل الرئيسية للطائفة. ومع ذلك، تظهر العديد من الوديان على الخرائط الموجودة، ولا أعرف من أي مرجع، حيث تبدأ في تيبستي وتمتد في هذا الاتجاه.

هناك عدد من التقارير المحلية عن جفاف مجاري الأنهار في أجزاء مختلفة من الصحراء، والتي لم يتم التحقيق فيها أبدًا، كما أعتقد، وقد تكون بلا أساس، ويجب النظر إلى المعلومات من هذا النوع بعين الريبة. لكن وادي الفاردى يبدو أصيلًا، حيث تم الإبلاغ بالفعل عن وجود أودية في جميع النقاط التي ذكرها مخبروني في مجرى النهر. لا بد أن يكون هناك هطول أمطار غزيرة في موسم الأمطار في سلسلة جبال تيبستي حتى الآن، وربما كان هطول الأمطار أكثر غزارة في الأوقات السابقة. لا تزال الوجهة النهائية للمياه التي تسقط على الجانبين الشمالي والشرقي من تيبستي غير معروفة. ومن غير المرجح أن تنكسر مرة أخرى عبر سلسلة الجبال وتتدفق نحو الجنوب، لذا فمن الواضح أنها يجب أن تتدفق في مكان ما نحو الشمال.

توجد إمدادات وفيرة من المياه السطحية في مجموعة واحات الكفرة ـ أكثر مما قد توفره الأمطار الطفيفة للغاية في الصحراء. وفي الصحراء الغربية تتغذى مجموعات الواحات الكبيرة على وديان من هذا النوع ـ على سبيل المثال، يجلب وادي سورا الأمطار من جبال الأطلس لتزويد المنطقة بالمياه.[302]وتتكون مجموعة واحات منخفض توات من واحات، في حين تتغذى مجموعة واد غيره الواقعة بين تقرت وبسكرة من واحة واد إيغرغار الكبرى، التي تنبع من الصحراء الوسطى. ويبدو من المحتمل أن تكون واحات الكفرة ووادي الفاردي نظيراتها في الصحراء الليبية.

لا يُعرف فقط أن هناك وديانًا موجودة في جميع النقاط على طول مجرى هذا النهر، حيث تم الإبلاغ لي بذلك، ولكن من المعروف أيضًا أن هناك منخفضًا كبيرًا بين واحة سيوة والنيل، وأجزاء منه، مثل بحيرة سترة، تحتوي على الماء وتقع تحت مستوى سطح البحر. تم مسح الحدود الشمالية لهذا المنخفض العظيم على طوله بالكامل تقريبًا، حيث يمر الجرف بجبل الغزالات وجبل الطرفاية وجبل دكار وغار اللبن وجبل السمارة وجبل هاشم الجيد، إلى وادي النطرون. على الجانب الجنوبي من هذا الوادي العظيم، تم العثور على حدود واضحة المعالم في جوار سيوة، تمتد شرقًا نحو النيل حتى واحة أراج وبحيرة سترة. لا يبدو أنه تم مسحها بعد هذه النقطة. إذا كان هذا المنخفض العظيم يشكل جزءًا من وادي الفرضي، فلا بد أنه اتسع إلى الشرق من واحة سيوة ليصبح ما يشبه مصب النهر. لقد وصف لي الوادي الفردي بأنه كبير مثل وادي النيل.

بالإضافة إلى وادي الفردى، سمعت عن مجرى نهر عظيم آخر يُعرف بوادي هور، والذي قيل في بعض الأماكن إنه عميق وواسع مثل وادي النيل. وقيل إن قاع الوادي يتكون من الطين ويحتوي على الكثير من المياه بعد هطول الأمطار - ربما في الآبار والبرك - ولكنه يجف في موسم الحرارة.

هرري: اسم لقبيلة من قبائل البدايات. كما أنها تنتمي إلى المنطقة التي يسكنونها، والتي تحتوي على بحيرة من المياه الطيبة، تمتد من الشمال إلى الجنوب بمسافة تزيد على طلقة بندقية عربية، وتستغرق الرحلة من الشرق إلى الغرب ساعة. وهناك بعض الأشجار والنخيل حول البحيرة وبعض الزراعات. وتقع البحيرة على بعد ثلاثة أيام شرق وانجونجات، والطريق يمتد فوق الرمال والصخور، وهي على بعد سبعة أيام شمالاً من بحيرة إرشاي، والطريق يمتد فوق الصخور مع وجود قدر كبير من المياه في الأمطار، ولكن لا يوجد ماء في الطقس الجاف. وهناك مستوطنات في الطرفين الشرقي والغربي لبحيرة هرري.

إديلة: على بعد ثلاثة أيام إلى الجنوب الغربي من إديلة توجد واحة كبيرة، وعلى بعد يومين إلى الغرب من إديلة توجد حطية كبيرة . ويمتد طريق من إديلة إلى الكفرة، ويمتد طريق آخر إلى الغرب، مخفياً تحت الكثبان الرملية.

وادي كور: يقع على بعد ستة أيام إلى الغرب من إربيانا.

كوورة: منطقة بدايات هامة. إلى الشرق من كوورة، بعد رحلة يوم واحد، الطريق عبارة عن رمال مستوية، وإلى الغرب منها عبارة عن صخور.

مرجا: ما يسمى بـ " حطية البدايات"، وهي حطية البداويين في الصحراء المصرية.

وقد وُصفت بأنها بحجم [303] منطقة تينيدا-بلات في واحة الداخلة - حوالي عشرة أميال في كل اتجاه. تحتوي على بركة تبلغ مساحتها حوالي فدان (فدان) تغذيها عين أو عين (بئر ارتوازية) محاطة بالعديد من أشجار النخيل، والتي حولها أيضًا حزام من الشجيرات - أرغول وتيرفا . تقع على بعد يومين ونصف إلى الشمال الغربي من الأترون وثلاثة إلى ثلاثة أيام ونصف - سمعت أيضًا أربعة أيام - غرب لاجيا. على بعد يومين ونصف إلى الجنوب الغربي من ميرجا يوجد جرف مرتفع به نجيب (أي ممر) يؤدي إلى الهضبة في الأعلى.

وبعد رحلة استغرقت أكثر من نصف يوم عبر الهضبة، نصل إلى ممر آخر يؤدي إلى "وادي البدايات" (انظر الصورة). لا يسكن المرج بانتظام، لكن البدايات يأتون إلى هناك في الموسم لجمع التمور. كما يستخدمونه كقاعدة لشن غارات على قوافل البدو المصريين الذين ينزلون إلى الأترون لجمع النطرون. ويمتد طريق من المرج إلى الكفرة، وتقع العوينات (انظر الصورة) في منتصف الطريق. ولا توجد بدايات إلى الشمال من المرج. وربما يكون هذا هو المكان الذي أطلق عليه مياني "بحيرة السلاحف الطينية" عند بطليموس.

"إن المعلومات التي حصل عليها العقيد "تيلهو" عن هذه المنطقة تتفق إلى حد كبير مع المعلومات التي تلقيتها. فقد أخبروه أيضاً عن الطريق من مرجة إلى الكفرة عبر العوينات، كما سمع وصفاً للمكان بأنه عبارة عن بركة محاطة بأشجار النخيل. وهو يقدر الموقع بأنه "بين الدرجتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين من خط الطول شرقاً والدرجتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة من خط العرض شمالاً". ويتفق هذا التقدير مع معلوماتي فيما يتصل بخط العرض، ولكن وفقاً لمعلوماتي فإن خط الطول يجب أن يكون أبعد بدرجة واحدة على الأقل إلى الشرق مما ذكره.

بحيرة نون: تابعة لأهل البدايات، يبلغ عرضها حوالي ثلاثة أميال، وتقع بالقرب من التل الذي يحمل نفس الاسم. تُزرع الأراضي على الجانبين الجنوبي الشرقي والجنوبي الغربي منها. تقع البحيرة على بعد يوم واحد غرب جبل كتم، ويمتد طريق جنوبًا وآخر شرقًا من البحيرة (؟ وجهات).

أوانا: مكان يقع في منتصف الطريق من مرجة إلى الكفرة، ويتكون من بئر، ولا توجد نباتات في المنطقة المجاورة مباشرة، ولكن هناك الكثير من العشب الأخضر في المنطقة بعد هطول الأمطار، حيث تتغذى الحمير البرية و"بكر الوحش" (ربما الأغنام البربرية). إلى الشمال من البئر يوجد جرف به ممر يستغرق السفر السهل لمدة ساعتين

لعبوره، وعلى القمة توجد واحة عالية المستوى، ومعلمها عبارة عن تلين صخريين يبدوان وكأنهما جبل واحد من الشمال؛ يمتد المنحدر من الشمال إلى الشمال الغربي والجنوب الشرقي من البئر. ويقال إن جبل عبد الله يمكن رؤيته من مكان قريب من هنا. تعرف هذه المنطقة بأكملها باسم العوينات (جمع عوينة). ينحدر حزام من الكثبان الرملية بالقرب منها من الشمال ويختفي بعد يومين تقريبًا إلى الجنوب.[22]

[304] زرزورة: ربما لا يكون هذا سوى اسم عام يطلق على أي واحة أسطورية أو غير مكتشفة. لقد سمعت أن هذا الاسم يطلق على واحة زرزورة (دندورة؟) التي ابتكرها رولفس (انظرها) ـ وكذلك على "الواحة المصرية" (انظرها)، وعلى واحة يفترض أنها موجودة على بعد ثمانية أيام في مكان ما إلى الجنوب من الداخلة، وعلى معبد حجري سمعت عنه على بعد رحلة تستغرق ثماني عشرة ساعة إلى الغرب من الجديدة في واحة الداخلة. ظهرت الخريطة التي تحتوي على معلومات أصلية والتي أعيد إنتاجها هنا في الأصل في مجلة الجمعية الملكية البريطانية، سبتمبر/أيلول 1913. ولكنها خضعت لبعض التغييرات بعد ذلك وأدخلت إليها كمية كبيرة من المواد، ولم أكن مسؤولاً عن ذلك بأي حال من الأحوال. أعيد إنتاج الخريطة هنا في شكلها الأصلي.

وتوجد طرق رئيسية تعبر الصحراء الليبية، ومنها طريق يبدأ من الجيزة، بالقرب من القاهرة، ويمتد غرباً عبر وادي النطرون ووادي المغارة، ويتبع مسار وادي الفرادى إلى القرة، ثم يمضي عبر سيوة وجعبوب وجالو وأجيلة إلى واحة أبو نعيم ثم إلى طرابلس. وإلى الجنوب، هناك طريق للقوافل يبدأ من الفيوم، ويعبر الصحراء إلى الطرف الشمالي من الواحات البحرية، وقبل دخول الواحة مباشرة، تنضم إليه طرق من وادي النطرون ومن مغاغة. وهناك طرق أخرى تغادر وادي النيل عند بهنيسة والمنيا، وتدخل الواحة إلى الجنوب، وتتحد لتشكل طريقاً للقوافل يغادر الجانب الغربي من الواحة ويذهب عبر بحيرة سترة وأراج إلى واحة سيوة. ويمتد طريق أيضًا من الواحات البحرية، عبر وادي المغارة، إلى الإسكندرية في اتجاه الشمال، بينما يمتد طريق آخر في اتجاه الجنوب الغربي، عبر عين الوادي، إلى قصر الفرافرة.

ترتبط الفرافرة بوادي النيل بطريق يمر عبر حطية القيروان إلى بني عدي بالقرب من أسيوط. وهناك طريق كان يستخدمه السنوسيون يتجه نحو الجنوب الغربي، مارا بعين الشيخ مرزق وحطية بو منقر ومن ثم عبر حقل من الكثبان الرملية الكبيرة إلى الكفرة. ويقال إنه يمر في طريقه عبر واحة كبيرة. وإلى الشمال الغربي يوجد طريق من الفرافرة، يعبر هضبة صغيرة منفصلة من الحجر الجيري، تعرف باسم الجص أبو سعيد،

إلى بئر تُسمى بئر لبيت، ثم يستمر عبر الواحات الصغيرة في إديلة والبحرين إلى سيوة. وهناك طريق آخر يؤدي إلى الجنوب من إديلة، ويمر عبر واحة صغيرة تعرف باسم نسلة، ويؤدي إلى بو منقر، ثم إلى واحة الداخلة، ويمتد على طول سفح الجرف مباشرة إلى الشرق من بو منقر. ويمتد طريق ثان من إديلة، عبر القوس أبو سعيد، مباشرة إلى الداخلة، على طول قمة الجرف فوق بو منقار.

أما الطريق المعتاد بين الفرافرة والداخلة فيمتد جنوباً شرقاً من قصر الفرافرة إلى بئر د كر، ثم يتبع ما يعرف بالغاسى، أو الطريق الذي تجتاحه الرياح خالياً من الرمال، عبر حقل من الكثبان الرملية الضخمة، ويدخل واحة الداخلة في زاويتها الشمالية الغربية. ويخرج هذا الطريق من الجانب الجنوبي لواحة الداخلة عند [305] مدينة موط، على شكل درب الطرفاوي، المؤدي إلى واحتي بئر الطرفاوي وسليمة.

يدخل طريقان آخران إلى واحة الداخلة من الشمال - درب الطويل، أو "الطريق الطويل"، الذي يغادر وادي النيل عند بني عدي، وبعد عبور هضبة الحجر الجيري، ينزل الجرف الذي يحد الواحة من الشمال عبر ممر معروف باسم العجبة، في الجزء الشرقي من الواحة، ويؤدي إلى تنيدة؛ والطريق الآخر هو طريق قليل الاستخدام، يسمى درب الخشبة، والذي يمتد مباشرة من الزاوية الشمالية الغربية للواحة إلى نقطة ما في وادي النيل إلى الجنوب من بني عدي، أو ربما يذهب مباشرة إلى أسيوط.

هناك طريقان يستخدمان بانتظام بين واحة الداخلة وواحة الخارجة، الطريق الشمالي يؤدي إلى بئر عين أمور، على ارتفاع عالٍ على الجانب الشمالي من هضبة صغيرة منفصلة من الحجر الجيري، والطريق الآخر، طريق جوباري، يمتد على طول سفح الجرف على الجانب الجنوبي من هذه الهضبة. هذا الأخير خالٍ من المياه وأطول إلى حد ما من طريق عين أمور، لكنه يمتد فوق المستوى، وبالتالي فهو الأكثر استخداماً، حيث يتطلب طريق عين أمور صعوداً شاقاً إلى الهضبة، مع نزول صعب مماثل. ومع ذلك، يتمتع بميزة وجود بئر مياه مريرة إلى حد ما في منتصفه تقريبًا، وبالتالي يستخدمه أحيانًا مجموعات صغيرة، خاصة في الطقس الحار. تتفرع عدة طرق فرعية من طريق جوباري، وتؤدي إلى بيريس والأماكن الواقعة في جنوب واحة الخارجة؛ لكنها نادراً ما تستخدم.

يحد واحة الداخلة من جانبها الغربي حقل من الكثبان الرملية. ويمكن رؤية آثار العديد من الطرق القديمة المؤدية إلى هذا الاتجاه، وقبل أن تنحدر الكثبان الرملية إلى هذا الجزء، ربما كانت تستخدمها القوافل المتجهة إلى الكفرة؛ ولكنني أعتقد أن هذه

الطرق لم تعد تُستخدم الآن قط. وقد سبق ذكر آثار الطريق المهجور من مدينة "موط"، عبر العوينات، إلى وسط السودان.

وتمر عدة طرق فوق الجرف الشرقي لمنخفض الخارجة، فمن الطرف الجنوبي للواحة يمر طريق عبر واحة دنجون الصغيرة إلى توماس بالقرب من الدر، ويمر طريق ثان عبر واحة كركور الصغيرة إلى أسوان، ويمر طريق ثالث في اتجاه الشمال الشرقي إلى إسنا، بينما يمر طريق رابع عبر الصحراء إلى فرشوط. ويمكن الوصول إلى إسنا أيضًا من وسط الواحة عن طريق طريق يبدأ من قصر زيان. ومن قرية الخارجة الواقعة شمال الواحة، تنطلق طرق إلى سوهاج وجرجا وفرشوط وقنا والأقصر وإسنا. ولكن الطريق الرئيسي المؤدي إلى الخارجة هو درب الأربعين، أو طريق تجار الرقيق القدامى، والذي يغادر وادي النيل بالقرب من أسيوط ويدخل الواحة في نهايتها الشمالية، ويمر عبرها من الشمال إلى الجنوب، ثم يستمر عبر آبار شب وواحة سليمة ولاجية وبئر النطرون إلى دارفور.

الطريق الكبير الآخر للقوافل الذي يعبر الصحراء الليبية من [306] الشمال إلى الجنوب يبدأ من بنغازي، ويستمر عبر إجدابيا، وعجيلة، وجالو، إلى مجموعة واحات الكفرة ـ وكان هذا هو الطريق الذي سلكته عملياً بعثتا رولفس[1] وفوربس[2] وحسنين[3]. ومن الكفرة يستمر الطريق عبر بُشرى، وأسارة، وتيكيرو، إلى وانجونجا، ثم إلى وسط السودان.

ومن الملاحظ أن أغلب الطرق التي تعبر الصحراء الليبية تسير من الشرق إلى الغرب

1- جيرهارد رولفس (1896-1831): (Gerhard Rohlfs) مستكشف ألماني رائد. قام برحلات عديدة وواسعة في شمال أفريقيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كان من أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى واحة الكفرة في ليبيا عام 1879، وقدم وصفًا تفصيليًا لها. رحلاته كانت سباقة لرحلات فوربس وحسنين بعقود.

2- روزيتا فوربس (1967-1890): (Rosita Forbes) مستكشفة وكاتبة بريطانية. اشتهرت برحلتها الجريئة مع أحمد حسنين باشا إلى واحة الكفرة عام 1921-1920. كانت الكفرة لا تزال منطقة غامضة وصعبة الوصول للأوروبيين في ذلك الوقت (رغم زيارة رولفس السابقة). وثقت فوربس هذه الرحلة في كتابها الشهير "سر الصحراء: الكفرة" (The Secret of the Sahara: Kufara).

3- أحمد حسنين باشا (1946-1889): (Ahmed Hassanein Bey) دبلوماسي ومستكشف ومبارز مصري.

الرحلة المشتركة مع فوربس: كما ذكرنا، رافق روزيتا فوربس في رحلتها إلى الكفرة عام 1921-1920، ولعب دورًا حاسمًا في نجاحها بفضل معرفته بالمنطقة وعلاقاته وقدرته على التفاوض مع القبائل.

الرحلة المنفردة التاريخية (1923): قام حسنين باشا برحلة استكشافية علمية هامة بمفرده عام 1923، قطع فيها مسافة 3500 كيلومتر من السلوم على ساحل المتوسط جنوبًا عبر الصحراء الليبية، وصولًا إلى دارفور في السودان. خلال هذه الرحلة، اكتشف واحات جبل العوينات وأركنو التي لم تكن معروفة سابقًا للعالم الخارجي، وقام برسم خرائط دقيقة لمناطق شاسعة لم تكن مُخططة من قبل. تعتبر هذه الرحلة إنجازًا جغرافيًا كبيرًا، ووثقها في كتابه "الواحات المفقودة" (The Lost Oases).

تقريباً، وهذا أمر مؤسف، لأنه يفرض عليها عبور أحزمة رملية تمتد في زوايا قائمة تقريباً، ويرجع اتجاه هذه الأحزمة إلى الطبيعة السائدة للرياح الشمالية.

تشكل رياح الصحراء الليبية مشكلة مثيرة للاهتمام إلى حد ما. فالاتجاه السائد الذي تهب منه الرياح يقع إلى الغرب من الشمال قليلاً، وهو ما لا يمكن توقعه تماماً.

يمتد البحر الأبيض المتوسط على طول ساحل شمال أفريقيا. وتتغير درجة حرارة منطقة من المياه بهذا الحجم والعمق ببطء شديد، ولن تتأثر بشكل ملحوظ بأشعة الشمس ليوم أو يومين. وفي غياب الرياح، يتم التحكم في حرارة الغلاف الجوي فوق البحر إلى حد كبير بواسطة حرارة الماء نفسه.

ومن ناحية أخرى، تتعرض الصحراء الليبية لشمس أكثر حرارة بسبب وقوعها بالقرب من خط الاستواء. كما أن طبيعتها القاحلة الشديدة تمنعها من التعرض للتبريد عن طريق التبخر بأي شكل من الأشكال، كما أنها خالية تماماً من أي غطاء نباتي. وتحت حرارة الشمس الاستوائية، تسخن الصخور والرمال التي تتكون منها الصحراء بسرعة كبيرة تحت أشعة الشمس. ونتيجة لذلك، يسخن الهواء الذي يحيط بها بدوره إلى حد كبير، ويصبح أخف وزناً، فيرتفع إلى الأعلى، فيندفع الهواء الأكثر برودة وكثافة من البحر الأبيض المتوسط ليحل محله.

وتوجد حالة مشابهة للغاية في المحيطين الأطلسي والهادئ، حيث يندفع الهواء البارد نحو خط الاستواء من الشمال والجنوب ليشكل الرياح التجارية. ولكن هذه الرياح لا تهب بزاوية قائمة على خط الاستواء، لأن الأرض أثناء دورانها تنزلق بعيداً عن الغلاف الجوي المحيط بها، ونتيجة لهذا تهب الرياح التجارية من الشمال الشرقي والجنوب الشرقي، في نصفي الكرة الأرضية الشمالي والجنوبي على التوالي.

ولكن بدلاً من أن تهب من الشمال الشرقي، كما هو متوقع من طبيعة الرياح التجارية، فإن الرياح في الصحراء الليبية تأتي من الغرب قليلا من الشمال، وهو ما يبدو محيراً إلى حد ما للوهلة الأولى.

أعتقد أن تفسير هذه الخصوصية يكمن في حقيقة أنه إلى الشرق من مصر ـ عبر البحر الأحمر ـ تقع منطقة تشبه الصحراء الليبية في شكل الصحراء العربية، حيث تسود ظروف متشابهة للغاية. والبحر الأحمر، الذي يفصل بين المنطقتين، ضيق للغاية بحيث لا يؤثر كثيراً على الموقف، لذا فإن الهواء هناك لا يتأثر كثيراً بالطقس [307] كما أن الغلاف الجوي الذي يطل على الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط لابد وأن يحل محل الغلاف الجوي الساخن القادم من فلسطين وجزء كبير من شبه الجزيرة العربية،

وبالتالي يميل إلى الانجذاب نحو ذلك الاتجاه.

توجد في الصحراء ظواهر ضوئية وكهربائية مختلفة، نادرًا ما نراها أو لا نراها أبدًا في مناخات أخرى. لقد رأيت عدة مرات ما بدا وكأنه نجم كبير يلمع فجأة ثم يختفي على الفور. أعتقد أن هذا لم يكن نيزكًا، بل شكلًا من أشكال الظواهر الكهربائية، حيث كنت أشاهدها عادةً بعد عاصفة رملية، عندما يكون الهواء مليئًا بالرمال الناعمة المشحونة بالكهرباء.

تكون الظواهر الشمسية أحيانًا واضحة جدًا في الصحراء، حيث يمكن رؤية الضوء البروجي الذي يتبع غروب الشمس بوضوح شديد، في شكل جزء شبه بيضاوي من السماء يظهر بوضوح فوق الأفق، بعد اختفاء الشمس، ويتألق بقوة كافية لإعطاء ضوء ملحوظ.

كانت هناك ظاهرة أخرى رأيتُها في هذه الصحراء ولم أجد مسافرين آخرين قد أشاروا إليها قط. فأحيانًا عند الغروب، تظهر خطوط مضيئة في السماء الشرقية تنبعث (أو تشع) من نقطة تقابل الشمس الغاربة. لم تكن هذه الخطوط واضحة المعالم أبدًا، لكنها كانت مرئية تمامًا في الوقت ذاته. وفي إحدى المناسبات، ظهرت بدلًا منها خطوطٌ داكنة."

ومن بين السمات الغريبة الأخرى لهذا الجزء من الصحراء الطريقة التي كانت بها عاصفة رملية تنشأ أحيانًا دون أي تغيير ملحوظ في قوة الرياح أو اتجاهها. وقد استنتجت أن هذا يرجع إلى تغير في الحالة الكهربائية للغلاف الجوي.

إن العلاقة بين رياح هذه الصحراء وجغرافيتها وثيقة إلى حد أنني قمت بإدراجهما في هذا القسم. إن التأثير الرئيسي للرياح على رمال الصحراء، بالطبع، يمكن ملاحظته في الكثبان الرملية. بالإضافة إلى ما ذكرناه عند التعامل مع المعلومات المحلية التي جمعتها، هناك مساحة كبيرة في منخفض الفرافرة مغطاة بتلال رملية وتلك الموجودة في جوار بو منقر والتي سبق ذكرها.

كما توجد عدة أحزمة ضيقة من الكثبان الرملية تبدأ من المنخفض الكبير بين سيوة والقاهرة. وتمتد هذه الأحزمة أيضًا تقريبًا من الشمال إلى الجنوب؛ ولكن باستثناء واحد، تختفي جميعها قبل الوصول إلى خط عرض واحة الفرافرة.

كانت آثار العواصف الصحراوية العنيفة ظاهرة في كل مكان. وعلى هضبة الحجر الجيري، وعلى الطريق إلى واحة الخارجة، وعلى درب الطويل، يمكن رؤية أمثلة دقيقة

للغاية لتآكل الرمال.

السيد إتش إل بيادنيل،[23] الذي نفذ سلسلة من الدراسات الجوية [308] وقد قدرت الملاحظات التي أجريت على مدى فترة طويلة من الزمن في واحة الخارجة أن الرمال كانت تهب من اتجاه شمالي لمدة خمسة أيام من أصل ستة أيام في هذه المنطقة. والعواصف الرملية العنيفة شائعة بشكل غير سار، ويأتي العدد الأكبر منها من الاتجاه الشمالي السائد. والنتيجة المترتبة على هذا التجانس في اتجاه الرياح واضحة على الهضبة. فالسحب الرملية الدوامة، التي تدفعها العواصف الصحراوية الهائجة، لم تشكل الحجر الجيري الصلب في العديد من الأماكن على شكل تلال طويلة تمتد لأعلى ولأسفل مع الريح فحسب، بل إنها حتى قطعت أخاديد في التلال نفسها، وكأنها باستخدام أخدود عملاق، مكونة نوعًا من الصحراء يعرفه السكان الأصليون باسم الحراشيف . وترتفع هذه التلال أحيانًا عشرين قدمًا فوق مستوى الهضبة، ولكنها عادة ما تكون ثلاثة أو أربعة أقدام فقط في الارتفاع، مما ينتج عنه سطح يشبه إلى حد ما البحر الهائج - وهو نوع غير مريح للغاية من الصحراء التي يتعين على القوافل عبورها. كما يُرى أيضا شكل صغير من هذا النوع - الخرافش - على شكل تلال صغيرة، غالبًا ما تكون ذات حافة قاطعة، ويتسبب في إحداث فوضى في باطن الإبل ذات الأقدام الناعمة. بالإضافة إلى هذه الأشكال، يُصادف أحيانًا سطح صخري مسطح به أخاديد ضحلة للغاية، تُعرف باسم الرصوف .

بعض الصخور الجيرية التي تقع على سطح الهضبة مثقوبة بطريقة غير عادية. ويبدو أن الرمال المتحركة تشق طريقها إلى الأجزاء الأكثر ليونة من الحجر، فتحفر ثقوبًا في سطحه. وغالبًا ما يمكن رؤية حصى صغيرة تم نفخها في هذه الثقوب. وتطير هذه الحصى في دوائر حول الحفر تحت تأثير الرياح القوية، ومن المفترض أنها تستمر في تآكل الرمال، بنفس الطريقة التي يتآكل بها الحجر حفرة في مجرى مائي. وبمرور الوقت، تصبح الصخرة بأكملها مليئة بالثقوب لدرجة أنها تشبه إسفنجة عملاقة.

في العديد من الأماكن توجد بقع كبيرة من الصحراء مغطاة بشكل أو بآخر بصخور مستديرة يصل قطرها إلى قدم واحدة، وهو نوع من التآكل يعرفه السكان الأصليون باسم البطيخ، أو صحراء البطيخ.

وفي أماكن أخرى من الصحراء، يمكن رؤية صخور مثقوبة وأقواس طبيعية صغيرة، بينما بالقرب من قرية الفرافرة، كان هناك عدد من "الفطريات" الجميلة وحجارة المائدة المنحوتة من الطباشير بواسطة الرمال التي تحملها الرياح. وعلاوة على ذلك، تم العثور على

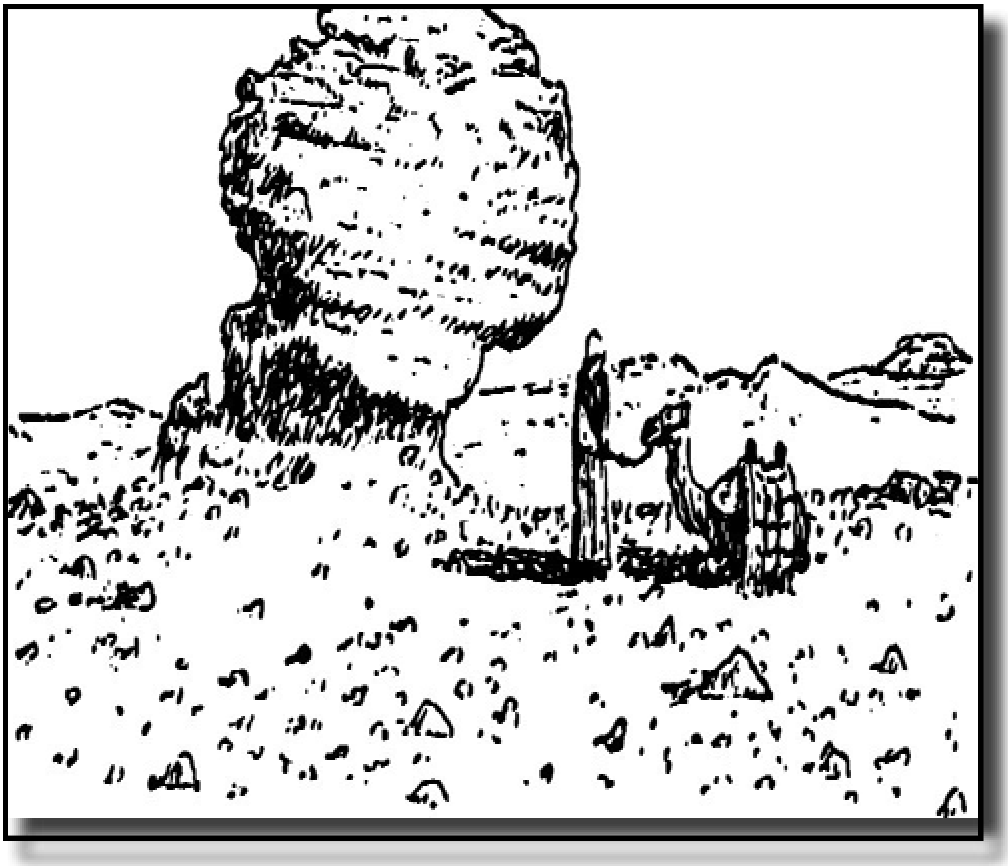
"فطريات" مماثلة من الحجر الرملي بالقرب من وسط الصحراء.

توجد في واحة الخارجة منطقة تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة مغطاة بتلال طينية غريبة. ويبدو أن هذه التلال، التي يبلغ ارتفاعها كلها أقل من عشرين قدمًا، قد تشكلت من تآكل الأرض بفعل الرمال التي تحملها الرياح، حيث كانت جميعها تمتد تقريبًا من الشمال إلى الجنوب، في اتجاه الرياح السائدة.

يبدو أنه مع تآكل الرمال وانخفاض سطح الصحراء، واجهت هنا وهناك أجزاء أكثر صلابة من الطين والتي قاومت تأثيرها التآكلي. وبالتالي ظلت هذه الأجزاء صلبة [309] وقد ظهرت هذه الأشكال فوق سطح الصحراء حيث تآكل الطين المحيط بها بفعل هبوب الرمال، وبالتالي عملت كحماية للأرض مباشرة ضد الرياح، والتي ظلت سليمة فوق مستوى الصحراء في شكل سلسلة تمتد في اتجاه الرياح الشمالية السائدة. وقد وجدت أشكالاً مماثلة إلى الغرب من الداخلة وفي تلك الواحة نفسها.

أثناء وجودي في الجزء الأوسط من الصحراء في موسمي الأول، وجدت في الكثبان الرملية قطعتين قصيرتين من العشب الجاف، مهترئة ومتضررة إلى حد كبير [24] لذا، كما سبق ذكره، عند مغادرة المخيم في اليوم التالي، اتبعنا خط حزام الرمال، إلى الشمال كما يظهر اتجاه الرياح السائدة، وهكذا وجدنا المكان الذي جاء منه العشب الجاف المنغرس في الكثبان الرملية.

إن وجود هذا العشب حتى الآن في اتجاه الريح من القطعة التي التقطتها بين الكثبان الرملية ليس سوى مثال آخر على الدور الكبير الذي تلعبه الطبيعة السائدة بقوة للرياح الشمالية في هذه الصحراء. لو واصلنا المسير نحو الشمال، على نفس الاتجاه الذي سلكناه خلال النهار، لكنا وجدنا واحات أو حطيات، بو منجر، وإديلا وسترة، كلها على نفس الخط. ربما كانت البذور الأصلية، التي كان العشب الذي وجدناه من نسلها، عينات حملتها الرياح من سترة إلى إديلا، حيث ترسخت وأنتجت بذورًا حملتها الرياح على نحو مماثل إلى بو منجر ومن هناك - ربما عبر حطيات أو واحة أخرى - إلى المكان الذي وجدناها تنمو فيه. من المحتمل جدًا أن يصل خط مزارع العشب إلى السودان، إذا كانت هناك أي أماكن على طوله حيث يمكن أن تنبت البذور.



صخرة متآكلة، جنوب غرب الداخلة.

لا يتبين لنا تأثير هذه الرياح السائدة في توزيع الغطاء النباتي فحسب. إذ تتبع أحزمة الرمال نفس الاتجاه، وكذلك الحال بالنسبة للتلال الطينية في الخارجة وأماكن أخرى؛ بل إن التلال في الصحراء تظهر في كثير من الحالات ميلاً واضحاً إلى الرياح [310] إن أطول أقطارها تشير إلى أعلى وأسفل هذا الخط من الشمال إلى الجنوب. كما أن الطبيعة السائدة للرياح الشمالية لها تأثير حتى على طرق القوافل؛ على سبيل المثال، فإن الطريق الذي يمتد من واحة الفرافرة إلى الداخلة يقع على طول واد بين الكثبان الرملية التي تشغل مساحة كبيرة في وسط منخفض الفرافرة، والذي يظّل خالياً من الرمال بشكل دائم بفعل الرياح الشمالية التي تكتسحه باستمرار، مما يوفر مسارًا سهلاً عبر ما كان ليكون لولا ذلك حقل كثبان رملية يصعب عبوره.

ذات يوم، وصلت إلى عين أمور، وواجهت عاصفة غريبة. كان الصباح عاصفًا وكنت قد خرجت بحثاً عن الغزلان. وعند عودتي إلى المخيم، رأيت في البعيد ما بدا

وكأنه أمطار غزيرة جدًا تهطل في وادي عين أمور، لذا سارعت بالعودة إلى البئر للحصول على مأوى بين الأنقاض المجاورة لها.

ولكن المطر لم يكن سوى ضباب - أو ربما كان من الأصح أن نقول إنه غيوم، لأن البئر تقع على ارتفاع 1680 قدماً فوق مستوى سطح البحر - فقد سقط بضع قطرات فقط، ولكن المنطقة بأكملها ظلت مغطاة بضباب أبيض كثيف لمدة ساعة تقريباً، بينما هبت رياح عاتية وهبت بعنف شديد. وفي نهاية ذلك الوقت انقشع الضباب، وهدأت الرياح فجأة، وتبع ذلك يوم مشمس حار بشكل غير معتاد. وغني عن القول إن الضباب ليس حدثاً شائعاً في الصحراء.

إن كلمة واحة هي للأسف كلمة غامضة للغاية، حيث يتم تطبيق معاني مختلفة عليها في أجزاء مختلفة من العالم. وعادة ما تعرفها القواميس بأنها "بقعة خصبة في الصحراء". حتى الآن هذا كل شيء. ولكن الصعوبة تكمن عندما يحاول المرء تطبيق هذا التعريف، لأنه يواجه مشكلتين في آن واحد: ما الذي يشكل "الخصوبة" وما هو حجم "البقعة"؟

إن منطقة واد غيره في جنوب الجزائر، على سبيل المثال، تمتد من الشمال إلى الجنوب لمسافة خمسة وتسعين ميلاً تقريباً، وتضم نحو أربعين قرية، بما فيها من مزارع النخيل، ويسكنها نحو خمسة عشر ألف نسمة. وكل قرية من هذه القرى، بما فيها من مزارع النخيل، تعتبر واحة واحدة. أما منطقة واد غيره بأكملها فتعتبر مجموعة من الواحات.

كانت واحتا الخارجة والداخلة، اللتان يفصل بينهما حوالي خمسة وسبعين ميلاً من الصحراء الخالية من الماء، تعتبران في نظر الكتّاب القدماء بمثابة واحة واحدة، تُعرف باسم "الواحة العظيمة".

يبلغ طول واحة الخارجة، وفقًا للدكتور جون بول، الذي قام بمسحها للحكومة المصرية، حوالي مائة وأربعين ميلاً من الشمال إلى الجنوب، وتحتوي على حوالي خمس عشرة قرية ويبلغ عدد سكانها سبعة آلاف وثمانمائة نسمة. ويعتبر كل هذا حتى الآن واحة واحدة.

إلى الشمال الغربي من الخارجة تقع منطقة صغيرة تعرف باسم عين أم الدباديب، حيث توجد مساحة كبيرة من الشجيرات، مع بعض أشجار النخيل وأشجار السنط . هناك مساحة معينة من الأرض [311] تزرعها هنا عائلة من قرية خارجة، ولكنها لا تقيم هناك دائمًا. وعادة ما تعتبر واحة منفصلة.

في الجزء الشرقي من منخفض الفرافرة توجد منطقة، تبلغ مساحتها حوالي ستة عشر ميلاً في اثني عشر ميلاً، مغطاة بالشجيرات، ومن بينها بعض أشجار النخيل، والتي يبدو أنها مزروعة إلى حد ما. يُعرف هذا المكان باسم القيروان. لا توجد منازل دائمة أو سكان، على الرغم من أنه غالبًا ما يوجد هناك بدو يعيشون في خيام أو أكواخ من الحطب مع جمالهم. يحتوي المكان على العديد من الآبار، ويوصف أحيانًا بأنه واحة، على الرغم من أن السكان الأصليين يشيرون إليه عادةً باسم حطية .

في عين أمور، في منتصف الطريق بين الخارجة والداخلة، توجد بئر وبعض الآثار وقطعة من الأشجار الصغيرة ونخلة أو اثنتين. ومع ذلك، لا يوجد بها أي سكان على الإطلاق - حيث يستخدم البئر فقط المسافرون بين الخارجة والداخلة. وعادة ما يوصف هذا المكان بأنه حطية، رغم أنني سمعت حتى أنه يسمى واحة.

ومن أماكن مثل هذا يوجد تدرج منتظم من خلال بقع مغطاة بالشجيرات تحتوي على الماء، ولكن لا يوجد بها أشجار النخيل، ومناطق مغطاة بالشجيرات لا تحتوي على ماء، وبقع بسيطة من نصف دزينة من الشجيرات المتجمعة معًا في الصحراء، والتي يطلق عليها العرب اسم الطرق، إلى الأماكن التي تظل رطبة بدرجة كافية بعد إحدى زخات الصحراء النادرة للسماح لبضع شفرات متناثرة على نطاق واسع من العشب بالنمو، والتي يسميها البدو "الريدرز" .

إن من الصعب للغاية أن نرى أين ينبغي لنا أن نرسم الخط الفاصل. فالنظام الذي تبناه الجزائر لوصف أماكن مثل الخرجة وود غيره باعتبارها مجموعات من الواحات - أو أرخبيلات الواحات كما يطلق عليها أحياناً - يبدو أفضل من الخطة المصرية التي تلمح إلى هذه الأماكن باعتبارها واحة واحدة. ويبدو من المستحسن أن نقتصر على وصف المكان المزروع بالفعل، سواء كان مأهولاً بالسكان على نحو مستمر أم لا، وأن نستخدم كلمة " حطية " للإشارة إلى "البقع الخصبة" في الصحراء حيث لا توجد زراعة. ولكن الخط الفاصل بين الحطية والواحات المهجورة لن يكون واضحاً للغاية.

كانت الواحات الغربية في مصر معروفة لدى القدماء، لسبب غير واضح للغاية، باسم "الجزر المباركة" - وهو اسم يبدو للزائر المعاصر وكأنه ساخر إلى حد ما.

ويقال عادة إنها تقع في منخفضات الهضبة. وفيما يتعلق بالباهاريا فإن هذا وصف دقيق، لأنها محاطة بالكامل تقريبًا بالمنحدرات، ولكن في حالة الفرافرة والخارجة فإن منحدرات الهضبة الجيرية لا تحاصرها إلا جزئيًا، ومن الأصح القول إنها تقع عند قاعدتها. وعلى نفس المنوال، تقع الداخلة عند السفح الجنوبي للهضبة الطباشيرية التي

تشكل أرضية واحة الفرافرة، وترتفع تدريجياً في المستوى كلما تقدمت جنوبًا من قصر الفرافرة، حتى تنهار في الجرف الضخم الذي يحد واحة الداخلة من الشمال والجنوب [312] أما واحة عين أم الدباديب الصغيرة، الواقعة إلى الغرب قليلاً من الخارجة، فهي محاطة أيضاً من الشمال بالجرف. وتحيط بالخارجة من الشرق والشمال والشمال الغربي جرف وتلال. ويبلغ ارتفاع الجرف في بعض الأماكن على الجانب الشرقي نحو ثمانمائة قدم، ولكنه أقل بكثير عند الطرف الشمالي.

ابتداءً من الشمال، على الجانب الغربي من الواحة، تمتد كتلة مختلطة من التلال والمنحدرات والكثبان الرملية لحوالي ثلاثين ميلاً باتجاه الجنوب لتشكل حدودها. وإلى الجنوب من هذا، يمتد حزام طويل من الكثبان الرملية من الشمال والجنوب بالتوازي مع المنحدر الشرقي، ويقطع الواحة عن الصحراء المفتوحة الواقعة إلى الغرب. وعند نهايتها الجنوبية، تندمج الواحة في الصحراء دون أي حدود واضحة المعالم.

إن أي شخص يقف على المنحدر الشرقي، وينظر إلى أسفل نحو أرضية الواحة، سيبدو منبسطاً وخالياً من المعالم تقريباً مثل سطح البحر عندما ينظر إليه من قمة جرف مرتفع. وترتفع تلّتان ضخمتان مسطحتا القمة فجأة من أرضية الواحة المستوية، بالقرب من الجرف الشرقي، إلى ارتفاع الهضبة فوقها؛ وهما معروفتان باسم جبل غنيمة وجبل أم الغنيم، وتبعدان عن الطرف الشمالي للواحة بحوالي خمسة وثلاثين وأربعين ميلاً على التوالي. ويواجههما تقريباً على الجانب الغربي جبل تعارف وجبل تير. وباستثناء هذه التلال الأربعة والذروة المخروطية الأصغر المعروفة باسم قرن الجنة والتي تبرز من مركز أرضية الواحة، لا توجد ارتفاعات ملحوظة تكسر رتابة مستوى الواحة.

إن مساحة الأرض المزروعة صغيرة للغاية مقارنة بالمساحة الكلية للواحة. ويقدر الدكتور بول أن هذه المساحة تمتد إلى ما يزيد كثيراً على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع، ولكنه يذكر أن تسعة عشر كيلومتراً مربعاً فقط من هذه المساحة هي التي تروى. وتتكون الأجزاء المزروعة في بعض الحالات من بقع لا يزيد حجمها عن فدان أو فدانين. ولا توجد إلا في جوار قرية خارجة مساحة كبيرة حقاً من الزراعة المستمرة. وهنا، يشكل شريط طويل، يبلغ طوله نحو أربعة أميال من الشمال إلى الجنوب، ونحو ثلثي الميل من الشرق إلى الغرب، ويغطي في المجمل نحو ألف فدان، بستاناً متواصلاً عملياً من أشجار النخيل والأراضي المزروعة. ويمكن اعتبار حجم الرقعة المزروعة المتوسطة نحو خمسة وستين إلى سبعين فداناً. وعادة ما تعرف كل قطعة أرض باسم البئر التي ترويها، أو في الحالات التي تحتوي على أكثر من بئر، باسم البئر الرئيسية.

"يتمُّ الريُّ بالكاملِ بواسطةِ الآبارِ الارتوازيةِ، التي يعودُ تاريخُ بعضِها إلى فترةٍ سحيقةٍ (أو عهدٍ بعيدٍ)، ويقولُ السكانُ المحليونَ إنها كانت من عملِ الرومانْ."

«هذه الآبار والآبار الحديثة المحلية، والتي تم تصميمها على غرارها، يتم حفرها بواسطة أجهزة حفر بدائية ومبطنة بأنابيب من خشب الأكاسيا. وعادة ما تكون جميعها مملوكة لعدة أشخاص. [313] إن أصحاب البئر هم الذين يوزعون تدفق المياه بينهم بطرق ربما ترجع إلى ماض بعيد. فعندما يزرع محصول مثل الأرز، ويتطلب ريه باستمرار، يتم تقسيم غلة المياه بواسطة ما يسمى بمقياس الأرز. ويتألف هذا المقياس من لوح به سلسلة من الشقوق في حافته العلوية، يتدفق الماء من خلالها، ويحق لكل مالك الحصول على الكمية التي تمر عبر الشق، الذي يتوافق عرضه مع نسبة الغلة من البئر التي يحق له الحصول عليها. وعندما يتطلب الأمر الري المتقطع، يسحب أصحاب البئر مياههم بالتناوب وفقًا لنظام معقد للغاية. ويتم تحديد اللحظة التي يبدأ فيها كل منهم في أخذ حصته من خلال طريقة بارعة ومعقدة للغاية لإخبار الوقت، حيث يحول أحد الرجال نفسه إلى نوع من المزولة البشرية.

تعد أسطح المنازل ملاذًا مفضلًا للنساء. ولضمان الخصوصية، يتم غرس صف من أوراق النخيل في أعلى الجدار. (ص 314).

بالإضافة إلى قرية الخارجة، التي تعد المركز الرئيسي في الواحة، تقع بضع قرى أخرى ونجوع متناثرة على فترات بالقرب من الآبار المحفورة داخل منطقة الواحة.

تنقسم هذه القرى إلى مجموعتين رئيسيتين؛ الرئيسية منها، مرتبةً من الشمال إلى الجنوب، هي: المحاريق (Meheriq)، الخارجة (Kharga)، جناح (Gennah)، وبولاق (Bulaq) في المجموعة الشمالية. وإلى الجنوب من هذه، تمتد منطقة صحراوية لمسيرة يوم طويل، لا توجد بها قرى وبها بئران أو ثلاثة آبار منعزلة فقط. بعد ذلك، يتم الوصول إلى جاجة (Jaja) والدخاخين (Dakhakhin)، وهما أقصى مستوطنتين شماليتين للمجموعة الجنوبية. وتقع جاجة إلى الشرق من الدخاخين وتبعد عنها ميلين أو ثلاثة أميال. وعلى بعد نحو عشرة أميال أخرى جنوبًا تقع باريس (Beris) — القرية الرئيسية في المجموعة الجنوبية، تليها مقص بحري (Maks Bahry - مقص الشمالية)، ومقص قبلي (Maks Qibly - مقص الجنوبية)؛ وعلى بعد خمسة أميال إلى الشرق من الأخيرة (مقص قبلي) تقع قرية دوش (Dush). وهذه تشكل المجموعة الجنوبية.

قرية الخارجة، رغم أنها محاطة ببعض مزارع النخيل الجميلة، هي مكان بائس وقذر. وكما هو الحال غالبًا في مدن الصحراء، تمر الشوارع في أماكن كثيرة عبر أنفاق، تتشكل



شارع في الخارجة.

من الطوابق العلوية للمنازل المبنية بشكل بارز فوق الطرقات. إلا أنه في الخارجة، تصل هذه السمة الغريبة إلى مدى غير مألوف — فالعديد من الأنفاق منخفضة جدًا بحيث يستحيل الوقوف فيها بقامة منتصبة، وطويلة لدرجة أنها تكون مظلمة تمامًا. يقول السكان المحليون إنها بُنيت بهذه الطريقة لأسباب دفاعية، لكي يفقد العدو الذي يتمكن من دخول البلدة طريقه في الشوارع المظلمة."

كانت جميع المنازل، على حد ما رأيته، مبنية من الطوب الطيني المجفف بالشمس، وكانت الأسقف مدعومة بعوارض من جذوع النخيل. ومع ذلك، كانت غريبة في أن الحاجز المحيط بسطح المنزل المسطح يعلوه نوع من السياج المصنوع من سعف النخيل مثبت في أعلى الجدار، من أجل رفعه على ما يبدو وجعل سطح المنزل أكثر خصوصية، دون التسبب في أي ضرر.[314] في بعض المنازل الأفضل، كان الجزء الداخلي من هذا السياج مطلياً بالطين لتشكيل نوع من الطين والطين، وغالبًا ما كانت تُقطع من خلاله نوافذ صغيرة حتى يتمكن السكان من النظر من خلالها دون أن يُرى أنفسهم. عندما تم بناء منزل بجوار شارع مفتوح، كانت الشرفات المدعومة بامتداد العوارض الخشبية تبرز أحيانًا فوق الطريق وتحاط بالسياج المعتاد، للسماح لنزلاء المنزل بالحصول على إطلالة على الطريق من أعلى إلى أسفل.

وقد بُذِلت هنا وهناك محاولات لتزيين الجزء الخارجي من المنزل بالطلاء الخشن حول النوافذ ـ وكان هذا عادة يتخذ شكل خطوط مشعة من الطلاء الأبيض. وكان لأحد المنازل قوس على شكل زهرة ثلاثية الفصوص فوق المدخل تعلوه نافذة بارزة، وكانت واجهتها مثقوبة بعدد من الثقوب المربعة الصغيرة ـ على ما يبدو تقليداً للشبكية أو العمل الشبكي في مدن وادي النيل.

يتم تصنيع كمية كبيرة من الخشب المسحوق في الخارجة على شكل حقائب للحمير وحصائر لتغطية الأرض. يتم تصنيع الأخيرة على نول بدائي ممدود على الأرض. لا يتم استخدام المكوك، حيث يتم نسج الخشب المسحوق عبر الخيوط التي تشكل قاعدة الحصيرة يدويًا.

تعد واحة الخارجة أغنى بالبقايا الأثرية من أي واحة أخرى. ومن الواضح أن المكان كان في العصور المبكرة أكثر أهمية مما هو عليه الآن، وربما كان يستوعب عددًا أكبر من السكان.

من المعروف أنها كانت مأهولة بالسكان في فترة بعيدة جدًا، حتى في عهد تحتمس الثالث (1449-1503 قبل الميلاد). ويبدو أنها كانت تُستخدم في الأيام الأولى

كمكان للنفي بشكل أساسي. ويبدو أن هذا الاستخدام كان يُستخدم كثيرًا، ولا يزال مستمراً حتى يومنا هذا. في عام 435 م، نُفي الأسقف نسطور إلى الخارجة بسبب آرائه الثورية. وهنا أسس مستعمرة قبطية. ولا تزال مقبرة مسيحية كبيرة في نضورة بالقرب من قرية الخارجة، والعديد من الأديرة الطينية، التي بُنيت في الغالب على شكل قلاع، من الواضح أنها كانت دفاعًا ضد أعدائهم، محفوظة بشكل جيد للغاية كتذكارات من نفيه.

وتوجد آثار مدن وقرى قديمة مبنية من الطين في عدة أماكن، أبرزها مدينة هيبس الواقعة إلى الشمال من قرية خارجة، في جوار المعبد الذي يحمل الاسم نفسه، ومدينة تشونيميريس الواقعة بالقرب من معبد قصر زيان. كما توجد بقايا مدينة كيسيس القديمة الواقعة بالقرب من المعبد الذي يحمل الاسم نفسه، والذي يعرفه السكان المحليون الآن باسم قصر دوش.

قام الرومان أثناء احتلالهم للواحة ببناء العديد من الحصون والقلاع، والتي تشبه واجهاتها الخارجية بشكل مذهل القلاع النورماندية القديمة التي توجد في إنجلترا.

وأهم هذه الحصون، وهو مبنى معروف لدى السكان الأصليين لسبب ما باسم «إد دير» (الدير)، يقع في الشمال. [315] جزء من الواحة بالقرب من سفح جبل غنيمة الشمالي. وهو يتألف من حظيرة مساحتها نحو ستين ياردة مربعة، محاطة بجدران من الطوب اللبن يبلغ سمكها عشرة أقدام وارتفاعها نحو ثلاثين قدمًا، مع برج دائري في كل زاوية وبرجين نصف دائريين يبرزان من كل جانب من جوانبها. ومن الواضح أن هذا الحصن كان مخصصًا لحراسة مدخل الواحة أسفل الوادي، الذي يمر عبره خط السكة الحديدية الآن. والحصن في الوقت الحاضر مجرد حظيرة، ولم يتبق أي أثر لأي مباني في داخله.

في كل مكان في الواحة، يمكنك أن ترى مباني صغيرة من الطوب اللبن، جدرانها الداخلية مزينة بفتحات صغيرة مكعبة الشكل يبلغ عرض كل منها ثماني بوصات في كل اتجاه. وعادة ما توجد هذه المباني على مسافة ما من أي قرية أو بقايا قائمة. ويُعتقد عمومًا أنها كانت أبراج حمام؛ ولكن قيل أيضًا إنها كانت مخصصة لاحتواء جرار الرماد.

ولكن أكثر الآثار إثارة للاهتمام التي يمكن العثور عليها في الواحة هي معبد هيبس المصنوع من الحجر الرملي، والذي يقع على مسافة قصيرة إلى الشمال من قرية الخارجة. وهذا المعبد أو المبنى العام الوحيد الذي له أهمية في مصر والذي يعود تاريخه إلى عهد

الأسرة الفارسية، بدأه داريوس الأول، وأكمله داريوس الثاني في عام 424 قبل الميلاد، كما أظهر بروجش من النقوش الهيروغليفية.

على بعد ميل تقريبًا إلى الجنوب الشرقي من معبد هيبيس، توجد أطلال مبنى صغير من الحجر الرملي، يعرف باسم معبد نادرا، على أرض مرتفعة بشكل واضح.

على بعد ميل أو ميلين إلى الجنوب من التل المعروف باسم «قرن الجنّة» يوجد معبد صغير يعرف باسم «قصر الجهدة» - وهو الاسم الذي ينطق عادةً محليًا باسم «وحدة». يتكون المعبد من مبنى صغير من الحجر الرملي، يبلغ طوله حوالي أحد عشر ياردة من الشمال إلى الجنوب، وعشرين ياردة من الشرق إلى الغرب.

يقع المعبد نفسه داخل ساحة محاطة بالطوب الطيني، ربما يعود تاريخه إلى وقت لاحق، ويتم الدخول إليه من الجانب الشرقي عبر بوابة حجرية.

وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب يقع المعبد الصغير المعروف باسم قصر زيان، وهو مبنى أصغر كثيرًا من قصر قودة. ويبدو أنه كان محاطًا بجدار من الطوب اللبن، مما شكل سورًا مليئًا بالمباني الصغيرة المبنية من الطين.

ولم أقم بزيارة معبد كيسيس، أو قصر دوش، كما يسميه أهل المنطقة، والذي يقع في أقصى جنوب الواحة. وللحصول على وصف لهذا المعبد، وللحصول على وصف أكثر شمولاً للآثار القديمة في هذه الواحة، يرجى الرجوع إلى أعمال شفاينفورث، و بروجش، وهوسكينز، والدكتور جون بول.

تقع عين أم الدباديب، الواحة الصغيرة التي ذكرناها آنفاً، على بعد حوالي اثنين وعشرين ميلاً إلى الغرب.

أبعد إلى الغرب، الواحة التالية - إذا كان من الممكن تسميتها كذلك - هي واحة عين أمور، والتي تم ذكرها بالفعل. [316] تقع على بعد حوالي أربعة وعشرين ميلاً غرب جنوب غرب عين أم الدباديب، بالقرب من قمة جرف شديد الانحدار يواجه الحدود الشمالية لجزء من هضبة الحجر الجيري المنفصلة التي تمت الإشارة إليها بالفعل.

تقع عين أمور على ارتفاع 1680 قدماً فوق سطح البحر. ووجود بئر على هذا الارتفاع الشاهق، في منطقة قاحلة للغاية مثل الصحراء الليبية، هو أمر طبيعي. ولكن وجودها يمكن تفسيره بسهولة: فقمة الهضبة مغطاة بطبقة من الحجر الجيري، وتحتها طبقة من الطين. ولا يجهل أهل المنطقة هطول الأمطار الغزيرة حتى في هذه الصحراء، وفي بعض الأحيان، وفقاً لأهل المنطقة، هناك هطول غزير منتظم. ومن المؤكد أن بعض

المياه التي تسقط على سطح الحجر الجيري المسطح تجد طريقها من خلاله من خلال الشقوق العديدة التي يمكن رؤيتها على سطحه. ويتوقف تقدم هذه المياه نحو الأسفل عند وصولها إلى الطين، الذي لا يمكنها اختراقه إلا ببطء شديد. وحيث لا تكون الطبقات أفقية ، فإن المياه تتدفق على طول السطح العلوي للطين، محمياً من التبخر بواسطة الحجر الجيري الذي يعلوها، حتى تصل إلى السطح عند حافة الهضبة، على مسافة صغيرة أسفل قمة الجرف.

إن الكلمة العربية «عين» تعني بالمعنى الدقيق للكلمة بئراً جارياً أو نبعاً. أما البئر في «عين أمور» فلم تكن تتدفق منها المياه على الإطلاق، على حد علمي. فهي تتألف ببساطة من بئر عمودي عادي، يقع الماء فيه على عمق ثمانية أقدام تحت مستوى الأرض، ويمكن الوصول إليه عن طريق مسار مائل أو درج يؤدي إليه من الجانب الشرقي.

تقع البئر بالقرب من سفح شجرة نخيل واحدة. ويمكن رؤية كمية معينة من شجيرات النخيل البرية بالقرب من البئر، وعلى مسافة قصيرة توجد بقعة من القصب الأخضر، حيث قيل لي إنه كان يوجد بئر آخر سابقًا، ولكن هذا البئر كان ممتلئًا تمامًا - ربما بسبب الغبار الذي تحمله الرياح - وقت زيارتي. كانت المياه في البئر قذرة ومريرة إلى حد ما، ولكنها صالحة للشرب بخلاف ذلك.

ربما يمكن العثور على الماء في أماكن أخرى في الجوار، حيث يوجد شريط طويل من نبات شوك الجمل الأخضر -الأرغول- يمتد أفقيًا على طول الجرف أسفل الهضبة، عند مستوى البئر، الذي يقع بالقرب من نهايته الغربية.

لا بد أن عين أمور كانت ذات أهمية في الماضي. وعلى مقربة من البئر توجد أطلال معبد حجري صغير لا يزال يظهر عليه آثار الطلاء، ويقع، مثل العديد من المعابد في واحة الخارجة، في وسط سور محاط بجدار من الطوب المجفف بالشمس، ربما كان الغرض منه الدفاع. ويقع البئر داخل هذا السور ـ الذي لم يبق منه الآن إلا القليل.

تقع واحة الداخلة على بعد أربعين ميلاً غرب عين أمور. ومثلها كمثل واحة الخارجة، فهي في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الواحات، بينها مساحات صحراوية. [317] إنهم ـ أو ربما يكون من الأصح أن نقول مجموعتين، لأن منطقة بلات-تينيدا على جانبها الشرقي تختلف تمام الاختلاف عن بقية الواحة، التي تفصلها عنها عدة أميال من الصحراء الخالية من الماء. وبالتالي فإن سكان بلات وتينيدا من نوع مختلف قليلاً عن سكان بقية الواحة، ورغم أنهم لا يبعدون عنهم سوى بضعة أميال، فإنهم يتحدثون لهجة مختلفة إلى حد ما ـ حيث يتم نطق الحرف K = Q الصلب بقوة في بلات وفي

المجموعة الشرقية من الواحات، بينما يتم نطقه بشكل غير واضح في الجزء الغربي ويتم نطقه كما هو الحال في القاهرة.

وتختلف واحة الداخلة عن واحة الخارجة إلى حد ما في أن القرى أقل تشتتًا، وأكثر ازدحامًا. كما أنها أكثر خصوبة بسبب توافر المياه فيها. وتقع الداخلة أيضًا في موقع أفضل من الخارجة، حيث تقع عند سفح جرف كبير من الشرق والغرب، يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة أو أربعمائة قدم، مما يحميها إلى حد كبير من الرياح الشمالية السائدة. ومن ناحية أخرى، تمتد الخارجة من الشمال إلى الجنوب، مما يؤدي إلى هبوب عواصف الصحراء العاتية من الشمال بكامل قوتها. وتمتد الداخلة من الشرق إلى الغرب - مع امتداد نحو الشمال عند نهايتها الغربية، حيث يشكل الجرف المحمي خليجًا عميقًا نحو الشمال الشرقي، يبلغ طوله حوالي ستة أميال من الشمال إلى الجنوب. وبالتالي فإن الجزء الجنوبي الغربي من الواحة، حيث تقع مدينة موط العاصمة، أكثر تعرضًا للرياح السائدة.

تقع موط نفسها - آخر مكان إلى الجنوب الغربي - على بعد حوالي ثمانية عشر ميلاً من المنحدر، في حين تقع معظم القرى الأخرى على بعد خمسة أو ستة أميال من الجرف المحمي، والذي يشكل حدود الواحة على جانبيها الشمالي والشرقي. في الجنوب، تندمج الواحة تدريجياً في الصحراء الأعلى خلفها، بينما يحيط بها إلى الغرب حقل ضخم من الكثبان الرملية.

تضم المجموعة الشرقية من الواحات في الداخلة، بالإضافة إلى قريتي تنيدة وبلاط، عدداً من العزبات (المزارع أو القرى)، تتكون كل منها من بئر أو بئرين مع مزارع النخيل المحيطة بها وزراعتها وعدد قليل من المنازل. وعادة ما تكون العزبة بأكملها مملوكة لشخص واحد، أو على الأقل لعائلة واحدة.

بالإضافة إلى عدد من العزبات، تحتوي المجموعة الغربية على المدن والقرى الصغيرة التالية: سمنت، ومسرة، وموط، وهنداو، وقلمون، والجديدة، وموشيه، ورشيدة، وبودخلو، وقصر دخل - الأخير يقع في أقصى الشمال الغربي من المجموعة، بالقرب من مأوى المنحدر. تتنوع هذه القرى بشكل كبير في الحجم. قُدِّر عدد سكان قصر دخل، الأكبر، والعزبات التي تتبعها، في عام 1898 بنحو 3758 نسمة، مع 3428 فدانًا من الأراضي المزروعة و49758 شجرة نخيل. بودخلو، أصغر قرية، مع توابعها، كان عدد سكانها 583 نسمة، مع 893 فدانًا من الأراضي المزروعة و12302 نخلة.

[318] وبالإضافة إلى أشجار النخيل، تُزرع في الخارجة أعداد كبيرة من أشجار

الفاكهة الأخرى، مثل البرتقال واليوسفي والليمون والليمون الحلو والليمون الحامض والتين والتوت والموز والزيتون واللوز، وتزرع تحت ظلال أشجار النخيل. وتبلغ مساحة الأراضي المزروعة حوالي ربع مساحة الأراضي المزروعة بأشجار الفاكهة، وخاصة أشجار النخيل، أما المساحة الباقية فتُخصص للمحاصيل الحقلية، وخاصة القمح والشعير والأرز والبرسيم والخضروات. كما تُزرع أشجار فاكهة ومحاصيل حقلية مماثلة في الخارجة.

وتربى في الواحات الماعز والأغنام والحمير والأبقار وبعض الخيول، فضلاً عن الحمام والدواجن وبعض الأرانب وعدد كبير من الديوك الرومية. وتعتبر ماشية الواحات من السلالات المعروفة، وهي لا تختلف في مظهرها عن ماشية جزر القنال. أما الجاموس فإما قليل أو غير موجود. أما الجمال - باستثناء نحو ستة منها مملوكة للزوايا السنوسية (الأديرة) ويستخدمها الشيوخ في زياراتهم لمقارهم في الكفرة - فلا يتم الاحتفاظ بها بشكل دائم في واحات الداخلة، وذلك لأن الذبابة تظهر في الربيع وتكون لدغتها قاتلة لهذه الحيوانات كما تكون لدغة ذبابة التسي تسي قاتلة للخيول في أجزاء أخرى من أفريقيا. ولكن خلال أشهر الشتاء يرسل البدو في وادي النيل قطعاناً كبيرة من الجمال إلى المراعي في المناطق المغطاة بالشجيرات الواقعة على الجانبين الشرقي والجنوبي من الواحة؛ ولكن يتم إزالة هذه القطعان قبل ظهور ذبابة الجمال في الربيع.

يعملُ جميعُ سكانِ الواحةِ تقريباً في زراعةِ الأرض. والصناعاتُ الوحيدةُ التي يمكنُ للواحةِ أن تتباهى (أو تفخر) بها هي صناعةُ القليلِ من الفخارِ الخشنِ وبعضِ السلال. كما تقومُ النساءُ أيضاً بغزلِ كمياتٍ صغيرةٍ من الصوفِ بواسطةِ مغزلٍ يدويٍ بدائيٍ (أو مِغزَلٍ وعُصَيّة بدائيين)، ويُطرِّزنَ أثوابَهنَّ بالخيوطِ التي يُنتجنَها. وتُستخرَجُ أيضاً كميةٌ صغيرةٌ من الزيتِ من الزيتونِ، وأعتقدُ أنه يُصدَّرُ أحيانًا إلى وادي النيل.

تشبه المباني والقرى إلى حد كبيرٍ تلك الموجودة في واحة الخارجة، على الرغم من أن المنازل غالبًا ما تكون أكبر حجمًا بسبب طبيعة السكان الأكثر ثراءً؛ ولكن، كما هو الحال في الخارجة، فإن مساكن السكان الأصليين الأكثر فقراً ليست أفضل من الأكواخ. تحيط بالعديد من القرى سلسلةٌ من الساحات الصغيرة المحاطة بالأسوار والتي يتم نقل الماشية إليها ليلاً، والتي تلعب دورًا في المباني الزراعية في بلدان أخرى بشكل عام.

وفي بعض القرى - ولا سيما قرى موشية والجديدة والقلمون، التي تقع على الجانب الغربي من الواحة، على حافة حزام الكثبان الرملية - تتعدى التلال الرملية والرمال العائمة على الزراعة، وتدفن بساتين النخيل، وتغمر الآبار، وتسبب قدراً هائلاً من الضرر.

على الرغم من أن المنخفض الواقع إلى الشمال من الداخلة، والذي تقع فيه واحة الفرافرة، أكبر بكثير من المنخفضات التي تقع فيها الخارجة والداخلة والواحات البحرية، فإن الفرافرة مكان صغير بائس يحتوي فقط على حوالي عشرين بئرًا في المجموع، مع وجود واحتين فقط بشكل دائم. [319] من بين هذه القرى، يبلغ عدد سكان قصر الفرافرة، وهو الأكبر، حوالي 550 نسمة فقط، بينما يحتوي القصر الأصغر -عين الشيخ مرزق- على منزل أو منزلين فقط وزاوية سنوسية صغيرة، وربما لا يتجاوز عدد السكان عشرين نسمة. في وقت زيارتي، كان جميع سكان هذه الواحة تقريباً منتمين إلى السنوسية - وكانوا في وضع غير سار للغاية.

يقال إن واحة البحرية، التي تقع إلى الشمال، تشبه واحة الخارجة والداخلة من حيث طبيعتها، ولكنني لم أزرها. وهي غريبة بسبب العدد الكبير من التلال الصخرية الصغيرة المعزولة التي يمكن رؤيتها متناثرة على أرضية المنخفض. كما لم أزر واحة سيوة، التي تقع إلى الشمال في وادي الفرادى. ومع ذلك، فقد تم وصفها بشكل متكرر.

ملحوظة:

ومنذ كتابة هذا الملحق، زار حسنين بك وحدد موقعي أركنو والعوينات (العوينات). ويبدو أن معلوماتي عن العوينات كانت دقيقة إلى حد ما. فقد تم التحقق من البئر عند قاعدة الجرف، والممر المؤدي إليه، والواحة المرتفعة أعلاه، والنباتات والكثبان الرملية في المنطقة، وحتى الأغنام البربرية. وكان الموقع الذي أعطيته أيضًا من معلوماتي الأصلية صحيحًا إلى حد معقول، حيث كان على بعد حوالي واحد وعشرين ميلاً فقط، مقارنة بخطأ حوالي خمسة وعشرين ميلاً في موقع الكفرة كما حددته بعثة رولفس من خلال الملاحظات الفلكية.

ولكن يبدو أن تقديري لطبيعة جبل العوينات ـ تلك الأرض المرتفعة فوق البئر كان خاطئاً. ولكنني أعتقد أن هذا يرجع إلى سوء فهم من جانبي وليس إلى أي خطأ من جانب المخبر. فكلمة «جبل» ـ المصطلح الذي استخدمه لوصف الأرض المرتفعة في العوينات ـ تعني حرفياً الجبل، ولكنها مصطلح يستخدم في الصحراء الغربية في مصر للإشارة إلى الهضاب المرتفعة المسطحة التي تتكون منها الصحراء في ذلك الجزء بشكل أساسي. وتقع جميع الواحات في هذه المنطقة بالقرب من سفح المنحدرات الشديدة الانحدار التي تحد هذه الهضاب؛ ولذلك، وبما أنه ذكر جرفاً بالقرب من البئر في العوينات، فقد افترضت أن «الجبل» له نفس الطابع الموجود في جوار الواحات

المصرية.

وقد حدد حسنين بك الحد الغربي لهذه الأرض المرتفعة وكذلك حدودها الشمالية والجنوبية، ولكن برغم أنه أجرى مسحًا لحوالي خمسة وعشرين ميلاً إلى الشرق من البئر، إلا أنه لم يتمكن من تحديد امتدادها الشرقي. وبقدر ما يمكن الحكم عليه من وصفه وصوره، يبدو أن هذه الأرض المرتفعة لها نفس طبيعة القمة المسطحة مثل «الجبال» حول الواحات في غرب مصر، ولكن بقدر ما هو معروف حاليًا فإن حدودها المحدودة [320] إن المساحة تجعلها تتوافق أكثر مع تقدير العقيد تيلهو لطبيعتها ككتلة صخرية منفصلة أكثر من كونها هضبة بالمعنى الدقيق للكلمة.

ومن المأمول أن يعود المسافرون في المستقبل لزيارة هذه المنطقة قبل فترة طويلة وتحديد الحد الشرقي لجبل العوينات. وقد وردت إلي تقارير تفيد بوجود مرتفعات مماثلة تقع إلى الشمال من «الواحة المصرية»، على بعد حوالي 130 ميلاً إلى الشرق من العوينات، ومن الممكن، إذا اعتمدنا على هذه المعلومات، أن يكون هذان المكانان متصلين ببعض السمات الجبلية، والتي تشكل المرتفعات في العوينات الحد الغربي لها.

إن رسم الخرائط الدقيقة للعوينات، مع إمداداتها الدائمة من المياه، بواسطة حسنين بك، من شأنه أن يكون بمثابة مساعدة كبيرة للمسافرين في المستقبل، حيث أنه يوفر قاعدة مفيدة للغاية لمزيد من الاستكشاف.

ولكن الصعوبة تكمن في الوصول إلى هناك. إن الطريق القديم الذي قمت بمسحه إلى الجنوب الغربي من واحة الداخلة لمسافة 200 ميل يؤدي بلا شك إلى العوينات؛ ولكن من المشكوك فيه للغاية أن يكون ذلك ممكنًا على ظهور الجمال في الوقت الحاضر. تبلغ المسافة من الداخلة إلى العوينات في خط مستقيم حوالي 375 ميلاً، أو ما لا يقل عن خمسة عشر يومًا من السفر الشاق بالقوافل. إن مجموعة صغيرة من المسافرين ذوي الأثقال الجيدة والذين يسافرون بحمولة خفيفة، حتى في أفضل أوقات العام، سيجدون هذه الرحلة شاقة للغاية، دون استخدام نوع من المستودعات أو أنظمة التتابع.

ربما كان هذا الطريق مهجوراً منذ قرون، حيث اختفت آثاره تماماً في أغلب الأماكن. ولكن من حجمه في الأماكن القليلة المحمية حيث لا يزال مرئياً، فمن الواضح أنه كان في وقت ما أحد طرق القوافل الرئيسية في الصحراء. وعلاوة على ذلك، كانت هناك دلائل عليه تشير إلى أنه كان يستخدم على نطاق واسع من قبل تجار الرقيق القدامى.

وأعتقد أنه من الممكن الافتراض بكل تأكيد أنه لا يمكن أن يوجد طريق رئيسي

من هذا النوع يحتوي على مساحة خالية من المياه بطول 375 ميلاً - وخاصة الطريق الذي أجبرت أعداد كبيرة من العبيد على السفر عليه، حيث كان إمداد المياه في هذه القوافل دائمًا مشكلة خطيرة للغاية.

وبالتالي، فإننا مضطرون إلى استنتاج أن بئرًا وسيطة، أو واحة، كانت موجودة ذات يوم بين الداخلة والعوينات. ربما كانت مجرد بئر ذات عمود عمودي عادي، وقد تم رملها ومحوها منذ فترة طويلة؛ ولكن ربما كانت الواحة التي تحتوي على أشجار الزيتون، والتي كانت تتغذى عليها طيور النخيل التي وجدتها المهاجرة من هذا الاتجاه إلى الداخلة. الاتجاه الذي أتت منه، أي 217 درجة ماغ، [25] اكتشفت بعد ذلك أن الاتجاه الذي يتخذه جبل عبد الله من موط هو نفس الاتجاه الذي يتخذه الطريق القديم الذي سلكاه للوصول إليه. خريطة جاستس بيرثِيس بمقياس 1/4.000.000، التي نُشرت في عام 1892، وكذلك خريطة [321] تظهر خريطة 1/2.000.000، التي نُقحت في عام 1899 ونشرتها دائرة الجغرافيا الفرنسية في الجيش، بئرًا أو واحة مجهولة الاسم، بجوار تلة شديدة الانحدار وواحة أخرى إلى الشرق منها. تصف الخريطة الألمانية الواحة بأنها غير مأهولة بالسكان، بينما تنص الخريطة الفرنسية على أنها مأهولة بالسكان. وقد اقترح البعض أن أركنو تمثل البئر بجوار التلة والعوينات تمثل الواحة الواقعة إلى الشرق، ولا شك أن منطقة أركنو-العوينات هذه هي المنطقة التي يشيرون إليها. ولكن لا يمكن لأركنو ولا العوينات أن تدعيا أنهما واحات بالمعنى الدقيق للكلمة - يمكن وصفهما بدقة أكبر على أنهما بئران: لذا يبدو أن إحداهما - ربما العوينات - تمثل البئر وأن الواحة لم يتم العثور عليها بعد. ومن المرجح جدًا أن فشل إمدادات المياه في هذه المرحلة أدى إلى هجر الطريق. لا شك أن الطريق الذي يمتد من وسط السودان، كما هو الحال الآن، نحو القاهرة والمدن الغنية الأخرى في الجزء الشمالي من مصر، حيث يستطيع تجار الرقيق أن يجدوا أفضل سوق ممكنة لبضائعهم، كان ملائماً للغاية إلى الحد الذي جعل من الممكن التخلي عنه دون سبب وجيه للغاية. وإذا أمكن إصلاح هذا الطريق مرة أخرى من خلال استعادة إمدادات المياه هذه، فقد يثبت أنه طريق ذو قيمة كبيرة.

ومن خلال ما رأيته من ذلك الجزء من الصحراء، أشعر باليقين من أن هذه الواحة المتوسطة، أو البئر، ليست أقرب إلى الداخلة من جبل عبد الله ـ أبعد نقطة لي على طول الطريق ـ ولا يمكن أن تكون أبعد من ذلك بكثير. ومن المؤكد أنها ليست في الجوار المباشر لذلك التل، ولكن لا أعتقد أنها يمكن أن تكون أبعد من ذلك بأكثر من

خمسين أو خمسة وسبعين ميلاً في الخارج. وربما تقع إلى الشرق من الخط المباشر الذي يربط التل بالعوينات، حيث يبدو أن الطريق يتجه إلى ذلك الاتجاه.

ولكن يبدو أن الجانب الأكثر وعدًا للوصول إلى العوينات هو من الشرق، باستخدام بير النطرون أو ليجيا أو سليمة أو الطرفاوي كنقطة انطلاق. وقد استقيت معلوماتي عن ميرجا من عدة مخبرين اتفقوا جميعًا - باستثناء واحد - على المسافة والاتجاهات من بير النطرون وليجيا، لذا، بافتراض أن هذين المكانين يقعان بشكل صحيح على الخريطة، فمن غير المرجح أن يكون موقع ميرجا بعيدًا جدًا عن الخطأ. وتشكل «الواحة المصرية» - إذا كانت موجودة - نقطة انطلاق أفضل. وبافتراض وجودها، فلن تكون هناك صعوبة في اكتشافها، حيث لن يكون من الضروري سوى تتبع خط الكثبان الرملية حتى يتم رؤيتها. [322]»

الملحق الثاني: الحشرات التي تم جمعها في الصحراء الليبية

تم تقديم مجموعات الحشرات التي تم جمعها خلال أول موسمين قضيتهما في الصحراء الليبية إلى متحف التاريخ الطبيعي في ساوث كنسينغتون، والذي قام بدوره بكل لطف بـ"تسمية" العينات. ولكن لسوء الحظ، تم توزيعها بين الأقسام المختلفة للمتحف قبل تحديد هويتها، وقيل لي إن العينات لا يمكن تتبعها الآن. ومن المؤسف أن أي مجموعات أخرى لم يتم جمعها في أي مكان بالقرب من الأجزاء التي جاءت منها، وكان من المثير للاهتمام أن نرى إلى أي مدى أثر تأثير الرياح الشمالية السائدة بقوة في الصحراء على توزيع الأنواع المختلفة.

القائمة الواردة أدناه هي قائمة الحشرات التي جمعتها في موسمي الأخير. ومن المؤسف أن الظروف التي تمت فيها الرحلة حالت دون الحصول على العديد من العينات من الأجزاء الأكثر مركزية من الصحراء.

إن أغلبية تلك التي ذكرتها هنا موجودة الآن في متحف تريغ، حيث قام اللورد روتشيلد بتعريفي بها بكل لطف. أما البقية فهي موجودة في متحف التاريخ الطبيعي، جنوب كنسينغتون، وأنا مدين لموظفي المتحف بالفضل في تسميتها.

ومع ذلك، فإن بعض العينات المرسلة إلى هذا المتحف لم يتم تضمينها في القائمة، وذلك بسبب "حالتها أو لأي سبب آخر" لم يكن من الممكن التعرف عليها.

I. تم التعرف عليه في ترينغ

أركتيدا

أوتيثيسا بولشيلا (لين.). الفرافرة، 20/4/12.

نوكتويدا

كلوريديا نوبيغيرا (هيرش). المعسكر التاسع، الصحراء الليبية، 5/4/12.

إوكسوا سبينيفيرا (هبن). القيروين حطية، الفرافرة، 12/4/12.

أغروتيس إبسيلون (روت). بو غرارة، 4/4/12.

سيرفيس لوري (Dup.). بو غرارة، 3/4/12.

أثيتيس فلافا (أوبرث). مائير، ديروط، مصر، 17/3/12.

[323] لافيغما إكسيكسوا (هبن.). المعسكر التاسع، 4/4/12؛ بو غرارة، 3-4/4/12؛ مائير، ديروط، مصر، 17/3/12.

فيتوميترا غاما (لين.). القيروين حطية، الفرافرة، 12/4/12. المعسكر الحادي عشر، الفرافرة، 4/6/2012؛ مائير، ديروط، مصر، 17/3/12.

التهاب الليوكانيا كابيلاريا (بانغ، هاس). القيروين حطية، الفرافرة، 10-12/4/12.

التهاب الجفن العلوي بنينوتاتا موسى (Stdgr.). كايروين هاتيا، الفرافرة، 4/12/12.

أنوميتا هيلغيرتي (روتش). كايروين هاتيا، الفرافرة، 4/12/12.

بيراليدا

أوماتوبتركس أوسيليا (هاو). المعسكر الثاني عشر، 17/4/12.

سوريا كينغي (روتشي). (تحديدًا نوفمبر) خمسة عشر ميلاً جنوب بير القيروان، 14/4/12.

سوريا فاريابيليس (روتش). مائير، ديروط، مصر، 17-23/3/12؛ المعسكر الثاني، 23/3/12.

سوريا ليبيا (روثش). (مواصفات نوفمبر) القيروين حطية، الفرافرة، 12/4/12.

Heterographis adustella (Rag.). كايروين هاتيا، الفرافرة، 4/12/12.

Heterographis verburii (Butl.). المعسكر الثاني، 23/3/12.

Heterographis samaritanella (Zell.). كايروين هاتيا، الفرافرة، 4/12/12.

Heterographis conversella (Led.). المعسكر الثاني، 23/3/12.

نوموفيلا نوكتويلا (شيف). المعسكر التاسع، الصحراء الليبية، 4/4/12؛ بو غرارة، 3-4/4/12؛ المعسكر الحادي عشر، الفرافرة، 4/6/2012؛ المعسكر الثاني عشر، 4/7/2012؛ المعسكر الرابع، 25/3/12؛ المعسكر الخامس، 26/3/12؛ مائير، ديروط، مصر، 17/3/12.

بيراوستيدا

كورنيفرونس قرحة (ليد). مائير، ديروط، مصر، 17/3/12؛ المعسكر الثاني، 23/3/12.

Noctuelia Floralis (Hmpsn.). المعسكر الثاني، 23/3/12.

II. تم التعرف عليه في جنوب كنسينغتون

تينينا

غيليشيادا

أبرويرما ميتريلا (Wlsm.). مائير، ديروط، مصر، 17-18/3/12؛ المعسكر الثاني، الصحراء الليبية، 23/3/12؛ نجيب الرومي، الصحراء الليبية، 4/4/12. سبع عينات. (اختبارات جيه إتش دورانت.)

Phthorimæa eremaula (ماير). طريق الداخلة، الصحراء الليبية، 26/3/12؛ بو غرارة، الصحراء الليبية، 2-4/4/12. ثلاث عينات. (اختبارات جيه إتش دورانت.)

[324] بلوتليدا

بلوتيلا ماكوليبينيس (Crt.). مائير، ديروط، مصر، 16-23/3/12؛ المعسكر الثاني، الصحراء الليبية، 23/3/12؛ طريق الداخلة، الصحراء الليبية، 26/3/12؛ بو غرارة، الصحراء الليبية، 3-4/4/12؛ نجيب الرومي، الصحراء الليبية، 4/4/12؛ منخفض الفرافرة، الصحراء الليبية، 4/6/2012؛ جنوب بئر القيروين يوم 10/4/12. ثلاثة وخمسون عينة. (اختبارات جيه إتش دورانت.)

تينيدا

Trichophaga abruptella (Wlstn.). Meir، ديروط، مصر، 17-18/3/12. عينتان. (اختبارات JH Durrant).

ذوات الجناحين

الفطريات الفطرية

Macrocera (?) nana (Macq.). Meir، ديروط، مصر، 12/3/23-20. ثلاث عينات. (اختبارات FW Edwards).

حشرات الكيرونوميديا

Chironomus tripartitus (كييف). مائير، ديروط، مصر، 12/3/23-17. عينتان. (اختبارات FW Edwards).

سيرفيدا

سيرفوس كورولا (Fabr.). بو غرارة، الصحراء الليبية، 12/4/4-2. عينتين. (اختبارات إي إي أوستن.)

مسكيدا

موسكا أناليس (ماك). مائير، ديروط، مصر، 12/3/20-16. أربع عينات. (اختبارات إي إي أوستن.)

ذباب انغستيفرون (ثومز). مير، ديروط، مصر، 12/3/18-16. عينتان. (اختبارات إي إي أوستن).

تاتشينيدا

ساركوفاغينيا

Disjunctis nuba (Wied.). بو غرارة، الصحراء الليبية، 12/4/4. عينة واحدة. (اختبارات إي إي أوستن.)

أنثوميدا

فانيا كانيكولاريس (L.). مائير، ديروط، مصر، 12/3/16. عينة واحدة. (اختبارات إي إي أوستن.)

تريبيتيدا

أوريليا ستيلاتا (فويسل). أبو حراج، الصحراء الليبية، 12/3/26. عينة واحدة. (اختبارات إي إي أوستن.)

[325] بلانيبينيا

كريسوبيدا

Chrysopa vulgaris (Schneider). Meir، Dirut، Egypt، 17/3/12؛ Dakhla Road، Libya Desert، ؛Camp II، Libya Desert، 23/3/12

Bu Gerara، Libya ؛Abu Harag، Libya Desert، 26/3/12 ؛26/3/12 خمسة .Negeb er Rumi، Libya Desert، 4/4/12 ؛Desert، 2-3/4/12 وعشرون عينة. (اختبارات H. Campion).

نصفيات الأجنحة

تخفيضات

ريدوفيوس باليس (كلوغ). مائير، ديروط، مصر، 18/3/12. عينة واحدة. (اختبارات سي جيه جاهان.)

غاسيدا

Chlorita flavescens (Fabr.). Meir، ديروط، مصر، 20/3/12. ثلاث عينات. (اختبارات F. Laing).

غمديات الأجنحة

كارابيدا

Stenolophus marginatus (Dej.). المعسكر الثاني، الصحراء الليبية، 23/3/12. عينة واحدة. (اختبارات GJ Arrow).

ديرميستيدا

ديرميستيس فريشي (كوغ). بو غرارة، الصحراء الليبية، 2/4/12. عينة واحدة. (اختبار سهم GJ.)

الجعران

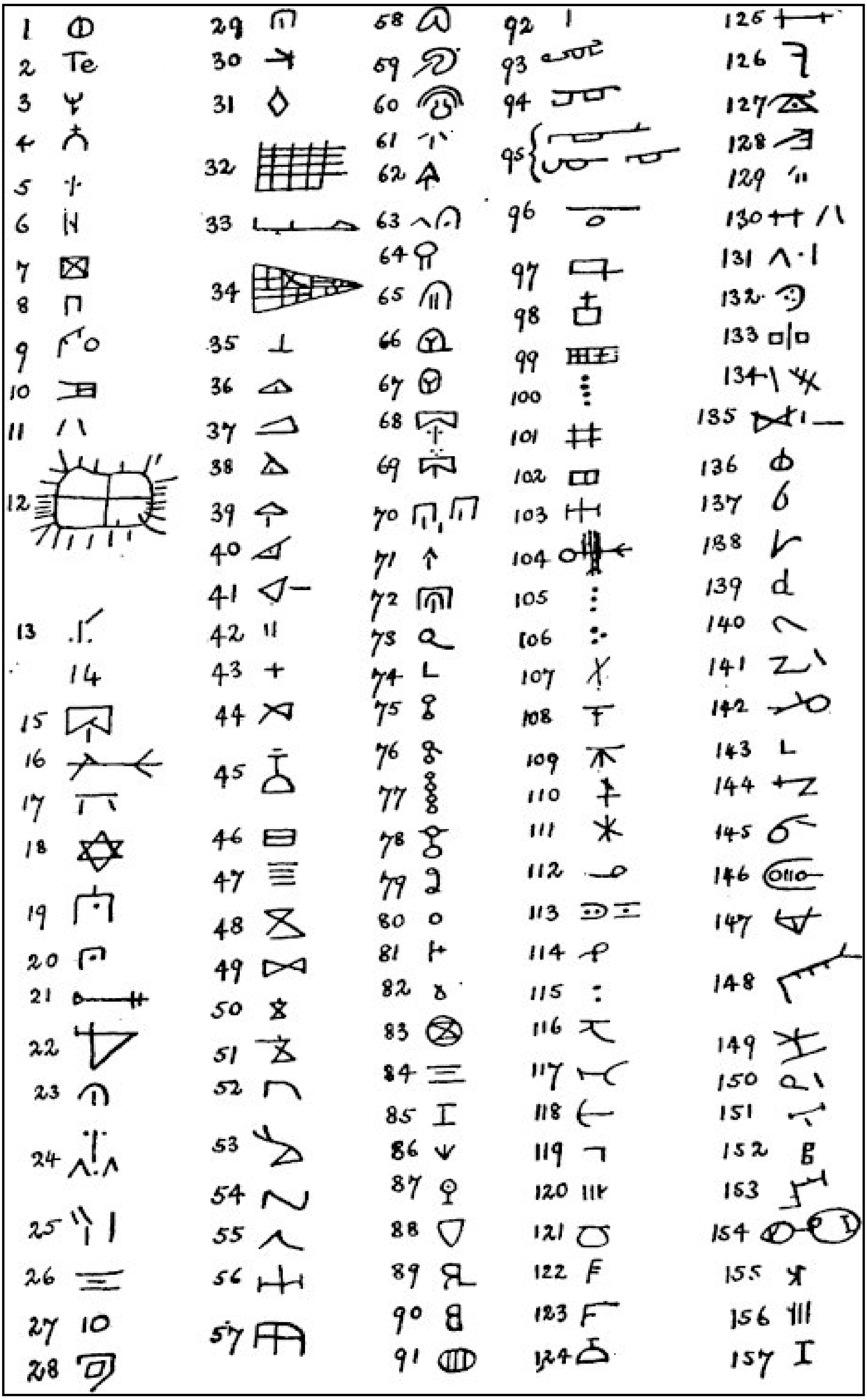
Aphodius hydrochæris (F.). Meir، ديروط، مصر، 17/3/12. عينة واحدة. (اختبارات GJ Arrow).

Aphodius granulifrons (Fairm.). المعسكر الثاني، الصحراء الليبية، 23/3/12. عينة واحدة. (اختبارات GJ Arrow).

Aphodius sp (?). Meir، ديروط، مصر، 20/3/12. عينة واحدة. (اختبارات GJ Arrow).

تينبريونيدا

أوكنيرا هيسبيدا (فورسك). مائير، ديروط، مصر، 20/3/12. عينة واحدة. (اختبارات كغ بلير.)



مستقيمات الأجنحة

غريليدا

غريلوتالبا غريلوتالبا (.L). مائير، ديروط، مصر، 12/3/21-17. عينتين. (اختبارات ب. أوفاروف.)

[326]

الملحق الثالث: نقوش صخرية من الصحراء الليبية

تم جمع الرسوم الجدارية الموضحة في اللوحات المرفقة في الصحراء الليبية. وقد ظهرت أغلبها على طريق غباري، بين واحات الخارجة والداخلة، أو في الحطية التي يمر بها هذا الطريق، مباشرة قبل دخول واحة الداخلة، في زاويتها الجنوبية الشرقية.

وفي العديد من الأماكن كانت هذه النقوش الصخرية كثيرة بشكل غير عادي. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنه في بعض أماكن التوقف المعروفة على طريق غوباري، حيث اعتادت القوافل أن تستريح أثناء حرارة الظهيرة، أو في نهاية رحلة اليوم، كانت الصخور مغطاة بكثافة بالكتابات على الجدران لدرجة أنه يكاد يكون من المستحيل السير دون أن تطأها أقدامك.

لا تدعي المجموعة أنها كاملة بأي حال من الأحوال، حيث تم نسخ معظم العلامات أثناء رحلة متسرعة في الطقس الحار عام 1909، وبالتالي هناك عدد كبير منها تم تجاهله.

لسوء الحظ، تم قطع معظمها على أحجار أفقية مسطحة على جانب الطريق، لذا كان من المستحيل معرفة أيهما كان الطريق الصحيح للصعود، حيث كان ذلك يعتمد بوضوح على الموضع الذي كان يشغله الرجل الذي قطعها في ذلك الوقت. ومع ذلك، كان بعضها على أسطح عمودية إلى حد ما، لذلك لم يكن هناك شك في مواضعها الصحيحة.

عندما تتم مقارنة أي من العلامات الأخرى بعلامات تم الإبلاغ عنها سابقًا من مكان مختلف، والتي تختلف عنها فقط من خلال موقعها، فإن الزاوية التي يجب أن يتم تدويرها من خلالها، لجعل موقعها يتوافق مع العلامات التي تتم مقارنتها بها، من المفترض أن تؤخذ في اتجاه عقارب الساعة.

أما النقوش التي لم توجد على طريق جوباري أو في الحطية، فقد وجدت في المواقع

التالية:

الأرقام 238-230 في الجزء الشمالي من واحة الخارجة، بالقرب من عين الجر. وقد تم استخراجها في الغالب من فم بئر، مقطوعة رأسياً في نفق أفقي، محفورة عبر الصخر. [328] أسفله ليكون بمثابة معرض للتسرب، لجلب المياه من باطن الأرض التي كانت تجري من خلالها إلى السطح عند مستوى أدنى.

(حجم كبير)

تم العثور على الرقم 219 على كتلة حجرية مفكوكة عند سفح برج طيني مدمر في واحة الداخلة، بالقرب من بئر عين الشيخ مفتاح، على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من سمنت الخراب.

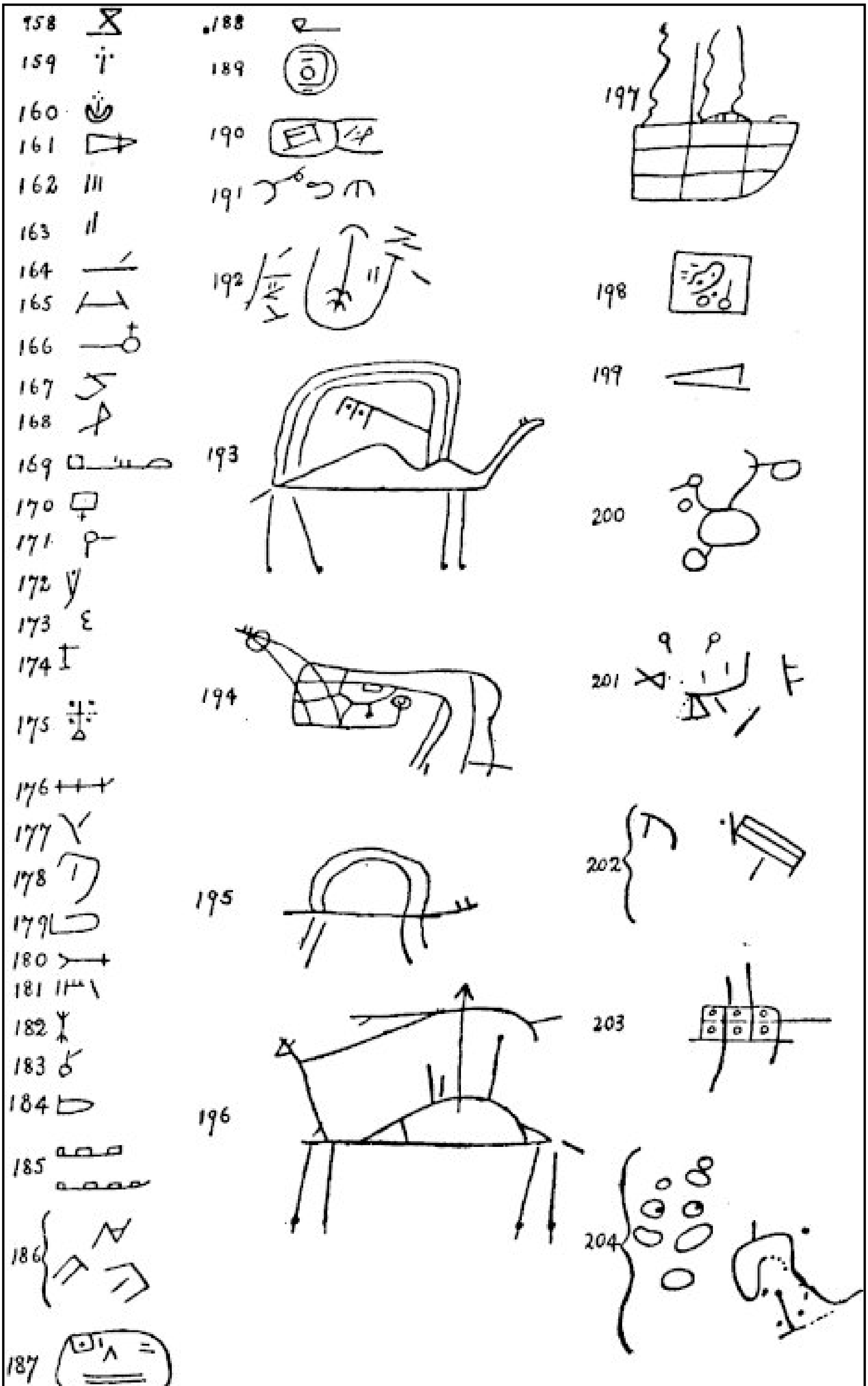
تم حفر الحفريات رقم 228-221 على أنقاض حجرية صغيرة تعرف باسم قصر الكدابيا، على بعد حوالي خمسة كيلومترات إلى الجنوب من قرية تينيدا، في واحة الداخلة.

رقم 224 شوهد، عند سفح الجدار بواسطة مدخل، في مبنى حجري صغير عند بئر عين أمور، على الطريق الأكثر شمالية من الخارجة إلى واحات الداخلة.

وبالإضافة إلى الرسوم الجدارية التي تظهر في اللوحات، فقد رأيت عدداً كبيراً من الرسومات الأولية، والتي لم يسمح لي الوقت للأسف بنسخها. وكان العديد منها يتعلق بموضوعات لا يمكن إعادة إنتاجها. ومن بين ما تبقى من اللوحات مشاهد صيد ومعارك، ورسومات لعدد قليل من القوارب أو السفن ـ كان من الواضح أن إحداها كانت تهدف إلى تمثيل الدهبيات ـ وبالإضافة إلى العديد من صور الجمال، كانت صور الخيول أو البغال أو الحمير كثيرة بشكل غير متوقع، بالنظر إلى الاستخدام المحدود لهذه الحيوانات في ذلك الجزء من الصحراء.

ومن بين الحيوانات التي ظهرت في مشاهد الصيد عدة نعامات، ورغم وجودها في السودان، إلا أنها غير معروفة تماماً في الوقت الحاضر في المنطقة التي شوهدت فيها النقوش. بالإضافة إلى ذلك، تم تمثيل الطرائد ذات القرون في بضعة أماكن؛ ولكن كان من المستحيل تحديد الأنواع التي كان من المفترض أن يتم تمثيلها.

في مشاهد المعركة، كان الرجال مسلحين بالأقواس والدروع والرماح والسيوف. لم أر أي أسلحة تشير إلى الرسومات الحديثة، أو أسلحة شنجمانجر التي ربما تشير إلى أصل سوداني.


158
159
160
161
162
163
164
165
166
167
168
169
170
171
172
173
174
175
176
177
178
179
180
181
182
183
184
185
186
187
188
189
190
191
192
193
194
195
196
197
198
199
200
201
202
203
204

وقد نُحتت الأشكال في كل حالة على سطح الحجر الرملي النوبي، وهي مادة يسهل خدشها بالسكين. وقد تم عرض جزء من بعض الأشكال الواردة في الألواح بواسطة خط منقط، بهدف إظهار أن الجزء المحدد على هذا النحو غير مؤكد، بسبب تشقق الصخر، أو لأي سبب آخر.

إن طريق جوباري، حيث عُثر على أغلب النقوش، يمر بالقرب من سفح منحدر يحميه إلى حد كبير من الرياح الشمالية القوية السائدة. ولكن بالنظر إلى كمية التآكل التي تحدث أثناء العواصف الرملية المتكررة من هذا الجانب، وبعد الأخذ في الاعتبار كل الظروف المحيطة بموقع الصخور التي نقشت عليها هذه النقوش، فإن مظهرها الحاد كان ملحوظًا، ويبدو أنه يشير إلى أنها لا تعود إلى فترة بعيدة جدًا.

ومع ذلك، كان الرقمان 217 و218 استثناءً. [330] وقد نُقشَت النقوش فوق بعضها البعض، على ارتفاع خمسة أقدام فوق مستوى الأرض، على سطح رأسي يواجه الشمال الغربي تقريبًا. وربما كانت الصخرة في هذه المرحلة ناعمة بشكل غير عادي، لكن كلا النقشين أظهرا علامات واضحة للتآكل.

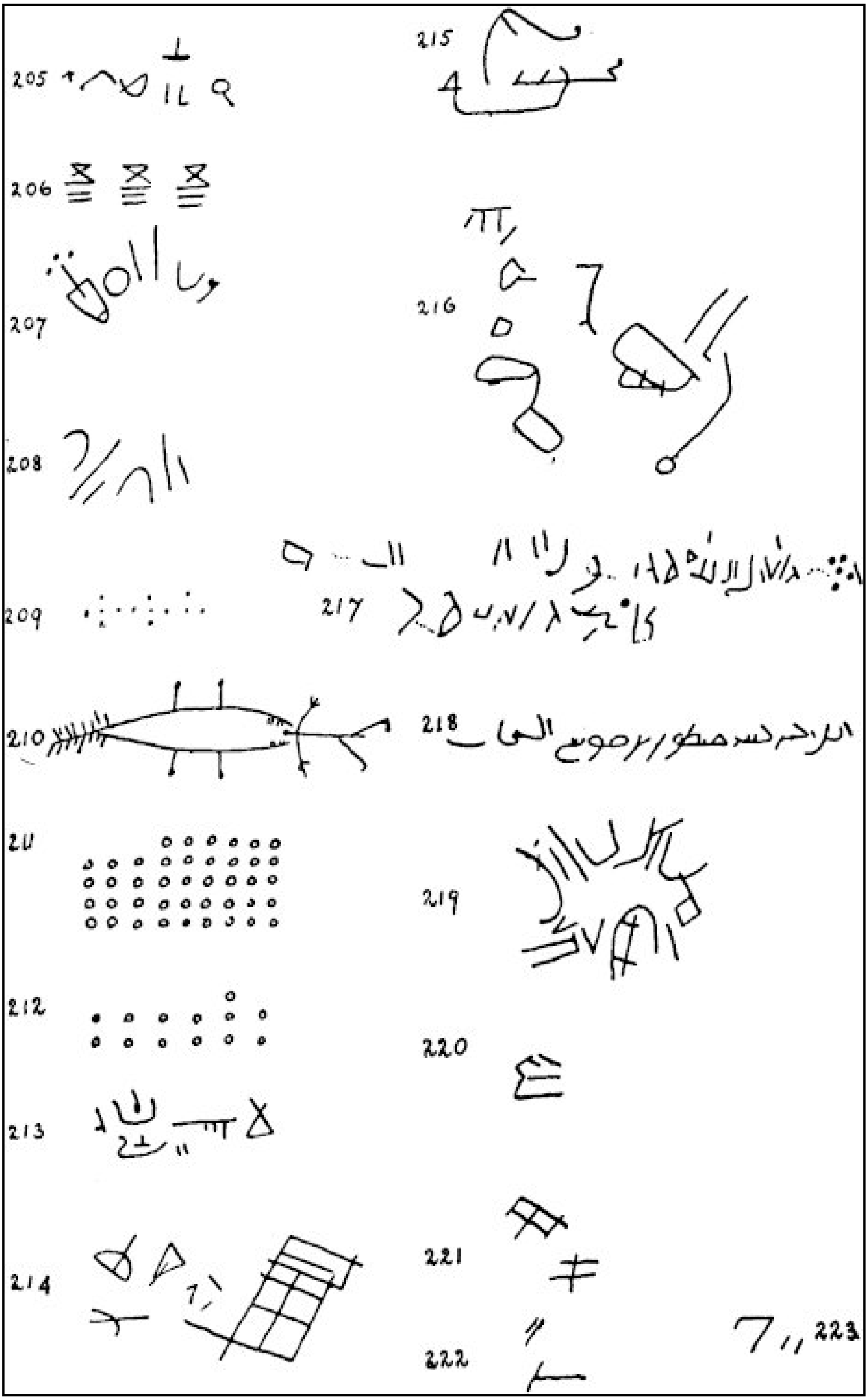
(حجم كبير)

ويبدو أن الرقم 217 يشكل أهمية خاصة، إذ يبدو أنه مكتوب جزئيًا بأحرف عربية بدائية وجزئيًا ببعض الخطوط، مثل خط تيفيناغ، باستخدام الحروف المنقطة. كما عثر أيضًا على نقوش بهذا الخط الثنائي اللغة في مجموعة واحات توات، في الصحراء الغربية، في أولاد محمود، في منطقة الجرارة.[26]

إن عدم اليقين بشأن الموضع الصحيح لمعظم هذه الكتابات على الجدران، إلى جانب الأشكال البسيطة التي تظهرها العديد منها والطريقة الخشنة التي رسمت بها، يجعل مقارنتها برسومات أخرى أمراً خطيراً، ويتطلب في كل الأحوال معرفة أكثر خبرة من تلك التي يمتلكها كاتب هذه السطور. ولكن الملاحظات التالية حولها ربما تكون ذات فائدة.

من المؤكد أن العديد من الرسومات هي علامات تجارية قبلية للجمال، حيث يمكن رؤية العربي في كثير من الأحيان وهو يقطع وسمه على الأرض أثناء التوقف، بنفس الطريقة التي يكتب بها الرجل الأبيض اسمه.

ربما تكون هذه الشعارات قديمة جدًا، ويقول عنها العرب الذين يستخدمونها إنها تعود إلى ما قبل الإسلام. ويستخدمها البدو بطريقة تشبه شعارات النبالة في أوروبا


205
206
207
208
209
210
211
212
213
214
215
216
217
218
219
220
221
222
223

في العصور الوسطى. فلكل قبيلة شعارها الخاص، وتعتمد الفروع الفرعية والفروع من العشيرة الشعار الأصلي مع اختلاف، مما يذكرنا بـ "علامات الإيقاع" في شعارات النبالة.

تمكنت بمساعدة رجالي من التعرف على العلامات التجارية التالية:

الدائرة التي نراها في رقم 27 هي دائرة لقبيلة الحاملة الموضحة في رقم 80، ومع إضافة الخط، قد تشكل علامة تجارية لأحد أقسامها الفرعية.

رقم 29 هو وسم قبيلة خانا.

رقم 37 من الجبسية.

رقم 43 قبيلة الزوية. ومن الغريب أن هذه القبيلة، التي تعد من أكثر القبائل تعصباً والتي اعتنقت عقائد السنوسية، تستخدم شعار المسيحية كشعار لها.

قد يكون الرقم 44 هو العلامة التجارية لقبيلة الزوازي التي تظهر في الرقم 168، وربما أيضًا في الرقم 114.

رقم 48، في الموضع الموضح، هو وسام أولاد بن مريم، أو، إذا تم قلبه كما يظهر في رقم 158، من قبيلة مغربية تعرف باسم المليف.

[331]

(حجم كبير)

[332] ويقال أن رقم 75 هو علامة تجارية لقبيلة مغربية أخرى، ولم أتمكن من معرفة اسمها.

رقم 85 هو علامة العمائم، والتي قد تكون ممثلة أيضًا بالرقمين 157 و174.

رقم 86، إذا تم تدويره بمقدار 180 درجة، سيكون وسام قبيلة عربية من موآب، والتي لم أتمكن من التأكد من اسمها.

ربما يكون الرقم 87 مقلوبًا ومقصودًا منه أن يكون علامة الرشايدة - دائرة منقطة تعلوها صليب. ربما يكون الرقم 170، على الرغم من أن الدائرة ممثلة بمربع والشكل مقلوب أيضًا، قد يرمز أيضًا إلى هذا الوسم .

الرشايدة فرع من العوازم، الذين تظهر علامتهم التجارية - دائرة وصليب، بدون "علامة الإيقاع" للنقطة - في رقم 166، مع إضافة خط إليها على الجانب الأيسر. سيتم الإشارة إلى هذا الخط الإضافي أدناه. من المحتمل أن الرقمين 98 و124 مخصصان أيضًا لهذه العلامة التجارية العوازمية.

رقم 109 هو وسم قبيلة ورفلة.

رقم 156، وهو من قبيلة الحسون، ويقال أنها فرع من قبيلة لم أستطع التأكد من اسمها، والتي تحمل علامة Y لعلامتها التجارية.

الرقمان 172 و 173 هما علامتان تجاريتان من قبيلة بشارين المعروفة.

رقم 177 هو علامة قبيلة حرب.

رقم 179 من قبيلة هاورتي.

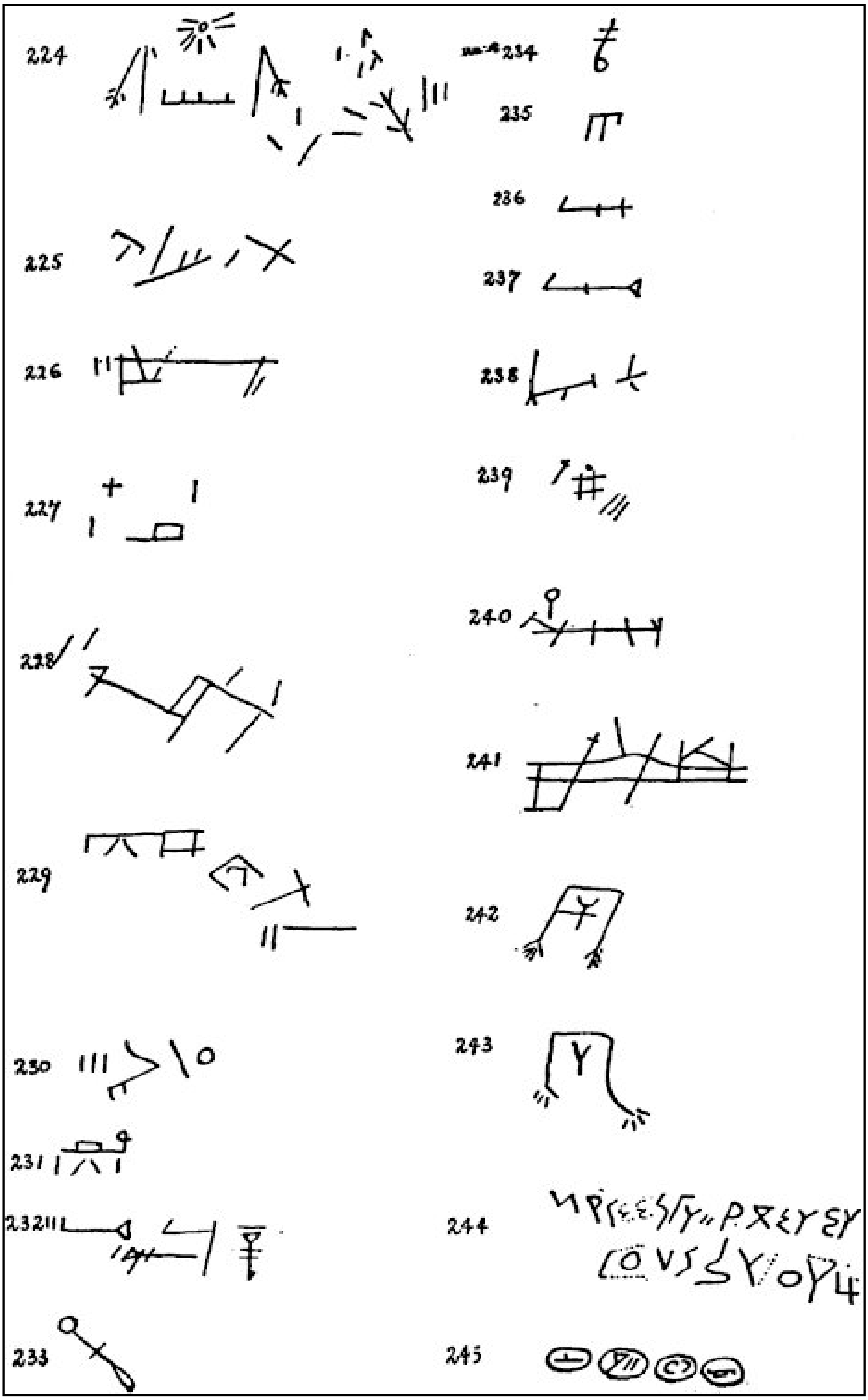
لقد قال رجالي أن رقم 234 هو علامة تجارية لقبيلة انبثقت من عشيرة أخرى قد يظهر اسمها في رقم 73 و 112، لكنهم كانوا يجهلون أسماء كلتا القبيلتين.

من المحتمل أن العديد من العلامات الأخرى الموضحة في الألواح مستمدة من هذه العلامات . إن العرب البدو أميون في أغلب الأحيان، لكنهم معتادون على التواصل مع بعضهم البعض من خلال علامات محفورة على الأرض بنفس الطريقة التي يستخدم بها الغجر "الباتران". انظر ص 180 قبل ذلك .

ومن المحتمل جداً أن يتم إنتاج علامات مثل رقم 50، على سبيل المثال، المستمدة من اسم الماليف، و171 و183، من [رمز] العلامة التجارية، بهذه الطريقة.

وقد تكررت العديد من العلامات البسيطة، بالإضافة إلى أن المجموعة الموضحة في رقم 2 شوهدت مرتين، وتلك الموجودة في رقم 14 عدة مرات، بينما تكررت المجموعة رقم 25 في مكان واحد ما لا يقل عن ثلاث وثلاثين مرة في ثلاثة خطوط أفقية. وظهرت علامات مماثلة لتلك الموجودة في رقم 95 في عدة أماكن، عموماً في مجموعات من ثلاث علامات، موضوعة كما هو موضح في اللوحة.

لا يعد الرقم 18، وهو ختم سليمان، نادراً ما يُرى في النقوش الصخرية في الصحراء الغربية. ويتخذ عدة أشكال، قد يكون لكل منها نقطة في المنتصف، على النحو التالي: [رمز]. ويبدو أن الشكل الأكثر شيوعاً له هو الشكل الموضح في الرقم 18، ولكن في بعض الأحيان يتم رسم أحد المثلثات التي يتكون منها بخط أثقل من [334] الآخر، على هذا النحو: [رمز]. كما تم تمثيله أيضًا في حالة واحدة على الأقل - على Col de Zana-ga، في منطقة Figuig - محاطًا بخط متموج ينتج نوعًا من الوردة [رمز]. بالإضافة إلى هذه الأشكال، يُرى أيضًا ختم سليمان المزيف، أو النجمة الخماسية، المبنية بخط متصل، [رمز] في هذه المنطقة، لكنني لم أصادفها في الصحراء الليبية. تُستخدم كل هذه العلامات كثيرًا من قبل السحرة المحليين.


224
234
235
236
225
237
226
238
227
239
240
228
241
229
242
230
243
231
232
244
233
245

(حجم كبير)

يبدو أن الرقم 88 كان عبارة عن رسم لصندل جلدي وكان بحجم الإنسان. وكان من غير النادر أن نجد رسماً للقدمين المرتديتين للأحذية وغير المرتديتين للأحذية، حيث كان الرسم أحياناً للقدم اليمنى وأحياناً أخرى للقدم اليسرى. كما نجد رسماً للقدمين في الصحراء الغربية في قصر الجاج الأحمر، في منطقة جيريفيل، وفي جبر رشيم. كما نجد رسماً لليدين، لكنني لم أر أياً من هذه الرسومات في الصحراء الليبية.

ومن بين العلامات الأخرى، فإن العلامة [ ] التي تظهر، بالاشتراك مع علامات أخرى، في الرقمين 14 و244، وجدت أيضًا في معبد سوليب، في وسط نقش. [ ] وتظهر العلامة رقم 74 هنا أيضًا. [27]

تم الإبلاغ عن الأرقام 42 و43 و49 من قبل السيد الراحل أوريك بيتس من مارماريكا. [28] وكذلك الحال بالنسبة للرقمين 63 و71، إذا تم تدويرهما بزاوية 180 درجة. كما تظهر الدائرة الصغيرة التي تظهر في الرقم 80، وبالاشتراك مع علامات أخرى في الرقمين 9 و27، وفي العديد من المجموعات الموضحة في اللوحات، وكذلك الرقم 162، إذا تم تدويره بزاوية قائمة، في هذه المجموعة أيضًا. ومن بينها أيضًا العلامة [ ] التي قد تكون متطابقة مع العلامة الموجودة [ ] في النقش الموضح في الرقم 219.

في بعض النقوش التي عُثر عليها في غار الشرفة، في منطقة أولف في تيديكلت في مجموعة واحات توات، غالبًا ما تكون نقطة الحرف المتحرك (التغريت) في النص الليبي البربري محاطة بخط يشكل نوعًا من الحلقة حولها، مما يذكرنا بالخرطوش المستخدم كثيرا في كتابة تيفيناغ الحديثة لإحاطة الكلمات المختلفة في الجملة؛ [ ] كما يتم أحيانًا إحاطة النقطة بنفس الطريقة، حيث يكون للأحرف عند معالجتها بهذه الطريقة المظهر التالي: [ ]، [ ]. ربما تكون العلامات اليمنى للرقم 63 ورقم 132 ورقم 146 والعديد من الكتابات الأخرى الموضحة في اللوحات أمثلة على هذه الممارسة، والتي من المحتمل جدا أن يتم توضيحها أيضًا من خلال العلامة [ ] الموجودة في رقم 219. تظهر معالجة الخرطوش في رقم 245.

قد تكون بعض العلامات الأكثر تعقيدًا مجرد خدوش خاملة؛ [335] إن الرسومات، على سبيل المثال، مثل رقم 34، غالبًا ما تُرى على مسودة الأوراق، التي رسمها بعض الكتاب أثناء فترات تأليفهم. ولكن مثل هذه العلامات مثل الأرقام 16 و142 و148 و149 و153 تذكرنا بالأحرف الأولى المربوطة الغريبة التي يستخدمها

أحيانًا أهل التوارق المعاصرون في كتاباتهم، أو الرموز المشفرة، التي ذكرها دوفيريه وهـ. بارث، والتي تستمتع نساء التوارق أحيانًا باختراعها، والتي لا يمكن فك شفرتها إلا من قبل أولئك الذين نقلوا إليهم المفتاح. [29]

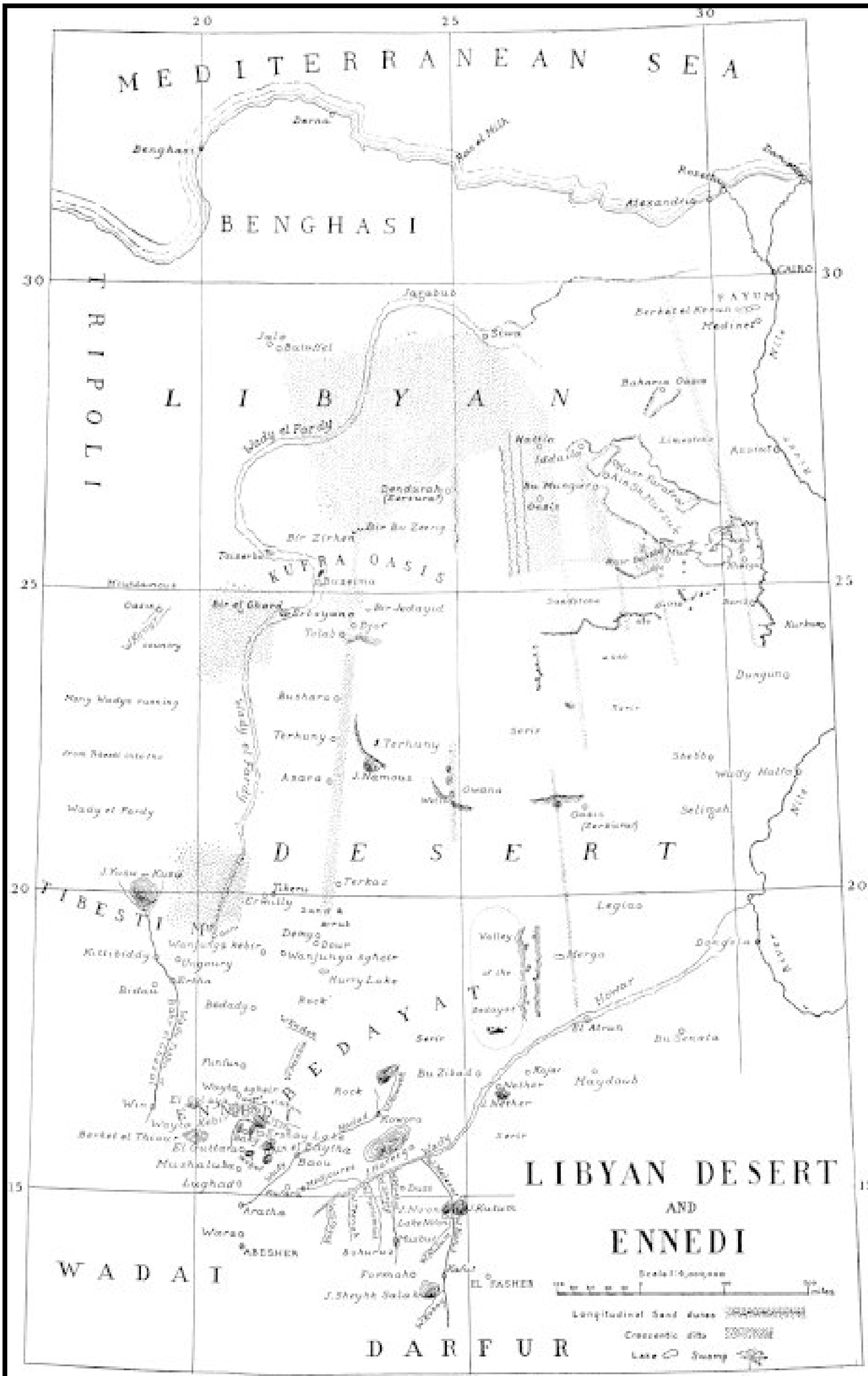
تمثل الدوائر في أرقام 203 و211 و212 أكوابًا صغيرة يبلغ قطرها حوالي بوصتين، وربما كانت تستخدم في بعض الألعاب مثل الحربجة، أو ربما للتنبؤ بالطريقة التي وصفها محمد التونسي. [30] تم العثور على مجموعات مماثلة إلى حد ما من الكؤوس في مجموعة واحة توات في عين قطارة، وأيضا في منطقة غيريفيل، في الحاج محمد وشلالة الدهرانية.

من المحتمل أن تمثل الأرقام 224 - الجزء الأيسر - 242 و 243 كائنات بشرية. في 224، تظهر الأصابع الخمسة لليدين والشعر الطويل في النجمة مثل علامة فوقهما في العديد من الرسومات الأخرى التي لا شك فيها لأشكال شوهدت، لكنها لم تظهر في اللوحات. ومع ذلك، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت الأقدام أم الأيدي هي التي تم تمثيلها في الأرقام 242 و 243. من بين الأشكال التي لم ترد في اللوحات، ظهرت عدة أشكال تم تمثيل الشعر فيها بنقاط بدلاً من الخطوط في رقم 224.

غالبًا ما شوهدت رسومات تقريبية للجمال. وهي تظهر في الأرقام 193 و196، وربما أيضًا الأرقام 194 و195 و131 تهدف إلى إظهارها. ربما تمثل الأرقام 193 و195 جمالًا تحمل خيمة سفر، مثل تلك التي تستخدمها النساء الثريات، وأحيانًا أيضًا الرجال في رحلة. ربما يمثل الرقم 193 حيوانًا له سنامتان، على الرغم من أن هذه، بالطبع، لم تُشاهد قط في شمال إفريقيا. يبدو أن الرقم 196 يحمل راكبًا، راكبًا على سرج ركوب. من بين المخلوقات الأخرى التي تظهر في اللوحات، يُفترض أن الرقم 210 هو رجل يبتلعه تمساح.

وقد عثر المقدم تيلهو في واحة هاردا في بوركو على رسومات تقريبية لجمال تشبه إلى حد كبير تلك التي تم إعادة إنتاجها هنا؛ كما عثرت بنفسي على رسومات أخرى في كهف بالقرب من مرسى مطروح على الساحل الشمالي لمصر. وقد عثرت على هذه الرسومات الأخيرة جنبًا إلى جنب مع رسومات لمدفع يطلق النار وأخرى لسفينة بخارية ذات عجلة مجداف، والتي بدت معاصرة، لذا فمن الواضح أنها كانت من تاريخ حديث نسبيًا.

اعتُبر وجود رسومات النعام وشظايا قشور بيضها، التي كثيرًا ما يُعثر عليها في الصحراء الليبية، حتى بالقرب من الواحات المصرية [336]، دليلا على أن النعام عاش


LIBYAN DESERT
AND
ENNEDI
MEDITERRANEAN SEA
BENGHASI
TRIPOLI
LIBYAN
DESERT
TIBESTI
BEDAYAT
ENNEDI
WADAI
DARFUR
Benghasi
Derna
Alexandria
CAIRO
FAYUM
Siwa
Jagabub
Bahariya Oasis
Nile
Wady el Fardy
KUFRA OASIS
Buseima
Bir el Ghard
Dungunu
Wady Halfa
Dongola
Legiao
Merga
El Atrun
Maydoub
ABESHER
EL FASHER
Longitudinal Sand dunes
Crescentic ditto
Lake
Swamp

بريًا في هذا الجزء من الصحراء في الماضي. لكن هذه الحجة ليست قاطعة بأي حال من الأحوال، فقد كان بيض النعام يجلب بشكل متكرر من السودان بواسطة قوافل تجارة الرقيق القديمة، التي كانت تستخدمه كطعام. ولا تُظهر هذه الرسومات أن النعام سكن هذا الجزء أكثر مما تُظهر صور القوارب أن «الدهبيات» (نوع من المراكب النيلية) قد أبحرت ذات يوم فوق الصحراء بالقرب من واحة الداخلة، على سبيل المثال. إن وجود هذه الرسومات، ورسومات الظباء وغيرها من الحيوانات البرية، لا يدل إلا على أن بعض المسافرين الذين استخدموا هذه الطرق قد أتوا من مناطق كان يمكن فيها رؤية المخلوقات التي قاموا بتصويرها (أو رسمها).

الصحراء الليبية

خريطة "أسرار الصحراء الليبية".

وإينيدي
شركة سيلي للخدمات المحدودة

****

قبيلة العبابدة 25
وعبد العاطف، سائق جمال، 200 ؛ الساحر، 271
عبد القادر الجيلاني، مؤسس الدراويش القادرية، 134
عبد الواحد، الشيخ، 64، 67، 73، 74، 243
عبد الرحمن موسى سعيد 25، 27، 34، 47، 76، 85، 86، 104، 105، 116، 117، 122، 124، 132، 147، 148، 151 156-، 161 192-, 196 , 199 , 203 , 206 , 217 , 234 , 236 , 238 240-
عبد السالم بن مشيش مؤسس دراويش المشيشية 132
عبد العاطي 135
عبد الحميد، سلطان تركيا، ١٠٦، ١٢٧
عبد الله أبو ريشة, 134 , 136 , 148 155-, 164 182-, 190 192-, 196 , 199 ,
عبد الله كحال وكيل السنوسي بالقاهرة، 245
أبه عبدالله، 182
أبشر، 296-298
أبو الهول، صخرة تشبه أبو الهول، 36
كثبان أبو محرق 31، 84، 203
واحة أبو نعيم، 304
آدم، 256 ؛ الشيخ، شجرة، ٢٦٣
أفريت، روح، شبح، 113، 140-143، 187-189
أغابا، إل، باس، 305
أجال، هوبلز، 33
أحمد البسكري، ثنائي المهدي السنوسي، 108، 109
أحمد الموهوب، الشيخ، 62 74-، 106، 144، 147، 149، 242
أحمد الشريف، كبير مشايخ السنوسية، 239
عيد المحمل، مهرجان الخارجة، ٢٥٨
عين، نبع أو بئر، في الواحات بئر قديمة - "رومانية" -
عين عمور، 33، 36، 202، 215، 232، 243، 246، 294، 305، 310، 311، 315
عين عبسه 229
عين العجوة، 231، 246، 304
عين البيضا 296
عين البلاد 229
عين الحجر 326
عين الجمله 37
عين المسيم، 262

عين الوادي، 304
عين امباريس، 29، 137، 202، 215
عين قطارة 335
عين حمور 29، 137
عين خليفة، 231، 246، 304
عين الشيخ مرزق، 225، 230، 231، 304، 319
عين ام الدبديب 136 , 137 , 310 , 312 , 315 , 316
أيوب سلاطين تركيا 260
المهق، 261
"عالم، معلم، وعادة ما يكون كومة من الحجارة، 88-85، 96، 112، 116"
الإسكندرية، 304
الجزائر، المكتبات في، 19
الصحراء الجزائرية 18
علي دينار، سلطان دارفور، 199، 210
علي كاشوتا، 44
قبيلة عمائم 332
الآثار، 29، 32، 37، 50، 136، 137، 206، 223، 263، 298، 299، 314-316
النمل 286
العربية، 299، 306
اللغة العربية 22
"التلغراف العربي" 21
عراج، واحة، 302، 304
أراثا، 296
الهندسة المعمارية، 42، 43، 49، 65، 313، 314، 318
أرديب، 300 رطل.
أركنو، 321
[338]أسارا، 296، 298، 306
الحمير البرية 303
أسيوط، 26، 128، 132، 196، 197، 199، 222، 243، 245، 304، 305
علم الفلك، 118، 119
أسوان 305
جبال الأطلس، 301
أترون، إل، 300، 303
التكهنات، 249
أوجيلة، 304، 306
قبيلة العوازم 332
عيب، ازدراء، إهانة، 45، 221، 238
باب الصَّباح. انظر "باب الصَّباح"
بغلة العشار، 257
البحرية، 221، 229، 304، 311، 318، 319
بهنيسا، 304
البحرين 301، 304
بحر الغزال 301
بحر الشيطان، بحر الشيطان. انظر ميراج

بخشيش، نصائح، 43
با كي 296
الصلع 262
بول، دكتور، جون، 310، 312، 315
الأغنام البربرية، 303
بار، السماد المجفف المستخدم كوقود، 123
العقم عند النساء والسحر وغيره، ضد، 262
باروم وادي. انظر بحر الغزال
بارث، هـ، 335
عمل السلال، 32
بيتس، أوريك، 334
بطيخ، شكل من أشكال التعرية الرملية، 28، 202، 308
باو، 296
بيدنيل، إتش إل إل، 307
بيدادي، 296، 298
بِدَاوِي، جمع: بِدَاوِي، بدوي
سباق البدايات 116، 131، 134، 199، 207، 210، 220، 221، 263، 295، 296، 299، 302، 303
النحل 283
بكر الوحش، 303
بلاد الشيطان بلد الشيطان 47
بيلات، 37، 151، 294، 303، 317
، عمدة، 37، 138، 139
بنغازي 306
بني عدي، 304، 305
البر برين، 22
برديس، 24، 25
بيريس، 305، 313
البرسيم، البرسيم، 47
باي، لقب عسكري
بيداو، 298-296
البلهارسيا، 144
بير بئر وفي الواحات بئر حديثة
بئر عبد القادر، 222
بئر عين الشيخ مفتي 328
بير ديكر، 304
بئر الحمية 57
بئر الجبل 60
بير القيروان، 222، 224
بير لبيات، 227، 304
بير ماغنون، 51
بئر منصورة عبد الله، 341
بير المر 222
بئر النطرون، 134، 305، 321
بير الشيخ محمد، 60
بئر طرفاوي، 305، 321
مصيدة الطيور، 267، 268
مراسم الولادة 249
بشرين 332

بسكرة، 108، 302
بستاني أعمى في موط، 139، 140
بويما، 298
"كتب الكنز" 56-52، 58، 145، 207-203، 212، 214
بوركو، 299، 300، 335
البورسلين، نبات، 261
"ذيول الشعيرات"، 283
التهاب الشعب الهوائية 261
بروجش، هونج كونج، 315
بو العجول، القبر، 128
بو غرارة, 201 , 203 215-, 219 , 246
بو منقار، 97، 230 236-، 244، 246، 287، 299، 304، 307، 309
بو سيناتا، 298
بو زيباد 298
بودكولو، 56، 317
بهروز، 297
بولاق، 32، 313
[339]برنس، عباءة أصلية، 93
بوسا، سيقان الذرة المجففة، إلخ.
بوصيمة 301
بشرى، 296، 300-298، 306
الفراشات 283
القاهرة 23-21
قمبيز، ملك مناجم، 53 ؛ أرسل جيشًا إلى سيوة، 220
ماركات الجمل. انظر وسم
سلاح الجمال 135
سائقو الجمال، 25، 34
الجمل يطلق النار على 92
ذبابة الجمل 24
الإبل، 35، 36، 94، 136، 137
" الري، 118-116، 124"
قانا، فرنسا، 293
كتابة خرطوش، 334
القلاع 314، 315
تشاد، بحيرة، 301
الطباشير، 222، 224
حكايات راكبي الجمال، 268، 269
تعويذات، 251، 252
الخفق، 265
الختان، 251، 253، 256
الاستبصار، 279-271
التلال الطينية، 31، 308، 309
العملات المعدنية المستخرجة، 206، 211، 214
كول دي زيناجا، 334
طبخ البدوي 206 , 207
بقايا قبطية، 37، 314. انظر أيضًا الآثار
الأقباط، 257، 270، 314

عثة القطن 283
المهد، 260
الرافعات، 288
التماسيح، 301 ؛ رسومات، 335
القوس والنشاب، 268
مخطوطات التوارق، 335
الزراعة والنباتات، 41، 48، 49، 51، 56، 75، 228، 229، 230، 241، 243، 247، 264، 294، 303، -309 313، 316، 318
الحجامة 152
العادات والتقاليد. انظر الآداب والعادات
برقة، 293
كورش الكبير 54
دهب، سليمان جندي، 22، 34، 110، 132، 142، 143، 162 -167، 192، 199، 217، 234، 238، 239، 244
دخاخين، 313
الداخلة، 18، 32، 36 81-، 90، 91، 128، 130، 138 159-، 202، 203، 225، 227، 229، 231، 235، 246، 248 265-، 280 284-, 288 , 294 , 300 , 303 305-, 310 , 311 , 316 319-, 320 , 321
الرقص، 193، 254
دارفور، 305 ؛ علي دينار، سلطان، 199، 210
داريوس الأول ملك فارس، 315 م
داريوس الثاني ملك فارس، 315 م
الدعوة، الدعاء السحري، 279-272
الصمم 261
دندورا، 199، 200، 299، 300، 304
حمى الضنك 144
المستودعات، 158، 159، 164، -173 175، 180
دير، مبنى كبير أو دير
الطبعة 314، 315
دير أبو ماضي، 50، 53، 55
دير العين 53
العرائس، 145
دير البنات 53، 55
دير الحجر، 58، 78
دير السبع بنات، 53، 55، 101
دير موهروج، 202
درب، طريق
" الأربعين، 297، 305"
" إد درعي، 202"
" الجباري، 128، 243، 284، 305، 336 -346
" الخشبي، 203، 305"
" والطويل، 128، 201 205-، 212، 305، 307
" والطرفاوي، 294، 305"

دير، 305
الدراويش، 21-19، 25، 133، 134، 182
"مسجد الصحراء" 233
جفاف الصحراء 212
ضيعة النمل، 294
الطلاق 251
دنقلا 298
غزال دوركاس، 282
أحواض الحمام، 315
ذبابة اليعسوب 284
فستان العروس 252
[340]السُكر، 45، 46
بطة، 284
البكم 261
الكثبان الرملية. انظر الرمال
دونجون، 305
دوش، 313، 314
دوفيريه، هـ، 335
النسور، 284، 288
الفخار، 253
إدفو 54
المتعلمون المصريون، 146-144
"الواحة المصرية" 300، 304، 320، 321
إشارات الوقت في برج إيفل، 297
الظواهر الكهربائية، 93، 94، 307
انتفاخ الرئة، 261
إندي 210
أنور باشا، 105
الصرع 261
المعدات، 33، 34، 206
أربايانا، 299، 301، 302
التآكل. انظر الرمال
بحيرة إرشاي، 302-300
إرثا، 296، 299
إيرولي، 296، 299، 300
إسنا، 53، 54، 213، 305
حواء 256
العين الشريرة 250
العزبة قرية المزرعة الشيخ احمد 60 - 64 -74
عزبة الشيخ مفتي، 145
فحل، جمل عمره ثماني سنوات، 35 عامًا
عدد العائلات في الواحات 262
فانتازيا، "لعبة البودرة"، 253، 259
الفرافروني من أهل واحة الفرافرة 225
الفرافرة 199 , 200 , 207 , 218 -231 , 246 , 266 , 288 , 294 , 304 , 307 , 310 , 311 , 318
فرشوت 305
فروويه، 297

فاس، عاهرة، 264
فاشر، ال، 298-296
سورة الفتح، أول سورة من القرآن، 252
الدولة الفاطمية 259
الحيوانات، 24، 32، 36، 79، 88، 97، 247، 292-280، 301، 303، 318
الفيوم 301، 304
الثعبان ذو الريش، 286
فلاح , ر. فلاحين، فلاح مصري
فريخ، فشار، 69
حمى 30
واحة فجيج، 334
فيكي، رجل دين صغير، 254، 255، 259
إشعال النار، 122، 124، 228
الأعلام المستخدمة في الاحتفالات 253، 254، 259
فلاترز، العقيد، بعثة، 162
الذباب، 283، 287، 288
فلورا، 28، 32، 49، 98-96، 111، 222، 223، 228، 229، 232، 233، 247، 258، 280، 282، 291، 292، 294، 318
ذبابة، جمل، 318
السحلية الطائرة. انظر إيسولا
الأعلاف، صعوبة الحصول عليها، 138، 139، 151، 157-155
ضباب في الصحراء 310
فوربس، السيدة روزيتا، 306
فورماه، 297
ثعلب، مرقط، شوهد، 281، 288
الجنازات، 256-254
مرح، حسنًا، 296، 298
فوروا، جلد الغنم، 33
جادا، رياضي
غاهز، الأشياء التي أحضرتها العروس إلى منزلها الجديد، 253
جارا، تلة صخرية
جارا بو جيرارا، 205-203
قارا الشرفة، 334
جنة عدن، 214، 256
البستاني، الرجل الأعمى في موط، 139، 140
جاريت، ديم. جارا
غار الذهب، 205
غار اللبن، 302
غاسي، مسار خالٍ من الرمال عبر الكثبان الرملية، 304
"بوابة الصباح" 96، 118
غزال، 37، 215، 223، 282، 288 ؛ نخ، 266، 267
[341]الجديدة، 75، 145، 304، 317،

318
جناه 313
الجيولوجيا، 28، 33، 83، 84، 88، 90، 112، 115، 216، 220، 294
جيرارا، 330
جيريفيل، 334، 335
غول، شبح آكل لحوم البشر، 143-140
جرجا 305
جرجوف، إيل، 294
الجيزة 304
زجاج، تم استخراجه، 206، 214
جورجي مايكل، 43
جرن الجنه 315
جرافيتي، 247، 336-326
جرامافون، 70
الجراد 283
القبور، نمط، 255
"واحة عظيمة" 310
الشعر الرمادي 262
تلة جريتستون، 83
طريق غوباري. انظر درب الغباري
جبر رشيم، 334
جهيدة. انظر قصر جهيدة
غرف الضيوف، 49، 61، 65
المرشدون، 25، 26، 134 ؛ مهارة، 105، 112
جولا، زجاجة ماء فخارية، 66
جوربا، كيس ماء جلدي، 97، 132
بقع جوربا، 97
قُربان، عملة ذهبية قديمة، 56
المعلم، 301
جوس أبو سعيد، 227، 231، 304
بئر جوتارا، 296، 300
حاجي، رجل قام بالحج إلى مكة
شعر، مراسم قص الشعر لأول مرة لطفل، 250
تصفيف الشعر 253
قبيلة الحماملة 330
قبيلة حرب 330
هاردا 335
هاروبجا، لعبة، 335
الحشيش، القنب الهندي، 135، 137، 261
حسنين بك، 298، 306، 319-321
قبيلة حسون 330
هاتيا، واحة غير مأهولة بالسكان
قبيلة هاورتي 332
هيج، جمل يبلغ من العمر ثلاث سنوات، 35 عامًا
علم الشعارات عند العرب، 330
معبد هيبس، 29، 315 ؛ المدينة، 314
واحة عالية المستوى، 316، 319

التلال في الصحراء، أشكال، 88، 90، 111، 115، 309
هندو، 41، 154، 238، 317
الخيول، 48، 50
هوسكينز، 315
الضيافة، 38، 39، 50، 66-74، 136، 193
الحرام، ثوب يشبه القماش المنقوش يلبس في طرابلس، 41
هرج، حقائب السرج، 33
قبيلة وبحيرة هرري، 302
الحسين حفيد النبي محمد 256
الضبع 281
ابن إدريس، شيخ زاوية الفرافرة، 228، 229، 234.
ابن الشعار، ناقة عمرها سنة، 35 سنة
ابن سينا، ناقة عمرها سنة، 35 سنة
ابن لبون، ناقة عمرها سنتان، 35 سنة
إبراهيم موسى سعيد، سائق الجمل، 132 -135، 140 -143، 148، 151 -155، 163، 180 -182، 199 -201، 216، 221، 234
إبراهيم، شيخ الزاوية بقصر الدخل، 61، 62
ابراهيم زكي مأمور موط 43 -46
العديلة 97 , 199 , 207 , 227 , 231 , 234 , 246 , 302 , 304 , 309
الفجور، 143، 251، 260
الحشرات، قائمة، 322
التداخل بين الآبار الارتوازية، 244
غزو السنوسية لمصر، 106، 127
البيريت الحديدي، 224
الري. انظر الزراعة
"جزر المباركة" 311
إيسولا، سحلية طائرة، ربما أسطورية، 285، 286
الإيطاليون في طرابلس، 135، 198
ابن آوى، 280-282، 288
جغابوب، 301، 304
[342]جاجا 313
جاج محمد، 335
جالو، 60، 301، 304، 306
جبل، حرفيًا جبل، في الصحراء المصرية، 28، 319
" عبد الله، 115، 151، 153، 154، 158، 159، 173، 177، 300، 303"
" دا كار، 302"
" إدموندستون، 236"
" البايض, 112 -118, 148 , 149 , 151 , 153 , 154 , 158 -160, 164 , 169 , 174 -176, 178 , 179
" الغزالة، 302"
" العوينات، 319"

" غنيمة، 312، 315"
" جونة البحري، 227"
" الله أكبر، 302"
" جبايل، 202"
" كوسو، 301"
" مايدوب، 298"
" سومارا، 302"
" التعارف، 312"
" طرفاية، 302"
" تير، 312"
" أم الغنيم، 312"
قبيلة الجبسية 330
جدبيا 306
جدة، جمل عمره خمس سنوات، 35 عامًا
جيميل، ذكر جمل ناضج، 35 سنة
جونسون، أ.أ. باشا، 52 -54، 212
كافر
القيروين حتية , 220 , 222 , 233 , 304 , 311
القنطار 100 جنيه مصري 47
كربلاء معركة 256
كاس، صنج، 252
كتب الكتّاب، جزء من حفل زفاف، 252
قبيلة الكبابيش 298
كبابو 299
كركادي شاي سوداني 70
الدراويش الكرزازية 20
خليفة الإسلام 106
خليفة زناتة 259
خليل صلاح جابر مترجم 22، 34، 96، 101، 102، 124 -126
الخماسين، خمسون يوما من الربيع، 257
خان، نزل شعبي، بأسيوط، 132
قبيلة خانا 330
الخرافش، شكل من أشكال تآكل الرمال، 28، 87، 202، 308
الخراشيف، شكل من أشكال التعرية الرملية، 28، 202، 308
الخارجة، 23، 28 -32، 90، 129، 132، 157، 202، 215، 225، 227، 243، 244، 246، 248، 258 -260، 265، 283، 284، 288، 293، 297، 305، 308 -319، 326
ختم، حرفيًا ختم، رسم تخطيطي يستخدم في السحر، 273، 274
الخاتمة، احتفال ديني، 254
الخبايزة نبات 282
كيمري، حمامات النخيل، 57، 284، 285 ؛ تجربة مع، 90، 91، 321
طائرات ورقية، 284
كوورا، 298، 302
الكفرة، 18، 52، 60، 71، 77، 82،

83، 98، 109، 131، 147، 149،
199، 234، 293، 296، 298، 299،
301 306-، 319
الكفرة 296
واحة كوركور، 305
مدينة كيسيس، 314 ؛ معبد، 315
جناح ذباب الدانتيل، 287
لاجيا، إيل، 303، 305، 321
لحد، تجويف في القبر لدفن الجثة، 255
"بحيرة السلاحف الطينية" في مياني، 303
الإبل العرجاء، 88، 89، 92
"المصريون المعاصرون" للين، ص -253
278
تسرب خزانات المياه، 153، 155،
161-164، 182
ليفا، أفعى مقرنة، 286
اليد اليسرى نجسة عند المسلمين 278
الأساطير، 58-53، 63، 75، 78، 221
"رسائل" كتبها بدوي أمي، 180، 235
ليلة الوحدة، ليلة الخلوة، 254
ليلة الوحشة، ليلة الخراب، 254
حدود الصحراء الليبية 17
[343]الأحرف الأولى من اسم الطاورق،
335
ظواهر ضوئية، 307
ليثام، قناع يرتديه التيبوس والتوارق، 277
السحالي، 285، 288
الجراد 283
أنوال، 314
لوغاد، 296
الأقصر، 146، 305
مبسوط، مسرور
الدراويش المدنية، 133
تم إنشاء الطرق، 205
مغاغة 304
المغرب، صلاة العشاء، 67
السحر. انظر الخرافات والسحرة
السحرة، 146، 154، 194، 212،
217، 271
المهدي، الخرطوم، 107 ؛ السنوسية،
106-109 ؛ نبي محجوب، 108
المحمل بالقاهرة، 259 ؛ المحمل بالخارجة،
258-260
محمد بن عبد الرحمن بوزيان، مؤسس
الدراويش الزيانية، 182
المهر 252
ميمون العفريت، 279-274
"صنع السلام" 46، 194، 242
ماكس بهاري، 313
ماكس جيبلي، 313
الملاريا، 30، 261
قبيلة المليف 330

مامور، قاضي محلي، 191-183، -193 196
ماندال، عرض سحري، 279-272
منفلوط 199، 202
الجرب، 76، 79
الآداب والعادات، 34، 39، 46، 47، 50، 67، 152، 193، 206، 207، 232، 247، 254-251، 256، 259، 260، 265، 268، 269
منصور، سائق الجمل، 200
حشرات السرعوف، 286، 287
رسم "الخريطة" بواسطة بداوين، 208
الرخام 202
مرهكا، حجران لسحق الحبوب، 97
مرمريكا، 334
مراسم الزواج 254-251
مرسى مطروح 335
مسارا، 41، 145، 317
الدراويش المشيشية، 133
مصطبة أو منبر أو مقعد أو قبر، 53، 56
مكة 108
الطب الأصلي 261، 262، 279، 282
محيرق 313
الميلانزم، الإنسان، 152
منة زوجة مؤسس السنوسية 108
ميرجا، 300، 302، 303، 321
مركز مكتب المأمور
بلاد ما بين النهرين، 214
الاستعارات، العربية، 201، 202
النيازك 307
مياني، 303
هجرة الطيور، 36، 79، 101، 287، 288
مطحنة للدقيق 264، 265 ؛ للزيتون 265
مينيا 304
سراب، 113، 179
"الضباب"، كما يظهر وادٍ بعيدًا، 95
قبيلة مخيات الريح 221
محمد بن علي السنوسي مؤسس الدراويش السنوسية 108
محمد الموهوب، شيخ زاوية قصر الداخل، 40، 60 64-، 73، 74، 144، 145، 147، 149، 196، 229، 234، 240، 242، 243، 245
محمد التونسي، 335
محمد، شيخ زاوية الفرافرة، 228
محمد النبي 57، 106
محمد الخامس، ملك تركيا، 127
مهنى، سائق الجمل، 200
المغرب 108
البعوض، 283، 287
العث، 283، 287

السلاحف الطينية، بحيرة، 303
[344]مدير، حاكم ولاية مخلية، كيس
أنف الجمل، 33
المولد، عيد ميلاد أحد الأولياء، 259
منكر، "المجهول"، ملاك أسود، 255
موسى، سائق الجمل، 25، 34، 92
مسبوت، 297
مشلوبة أم شلوبة 296
موشيا، 75، 317، 318
الموسيقى وأثرها على الإبل 92، 270
رمال موسيقية، 100، 220، 263
أحجار موسيقية، 98، 100
موط، 41 48-، 76، 82، 90، 91، 100، 139 159-، 182 192-، 194، 236 241-، 244، 262، 284، 295، 305، 317
ناختيجال، جوستاف، 297، 298
ناضورا، معبد، 315
ناغا، أنثى ناقة بالغة، 35 سنة
أظافر، مراسم قص أظافر الطفل للمرة الأولى، 250
نجا، كوبرا، 286
نكير، "الناكر"، ملاك أسود، 255
المعلومات الأصلية، جمع، 211-207، 220، 221، 295
نازيلي جنوب، 201
النقب، ممر أسفل الجرف
" إر رومي، 216"
" شوشينا، 205"
" إلى بو مونجار، 232"
" إلى الداخلة، 36"
نسلا، 227، 231، 287، 304
نسطوريوس، أسقف، 314
الألقاب، 128، 134
نجم، حرفياً نجم؛ لمعرفة النجم = معرفة الصحراء، 170
النيل، النهر، 301، 302
نمر عوض 25، 134، 149، 150
نوح 256
بحيرة نوون، 303
ملاجئ الظهيرة، 111
نوسر، صحراء جوفاء، 87
واحة، معنى، 310
"واحة السود" 52
المسئولون، فئة، في الواحات، 45-43
زيت الزيتون 265، 318، 321
معصرة زيتون 265
"واحة الزيتون" 91، 320، 321
معصرة زيتون 265
عمر وهابي مأمور الداخلة 156
"عمدة، رئيس القرية، بالنسبة للأفراد انظر تحت اسم القرية"
طب العيون 261

قبيلة أورفيلي، 332
أوشار، نبات، 258
نعامة، قشور بيض، 97، 335، 336 ؛ رسومات، 335
أفران، 73
أوانا. انظر العوينات
عوانات، 130، 165، 197، 198، 300، 303، 305، 319 321-
بيض "بيس" 257
فلسطين 307
الوحدة الإسلامية، 20
القديسون الشفعاء، 132، 182
الزبرجد، 55
الأسرة الفارسية في مصر، 315
بيرثيس، يوستوس، خريطة، 321
خشب متحجر، 90، 212
السل، 261
الحمام 284
الحج إلى مكة سنة 260
جحافل القراصنة، 214
الالتهاب الرئوي 261
"بركة الحبر." انظر ماندال
البابا، 106
مكتب بريد في موط 139
الفخار، 98، 318 ؛ المستخرج، 211، 214، 223
دق الأرز، 43، 265
نسبة، معنى صغير، في البداوين، 95
"عذاب القبر" 255
الدراويش القادرية 134
قلعة السوري، 53
القلمون، 48، 154، 317، 318
قارة، 23، 24، 28 34-، 245 ؛ القارة، 304
[345]قصر دخل، 40، 56 64-، 83، 203، 236، 317 ؛ مشايخ، 57
" دوش، 314، 315
" مستشفى العيني 146"
" الجهادة، 32، 315"
" الجاج الأحمر، 334"
" الفرافرة، 224 230-، 244، 304، 319
" لبخا، 136، 137"
" زيان، 32، 305، 314، 315
قنا، 293، 305
قبيلة قريش 57
قم الجنة، 312
السمان 230، 284
قوي، حسن قوي، مرشد، 26، 27، 33، 35، 57، 62، 89، 102-105، 112-114، 123-125، 132، 134- 136، 138، 146-148، 150-152، 154-156، 158-161، 164-179،

182-192، 196-198، 221
"قويطين" محمد سعيد، المرشد، 199-212، 215-218، 220-222، 224، 225، 228،231-235،238، 239، 243، 245
رابعة، ناقة عمرها ست سنوات، 35 سنة
رباط، سرج الجمل، 33
الدراويش الرحمانية 20
السكك الحديدية، 23، 27، 28
المطر 98، 291، 310
رشيدة، 41، 48-57، 184، 193، 263-265، 317
رشيدة، عمدة، 45، 48 -56، 76، 110، 144، 194
الفئران، 88، 97، 288-292
الغربان، 284
"ظهور" المهدي السنوسي، ١٠٩
البحر الأحمر 306
ريدير، جوف تتجمع فيه مياه الأمطار، 97، 311
ريفار، تحية، 20
علاج الأمراض 261، 262
قبيلة الرشايدة 332
حل الجمل، 35
نتائج الرحلات 246
أرز 43
ريم، غزال لودر، 282
سعفة الرأس، 227
روضة، مجموعة من الشجيرات في الصحراء، 215، 311
طرق، قافلة، 304-306، 309
الطرق المهجورة 77، 82، 87، 97، 98، 101، 112، 128، 130، 131، 135، 213، 215، 294، 305، 321
الصواريخ، الاستخدام، 176
رولفس، جيرارد، 18، 52، 53، 84، 85، 297 299-، 304
مسبحة، 186
مستشفى روتوندا، 146
الجمعية الجغرافية الملكية، 18، 214
حصائر راش وورك، وما إلى ذلك، 314
الرصف، أحد أشكال التعرية الرملية، 28، 202، 308
صفر شهر عربي 249
ساقية، عجلة لرفع المياه، 75، 145
الصحراء 17
مستشفى سانت توماس، 146
رقصة القديس فيتوس، 261
صاج، صاج، 34، 207
صلاح نجم الدين، سلطان تركي، 260
أرض مالحة، 41، 229، 244، 280، 294
التحيات 37
الرمال والكثبان الرملية، 18، 21، 31،

32، 36، 47، 48، 75، 77، 80، 82، 84، 85، 96، 97، 115، 127، 136، 203، 220، 221، 223، 225، 235، 236، 244، 246، 247، 262، 263، 293، 294، 299، 300، 307-302، 309، 318
تآكل الرمال، 28، 29، 202، 204، 216، 224، 308
طائر الدراج الرملي، 284، 288
العواصف الرملية، 93، 94، 234، 235، 307
سراف . انظر ماندال
بئر سارة 296
"بلاد الشيطان" 47، 81
"قول الفتحة " حفل زفاف، 252
شفاينفورث، بروفيسور، 315
العقارب، 262، 282 ؛ تعويذة ضد، 251، 258 ؛ منصة مقاومة العقارب، 282
"خاتم سليمان" 332، 334
سيديسٍ، جمل يبلغ من العمر سبع سنوات، 35 عاما
[346]حفل "نخل الطفل" 249، 250
واحة سليمة، 295، 305، 321
سنوسيا، الدراويش السنوسيين، 18 20-، 25، 40، 60، 106 109-، 131 134-، 138، 139، 144 149-، 154، 156 160-، 183، 186، 190، 196 199-، 207، 217، 223، 228، 229، 233، 245، 293، 301، 304، 319
السنوسي، شيخ موط، 44، 146، 147، 154، 237، 241
السنوسي، شيخ سمنت، 40، 184
غزو السنوسية لمصر، التهديد، 109-106، 127
السنوسي المهدي، 109-106
شعبان شهر عربي ليلة النصف من شعبان 258، 259
الدراويش الشاذلية، 109، 133، 182
الشاذلي، شيخ، مؤسس الشاذلية، 109، 133
الشادوف آلة لرفع الماء، 48
شاغر الدر، سلطانة تركية، 260
شِب، 305
شلالا ديهرانيا، 335
شيم إن نسيم، شم النسيم، وليمة مصرية، 193، 257
شيخ، زعيم ديني أو قبلي
الشيخ آدم شجرة 48
الشيخ العفريت . شاهد الساحر
المسلمون الشيعة، 256
عائلة شوربوجي، 48
منجل مسنن 264

سدرة، خليج، 17
سيف، كثيب طولي، 221، 235
البصر، حدة البصر، بين البدو، 85، 86، 180
"السمكة الفضية" 283
سيموم، الرياح الحارة، 89، 90، 161، 257
غناء سائقي الإبل، 270-268
بحيرة سترة، 302، 304، 309
واحة سيوة 18 , 53 , 293 , 301 , 302 , 304 , 307 , 319
تجار الرقيق، 97، 320
سمينت، 38، 146، 241، 317
سمينة الخراب، آثار، 37، 328
سمينت، عمدة، 38، 41
التدخين، 25، 39، 40، 227، 229
لدغات الثعابين 282
الثعابين، 251، 282، 283، 286
طائر السمان 284
السفوت، شكل من أشكال تآكل الرمال، 87، 88، 97
سوهاج 305
سولوم، 146
سليمان الملك 54
"أغنية الرمال" 99، 100
الروح، شجرة ذات، 48، 49، 263
صوت، وضوح، في الصحراء، 171
شرارات. انظر الكهرباء
العناكب 282
ثعلب مرقط شوهد 281
الإحصاء، 260، 261، 319-317
اللقالق، 288
سليمان عوض، الشيخ، 24 27-، 134 136-، 148، 149
سلطان تركيا 106
ساعة شمسية، بشرية، 313
المسلمون السنة، 106
سنط، أكاسيا
سنت عبد النبي، 264
الخرافات، 48، 49، 113، 119، 140، 143، 145، 151، 152، 187، 194، 201، 212، 217، 249-251، 257، 262، 270-279، 286
سورة الملك جزء من القرآن الكريم تقرأ بعد الجنازة، 254
سورك، 199
طرق المسح، 86، 219، 223، 224
سوتاري، مهرج، 252
السنونو 287
حمام سباحة 193
مهدات التأرجح، 260
طبل بلادي، طبلة، 252

التحضر، وسيلة السحر، 279-272
تايسربو، 301
تعويذة، 142، 143، 263
طلعت، 105
طمطم، الدف، 72
القطران، الدف، 253
العناكب، 282
سباق التوارق 25، 199، 335
تشونيميريس، المدينة المدمرة، 314
[347]شرب الشاي 39، 261
المعابد. انظر القصر
تينيدا، 37، 157، 185، 241، 283، 303، 305، 317
تينيدا، عمدة، 139، 157، 241
الطرفاوي 321
ثيني، جمل عمره أربع سنوات، 35 عامًا
العطش، وسائل علاجه، 170، 171
ثوتمس الثالث، 314
نقل الفكر، 278، 279
عاصفة رعدية 99
تيبوس، 208، 210، 236، 295، 298، 301
تيبستي 17 , 109 , 207 , 210 , 299 , 301 ,
تيديكلت، 334
تيفيناغ، كتابة التوارق، 25، 330، 334
الدراويش التيجانية، 20
تيكيرو، 131، 296، 298، 299، 306
تيلهو، العقيد، 297، 299، 300، 303، 320، 335
تمبكتو، 199
طلاب، 299-296
منادي بلدة موط، 139، 140
تتبع 179-164 ،Qway
آثار العربات، 83 ؛ من ،285 ،Issulla 286 ؛ ثبات، في الصحراء، 83، 87 ؛ من سعاة السنوسيين، 82، 83، 98
الرياح التجارية، 306
الفخاخ، 268-266
البحث عن الكنز، 51، 58، 59، 76، 79، 144، 145، 203-223، 279
"شجرة التطرف" 258
شجرة ذات روح، 48
عبادة الشجرة، آثار، 263، 264
محاكمة "قوي"، 191-187، 196
طرابلس، 107، 131، 135، 304
توغورت، 302
تولسيم، تعويذة
توماس، 305
تونس 21
المكتبات التونسية 19
شوارع الأنفاق، 313

الثورة التركية، 105، 106، 127
الأتراك في الكفرة 109
واحات توات، 302، 330، 334، 335
قبيلة أولاد بن مريم 330
قبيلة أولاد محمود 330
أم الأثام 296
أم شلوبة، مشلبة، 296
وادي البدايات 303
"وادي الضباب" 89، 92، 95، 96، 111، 151، 153، 154
"وادي الجرذان" 88، 90، 95، 178
النباتات. انظر النباتات
الحجاب الذي ترتديه المرأة 277
الأمراض التناسلية 261
الأساليب البيطرية، 76، 204، 205
فايبر، 283، 286
واحات ود غيرة، 302، 310، 311
" إيغارغار، 301، 302"
" إيغارغارين، 301"
" ميهرو، 301"
" ساورا، 301 "
وادي دوم 299
" الفار. انظر "وادي الفأر""
" الفردي، 301، 302، 304، 319
" إل فيدي، 301"
" الملوك، 54"
" إيش شابور. شاهد "وادي الضباب"
" هوار، 297، 302"
" هاوش، 298"
" كافوت، 297 "
" كوباي، 297"
" كور، 302 "
" كوتوم، 297، 303"
" ميدجورس، 296"
" المليبت، 297"
" المغارة، 304"
" ناترون، 304"
" تبو، 301"
الواحاتيون، سكان الواحات الأصليون، 248
جزر واكواك، 214
لوحات جدارية، 314
وانجونجا كبير, 131 , 296 , 300 , 306
وانجونجا صغير، 131، 296، 300، 306
وانجونجات، المنطقة التي تحتوي على المكانين المذكورين أعلاه
وارل، سحلية كبيرة، 285
الاغتسال في الصحراء 118
وسم، ماركة جمل قبلية، 26-24، 73، 235، 333-330
[348]الماء، الفعل، في تكوين المنخفضات، 294

خزانات المياه 132، 164-161
صحراء "البطيخ". انظر بطيخ
ويتا كبير، 296، 298
ويتا صغير، 296، 298
الطقس 92، 98، 99
الوحدة. انظر قصر الوحده
الآبار. انظر الزراعة
العشب الذي تهب عليه الرياح، 96، 97
مغرفة الرياح، 123
ملاجئ الرياح، 116، 117
الرياح 97، 299، 300، 306، 307، 310 ؛ تأثيرها في الصحراء 310-307
ويصا، دكتور، 146-144
الذئاب، 281، 288
خشب متحجر 90
يم عاشوراء، مراسم يوم العاشر من محرم، 256، 257
يوسف افندي، اليوسفي، 49
زابيت، ضابط شرطة
قبيلة الزغاوة 297
زيان. انظر القصر
زاوية، دير، 20
« في عين الشيخ مرزق، 225، 230
" في هندو، 238"
‹ في قصر الدخل 40، 60 64-، 134، 144، 145، 229، 242
" في قصر الفرافرة 223، 228، 229
" في سمينت، 40، 154، 184"
زفة العروسة، موكب العروس، 252، 253
زمزمية، كيس ماء، 132
واحة زرزورة، 54-51، 57، 58، 63، 75، 76، 78، 100، 101، 128، 145، 299، 304
الدراويش الزيانية، 20، 182
قبيلة الزوازي 330
ضوء البروج 307
قبيلة الزوية 330

****

الحواشي:

[1]نفل الكسندرينوم، ل.

[2]ميديكاغو ساتيفا (لوسيرن).

[3]أردًب = 300 رطل

[4]فلاح وادي النيل أو الواحة.

[5]"الصحراء الليبية من معلومات السكان الأصليين"، مجلة الجمعية الملكية البريطانية، سبتمبر 1913.

[6]"رحلات في الصحراء الليبية"، مجلة الجمعية الملكية البريطانية، فبراير 1912.

[7]"منخفض الفرافرة وبو منقر حطية "، RGSJ، نوفمبر، 1913.

[8]"منخفض الفرافرة وبو منقر حطية،" RGSJ، نوفمبر 1913، الصفحات من 455 إلى 461.

[9]"رحلات في الصحراء الليبية"، مجلة الجمعية الملكية البريطانية، فبراير 1912.

[10]انظر مجلة الجمعية الملكية البريطانية للتاريخ الطبيعي "طبيعة وتكوين تموجات الرمال والكثبان الرملية"، مارس 1916، ص 209-189. "دراسة حزام الكثبان الرملية"، يناير 1918، ص 33-16. مناقشة حول الورقة الأخيرة، أبريل 1918، ص 258-250.

[11]"عادات وخرافات وأغاني الواحات الغربية"، القاهرة، أغسطس 1914.

[12]"الري في واحة الداخلة"، RGSJ، نوفمبر، 1917.

[13]"التوزيع الجغرافي لبعض نباتات الصحراء الليبية"، القاهرة، أكتوبر 1913.

[14] كالوتروبيس بروسيرا .

[15]مالفا بارفيفلورا، ل.

[16]ص 146.

[17]ص262.

[18]"صحاري أمريكا الشمالية". البروفيسور دي تي ماكدوجال، مجلة الجمعية الملكية للعلوم، المجلد التاسع والثلاثون، العدد الثاني.

[19]"مشاكل الاستكشاف: أفريقيا". بقلم ف. ر. كانا، مجلة الجمعية الملكية البريطانية

للتاريخ الطبيعي، نوفمبر 1911، ص 464.

[20]انظر أيضًا "الصحراء الليبية من المعلومات الأصلية"، مجلة الجمعية الملكية البريطانية، سبتمبر 1913.

[21]وقد أظهرت ملاحظات حسنين بك أن موقع رولفس بالنسبة لبوما في الكفرة كان خاطئًا بحوالي خمسة وعشرين ميلاً.

[22]انظر الملاحظة على الصفحة 319.

[23]"كثبان الرمال في الصحراء الليبية." بقلم إتش إل بيدنيل، المجلد الخامس والثلاثون، ص 383

[24]ص 96.

[25]انظر ص 90.

[26]"لاحظ بعض المحطات الجديدة، أو البسيطة، من أرصفة صحراء الصحراء،" بقلم MQBM Flamand.

[27]واديجتون وهانبيري، "مذكرات زيارة إلى بعض أجزاء من إثيوبيا"، 1882. نشرها جون موراي، شارع ألبمارل، لندن، 268.

[28]أوريك بيتس، "مدافن البدو في مرماريكا." "الرجل،" المجلد. الثاني عشر. رقم 10.

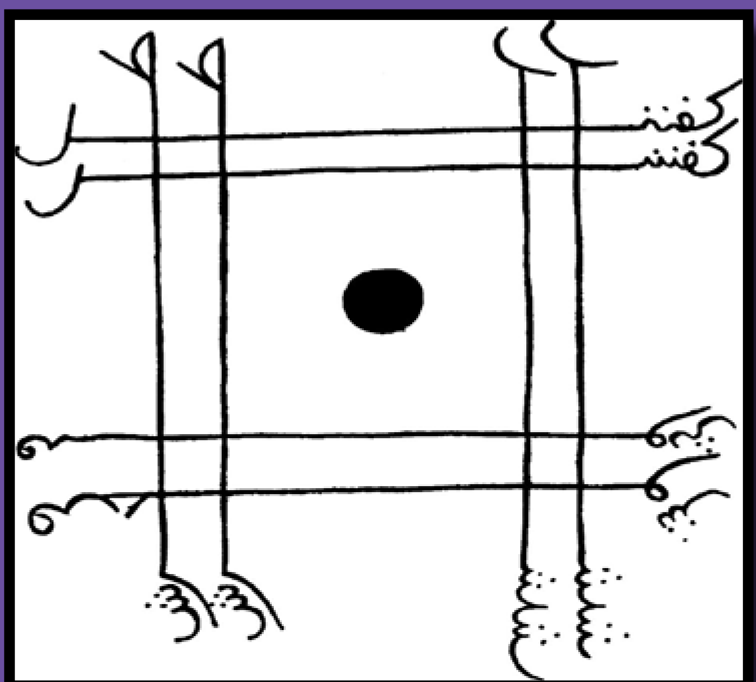
[29]"Note sur quelques station nouvelles, ou peu connu, de pierres écrites du Sahara"، بقلم GMB Flamand، ص. 9.

[30]مشار إليه من قبل GBM Flamand، المرجع السابق.

****

وكان من بينهم الشيخ العفريت من سمنت. كان شديد التكلف في أسلوبه، وكان يخاطبني دائمًا بقوله: «يا حضرت البيه». لقد أعطاني الكثير من المعلومات حول العفاريت. كان يتحدث بلهجة رجل لديه خبرة مدى الحياة في هذا الأمر. وقال إنه من المهم للغاية استخدام النوع الصحيح من البخور عند استدعائهم، لأنه إذا تم استخدام النوع الخطأ، فإن العفريت دائمًا ما يغضب ويقتل الساحر - يبدو أنها مهنة خطيرة.

أخبرني بالكثير من المعلومات من نفس النوع، وأعطاني عددًا من الأمثلة على لقاءات مع العفاريت لتوضيح ملاحظاته. ومن بينها ذكر (بشكل عرضي تمامًا) أن العفريت كان هو الذي أضل «قوي». كان هدف زيارته على ما يبدو هو طرح هذا الرأي، بصفته ساحرًا متمرسًا، أمامي، لأنه غادر بعد ذلك مباشرة تقريبًا.



LIBYAN WORD BRIDGE Translation